

حسام عبد الكريم

معهود معاوية

خلفيات الفتن الكبرى - عهد عثمان

1



دراسة في المصادر الإسلامية

معهد كافي
مركز الدراسات الإسلامية

1



الأهلية للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأول (التوزيع)

المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، وسط البلد، بناه 12

هاتف 00962 6 4638688، فاكس 00962 6 4657445

ص.ب: 7855 عمان 11118، الأردن

f: AlAhliaBookstore

alahlia_bookstore

الفرع الثاني (المكتبة)

عمان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناه 34



صعود معاوية: دراسة في المصادر الإسلامية / ناربع

(الجزء الأول)

خللتات الفتنة الكبرى / مهدي عثمان

حسام عبد الكريم / الأردن



الطبعة العربية الأولى، 2019

حفل الطبع محفوظة



تصميم الغلاف: زهير أبو شبيب، عمان، هاتف 00962 7 95297199



الصفحة الأولى: إيمان زكريا خطاب، عمان، هاتف 00962 7 95349156

لوسة الغلاف: الرواسطي، نراث عربتي



All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر.

الأردن التي يتضمنها هذا الكتاب لا تشير بالضرورة من وجهة نظر الناشر

الترقيم الدولي: 8 - 904 - 09 - 6589 - ISBN 978

دار الفکر للطباعة والنشر

حسام عبد الكريم

معوذ معاوية

خلفيات الفتن الكبرى - عهد عثمان

1

دراسة في المصادر الإسلامية



المقدمة

هذا هو الجزء الأول من كتاب يبحث في أحداث قضية كبيرة في تاريخ صدر الإسلام، ويتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) الى سنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). ولكن هذا ليس تاريخاً لتلك الفترة الزمنية، بل هو بحث تاريخي فيها. أي أن الأحداث والوقائع المغطاة في هذا البحث هي تلك فقط التي لها علاقة بالفتنة الكبرى، وهي متقاة من بين أحداث أخرى في ذات الفترة لم يكن لها ارتباط بموضوع الكتاب.

فهذا العمل بحثٌ وتنقيبٌ في أمهات الكتب والمصادر الأصلية للتاريخ الاسلامي. وقد قمتُ بمقارنة كيف روي الخبر الواحد في المصادر المختلفة وملاحظة الاختلاف أو الاتفاق فيما بينها. وحرصتُ على إثبات النصوص كما وردت في مصادرها بدقة متناهية وبدون تصرف. وتركْتُ للقارئ الفرصة للنظر فيها وفهمها وهي بلختها القديمة.

فمن أجل الوصول الى الحقيقة التاريخية كان لا بد من البحث والتحقيق والمقارنة بين المصادر وتحليل الأخبار وربطها بظروفها الموضوعية من أجل الاستقرار على الخبر الصحيح. وكان لا بد من الربط بين الوقائع وتسلسلها وتتابعها ودراسة خلفياتها.

وهذه مهمة صعبة بالنظر الى كثرة الروايات واختلاف التفاصيل، فكان لا بد أن يكون منهج البحث علمياً عقلانياً يأخذ بعين الاعتبار الإمكانية التاريخية للحدث ويتمتع في الأزمان والتواريخ والبلاد والاسماء. وفي أكثر

الأحيان تكون الحقيقة موزعة بين شتى الروايات بحيث تكمل بعضها بعضاً. فمن النادر أن تكون رواية بعينها تروي غليل الباحث عن الحقيقة تماماً، بل الأغلب أن تكون حتى أصح الروايات بحاجة إلى ما يكملها أو يوضحها أو يغطي جوانب الضعف والنقص فيها. وهناك فرق بين قبول الروايات التي تتعلق بمجمل سير الأحداث، وبين قبول تفاصيلها. فمن الممكن أن تكون الرواية مقبولة في إطارها العام ولكن بعض تفاصيلها مغلوطة أو مكذوبة. وهذا الأمر يبرز كثيراً عند تناول الوقائع التاريخية الكبرى حيث هناك في الأغلب اتفاق على مجمل مسار الأحداث، مع اختلاف في التفاصيل وفي الأقوال المنسوبة للشخصيات المعنية بتلك الأحداث. والنتيجة أنه من الجائز قبول جزء من رواية ما، وعدم قبول جزء آخر منها. وطبعاً يمكن قبول روايات من مصدر ما ورفض روايات أخرى من نفس المصدر. فالانتقائية مسموحة، بل ويمكن القول إنها مطلوبة في السعي من أجل التخلص مما علق بالروايات من شوائب التشويه ورواسب تزيف بعض ذوي الأهواء أو مبالغات الرواة وأخطائهم. ومن اليديهي القول أنه لا يجوز التسليم الكامل بصحة كل ما ورد في أي مصدر من مصادر الحديث أو السيرة أو التاريخ، مهما بلغ ذلك المصدر من الشهرة والذيع. ولا ينبغي أن يكون هناك حرج في الإشارة إلى ما يعتري بعض جوانب الكتب المشهورة من خلل أو وهن. ولا يعني ذلك بالضرورة قدحاً في مؤلفيها أو أو تهويناً من شأن الجهود الجبارة التي بذلوها.

إنصاف المؤرخين

وأرغب هنا في تأكيد عظمة الدور الذي لعبه المؤرخون والإخباريون في حفظ التراث التاريخي العربي. فهؤلاء هم الحافظون للذاكرة الجماعية لأمة العرب ولولاهم لما كان هناك تاريخ إسلامي قط. ولولا تلك الطبقة من الرواة الأوائل، الذين نجعل الكثيرين منهم، لحصلت قطيعة مع الماضي ولما وجدنا هذه المادة التاريخية الغزيرة التي نراها في كتب الطبري والبلاذري وغيرهما. كان هناك مجهود حقيقي كبير لجمع وتدوين وتوثيق المادة التاريخية بدأت أرهاصاته في القرن الأول الهجري ثم يلبث أن تطور وتقدم على أيدي

محترفين ومتخصصين في القرن الهجري الثاني، الى أن بلغ ذروته مع عمالة القرن الثالث. وهذا كله مجهود ينبغي أن يُشكر ويُحمد.

إلا أن تراثنا الاسلامي قد اولى مكانة كبيرة وبارزة للمحدثين والفقهاء. وهؤلاء كانوا يميلون على الدوام الى التقليل من قيمة المؤرخين، بل وازدراؤهم ومقتهم. وفي هذا ظلم كبير.

فعلم الاسناد والحديث والجرح والتعديل، رغم أهميته وعظمته، لا يجوز اعتماده معياراً لعلم التاريخ بل ينبغي حصره في نطاقه الديني والشرعي. واما فيما يتعلق بالتاريخ فإن البحث في أسانيد الروايات، والتركيز فقط على ذلك من أجل اعتمادها لتكون مقياساً وميزاناً نهائياً للحُكم على صحتها، خطأ جسيم لأنه سيؤدي إلى الانغلاق في حدود نصوص قليلة جداً لا تكفي حتى للإحاطة بالتصوّر العام لأحداث السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام. وستضيق بسبب ذلك نصوصٌ صحيحة لم يتيسر لها سندٌ يعرفه المحدثون أو الإخباريون. فالكلم الأكبر من الروايات التاريخية التي وردت في أمهات الكتب لا يجوز أن تخضع لمعايير علماء الجرح والتعديل وشيوخ علم الرجال. ولا يجوز إهمال الذاكرة الجمعية للشعوب والأمم والتي استوعبت ووّعت عدداً كبيراً مما شاع من أخبار، تناقلتها الأجيال وسجلها المؤرخون. فالأحاديث النبوية يترتب عليها في الغالب أحكام شرعية أو انها تتعلق بأصل الدين ولذا فمن المنطقي - بل والضروري - أن يعرف المحدثُ تسلسلَ روايتها ويتأكد من أهليتهم الدينية. وليس ذلك حال الأخبار التاريخية.

كما ان الضوابط والمعايير التي وضعها علماء الجرح والتعديل لقبول الرواة تتضمن بُعداً مذهبياً واضحاً. رغم انه لا خلاف على أهمية صفات الصدق والأمانة في النقل لدى رواة الأحاديث والسير والأخبار، إلا أن اشتراط أن يكون الراوي من المؤمنين بمقولاتٍ ومعتقداتٍ مذهبية معينة، أدّى عملياً إلى ردّ ورفض الكثير من الروايات الصحيحة التي يوجد في أسانيدِها بعضٌ من لم يَرَهُ المحدثون المتعصبون أهلاً للرواية لا بسببٍ يتصل بأمانته وصدقه، بل بسبب عدم اتفاقه مع بعض آرائهم في أمورٍ مذهبية. وهنا منبع الاتهام بالتشيع

الذي كان كثيراً ما يوجه إلى المؤرخين. وقلما نجا أحد من رجال علم التاريخ والأخبار من الاتهام بالتشيع من قبل أهل الفقه والحديث. فطالت تلك التهمة أبا مخنف وهشام الكلبي والواقدي وابن اسحق واليعقوبي ونصر بن مزاحم والمسعودي وابن أعمش وغيرهم الكثيرين. وحتى الامام الطبري - وهو الذي أشاع في كتابه قصص ابن سبأ وروّج لمرويات سيف بن عمر المعادية لكل ما هو شيعي - اتهم بالتشيع من قبل الحنابلة وعانى الكثير من جراء ذلك في بغداد. فأوساط المحدثين والفقهاء لم تكن ترتاح لمن يتصدى للحديث عن أخبار الفتنة الكبرى والحروب الأهلية الكبيرة التي حدثت بين المسلمين في النصف الأول من القرن الهجري الأول. وحين يصل الكلام إلى الحديث عن الخلافات بين كبار الصحابة ودورهم في أحداث الفتنة الكبرى تبلغ حساسية المحدثين والفقهاء ذروتها ويصبحون كمن يخوض معركة للدفاع عن ذاته فالمحدثون والفقهاء تبنا نظرية عدالة كل الصحابة وروّجوها، وهي التي ترفع من مقام الصحابة إلى ذرى سامقة وتمنحهم نوعاً من العصمة والحصانة ضد النقد وتحولهم إلى شخصيات دينية غير تاريخية. فلا تريد أوساط المحدثين والفقهاء أن تسمع شيئاً عن صراعات كبار الصحابة لأنها تمسك بالصورة التي تخيلتها وارتضتها لمجتمع الصحابة المثالي وشخصياته المتحابة المضحية المتفانية في خدمة الدين. فإذا قرر المحدثون والفقهاء إقفال باب البحث والنقاش فيما جرى، حتى لو كان ذلك على حساب الحقيقة. ولذلك كانوا ينظرون شرراً لأهل الأخبار والتاريخ، ويهاجمونهم ويضعفونهم ويتهمونهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

فالمشكلة إذن ليست من لدن الإخباريين والمؤرخين بل هي مسألة مبدأ لدى أهل الفقه والحديث، الذين لن يرضوا عنهم إلا إذا تركوا علمهم جملة وتفصيلاً، أو أنهم توقفوا عن موضوعيتهم وتحولوا إلى مروّجين لتاريخ متخيل وهمي تغيب فيه الحقيقة لحساب نظرية عدالة الصحابة كما يفهمها الفقهاء.

وحتى لو كان المؤرخ شيعياً فما الضير في ذلك؟ وهل الموضوعية والمصداقية والتحليل العقلاني حكراً على مذعب دون غيره؟ وهل كون

الكاتب «سنيّة» يمنحه ميزة ويجعله متفوقاً على نظيره «الشيعي»؟ هذه الأسئلة جديرة بالطرح نظراً إلى كثافة الهجوم على المؤرخين والتشكيك في جهدهم وعملهم العملاق.

والحق أنه حتى لو كانت هناك «ميل» شيعية في كتابات بعض أهل الأخبار والتاريخ، كأبي مخنف واليعقوبي ونصر بن مزاحم، فهي لا تعدو كونها تفصيلات هنا وهناك، أو تلوين للروايات إذا شئت، ولا تمسّ جوهر الحدث التاريخي. فؤلاء كانوا مؤرخين محترفين ولا يوجد في كتاباتهم أي نوع من «المحاجبة» المذهبية. هم كانوا يريدون أن يخبروا، لا أن يبرهنوا. هم اهتموا بالحقيقة التاريخية، ولم يريدوا تلفيقها. وهم بالاجمال حافظوا على حد مقبول من الموضوعية. ولا بأس بعد ذلك إن كان للمؤرخ عواطف. فهؤلاء بشر ولا يمكن أن يكونوا محايدين تماماً في مشاعرهم إزاء أحداث صراع ملحمي وكبير. وفي مقابل الميل الشيعي لبعض أهل التاريخ والأخبار هناك «ميل أموية» عند البعض الآخر، وذلك أمر مفهوم ولا يقلل من مكانة علم التاريخ ولا أعلامه.

مصادر البحث

لقد لجأت إلى المصادر الأقدم والأقرب للأحداث. فكان جلّ الاعتماد على أعمال مؤرخي القرن الثالث الهجري. ويمكن تقسيم المصادر إلى رئيسية أساسية وثانوية مساعدة.

وعلى رأس المصادر الأساسية للمادة التاريخية يأتي بالطبع كتاب تاريخ الأئم والملوك للإمام الطبري (توفي عام 309 للهجرة)، الذي هو موسوعة تاريخية عظيمة حوّت شتى الروايات للأحداث بأسانيدھا وتفاصيلھا. ولا يقل شأناً عنه المصدر الموسوعي الآخر وهو البلاذري (توفي عام 279 للهجرة)، وكتابه أنساب الأشراف. ويختلف كتابا الطبري والبلاذري في الشكل والتصنيف، فالأول كتاب تاريخ عام اعتمد مبدأ التسلسل الزمني للأحداث بينما ألف البلاذري كتابه ليكون كتاب أنساب يتعرض فيه للشخصيات وسيرتها. وخلال ترجمته للشخصيات التي أوردها بحسب درجة قربتها من رسول الله (ص) قدم البلاذري تاريخاً كاملاً وافيّاً لصدر الإسلام. ورغم ذلك

الاختلاف الظاهري يشترك كتابا الطبري والبلاذري في غناهما الهائل بتفاصيل المادة التاريخية. ويمتاز هذان المؤرخان بالشمولية والتزعة الموسوعية، الى حد تسجيل الحركات والفتنات واللمحات، فضلاً عن الكلمات والمواقف والحوادث، بدقة متناهية واستيعابٍ لا نظير له. ولذلك يمكن اعتبارهما ذروة التاريخ المدون لصدر الاسلام.

ويستقي الطبري والبلاذري مادتهما التاريخية من مصادر أقدم مكتوبة ولكن لم تصلنا إلا من خلالهما. وتعود هذه المصادر الى مؤرخين وإخباريين مهمين عاشوا في القرن الثاني الهجري. كانت لهؤلاء مؤلفات عديدة تناولت بتركيز شديد كل جوانب أحداث النصف الأول للقرن الهجري الأول. تلك الطبقة تضم سيف بن عمر (لدى الطبري) الذي توفي عام 180 للهجرة، وأبا مخنف لوط بن يحيى (توفي عام 157 للهجرة)، وأبا عبد الله الواقدي (توفي عام 207 للهجرة)، ومحمد بن شهاب الزهري (توفي عام 124 للهجرة)، وعلي بن محمد المدائني (توفي عام 225 للهجرة)، وهشام الكلبي (توفي عام 204 للهجرة)، وعوانة بن الحكم (توفي عام 147 للهجرة)، ومحمد بن اسحق (توفي عام 150 للهجرة)، والهيثم بن عدي (توفي عام 206 للهجرة). كان هؤلاء بمؤلفاتهم في مجال الأخبار والأنساب والفتوح والمغازي والسير المصدر المكتوب الأساسي الذي استند اليه المؤرخان الموسوعيان الحافظان الكبيران الطبري والبلاذري.

وهؤلاء بدورهم يرجعون الى طبقة أقدم من أهل الأخبار، من القرن الهجري الأول. وأشهر هؤلاء هو عامر الشعبي (توفي عام 105 للهجرة) الذي يمكن اعتباره شيخ أهل العلم في زمانه، ومحمد بن سيرين (توفي عام 110 للهجرة). ولا ينسى إبان بن عثمان بن عفان (توفي عام 105 للهجرة) وعروة بن الزبير (توفي عام 94 للهجرة)، رغم شهرتهما في مجال السيرة. وقد قام الشعبي وغيره بجمع الأخبار والروايات والمأثور التاريخي الشفهي والمنقول من جيل لآخر والمتداول في أوساط القبائل العربية التي شارك أسلافها في أحداث الفتنة الكبرى. فالشعبي معبرٌ عن الذاكرة الجماعية الأكثر قدماً والتي بدورها تمثل هيكل الوقائع الأساسي. فبعض أساتيد أبي مخنف مدعشة في تسلسلها: الشعبي، مجالد بن سعيد، عبد الرحمن بن أبي الكتود، فضيل

بن خديج، أبو الجتاب الكلبي ثم يأتي شاهد العيان. فإذا أجيال المؤرخين واهل الأخبار تتالى وتواصل، حلقة فحلقة، وطبقة فطبقة، الى أن نصل الى الحافظين الكبار من أهل القرن الثالث الهجري.

ولكن هناك إشكالاً بخصوص مصادر الطبري المتعلقة بأخبار الفتنة الكبرى. فرغم تنوع مصادر رواياته إلا أن الفترة الأولى من أحداث الفتنة الكبرى - زمان الخليفة عثمان بن عفان - تميزت بإفراطه في الاعتماد على مصدر بعينه: سيف بن عمر. فلو أحصينا⁽¹⁾ رواياته عن أحداث زمان الخليفة عثمان لوجدناها كما يلي:

سيف بن عمر: أخذ عنه 97 رواية

الواقدي: أخذ عنه 59 رواية

الزهرى: أخذ عنه روايتين

المدائني: أخذ عنه 8 روايات

وهشام الكلبي: أخذ عنه روايتين

فالامام الطبري قرر كما هو ظاهر من هذه الأرقام اعتماد روايات سيف كمصدر رئيسي لأخبار فترة خلافة عثمان، وهنا الإشكالية. فسيف بن عمر التميمي - رغم غزارة رواياته - مصدر لا يمكن الاطمئنان اليه. وينظري فإن الإمام الطبري ارتكب خطأ جسيماً حين أثبت روايات سيف في تاريخه وبالتالي صار مسؤولاً عن شيوخ الكثير من الأفكار الخاطئة - بل والغريبة الشاذة - حتى يومنا هذا. ولكن موضوع سيف بن عمر طويل ويحتاج بحوثاً مستقلة وهو يرتبط بقصص عبدالله بن سبأ الخرافية ونظريات التأمر اليهودي. ولستُ بصدد بحث ذلك بالتفصيل هنا. ولمن شاء أن يراجع ما كتب حول ابن سبأ وسيف بن عمر من أبحاث قيمة⁽²⁾.

(1) احصاء الروايات هنا مأخوذ من كتاب «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعبدان ملحم، ص 69-77.

(2) مثلاً: كتاب «عبد الله بن سبأ» لمرتضى العسكري، وكذلك كتابات حسن بن فرحان المالكي «نحو افتقاد التاريخ الاسلامي» ومع د. سليمان العودة في عبد الله بن سبأ. وأيضاً يراجع كتابنا «فريش وعلي».

وأنا رغم اعتراضي على مجمل روايات سيف بن عمر واعتقادي بأنه كان يعتمد تلقين رواياته لخدمة خطه العقائدي والمذهبي إلا أنني تمايلت مع هذه الروايات التي يزرع بها تاريخ الطبري. فلم أعرض عنها بل بذلت جهداً في نقدها وتوضيح مكامن الخلل فيها وتناقضاتها .

وأما البلاذري فقد كان أكثر توازناً في مصادره عن فترة حكم عثمان. وهنا الإحصائية :

الواقدي: أخذ عنه 62 رواية

أبو مخنف: أخذ عنه 36 رواية

الزهري: أخذ عنه 16 رواية

عروة بن الحكم: أخذ عنه 6 روايات

المدائني: أخذ عنه 42 رواية

وهشام الكلبي: أخذ عنه 14 رواية

الهشيم بن عدي: أخذ عنه 5 روايات

أي أن الواقدي هو المشترك بين الطبري والبلاذري فيما يتعلق بهذه المرحلة التاريخية. والملاحظ أن اعتماد الطبري على روايات سيف سوف ينتهي بعد معركة الجمل وقيل معركة صفين، حيث تحول بعدها إلى الاعتماد على أبي مخنف والآخرين. أي أن الطبري يميز بين مصادره، فلكل مرحلة تاريخية ما يناسبها عنه.

ورغم عدم شهرته⁽¹⁾ إلا أن كتاب تاريخ المدينة لابن شبة النعمري (توفي عام 262 للهجرة) مصدرٌ رائع لأحداث عهد الخليفة عثمان. وهو يحتوي كما مدهشاً من الروايات التي تتناول الأحداث التي وقعت في عهده والنهاية

(1) يعود ذلك إلى تأخر العثور على مخطوطته إلى أواخر القرن الرابع عشر الهجري. فقد ذكر حبيب محمود أحمد أنه عثر عليها في مكتبة المرحوم محمد مظهر الفاروقي في المدينة المنورة فعهده بتحقيقها إلى فهم محمد شلتوت. كتب ذلك في مقدمة الكتاب بتاريخ ذي الحجة 1402 للهجرة.

الاليمة التي لقيها. ولعله لا يوجد نصّ قديم عالٍج حياة عثمان والمجتمع المدني وأحداث الفتنة بمثل تلك الدقة والتوسع الموجودة في كتاب ابن شبة هذا، مما يجعله من أهم المصادر الأصلية المتاحة للباحث. ومما زاده تألقاً أن المؤلف يورد أخباره بإسنادٍ كامل إلى أن يصل شاهد الحادثة أو سامعها أو ناقلها. ولكن الكتاب ينتهي عند مقتل عثمان ولا يتناول ما بعد ذلك.

وأما كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (توفي عام 230 للهجرة) فهو قديم ومشهور. ورغم أنه في الأساس كتاب في علم تراجم الرجال إلا أنه يمكن اعتباره مصدراً مميّزاً لتاريخ صدر الاسلام من خلال ما حواه من أخبار وروايات مسندة عن أحداث الفتنة في سياق استعراضه لشخصيات الصحابة وحياتهم.

وهناك كتاب الفتح لابن هشام الكوفي (توفي عام 314 للهجرة). وهو مما تأخر اكتشافه وتحقيقه. ولكنه يحتوي روايات مفصلة وكثيرة عن أحداث الفتنة. ويخالف المصادر الأساسية التي ذكرناها يعتمد مؤلفه أسلوب الاسناد الجمعي حيث يذكر أسماء من وصله الخير عن طريقهم مرة واحدة ثم يعلن كيفية تدخله فوجد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثاً واحداً على نسق واحد. وتضم مصادره أبو مخنف والواقدي والشعبي وحفيد عبد الرحمن بن عوف وغيرهم.

واختلف كتاب تاريخ اليعقوبي (توفي عام 284 للهجرة) عن غيره من المصادر الرئيسية بتركه للاسناد التفصيلي للروايات التاريخية. كما تميز بتزعة للاختصار والتلخيص مما قلل من شأنه كمصدر بالقياس إلى الطبري والبلاذري.

وقد أوضح منهجه بقوله «ولم نلعب إلى التفرّد بكتاب نصنفه ونتكلف منه ما قد سبقنا إليه غيرنا، لكننا قد فهِمنا إلى جميع المقالات والروايات لأننا قد وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم وفي السنين والأعمال، وزاد بعضهم ونقص بعض، فأردنا أن نجتمع ما انتهى إلينا مما جاء به كل امرئ منهم لأن الواحد لا يحيط بكل العلم»

وقد أجمل ذكر مصادره كما يلي «وكان من رويتا عنه ما في هذا الكتاب: إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي عن أشياخ بني هاشم، وأبو البخري وهب بن وهب القرشي عن جعفر بن محمد وغيره من رجاله، وأبان بن عثمان عن جعفر بن محمد، ومحمد بن عمر الواقدي عن موسى بن عقبة وغيره من رجاله، وعبد الملك بن هشام عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق المظلي، وأبو حسان الزياتي عن أبي المنذر الكلبي وغيره من رجاله، وعيسى بن يزيد بن دأب، والهيثم بن عدي الطائي عن عبد الله بن عباس الهمداني، ومحمد بن كثير القرشي عن أبي صالح وغيره من رجاله، وعلي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني، وأبو معشر المني، ومحمد بن موسى الخوارزمي المنجم، وما شاء الله، الحاسب في طوابع السنين والأوقات. وأثبتنا عن غير هؤلاء الذين سمينا جملا جاء بها غيرهم ورواها سواهم وعلمنا ما من سير الخلفاء وأخبارهم، وجعلناه كتابا مختصرا، حلقنا منه الأشعار وتطويل الأخبار»

وعند تناول معركة صفين وما جرى بها لا يمكن تجاهل كتاب «وقعة صفين» لتصر بن مزاحم المقرئ. فهو كتاب متخصص بهذا الحدث الكبير وقد أودع فيه مؤلفه (وهو من المصادر القديمة - توفي سنة 212 للهجرة) تفاصيل كثيرة جدا عن القتال و المعارك، والمساجلات والمراسلات، والأشعار والخطب، وكل ما يتعلق بتلك الحرب. والكتاب به نفس ملحمي، وهو بالتالي ميال إلى المبالغات وبراعة التصوير، ولكنه غني بالمادة التاريخية. ومن مزياء أيضا اعتماد مؤلفه على مصدر قديم غير أبي مخنف والواقدي: عمر بن سعد الأسدي والذي جاءت رواياته بشكل عام غير متناقضة مع رواياتهما.

وكذلك يعتبر كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (توفي سنة 282 للهجرة) من المصادر المفيدة للباحث كونه يحتوي تفاصيل كثيرة عن حربي الجمل وصفين واغتيال علي وتنازل الحسن لمعاوية. ولم يثن مؤلفه بذكر اساتيد رواياته بل اعتمد أسلوب انتقاء الأخبار التي وجدها من المصادر

القديمة وقال «وجدتُ في كتب أهل العلم بالآخبار الأولى» ثم يترسل بالسرد. ولم يذكر أسماء مصادر رواياته إلا قليلاً، ومنهم الشعبي والكلبي والهيثم بن عدي.

وأما المصادر المساعدة فهي كثيرة. وأهمها كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر (والذي هو عملٌ موسوعي ضخم ومفيد، إلا أن مؤلفه من المتأخرين)، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، والبداية والنهاية لابن كثير والامامة والسياسة لابن قتيبة (رغم أن هناك شكاً في صحة نسبة الكتاب إليه) والفتاوى لابن حبان وكتب تراجم الرجال وخاصة أسد الغابة لابن الأثير والاستيعاب لابن عبد البر وتاريخ خليفة بن خياط (الذي هو قديم ولكنه مختصر).

وقد أوليتُ عناية خاصة لابن كثير وروايته وآرائه، لكونه يمثل اتجاهًا واضحاً متحازاً للخليفة عثمان ولبنى أمية بشكل عام. فيمكن القول إنه المؤرخ الرسمي للحكام ولمؤسسة الخلافة برمتها. ويقترب من خطه الإمام الذهبي في كتابيه سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام.

وهناك مصادر هامشية لجأت إليها لتدعيم روايات أو إكمالها مثل الإصابة لابن حجر ومروج الذهب للمسعودي وتاريخ ابن خلدون.



وقد قررتُ أن أسمي هذا الكتاب «صعود معاوية» نظراً لما في ذلك من غواية تصل إلى حد العجب: إذ كيف يصل رجلٌ من الطلقاء إلى رئاسة دولة الرسول (ص) وهم الذين أصرّوا على الصمود في معاداته ومعاداة دعوته إلى الرق الأخير؟ كيف يتجاوز المهاجرين والانصار الذين صنعوا ملحمة الإسلام بدمائهم وتضحياتهم وصبرهم؟ ما الذي جرى حتى يمكن لرجلٍ يحمل تلك الصفة «طلق» أن يصعد إلى القعة ومن ثم يؤسس لعرشي عائليّ تتوارثه سلالته؟ الجواب على هذه التساؤلات الكبيرة هو: «الفتنة الكبرى» وأحداث الفتنة الكبرى، وهي موضوع هذا الكتاب.

ويتكامل هذا العمل مع جزئين تالين لأعطي بقية الملحمة :

«عليّ وعلقمة ... حرب الجمل»

و

«صلين» الخوارج ... ونهاية عليّ»

وأتمنى ان أكون قد وفقتُ في ما كتبتُ، وأن يكون هذا الكتاب إسهاماً
في جلاء الحقيقة التاريخية لمن يسمى لها.

حسام عبد الكريم

آب 2018

الجزء الاول:

سياسات الخليفة عثمان بن عفان

الفصل الأول: قضية عبيد الله بن عمر⁽¹⁾

مشكلة تواجه الخليفة في يومه الأول

كانت أول مشكلة واجهت الخليفة عثمان وتطلبت منه قراراً هي ما حصل من عبيد الله بن عمر بن الخطاب.

والظاهر ان عبيد الله هذا كان شاباً قوياً متهوراً. وبخلاف أخيه عبد الله الذي اشتهر بالعبادة والهدوء، يبدو أن هناك شكاً حول حسن أخلاقه منذ صغره. وقد ذكر محمد بن حبيب البغدادي في كتاب «المنطق في أخبار قرش» أن أباه عمر كان أقام عليه حد الخمر.

الوقائع

فقد اندفع عبيد الله بن عمر للنثار من عدد من الأشخاص الذين اعتقد أنهم ساعدوا أبا لؤلؤة في قتل والده. وبدون أي تمحيص أو تدقيق أو تحقيق. فابتدأ بقتل الهرمزان، وهو كان من القيادات الفارسية وقد أشهر إسلامه في زمان عمر، ثم أتى جفينة، وكان نصرانياً من أهل الحيرة، فقتله. ثم أتى منزل أبي لؤلؤة فقتل ابنة الصغيرة.

وليس هناك اختلاف يذكر بين المؤرخين وأصحاب الأخبار بشأن ما قام به عبيد الله من قتل. ولكن هناك تأويلات وتبريرات لما فعله، تبعاً لميول الرواة.

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لأبن سعد (ج3 ص15-17)، تاريخ الطبري (ج3 ص302-303)، تاريخ الطبري (ج2 ص163)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبن عبد البر (ص461)، أسد الغابة لأبن الأثير (ج3 ص342-343)، البداية والنهاية لأبن كثير (ج7 ص167)، والمنطق في أخبار قرش لمحمد بن حبيب البغدادي (ص395).

فمثلاً قال ابن كثير في «البداية والنهاية» عن الخليفة عثمان «وأما أول حكومة حكم فيها قضية عبيد الله بن عمر، وذلك انه غدا على ابنة ابي لؤلؤة قاتل عمر، فقتلها. وضرب رجلاً نصرانياً يقال له جفينة بالسيف فقتله. وضرب الهرمزان الذي كان صاحب تشر فقتله.

وكان قد قيل انهما مالا أبا لؤلؤة على قتل عمر. والله أعلم»

وروى ابن الأثير في «أسد الغابة» انه بعد دفن عمر «قيل لعبيد الله: قد رأينا أبا لؤلؤة والهرمزان نجياً، والهرمزان يقلب هذا الخنجر بيده، وهو الذي قتل به عمر، ومعهما جفينة وهو رجل من العباد جاء به سعد بن ابي وقاص يعلم الكتاب بالمدينة، وابن فيروز، وكلهم مشرك إلا الهرمزان.

فعدا عليهم عبيد الله بالسيف فقتل الهرمزان وابنته وجفينة. فنهاه الناس فلم يتردد وقال والله لأقتلن من يضفر هؤلاء في جنبه....»

وقد ذكر ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عدة روايات عن الواقدي كلها تشير الى قيام عبيد الله بقتل الهرمزان وجفينة والبنت الصغيرة. وبعضها يقول ان عبيد الله في هياجه أراد ألا يترك سيئاً في المدينة يومئذ إلا قتله «لولا قيام عمرو بن العاص وسعد بن ابي وقاص وعثمان بن عفان بالسيطرة عليه وانتزاع سيفه وتهديته

موقف عثمان تجاه القاتل

سبب ما قام به عبيد الله مشكلة حقيقية وحرماً بالغاً للمخليفة الجديد. فالقاتل هو ابن الخليفة المغدور. وعمر بن الخطاب له مكانة رفيعة وعظيمة في نفوس المسلمين الذين لم يكونوا بعد استفاقوا من صدمة اغتياله.

ولكن ما فعله عبيد الله كان فظيلاً. فهو ارتكب جريمة بشعة تمثلت بقتل ثلاثة أشخاص من بينهم طفلة، على الظن ودون أي محاكمة. والهرمزان كان مسلماً. وعلى الرغم من أن البعض قد يشكك في مدى إخلاص ذلك القائد الفارسي الذي دخل الاسلام، إلا أنه لم يصدر منه ما يتناقض مع واجباته كمسلم.

فالحكم الشرعي بحق عبيد الله معروفٌ إذن: الاعدام. فالقاتل يقتل، إلا أن يعفو أولو الدم.

ولكن ماذا يفعل عثمان؟ هل ينفذ حكم الشرع بعييد الله بن عمر؟ هل يأمر بقتله؟

أم هل يتغاضى عنه على اعتبار أن ما فعله كان فورة غضب وهياج؟ وهؤلاء المعتزلون كانوا من الموالي، وبالتالي ليس لهم قيلة تغضب لهم.

كان عثمان ميالاً بطبعه إلى الحل الثاني. فتكفي مصيبة قتل عمر، ولا داعي للإلحاق ابنه به. ولكن المشكلة كانت أن عثمان يرأس دولة الإسلام التي أسسها رسول الله (ص) قبل سنين قليلة على أساس العدل والحكم الإلهي. فهي ليست دولة أباطرة وأكاسرة، وعثمان بحكم منصبه كان «خليفة لرسول الله» وعليه أن يلتزم بما شرعه رسول الله. ولذلك كان عثمان غاضباً جداً على عبيد الله الذي وضعه في هذا الموقف الصعب: روى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عن محمد بن عمر (الواقدي) أن عثمان بن عفان كان يقول لعبيد الله «قاتلك الله! قتلت رجلاً يصلي وصية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله (ص). ما في الحق تركك»

قرر عثمان أن يجد مخرجاً شرعياً لقراره بالعفو عن ابن عمر:

فهو أولاً أراد أن يكون قراره مدعوماً بموافقة أغلبية المسلمين. فقام بجمع كبار القوم واستشارهم:

وروى الطبري في تاريخه وابن سعد في الطبقات الكبرى عن الزهري:
«فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا عليّ في هذا الذي فتن في الإسلام ما فتن.
فقال عليّ: أرى أن تقتله.

فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟
فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين: إن الله قد أحفك أن يكون هذا

الحدث كان ولك على المسلمين سلطان. إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

قال عثمان: أنا وليهم. وقد جعلتها دية. واحتملتها في مالي؟
إذن يقول عثمان انه يحكم منصبه كأمر للمؤمنين، يكون هو ولي الدم
لهؤلاء القتولين الذين هم من الموالى. وهو بتلك الصفة يعطي نفسه الحق
بالعفو.

وقد أكدت رواية ابن الأثير في «أسد الغابة» على هذا المعنى :
«وقيل: انه إنما تركه عثمان لأنه قال للمسلمين: من ولي الهرمزان؟
قالوا: أنت».

قال: قد عفوت عن عبيد الله.
ومعظم الروايات تذكر تدخل عمرو بن العاص لمساعدة الخليفة الجديد
في قراره.

قال ابن كثير في البداية والنهاية «وقال بعض المهاجرين: أَيْقَلَ ابْنُ
بِالْأَمْسِ وَيَقْتَلُ هُوَ الْيَوْمَ؟

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، قد بَرَكَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ. قضية لم
نكن في أيامك فدعها عنك».

وذكر ابن سعد في رواية كلمة عمرو بن العاص لعثمان «يا أمير المؤمنين،
إن هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك سلطان على الناس»

وروى ابن الأثير «... وقال جماعة منهم عمرو بن العاص: قتل عمرُ أَمْسُ
ويقتل ابنه اليوم! أهد الله الهرمزان وجفينة».

وللإنصاف تنبغي الإشارة إلى أن عثمان، بقراره العفو عن ابن عمر، كان
في الواقع يقترب من الشعور العام السائد في المدينة. وقد أشارت إحدى
روايات الواقدي في الطبقات الكبرى لابن سعد إلى جو الكآبة الذي غيم على
المدينة بسبب إشفاق الكثيرين من المسلمين من تطبيق عقوبة الإعدام بحق

عبد الله «وأظلمت الأرض يومئذ على الناس فعظم ذلك في صدور الناس وأشفقوا أن تكون عقوبة قتل عبيد الله جفينة والهرمزان وابنة أبي لؤلؤة». وذكرت إحدى الروايات أن قيام عثمان في النهاية بالعفو عن عبيد الله كان ناتجاً عن هذا الرأي العام «أن عثمان استشار المسلمين فأجمعوا على ديتهما ولا يقتل بهما عبيد الله بن عمر. وكانا قد أسلما وفرض لهما عمر»

وقام الخليفة بدفع الدية، بالنيابة عن القاتل، إلى ذوي المقتولين، كما في روايات الطبري وابن سعد وابن الأثير وابن كثير.

وأما العقوبي فلم يشر إلى دفع الدية. فقد ذكر في تاريخه أن الخليفة عثمان قد عفى عن القاتل، واكتفى بإبعاده من المدينة إلى الكوفة:

ثم أخرج عثمان عبيد الله بن عمر من المدينة إلى الكوفة، فأنزله داراً
فنسب الموضوع إليه: كوفية ابن عمر»

وكذلك لم يذكر ابن عبد البر في الاستيعاب دفع الدية صراحة. بل قال باختصار «أن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان بعد أن أسلم، وعفا عنه عثمان»

كما أن روايات الواقدي لدى ابن سعد «الطبقات الكبرى» لم تذكر أن عثمان احتمل الدية في ماله ولا أنه أرسل عبيد الله إلى الكوفة، ولم تشر إلى نص كلام عثمان بشأن قراره بالعفو.

موقف علي بن أبي طالب ومعارضة قرار العفو

أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى عدة روايات للواقدي تشير إلى معارضة علي بن أبي طالب للعفو عن عبيد الله وإصراره على تطبيق الحد الشرعي عليه:

«قال علي لعبيد الله بن عمر: ما ذنب بنت أبي لؤلؤة حين تلتها ١٤

فكان رأي علي حين استشاره عثمان، ورأي الأكابر من أصحاب رسول الله على قتله، لكن عمرو بن العاص كلم عثمان حتى تركه. فكان علي يقول: لو قدرت على عبيد الله بن عمرو لي سلطان لاقتصصت منه»

وقال ابن كثير في البداية والنهاية عن عثمان «كان أول ما تحوكم اليه في شأن عبيد الله».

فقال علي: ما من العدل تركه، وأمر بقتله».

وقد مرت بنا رواية الزهري لدى الطبري وابن سعد وفيها إشارة علي بقتل عبيد الله.

فبالنسبة لعلي: المبدأ هو الأساس. فحتى لو كان القتل من الفرس حديثي الدخول في الاسلام، أو حتى غير مسلمين، ليس في الدين ما يبرر قتل الناس على المظنة. وفي الشرع ليس الانفعال مبرراً للجريمة. وليس في الشرع ما يدعو لقتل الأطفال. فلا بد أن يعاقب عبيد الله على فعلته. وعلي يري أنه يجب التزام المبدأ الرسولي في أن لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى.

وقد أشار عدد من المؤرخين الى أن موقف علي تجاه ابن عمر كان من الأسباب التي دعت الأخير الى الالتحاق بمعاوية بعد حوالي 12 عاماً من تلك الحادثة، حين ولي علي الخلافة. ومن هؤلاء ابن عبد البر الذي قال في الاستيعاب عن عبيد الله بن عمر «... فلما ولي علي خشي علي نفسه فهرب الى معاوية، فقتل بصفين» وأيضاً ابن سعد في رواية للواقدي «وكان علي بن ابي طالب لما بويع له أراد قتل عبيد الله بن عمر فهرب منه الى معاوية فقتل بصفين».

ولكني لا أعتقد أن الامام علياً لما تولي الخلافة سنة 35 للهجرة قد أراد بالفعل أن يقتل عبيد الله بن عمر. لأنه ببساطة كان يواجه آنذاك من المشاكل والصعوبات، الكبيرة والخطيرة، ما يصرفه عن معالجة قضية قديمة لابن عمر، ليس لها طابع مُلح. ولكن هذا لا ينفي أن عبيد الله ربما يكون استسلم لمخاوفه وهواجسه تجاه علي فقرر عدم المخاطرة بالبقاء الى جواره.

واتفرد يعقوبي بالإشارة الى أن المقداد بن عمرو كان من المعارضين لقرار العفو. فقال في تاريخه:

«وأكثر الناس في دم الهرمزان وإسلاك عثمان عبيد الله بن عمر».

فصعد عثمان المنبر فخطب الناس وقال: ألا إني وليّ دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمري، وتركت له دم عمر. فقام المقداد بن عمرو فقال: إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله.

فقال: فنتظر ونتظرون.»

وهذه الرواية ممكنة القبول لأن المقداد كان من النواة الصلبة المؤيدة لعلي بن أبي طالب في كل موقفه.

روايات مُصَصِّمة للدفاع عن القاتل وعن موقف الخليفة

وقد انفرد ابن الأثير بذكر رواية مصممة للدفاع عن الخليفة عن طريق الزعم بأن العفو عن القاتل قد صدر بالفعل عن ابن الهرمزان، وبالتالي لا لوم على عثمان! فقد قال في «أسد الغابة»:

«وتيل: أن عثمان سلم عبيد الله إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بأبيه.

قال القماذبان: فأطاف بي الناس وكلموني في العفو عنه. فقلت: هل لأحد أن يمنّني منه؟

قالوا: لا.

قال: أليس إن شئت قتلتَه؟

قالوا: بلى.

قلت: قد عفوتُ عنه!

قال بعض العلماء: ولو لم يكن الأمر هكذا لم يفل الطمانون على عثمان عدل ست سنين ولقالوا إنه ابتدأ أمره بالجور لأنه عطل حدا من حدود الله.»

وبالإضافة إلى أن ابن الأثير قد ذكر الرواية بصيغة «قيل» مما يشي بتشككه بها، فقد عبر صراحة عن ذلك حين كتب: «وهذا أيضا فيه نظر، فإنه لو عفا عنه ابن الهرمزان لم يكن لعلي أن يقتله، وقد أراد قتله لما ولي الخلافة ولم يزل عبيد الله كذلك حياً حتى قتل عثمان ووليّ عليّ الخلافة وكان رأيّه أن

يقتل عبيد الله. فأراد قتله فهرب منه إلى معاوية وشهد معه صفين، وكان على الخيل. فقتل في بعض أيام صفين»

وفات ابن الأثير أن يذكر أن القماذبان بن الهرمزان، لو صح أنه حفا عن قاتل أبيه، فليس له أن يعفو عن قاتل جفينة، الرجل النصراني من الحيرة، ولا أن يعفو بالنيابة عن البنت الصغيرة ابنة أبي لؤلؤة.

وأما العلامة ابن كثير فهو لم يشعر بالحاجة إلى البحث عن روايات ولا الكثير من التبريرات لفعل عثمان، بل أعلن تأييده له بلا أي تحفظ، على أساس أنه الامام الذي من حقه أن يرى المصلحة. فقال في «البداية والنهاية» «فودي عثمان رضي الله عنه أولئك القتلى من ماله، لأن أمرهم إليه، إذ لا وارث لهم إلا بيت المال. والامام يرى الاصلح في ذلك. وخلق سيئ عبيد الله»

وهذا الموقف متوقع من ابن كثير، وهو ينسجم مع خطه العام.

وفي تاريخ الطبري نجد أن سيف بن عمر التميمي قد ذكر رواية من شأنها إيجاد عذر للقاتل وتبرير انتدفاعه عن طريق إلقاء اللوم على المقتولين. وهذه الرواية تحدث عن تفاصيل مؤامرة لاغتيال عمر حاكمها الهرمزان وجفينة مع القاتل أبي لؤلؤة. فقد روى الطبري في تاريخه «أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طلعن عمر: مررت على أبي لؤلؤة حتى أمس ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجب، فلما رهنهم ثاروا، وسقط منهم خنجر له رأسان، نصابه في وسطه. فانظروا بأي شيء قتل.

وقد تخلل أهل المسجد وخرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميمي، وقد كان ألظ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه فقتله، وجاء بالخنجر الذي وصف عبد الرحمن بن أبي بكر. فسمع بذلك عبيد الله بن عمر، فأمسك حتى مات عمر.

ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله، فلما عضه السيف قال: لا إله إلا الله. ثم مضى حتى أتى جفينة، وكان نصرانياً من أهل الحيرة، فثرأ سعد بن مالك أقدمه إلى المدينة للمصلح الذي بينه وبينهم وليعلم بالمدينة الكتابة، فلما علاه بالسيف صلب بين عينيه.

وبلغ ذلك صهيياً فبعث اليه عمرو بن العاص فلم يزل به وعته ويقول:
السيف بأبي وأمي، حتى ناوله اياه، وثاوره سعد فأخذ بشعره وجاوروا الي
صهيب»

وسيف بن عمر متخصص بروايات المؤامرات. ولذلك لا ينبغي اخذ
روايته هذه بكثير من الجدية. وعلى أي حال، فروايته هذه أيسر شأنًا بكثير مما
سيرويه عن مؤامرات هائلة رهية حيكّت وأدت لمقتل الخليفة عثمان وحرب
الجميل.

ويلاحظ ان رواية سيف هذه تجاهلت ذكر قتل بنت الصغيرة. ولم ينس
سيف أن يذكر دور ذلك الرجل من قبيلته، تميم، الذي لحق بأبي لؤلؤة حتى
قتله!

وختاماً أشير إلى أن العلامة ابن عبد البر قد عبر عن تشككه في تفاصيل
جريمة عيد الله بن عمر حين قال في الاستيعاب «وقصته في قتل الهرمزان
وجفينة وبنت ابي لؤلؤة فيها اضطراب». ولكنه لم يوضح أسباب قوله هذا.
وهو على كل حال قد أثبت تفاصيل مقتله بصفين .

الفصل الثاني: عطايا عثمان لعائلته ولأقربائه⁽¹⁾

رد الحكم بن أبي العاص

كان من أول الأشياء التي فعلها الخليفة الثالث حين استلم السلطة أنه قام برّد عمّه الحكم بن أبي العاص وبنيه إلى المدينة، في مخالفة صريحة لأمر الرسول (ص) ورغبته. فقد كان رسول الله (ص) أمر بنفي الحكم بن أبي العاص وولده إلى الطائف، لأنه لا يريد أن يسكنه هذا الشخص، نظراً لتاريخه الطويل في إيذائه، وبأسفل الطرق وأكثرها انحطاطاً.

ذلك رغم أن عثمان كان قد كلم أبا بكر فيهم بعد وفاة الرسول (ص)، وسأله ردهم، إلا أنه رفض إيواء طرداء رسول الله، ومع أنه قد حاول مرة أخرى مع عمر الذي رفض واتخذ الموقف نفسه.

وقد ذكر ابن اسحاق⁽²⁾ كما ورد في سيرة ابن هشام⁽³⁾ أسماء كل من أبي لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية وعقبة بن أبي معيط وعدي بن حمراء

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 3 ص 64)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج 3 ص 1092)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 50)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 314، ص 382)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 6 ص 137 و ص 208-209)، تاريخ الخلفاء للذهبي (ج 2 ص 164، 166، 168، 173)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ص 453)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 2 ص 34، ج 3 ص 116)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 1 ص 198-199)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 57 ص 244)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص 187)، الإصابة لابن حجر الملقاني (ج 4 ص 5)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 2 ص 108، ص 482) وكنز العمال للمصنف الهندي (ج 5 ص 714) والكمال في التاريخ لابن الأثير (ص 372-373)، مستد أحمد بن حنبل (ج 1 ص 64)، السيرة النبوية لابن هشام (ج 2 ص 57)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص 97)، بو كتاب الفتح لابن أحمد الكوفي (ج 2 - ص 370 - 371)

التفني وابن الأصداء الهذلي على أنهم كانوا أسوأ جيران لرسول الله في مكة وأنهم كانوا يؤذونه في بيته فكان أحدهم - فيما ذكر لي - يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برته إذا نصبت له. حتى اتخذ رسول الله حجراً يستتر به منهم إذا صلى. فكان رسول الله إذا طرحوها عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف على بابه ثم يقول: يا بني عبد مناف، أتى جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق.^١

وليس هناك خلاف بشأن سيرة الحكم بن أبي العاص مع رسول الله (ص). فأخباره مشهورة معروفة. وأكتفي بما قال ابن الأثير عنه في أسد الغابة:

«... وهو طريق رسول الله (ص). نفاه من المدينة إلى الطائف، وخرج معه ابنه مروان...»

وقد اختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله (ص) إياه. فقيل: كان يتسمع سر رسول الله (ص) ويطلع عليه من باب بيته...

... وقيل: كان يحكي رسول الله (ص) في مشيته وبعض حركاته. وكان النبي (ص) يتكفأ في مشيته فالتفت يوماً فرآه وهو يتخلج في مشيته...

... وقد روي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها. إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي (ص)، مع حلمه وإغضائه على ما يكره، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم

ولم يزل متقياً حياة النبي (ص). فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرته إلى المدينة فقال: ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله (ص). وكذلك عمر.

فلما ولي عثمان رضي الله عنه رثه...^٢

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد خير مشادة بين الحسن والحسين من جهة، ومروان من جهة أخرى: قال مروان: انكم أهل بيت ملعونون! فنضب الحسن وقال: ويلك قلت أهل بيت ملعونون؟ قال: فوالله لقد لعن الله أباك على لسان نبيّه (ص) وأنت في صلبه^٣.

(١) والمعبد من المصادر ذكرت أن عائشة قالت نفس هذه العبارة لمروان أثناء خلافه من أخيها عبد الرحمن. ومنهم ابن الأثير في أسد الغابة وقال: إن القصة مشهورة.

وبعد أن رده عثمان إلى المدينة، أكرمه ووصله. وقد استفاض المؤرخون من أصحاب النزعة الشيعية في وصف تفاصيل انقلاب أحوال الحكم بفضل ابن أخيه عثمان. ومن هؤلاء البغدادي الذي قال في تاريخه: «كتب عثمان إلى الحكم بن أبي العاص أن يقدم عليه، وقد كان طريد رسول الله. وقد كان عثمان لما ولي أبو بكر اجتمع هو وقوم من بني أمية إلى أبي بكر فسألوه في الحكم فلم يأذن له. فلما ولي عمر فعلوا ذلك فلم يأذن له. فأنكر الناس إذنه له وقال بعضهم: رأيت الحكم بن أبي العاص يوم قدم المدينة عليه فزر خلق، وهو يسوق تيساً، حتى دخل دار عثمان، والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال من معه، ثم خرج وعليه ثوب غز وطيلسان»

ولكن حتى الامام الذهبي، صاحب النزعة الاموية، لم يملك إلا الإقرار بإغداق الخليفة على عمه الحكم. فقال في سير أعلام النبلاء: «نفاه النبي (ص) إلى الطائف، لكونه حكاه في مشيته وفي بعض حركاته، فسبه وطرده، فنزل بوادي مج (الطائف). وتقم جماعة على أمير المؤمنين عثمان كونه عطف على عمه الحكم، وآواه وأقدمه المدينة، ووصله بمئة ألف».

وهكذا فالذهبي يعترف بأن «جماعة» قد تقموا على عثمان لرده الحكم بن أبي العاص.

والمصادر الشيعية تفيد أن قرار عثمان هذا قد لاقى رفضاً واعتراضاً من جانب الامام علي الذي واجه الخليفة مباشرة وطلبه بالعودة عن قراره. فقد روى الشيخ المفيد في كتاب الجمل:

«ولما ولي عثمان الأمر استدعاه من الطائف إلى المدينة وآواه وحباه وأعطاه وقطعه المرید بمدينة الرسول فعظم ذلك على المسلمين وقالوا آوى طريد رسول الله وحباه وأعطاه. وصاروا إلى أمير المؤمنين (ع) فسألوه أن يكلمه في إخراجهم عن المدينة وردهم إلى حيث نفاه النبي.

فجاءه أمير المؤمنين وقال له: قد علمت يا عثمان أن النبي قد نفى هذا الرجل عن المدينة ولم يرده وأن صاحبك سلكتا سبيله في تبعه واتباعه في ذلك وقد عظم على المسلمين ما صنعت في رده وإيوائه فأخرجهم عن المدينة واسلك في ذلك سنة النبي صلى الله عليه وآله.

فقال: يا علي قد علمت مكان هذا الرجل مني وأنه عمي وقد كان النبي صلى الله عليه وآله أخرجه عن المدينة لبلاغه ما لم يصلح عليه وقد مضى النبي لسيله ورأى أبو بكر وعمر ما رأياه. وأنا أرى أن أصل رحمي وأقضي حق عمي وهو ليس شر أهل الأرض وفي الناس من هو شر منه.

فقال (ع): والله لئن بقيت يا عثمان ليقول الناس فيك ما هو شر من هذا!

هل يدفع عثمان من ماله الشخصي أم من بيت مال المسلمين؟

والحديث عن رد الحكم وكرامه مدخل جيد لبحث نقطة حساسة تتعلق بسياسة الخليفة الثالث.

ولا بد أن ذلك كان أمراً عجبياً ينظر عامة المسلمين الذين لم يكن معروفاً لديهم على أي أساس أباح خليفة رسول الله لنفسه أن يردّ واحداً من أعدى أعداء الرسول (ص) إلى مدينته، بل ويتجاوز ذلك إلى حد تكريمه والاحتفاء به! ولا شك أن الكثير من المسلمين كانوا يراقبون تصرفات عثمان باستهجان وعجب لقيامه بتوزيع الأموال على عائلته الأموية بتلك الطريقة. وقد كان أمر الحكم بن أبي العاص من المطاعن الرئيسية على عثمان، واستخدمه كارهو عثمان في شتى المناسبات لتبرير عدائهم له والتأليب عليه. وقد اضطر عثمان إلى الدفاع عن نفسه مرات عديدة، إحداها أمام كبار الصحابة، كما روى ابن شبة التميمي في تاريخ المدينة. فكان دفاع عثمان يركز على ثلاثة أسس:

- إن الحكم قد تاب.

- إن أبا بكر وعمر لو كان لهما قرابة مثله لفعلا نفس الشيء.

- إنه يعطيه من ماله الخاص

وفيما يلي نص هذه الرواية المتعاطفة مع عثمان: «ونقمتم عليّ إبراهيمي الحكم بن أبي العاص. وإن رسول الله قد كان يقبل توبة الكافر، وإن الحكم تاب فقبلت توبته. ولعمري أنه لو كانت ثمت لأبي بكر وعمر مثل رحمه بهي لأواه. ونقمتم عليّ أبي وصلته بمالي. والله ما هو إلا مالي»

ولكن اليقوي في تاريخه لا يوافق على أن عثمان كان يعطي عمه الحكم من ماله الخاص، بل يؤكد أن عطايا عثمان لأقربائه كانت من بيت المال، وأن ذلك أثار معارضة خازن بيت المال الذي حاول المعاطلة في التنفيذ والتهرب من الدفع، ولما لم ينجح استقال احتجاجاً. فعن عبد الرحمن بن يسار قال «رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة إذا أمسى أتاه عثمان فقال له: ادفعها إلى الحكم بن أبي العاص. وكان عثمان إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال.

فجعل يدافعه ويقول له: يكون فتعطيك أن شاء الله .

فألح عليه فقال: إنما أنت خازن لنا، فإذا أعطيتك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت!

فقال: كذبت والله! ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك. إنما أنا خازن المسلمين.

وجاء بالفتح يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال: أيها الناس زعم عثمان اني خازن له ولأهل بيته، وإنما كنتُ خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم، ورمي بها!

فأخذها عثمان ودفعها إلى زيد بن ثابت»

ورغم أن رواية اليقوي هذه تخلو من ذكر اسم خازن بيت المال، ذلك القوي الذي اشتهك علناً مع الخليفة، واستقال احتجاجاً، مما يمكن اعتباره عنصر ضعف فيها، إلا أن هناك من الروايات ما يدعمها ويجعلها ممكنة القبول جداً.

فقد تحدث رواة آخرون، لا يُشته في تعاملهم على عثمان، عن خلافات الخليفة مع خازن بيت ماله، عبد الله بن الأرقم.

فقد ذكر ابن الأثير في اسد الغابة في ترجمة عبد الله بن الأرقم «واستعمله عمر على بيت المال، وعثمان بعده، ثم انه استغنى عثمان من ذلك فأعفاه» ورغم انه لم يذكر سبباً مباشراً لاستقالة ابن ارقم، إلا أن ابن الاثير أشار في

موضع آخر الى رفضه اعطيات عثمان، مما يوحى بصحة رواية يعقوبي حول احتجاجه على سياسة عثمان المالية «وروى مالك قال: بلغني ان عثمان أجاز عبد الله بن الأرقم وهو على بيت المال ثلاثين ألفاً فأبى أن يقبلها. وروى عمرو بن دينار ان عثمان رضي الله عنه أعطاه ثلاثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال: عملتُ لله وإنما أجري على الله»

وكرر ابن حجر العسقلاني في «الاصابة» نفس ما ذكره ابن الأثير عن عبد الله بن الأرقم. وكذلك فعل الذهبي في سير اعلام النبلاء.

ويلاحظ أن روايات هؤلاء جاءت بصيغة مخففة وملطفة. إلا أن ذلك لا يغير في حقيقة حصول الخلاف بين الخليفة وخازن بيت المال. والفارق أن يعقوبي، صاحب النزعة الشيعية، استفاض في إبراز التفاصيل، بعكس البقية، الحرصين على سمعة الخليفة.

وقد صرح ابن هشام الكوفي في كتاب الفتوح بأن عثمان كان يدفع من بيت المال :

«قال: ثم كثر المال عليه، فكان كل ما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس ويوزعهم في العطايا، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم. قال: ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية فوصله بثلاثمائة ألف درهم، ثم بعث إلى الحكم بن أبي العاص فردّه إلى المدينة وهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين وجعل له خمس إفرقية، وجعل [من بني] أمية الحارث بن الحكم على سوق المدينة ووصل ابنه يمال جليل»

وأكثر الروايات تفصيلاً نجدها لدى البلاذري في أنساب الأشراف، الذي روى عن الزهري، أن عائشة قالت لعثمان في معرض تأنيبها له «... واستسلّفت من بيت المال 500 ألف درهم ليس عنك لها قضاء»

وقال له عبد الله بن الأرقم خازن بيت المال وصاحبه: اقبض عنا مفاتيحك! فلم يفعل وجعل يستسلف ولا يرد...

قال الزهري: وكان في الخزائن سبط فيه حلّي فأخذ منه عثمان فعلى به بعض أهله. فأظهروا عند ذلك الطعن عليه، وبلغه ذلك فخطب فقال: هذا مال الله، أعطيه من شئت وأمنعه من شئت! فأرغم الله أنف من رغم...»

والزهري كما هو معلوم لا ينهم بالتحامل على عثمان، ولذلك تقطع بأن عثمان كان بالفعل يبيع نفسه أخذ ما يشاء من بيت المال دون أن يردّه. فهو كان يعتبر ذلك حقاً له. ورواية الزهري هذه تشير بوضوح إلى أن عطاءه لأقربائه كانت من بيت المال. والزهري مقرب من الحكام الأمويين، ولا يشبه بتحامله على عثمان.

الوجع لمروان بن الحكم

ولم يكتب الخليفة بالأغداق على عمه الحكم بل امتدّ كرمه إلى ابن عمه مروان! فكتب إلى عبد الله بن أبي السرح يأمره بتقديم خمس غنائم إفريقية إلى مروان بن الحكم بعد أن زوّجه ابنته. وخبر إتمام عثمان خمس إفريقية - وأحياناً يذكر خمس مصر - لمروان شائع ومشهور، ولا خلاف حوله بين أصحاب الأخبار. ومن ذلك:

ذكر الطبري في تاريخه في معرض حديثه عن غزوة إفريقي سنة 27 رواية الواقدي (حدثني أسامة بن زيد اللثبي عن ابن كعب) «وكان الذي صالحهم عليه عبد الله بن سعد ثلثمائة قنطار ذهباً. فأمر به عثمان لآل الحكم. قلت: أو لمروان؟ قال: لا أدري»

قال اليعقوبي أنه بعد انتصار المسلمين بقيادة ابن أبي السرح في غزوة إفريقية «كثرت الغنائم وبلغت ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار.

وروي بعضهم أن عثمان زوج ابنته من مروان بن الحكم، وأمر له بخمس هذا المال»

وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء «وكتب لمروان بخمس إفريقية» وذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أن عطاءات عثمان لمروان كانت من المأخذ عليه:

«اجتمع ناسٌ من أصحاب النبي (ص)، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وستة صاحبيه.

وما كان من هيته خمس افريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين.

وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة: داراً لثلاثة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته.

وبنيان مروان القصور بلدي خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله»

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الزهري «لما ولي عثمان عاشر اثنتي عشرة سنة اميراً. يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وأنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب لأن عمر كان شديداً عليهم، فلما وليهم عثمان لأن لهم ووصلهم ثم تولّى في أمرهم، واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر وكتب لمروان بخمس مصر وأعطى أقرباءه المال، وتآول في ذلك الصلة التي أمر الله بها. واتخذ الأموال واستسلف من بيت المال وقال: إن أباً بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما، ولني أخفته فقسمته في أقربائي. فأنكر الناس عليه ذلك»⁽¹⁾

كما تجب الإشارة إلى أن هناك اضطراباً في الروايات التي تتحدث عن خمس افريقية. فبالإضافة إلى الروايات الكثيرة التي تذكر قيام عثمان بمنح ذلك الخمس لابن عمه مروان، توجد روايات تقول أن الخليفة قد منح ذلك الخمس لأخيه من الرضاة عبد الله بن سعد بن أبي السرح. ولكن العلامة ابن الأثير في الكامل حل ذلك الاشكال بقوله أن فتح افريقية تم على مرحلتين: الأولى كانت عام 25 للهجرة حين كان ابن أبي السرح لا يزال يعمل تحت

(1) وروى نفس هذا النص السيوطي في تاريخ الخلفاء نقلًا عن ابن سعد، مع استبدال عبارة «خمس مصر» بعبارة «خمس افريقية» وذكر العتقي للعتقي، وهو من أصحاب الحديث، في كنز العمال أن عثمان «كتب لمروان بخمس مصر، وأعطى أقرباءه المال وقال: إن أباً بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما. واني أخفته فقسمته في أقربائي». وهذه نفس رواية ابن سعد.

إمرة عمرو بن العاص بمصر فوجهه عثمان إلى أطراف إفريقية غازياً فوَقَالَ له عثمان: **إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَلَاكَ مِنَ الْفَتْحِ خَمْسُ الْخَمْسِ نَقْلًا**» فَنَجَحَ جَيْشُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْوُصُولِ إِلَى أَطْرَافِ إِفْرِيقِيَّةٍ، دُونَ التَّوَغُّلِ فِيهَا، وَصَالِحِهِ أَهْلِهَا عَلَى مَا يُوَدُّونَهُ.

والثانية كانت عام 27 للهجرة، بعدما تولى ابن أبي السرح ولاية مصر فأذن له عثمان بشن حملة كبرى باتجاه إفريقية أسفرت عن نجاح باهر وغنائم كبيرة وأموال كثيرة (ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار). وأضاف ابن الأثير **«وَحُوِّلَ خَمْسُ إِفْرِيقِيَّةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَشْتَرَاهُ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ بِخَمْسِمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ، فَرَضَ عَنْهُ عُثْمَانُ. وَكَانَ هَذَا مِمَّا أَخَذَ عَلَيْهِ.**

وهذا أحسن ما قيل في خمس إفريقية. فإن بعض الناس يقول: أعطى عثمان خمس إفريقية عبد الله بن سعد. وبعضهم يقول: أعطاه مروان بن الحكم. وظهر بهذا أنه أعطى عبد الله خمس الغزوة الأولى وأعطى مروان خمس الغزوة الثانية التي افتتحت فيها جميع إفريقية. والله أعلم»

ورأي ابن الأثير هذا جائز وممكن. وعليه يكون عثمان قد منح الخمس في المرة الأولى كحافز لقائده ابن أبي السرح. ويكون في المرة الثانية قد قرر «مسامحة» ابن عمه مروان في تأدية مبلغ الخمسمائة ألف دينار الذي كان عليه دفعه ليبت المال لقاء خمس غنائم إفريقية الذي كان «اشتراه»

عطايا لبقيّة بني أمية

وطبعاً لم يقتصر عثمان في عطاياه على بني عمه الحكم، بل كان يعطي غيرهم من بني أمية، من أمثال عبد الله بن خالد بن أسيد.

قال اليعقوبي في تاريخه **«وَزَوَّجَ عُثْمَانُ ابْنَتَهُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ، وَأَتَمَّرَ لَهُ بِسِتْمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَكُتِبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ أَنْ يَدْفَعَهَا إِلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْبَصْرَةِ»**

وقال الطبري في تاريخه في رواية عبد الله بن أحمد بن شبيب أن من المأخذ التي ذكرها الصحابة على عثمان **«هَالُوا: أُعْطِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَالِدِ بْنِ**

أسيد، ومروان. وكانوا يزعمون أنه أعطى مروان خمسة عشر ألفاً، وابن أسيد خمسين ألفاً...»

وروى البلاذري في أنساب الأشراف عن أبي مخنف والواقدي أنكر الناس على عثمان إعطائه سعيّد بن العاص مائة ألف درهم، وذكر رواية عن ابن جريج «كان مما أنكروا على عثمان أنه ولي الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه بها»، كما روى عن الواقدي قدمت إبل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص»

وجمع ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة أخبار عطاءات عثمان لأقربائه وخاصته فقال عنه:

«فإنه أوطأ بني أمية رقاب الناس، وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع. وانفتحت القرية في أيامه فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان....»

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربع مائة ألف درهم. وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن كان رسول الله (ص) قد سيره، ثم لم يرد أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدق رسول الله (ص) بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور، على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فداك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها (ص) تارة بالميراث وتارة بالنحلة، فدفعت عنها.

وحسب المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية.

وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أنفاه الله عليه من فتح القرية بالمغرب، وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال. وقد كان زوجه ابنته أم أبان فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان ويكي. فقال عثمان: أتبيكي أن وصلتُ رحمي؟ قال: لا، ولكن أبكي لأنني أظنك أنك أخذتَ هذا المالَ عوضاً عما كنتَ أنفقتَه في سبيل الله في حياة رسول الله (ص). والله لو أعطيتُ مروانَ مائة درهم لكان كثيراً! فقال: أتي المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك.

وأثناء أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسمها كلها في بني أمية .
وأتكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنته⁽¹⁾

ومن الطبيعي، والمتوقع، أن تثير سياسة عثمان بتوزيع الاموال على ذوي قرباء، انتقادات متعددة. والشعر أحد أهم مظاهر التعبير في ذلك الزمان. وقد ذكر ابن عبد البر في ترجمة عبد الرحمن بن حنبل في الاستيعاب حالة احتجاج على سياسة عثمان وهو القائل في عثمان بن عفان رضي الله عنه لما أعطى مروانَ خمسَ افرقية :

وأحلف بالله جهّد اليميد	سني ما ترك الله امرأ سدى
ولكن مجعلت لنا فتنة	لكي تبلى بك أو تبلى
دهوت الطريق فادنيته	خلفاً لما سئ المصطفى
ووليت قرباك أمر العباد	خلفاً لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس الغنيه	سنة آثرته وحميت الحمى
ومالاً أتاك به الأشعري	من الفيه أعطيه من دنا
فإن الأميين قد بينا	منار الطريق عليه الهدى
فما أخذنا درهماً غيلة	ولا قسمنا درهماً في هوى

(1) وهذه الرواية تذكر اسم زيد بن أرقم كخازن بيت المال الذي اختلف مع عثمان. وقد ورد سابقاً أنه عبد الله بن أرقم. فربما حصل لبس لدى ابن أبي الحديد.

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ان مصير عبد الرحمن هذا كان النفي ا فقال
«ومرَّ عبد الرحمن بن حنبل صاحب رسول الله الى القموس من خير. وكان
سبب تسييره لئلا يبلغه كرهه مساوي ابنه وخاله، وأنه هجاء»

وكان كرم عثمان في الواقع يتسع ليشمل كل قبيلة قريش، من بعد بني
أمية. ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن سعيد بن المسيب عن
عمرو بن عثمان بن عفان أن أباه قال له «يا بني إن وليت من أمر الناس شيئاً
فأكرم قريشاً، فلاني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: من أمان قريشاً أمان الله»
وسوف يأتي الحديث مفصلاً حول ثروات كبار الصحابة في زمان
عثمان.



كانت تلك الحقائق حول عطايا عثمان لقومه من بني أمية. ولا بد بعد
ذلك من معرفة الخلفية النظرية التي سمحت للخليفة بهذا التصرف. فكيف
كان عثمان يبرر سياسته المالية تجاه أقرانه؟

فلسفة عثمان في الإغداق على بني أمية⁽¹⁾

ان التعلّم الأساسي لشخصية عثمان بن عفان، والذي ميّز حياته كلها،
في الجاهلية وفي العهد النبوي وأثناء فترة خلافته، هو ولاؤه لصلوات القرابة
ورابطة الدم وانتمائه القرشيّ الشديد .

وبالإضافة الى رواية الزهري لدى ابن سعد، والتي يقول فيها عثمان ان
أبا بكر وعمر تركا ما هو حق لهما من بيت المال، كما أوردناها سابقاً، ذكر ابن
سعد رواية أخرى عن المسور قال فيها «سمعتُ عثمان يقول: أيها الناس! إن
أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامهما. وإني
تأولتُ فيه صلة رحمي»

(1) مصادر هذا البحث: مسند أحمد بن حنبل (ج 1 ص 62)، الطبقات الكبرى لابن سعد
(ج 3 ص 66، ج 5 ص 45)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج 3 ص 1099)، الامامة
والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 46)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 382)، العقد الفريد لابن عبد
ربه (5 ص 55)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 3 ص 380)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 32
ص 82، ج 39 ص 253)

وروى ابن حيد ربه في العقد الفريد ان عثمان بن عفان قال لعبد الرحمن بن عوف الذي طالبه بأن يسير بسيرة ابي بكر وعمر «صمر كان يقطع قرابته في الله، وانا اصل قرابتي في الله»

فالتصوص بتواتر لتؤكد أن المستند الشرعي الأساسي لعثمان في سلوكه تجاه قومه من بني أمية هو صلة الرحم. فنظر عثمان، إعطاءً لأقربائه المال هو أمر محمودٌ شرعاً لأن الله حث المؤمن على الاحسان لذوي قريائه. وكان عثمان يبيع لنفسه التصرف في بيت المال كما يشاء.

ولستُ أعرف كيف فأت عثمان أن صلة الرحم التي أمر الله بها تنحصر في المال الشخصي، وليس المال العام الذي هو أمانة في رقبته المسؤول. فهل غنائم إفريقية ملك شخصي للخليفة حتى يعطي خمسها لابن عمه ليصل رحمه؟ هذا أمرٌ محيرٌ حقاً، لأنه من الصعب تصوّر عدم معرفة عثمان بتلك الحقيقة التي هي من البديهيات.

وربما يكون عثمان يرى في الأموال العامة عوضاً له عما كان يكسبه، هو شخصياً، من التجارة. فواجبات منصب الخليفة بالتأكيد لم تكن تتيح لعثمان أية فرصة لمتابعة النشاط التجاري المربح الذي كان يمارسه. فوخته أصبح مشغولاً بالكامل في رعاية شؤون المسلمين، فلا بأس إذن من أن يسطر يده في بيت مال المسلمين فيأخذ منه ما يشاء.

بل ان من المرجح أن يكون عثمان يرى في المال العام عوضاً له عما كان ينفقه ويتبرع به أيام النبي (ص) لصالح المسلمين⁽¹⁾. فلطالما ساهم في تجهيز الجيوش وحفر الآبار، فلماذا لا يكون له الآن حق معلوم في المال العام، خصوصاً وأن الله قد فرج على المسلمين وأكثر من الأموال؟

ويدو أن مفهوم عثمان الخاص لصلة الرحم كان يتسع ليشمل التعيينات في المناصب القيادية في الدولة أيضاً.

فحين ولي عثمان ابن خاله عبد الله بن عامر البصرة وهو شاب يافع

(1) وقد أوردنا كلام ابن أرقم لعثمان في هذا المعنى، كما ذكره ابن أبي الحديد

في الخامسة والعشرين من عمره، كتب إلى أبي موسى الأشعري يقول له أنه لم يعزل عن منصبه لعجز أو خيانة فولكني أردت أن أصل قرابة عبد الله بن عامر⁽¹⁾

وفي رواية للطبري في تاريخه أضاف عثمان حجباً لتدعيم رأيه في صلة رحمه: فهو أولاً يقتدي بالنبي (ص) الذي كان يعطي قرابته. وهو ثانياً يشير إلى أن أقرباه الكثيرين كانوا يعانون من صعوبات اقتصادية مما يجعل من مساعدتهم واجباً عليه وهو بمنصبه ذلك، فلا يجوز أن يتخلى عنهم.

يقول نص الطبري أن عثمان قال للمصحبة في معرض دفاعه عن سياسته «إني أخبركم عني وعما وليت: إن صاحبي اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسيل احتساباً. وإن رسول الله (ص) كان يعطي قرابته. وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال لمكان ما أقوم به فيه. ورأيت أن ذلك لي...»

وفي رواية لابن قتيبة في الامامة والسياسة يوضح عثمانُ سبباً آخر لسلوكه:

«لما أكره الناس على عثمان بن عفان صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن لكل شيء آفة، ولكل نعمة عامة. وإن آفة هذا الدين وعامة هذه الملة: قوم عيابون طعانون، يرونكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون. أما والله يا معشر المهاجرين والانصار لقد عبت علي أشياء وتقمتم أموراً قد أقررتم لابن الخطاب مثلها، ولكنكم وقمتم وقمتمكم، ولم يجترئ أحد يملأ بصره منه ولا يشير بطرفه اليه. أما والله لأنا أكثر من ابن الخطاب عدداً، وأقرب ناصراً وأجدر.

إلى أن قال لهم: أتفقّدون من حقوقكم شيئاً؟ فما لي لا أفعل في الفضل ما أريد؟ فلم تكت إلا ما؟ إذن؟ أما والله ما عاب علي من عاب منكم أمراً أجهله، ولا أتيت الذي أتيت إلا وأنا أعرفه»

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد. وكذلك روى ابن هاشم في تاريخ دمشق نقلاً عن ابن سعد

فهنا يقول عثمان إنه قد أذى واجباته تجاه الرعية، وأعطاهم حقوقهم، فلا بأس بعدما من التصرف بالمال الفائض كما يشاء «فمالي لا أقبل بالفضل ما أريد؟». ويؤكد عثمان هنا أنه يتصرف عن وعي تام وإدراك كامل لما يفعله، ولا يريد أن يصني للطغمان الحاقدين الذين لا يتوقفون عن النيمة!

ويبدو أن كلامه المتكرر، وفي عدة مناسبات، عن «صلة الرحم» لم يكن مقنعاً لسامية، مما كان يثير أعصابه ويدفعه أحياناً إلى كلام حاد متخذ غاضب، من قبيل ما رواه ابن شبة النخعي في تاريخ المدينة عن سالم بن أبي الجعد:

«دعا عثمان رضي الله عنه ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم عمار.

فقال: إني سائلكم، أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قریشاً على سائر الناس، ويؤثر بني هاشم على سائر قریش؟ فسكت القوم.

فقال: لو أن مفاتيح الجنة في يدي لأعطيها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم! والله لأعطيهم ولاستعملتهم على رغم أنف من رغم»⁽¹⁾

(1) وقد روى مثل هذا الحديث ابن عساکر في تاريخ دمشق عن سالم بن أبي الجعد . كما روى هذا الحديث بتمامه، عن سالم بن أبي الجعد، أحمد بن حنبل في مسنده وابن الأثير في اسد الغابة، ولكن بدون عبارة «والله لأعطيهم ولاستعملتهم على رغم أنف من رغم» في آخره.

الفصل الثالث: التعيينات في قيادة الدولة:

ولاية عثمان

عثمانُ يبدأ بتغيير سياسة عمر

ورث عثمان عن عمر دولة شاسعة مترامية الأطراف. فعلى الرغم من أن الفتوحات الكبرى لم تكن قد اكتملت بعد، إلا أن الفعل الأساسي كان قد حصل، والحسم قد تم بالفعل، ولم يبق سوى إكمال العمل.

فالقوة الفارسية قد دُثرت ودخل العرب إيران كفاتحين، ولم يعد لبقايا النظام الساساني القديم سوى تجمعات غير كبيرة في مناطق متباعدة، وغير قادرة على تشكيل تهديد جدّي وحقيقي للقوة العربية الساحقة. كانت الأرضية لإكمال الفتح وإنجاز السيطرة التامة على كل أنحاء إيران قد وضعت على يد عمر بن الخطاب.

وكانت سوريا الكبرى قد سقطت بالفعل في أيدي العرب، وكان قد بدأ تنشأ نوع من التوازن في بلاد الشام بين القوة العربية وبين الروم البيزنطيين الذين كانوا قد بدأوا يسلمون بالخسارة ولا يطمحون سوى إلى المحافظة على مواقعهم إلى الشمال من سوريا. وكذلك كان العرب قد بدأوا بتوطيد أركان حكمهم في مصر.

إذن كان التحدي الحقيقي أمام الخليفة عثمان يتمثل في تأصيل وتجذير السيطرة العربية على الأقاليم المفتوحة، بالإضافة إلى متابعة الحملات العسكرية لإخضاع ما تبقى من مناطق خارج السيطرة في تلك الأقاليم، وخاصة فارس.

كانت الفتحوات التي حصلت في عهد عمر إنجازاً عظيماً هائلاً بكل المقاييس. وكانت مهمة «مضم» تلك البلاد وجعلها جزءاً من القضاء العربي، ليست بالسهلة أبداً. فلكل بلاد كان فيها نظام إداري واقتصادي قديم جداً وفاعل، ولم يكن العرب معتادين على أمور حضارية ومَدَنِيَّة بذلك الحجم.

ولذلك فإن مهمة الولاة العرب لتلك الأقاليم كانت في غاية الأهمية والصعوبة أيضاً. فمطلوبٌ من الوالي أن يحسن إدارة شؤون الجيوش العربية الفاتحة التي بدأت تستقر وتستوطن في البلاد المفتوحة،

وعليه أيضاً أن يتبنّى سياسة مدروسة تجاه أهل البلاد الأصليين بما يضمن ولائهم للحكام الجدد وبما يكفل استمرار إنتاجية تلك الأراضي الشاسعة وما تعود به من فوائد اقتصادية هائلة

وأخيراً عليه أن يتأكد من الجاهزية العسكرية الدائمة للتجمعات العربية لمواجهة أية تحديات أو تهديدات قد تشكلها بقايا الأنظمة الرومانية أو الساسانية في الشام أو العراق أو مصر أو فارس.

ولكن عثمان بن عفان أظهر سوء سياسة وسوء تقدير قل نظيرهما. لم يكن عثمان على مستوى التحدي الحضاري الكبير الذي كان ماثلاً أمام قيادة أمة العرب.

بدأ عثمان في تغيير سياسة عمر بن الخطاب فيما يتعلق بحكام الولايات. فعلى الرغم من أن عمر حافظ على وضع قيادي، بشكل عام للقرشيين في دولته، إلا أنه كان يخضعهم إلى متابعة ومراقبة حثيثة ودائمة. كان عمر يحاسب عماله على سياستهم، وكانت له طرق أخرى في الحصول على معلومات عن وضع ولاياته، غير الولاة. كان عمر يعزل العمال، وينقلهم ويستبدلهم، بهتشم ثم يعيد تفعيلهم حين يرى الوقت مناسباً. ولم يقم عمر أبداً بتعيين أقرباء له في مناصب قيادية في الدولة.

كان ولاة عمر يخشونه حقاً، وكانوا يهابون شَبَحَةَ المخيم عليهم، رغم بعد المسافة عن العاصمة. لم يُنحَ عمر بسياسة تلك، المجال لولائه لكي يصنعوا ولاة شخصياً لهم في المناطق التي كانوا يديرونها.

وكان الرعية، من عامة العرب ومقاتلي الجيوش وأفراد القبائل التي استوطنت في الأقاليم، يشعرون أن أمامهم طريقاً مفتوحاً إلى القائد الأعلى، عمر، يستطيعون أن يسلكوه ليصلوا صوتهم، شكواهم، ومطالبهم إليه. وبالتالي لم يكن هناك شعور بين الناس أن من واجبهما التزلف للوالي. ففي نهاية الأمر، كان الوالي هو والي عمر، ويتخذ سياسة عمر لا سياسته هو. فإن كان الوصول إلى عمر متاحاً، وإذا كان عمر، وهذا الأهم، مستعداً للاستماع واتخاذ الاجراءات، فما الحاجة إلى التفاف للوالي أو الولاء الشخصي له؟

بدأ عثمان بتغيير سياسة عمر تلك، كلها!

قام عثمان بتعيين أقربائه اللصيقين، وخاصة من بني أمية، في كل المناصب القيادية العليا في الدولة.

وهنا يجب ملاحظة أن أقرباء أولئك الذين ولأهم قيادة الدولة، ليسوا كغيرهم من المسلمين! فقد كانوا جميعاً من العناصر التي لا تمتلك أية شرعية إسلامية على الإطلاق. بل على العكس، كان لهم، أو لأبائهم، أسوأ تاريخ مع رسول الله (ص)!

أولاً: تعيين الوليد بن عقبة بن أبي معيط والياً للكوفة⁽¹⁾

وهذا من أكثر المواضيع إشكالية التي ميزت خلافة عثمان. فهذه الشخصية تسيبت في إلحاق أذى شديد باسم الخليفة وسمعته .

(1) مصادر هذا البحث: البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 174)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 307، ص 311-312، ص 325، ص 327-330)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص 184)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 50)، التاريخ الصغير للبغاري (ج 1 ص 117)، أسباب النزول للواحدي (ص 236 + ص 261)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 751-753 + ص 762)، سيرة ابن هشام (ج 3 ص 300)، تاريخ دمشق لابن عسكرك (ج 63 ص 220، ص 235، ص 239، ص 242-244، ص 250)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 6 ص 141، ص 146)، الإصابة لابن حجر المصقلاني (ج 6 ص 482)، صحيح مسلم (كتاب الحدود) ص 367، تاريخ الخطوب (ج 2 ص 165)، تفسير ابن كثير (ج 3 ص 460 + ج 4 ص 224)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج 3 ص 174)، فقه السنة لسيد سابق (ص 174)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص 771)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج 3 ص 101)، فتح الباري لابن حجر المصقلاني (ج 7 ص 45)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 17 ص 236-230)، تاريخ المطبوعة المنورة لابن شبة (ج 3 ص 972-975) ومسنّد أحمد بن حنبل (ج 1 ص 82، ص 144).

خلفية الوليد

الوليد من أقرباء عثمان اللصيقين، وهو من عائلته من بني أمية، واسمه الكامل: الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس⁽¹⁾. وبالإضافة إلى ذلك الوليد هو أخو الخليفة عثمان من أمه.

وكان أبوه، عقبة بن أبي معيط، معروفاً بين كل المسلمين بشدة عدائه لرسول الله (ص) وإيذائه له في مكة إلى درجة فاقت الآخرين من سادة قريش في مكة. وكان من حدة عدائه للرسول (ص) أنه قد أمر بإعدامه هو وبضعة أشخاص من بين أسرى قريش يوم بدر، ونفذ الحكم⁽²⁾.

والوليد من الطلقاء، وقد أعلن إسلامه يوم فتح مكة⁽³⁾.

والوليد نفسه، كما أبوه، كان له نصيبٌ موفور من الرداءة في سيرته وسلوكه أيام النبي (ص)، بعد دخوله الإسلام

وهناك إجماعٌ بين المفسرين أن الآية القرآنية «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنيةٍ فتنّبوا. أن تصيبروا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» نزلت فيه⁽⁴⁾

(1) وهناك من يظن في صحة نسبة فتوجد رواياتٌ تقول إن أبا عمرو، واسمه ذكوان، لم يكن في الحقيقة ابناً لأمية، بل كان عبداً له فاستلحقه وتبناه. ولكن ليس هذا الموضوع هنا.

وبالإضافة إلى كونه من أبناء عمومة عثمان، كان الوليد أيضاً أخاه من أمه، وهي أروى بنت كرمز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

(2) وقد روى أصحاب السير والحديث أخباراً شنيعة جداً بشأن ممارسات عقبة بحق النبي (ص) في مكة. وبالإمكان مراجعتها في مصادرهما.

(3) وقد كان قبل ذلك متصلياً في عدائه للإسلام إلى حد أنه حاول رد أخته أم كلثوم بنت عقبة إلى مكة، بعد أن كتبت قد أسلمت وهاجرت بعد صلح الحديبية. فقدم هو وأخوه عمارة إلى المدينة وطلبوا النبي (ص) بتسليمهما لهما، ولكن النبي (ص) رفض ورفضهما خائفين. روى ذلك ابن هشام في سيرته.

(4) ومن هؤلاء الإمام البخاري الذي قال في التاريخ الصغير أن الآية (رقم 6 من سورة الحجرات) نزلت في الوليد.

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: «ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن، فيما علمت، أن قوله تعالى (إن جاءكم فاسقٌ بنيةٍ) نزلت في الوليد بن عقبة»

ويمكن مراجعة تفسير ابن كثير وأيضاً الواحدي في أسباب النزول للاطلاع على تفاصيل الحادثة المشينة التي كان يظنها الوليد بن عقبة الذي خان الأمانة وتمعد الكلب على رسول الله (ص) من أجل الاضرار ببني المصطلق الذين كان بينه وبينهم عدوة قديمة. وقد فضحه القرآن ونمت بالقاسق.

وهناك آية قرآنية أخرى نزلت بحق الوليد: فقد ذكره الواحدي في أسباب النزول، وابن عساكر في تاريخ دمشق «إن قوله تعالى (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يسترون)»⁽¹⁾ نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عتبة بن أبي معيط الذي قال له: أنا أخذت منك سنناً وأبسطت لك لساناً وأملأ لك كعبة منك.

فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق. فنزلت الآية⁽²⁾

وباختصار، لم يكن الوليد، من ناحية الخصال والشرعية الإسلامية، يمتلك ما يؤهله لشغل أي منصب عال في دولة الاسلام. بل على العكس، كانت مثالبه والمآخذ عليه كبيرة الى حد يجعل من مجرد التفكير في توليته مسؤوليات قيادية أمراً غريباً، بل مستهجناً

عزل سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة وتعيين الوليد مكانه

في عام 25 للهجرة (أو 24 أو 26) قرر عثمان عزل والي الكوفة الصحابي المشهور سعد بن أبي وقاص وتعيين الوليد بن عتبة مكانه. واستمر الوليد في منصبه ذلك الى عام 30.

ويمكن النظر الى هذا القرار من عثمان باعتباره خطوة مهمة في اتجاهه لتغيير ولاية عمر بن الخطاب في الولايات المهمة واستبدالهم برجال هو، رجال مرتبطون به ويوالونه لشخصه. فأغلب الشخصيات التي خلفها عمر بن الخطاب في مناصب حكام الولايات كانت من الوزن الثقيل في المعايير

(1) سورة السجدة، الآية 18

(2) وقد أعظم ابن كثير في تفسيره حين قال فرقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط لأنه وبه سبب النزول الى عقبة بن أبي معيط، بدلاً من ابنه الوليد ولكن ما ذهب اليه الواحدي وابن عساكر هو الأصح، ولعدة أسباب: فعقبة بن أبي معيط أعدم بأمر النبي (ص) بعد أن أسروهم بدر، وبالتالي لا تنطبق عليه تماماً صفة الفاسق المذكورة في الآية. فهو كافر ومشرك بلا لبس ولم يدخل الاسلام يوماً حتى يقال له فاسق، بخلاف ابنه الوليد. كما أن فارق السن بين علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط كبير جداً لدرجة تجعل من المستبعد أن يخوضا جدلاً من أي نوع. فعقبة كان كبيراً وكان يتصدى للنبي (ص) ذاته. وأما الوليد فكان عدوه الرئيسي علي.

الإسلامية: شخصيات من أوساط الصحابة أو ذات إنجازات في مجال القيادة والفتوحات من نمط سعد بن أبي وقاص وعمر بن العاص وأبي موسى الأشعري. وهؤلاء كانت لهم شخصياتهم المستقلة ولم يكونوا يدينون لعثمان بمناصبهم. وربما لم يكن عثمان مرتاحاً لهامش الاستقلالية هذا.

وأرسل عثمان الوليد إلى الكوفة حاملاً بنفسه الخبر لوالها ولأهلها.

وأثار قرار عثمان بتعيين الوليد بن عقبة والياً على الكوفة استياء سعد بن أبي وقاص الذي لم يصدق الخبر الذي جاءه به الوليد نفسه.

فقد روى الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين أنه قال له لما أبلغه قرار عثمان بعزله واستبداله بالوليد بن عقبة هو الله ما أدري أكونت بعدي، أم حملتُ بعنك!

وفي لفظ ابن عبد البر في الاستيعاب من رواية ابن سيرين أن سعداً قال له «ما أدري أصلحتُ بعنك أم فسدتُ الناس؟» وفي رواية سعيد بن جبیر لدى ابن عبد البر أن الوليد أجاب سعداً «لا تجزعن أباً اسحق. فإنما هو الملك يتغذى قومٌ، ويتشاء آخرون. فقال سعد: أراكم والله ستجعلونها ملكاً»⁽¹⁾

ويمكن القول أن صلعة سعد واستيائه كانت ناتجة عن شخصية الوالي الذي اختاره عثمان، وليس عن قرار العزل بحد ذاته. وظاهر من كلام سعد أنه لا يرى للوليد من الصلاح والاستقامة ما يجعله أهلاً لهذا المنصب الرفيع. وبالتالي لم يجد سعد سبباً لذلك القرار سوى قرابة الوليد للصيغة من الخليفة.

وقد أخرج الطبري في تاريخه أربع روايات عن سيف بن عمر التميمي يتحدث فيها عن «سبب عزل عثمان عن الكوفة سعداً واستعماله عليها الوليد» وذلك ضمن أحداث سنة 26 هجرية. وملخص هذه الروايات أنه كانت هناك مخالفات مالية ارتكبها سعد ولم يرش أن يسكت عنها خازن بيت المال الذي كان وقتها عبد الله بن مسعود. فقد استقرض سعد مبلغاً من المال من بيت مال المسلمين ولم يؤده. ولما طالبه ابن مسعود بالسداد رفض وشتمه بقول قبيح جداً:

(1) وذكر ابن الأثير في الكامل نفس هذا الحوار بين سعد والوليد.

فأتى ابن مسعود سعداً فقال له: أذ المال الذي قبلك!

فقال له سعد: ما أراك إلا ستلقى شراً! هل أنت إلا ابن مسعود، عبد من هذيل؟^(١)

ويقول سيف في هذه الروايات إن ما جرى أثناء غضب الخليفة عثمان عليهما، فقام بعزل سعد عن ولاية الكوفة بينما أقر ابن مسعود على بيت مالها. وكان الذي أشره بدل سعد هو الوليد بن عقبة (وكان عاملاً على حرب الجزيرة لعمر بن الخطاب)^(٢).

ولكن لابد من التحفظ بشأن هذه الروايات في تاريخ الطبري، للأسباب التالية:

- فهذه روايات سيف بن عمر. وسيف له منهج ثابت في رواياته يتلخص بالدفاع الدائم والمتواصل عن الخليفة عثمان وكل ولاته وسياساته. وهنا يظهر أن قيام عثمان بعزل سعد أمر طبيعي بعد مشكلته تلك مع ابن مسعود. فكل ما عمله عثمان هو تغيير الوالي الذي ارتكب مخالفة بوال آخر من ولاية عمر بن الخطاب (وتؤكد الروايات على أن الوليد كان عاملاً لعمر على الجزيرة).

- هناك رواية تشابه مع هذه، ذكرها ابن عبد ربه وغيره، وتحدث عن خلاف بين ابن مسعود ووالي الكوفة بسبب الاعتداء على بيت مال الكوفة، ولكن الوالي في هذه الحالة كان الوليد بن عقبة نفسه (وليس سعد). وسيأتي الحديث عنها لاحقاً. وهناك احتمال بأن يكون ابن مسعود قد كرر التصدي للوالي الجديد، الوليد، لما حاول أن يحلوه

(١) وقال ابن حجر في فتح الباري إن عثمان عزل سعد بن أبي وقاص واستبدله بالوليد (وكان سبب ذلك أن سعداً كان أميراً وكان عبد الله بن مسعود على بيت المال، فافتقر سعد منه مالاً، فجاءه بضاعته، فاشتد عليه، فبلغ عثمان فغضب عليهما وعزل سعداً، واستحضر الوليد - وكان عاملاً بالجزيرة على عسر بها - فولاه الكوفة. وذكر ذلك الطبري في تاريخه).

وهذه الرواية تظهرها أن الخلاف كان أساساً بين ابن مسعود وسعد وإن عثمان حل الإشكالية بينهما، وكان الوليد هو المحل

حذو سلفه سعد في الاقتراض من بيت المال وعدم السداد. ولكن هذا الاحتمال ضئيل، ولأكرر عثمان موقفه المتمسك بابن مسعود الحريص على المال العام. ولكن هذا لم يحصل، وقام عثمان بعزل ابن مسعود وتفاقم الخلاف بينهما كما سيأتي لاحقاً.

فروايات سيف بن عمر هذه تنفي عن الوليد مثابة الاعتداء على بيت المال.

- بل ان البلاذري في أنساب الأشراف يروي عن أبي مخنف ان ابن مسعود عبّر عن استيائه من استبدال سعد بالوليد وقال فمن غير غيرا الله ما به، ومن بقل أسخط الله عليه. وما أرى صاحبكم إلا وقد غير وبقل، فيعزّل مثل سعد بن أبي وقاص ويولى الوليد!!

- وروايات سيف هذه تحاول أن تجد للخليفة عذراً لعزله قائداً مشهوراً، كسعد بن أبي وقاص. ولكن عثمان بن عفان نفسه لم يكن يرى انه مضطراً لمثل هذا التبرير. فهو عزل والياً قديماً، أبا موسى الأشعري، عن البصرة وعيّن مكانه قريه ابن عامر، على أساس صلة الرحم لا أكثر! فلم لا يكون الأمر هنا في الكوفة مثل ذلك؟

- كما ان سيرة عثمان ومنهجه فيما يتعلق بالمال، تشير الى أنه كان متساهلاً ومتسامحاً بشأن بيت المال. ومن المتوقع أن لا يشير اقتراض واليه مبلغاً من بيت المال وعدم سداده غضب عثمان، بل تفهمه. فهو ذاته كانت له مثل تلك الممارسة التي يعتبرها طبيعية ومشروعة ما دامت حقوق عامة المسلمين مؤداة. فهو ليس كعمر.

- كما ان في روايات سيف خللاً من حيث الشكل. فهي تدرج القضية ضمن حوادث سنة 26 للهجرة (رغم ان الطبري يصرح بأن سيف قال ان عزل سعد كان سنة 25). ولكن الرواية ذاتها تقول ان الوليد قدم أميراً على الكوفة في السنة الثانية من خلافة عثمان. ومعروف أن عثمان تولى الحكم في ذي الحجة سنة 23. وسواء قال سيف ان هذه المشكلة حصلت سنة 25 أو 26، فهي ليست السنة الثانية من خلافة عثمان.

ممارسات الوليد بن عقبة في الكوفة

قال ابن عبد البر في الاستيعاب عن الوليد بن عقبة «وله أنخبار فيها نكارة وشناعة، تقطع على سوء حاله وقبح أفعاله، غضر الله لنا وله» وأضاف «أنخباره في شرب الخمر، ومنادته أبا زيد الطائي، مشهورة كثيرة، يسمح بنا ذكرها هنا، ونذكر منها طرفاً»

كما قال :

«ونخبر صلاته بهم وهو سكران، وقوله: أزيدكم، بعد أن صلى الصبح أربعاً، مشهور من رواية الثقات من نقل أهل الحديث، وأهل الأخبار»

وقال عنه ابن حجر المصقلاني في الإصابة «وقصة صلاته بالناس الصبح أربعاً وهو سكران مشهورة مخرجة. وقصة عزله بعد أن ثبت عليه شرب الخمر مشهورة أيضاً مخرجة في الصحيحين. وعزله عثمان بعد جلده عن الكوفة وولاه سعيد بن العاص»⁽¹⁾

إذن كان الوليد يشرب الخمر. ويبدو أنه كان يعاقر الخمر كثيراً إلى حد لم يتمكن معه من إبقاء هذا السلوك طويلاً، فافتضح أخيراً. وكانت فضيحتة صارخة صاخبة: ترتج يوماً وهو ثوبل بينما كان يؤم الناس في صلاة الصبح، وقال كلاماً خليعاً عابثاً² وهذا كان أمراً لا يطاق في ذلك الزمان: فهو اعتداء على أمر الله واستهتار بتعليمات رسوله وإهانة لمشاعر عامة المسلمين.

وكانت هذه الحادثة القشة التي قصمت ظهر البعير. فلم يعد الأمر يحتمل المماثلة أو التأجيل. فالوليد كان أحياناً يتهاون في شأن الصلاة (ويبدو أنه كان يؤديها مرغماً بحكم واجبات منصبه)، وكان له ندماء في مجالس الشرب والسمر، وكان يسمح للسخرة ويستمتع بممارساتهم.

ولكن عامة الناس كانوا يهابون الوليد ويخشون بأسه، لأنهم يعلمون

(1) وحادثة صلاته بالمسلمين الصبح أربع ركعات وهو مضمور، وأنه قال لهم لما نهوه: هل أزيدكم مذكورة في كل كتب التاريخ. ومنها مثلاً: تاريخ الخلفاء للسيوطي، وحتى أن الشيخ الفقيه سيد سابق ذكرها في كتابه المشهور «فقه السنة».

أنه آخر الخليفة ومن رجاله الثقات المقربين. وكان عثمان يقدم له الحماية والدعم المطلق ويرفض تصديق ما يفيض من انتقادات ومآخذ عليه.

وأكد ابن حجر في فتح الباري ان تصرفات الوليد بن عقبة ومماثلة الخليفة عثمان في معاقبته كانت من المآخذ الشائعة عليه «وكان أكثر الناس فيما فعل به، أي من تركه إقامة الحد عليه» وقال في موضع آخر «كانوا يتكلمون في سبب تأخير إقامته الحد على الوليد» ولكنه اعتذر عن الخليفة وقدم تفسيراً لسلوكه «وولي الوليد لما ظهر له من كفايته لذلك وتيسر رحمة، فلما ظهر له سوء سيرته عزله. وإنما أخر إقامة الحد عليه ليكشف عن حال من شهد عليه بذلك، فلما وضع له الأمر أتر بإقامة الحد عليه»

وروى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ان من جملة مآخذ الصحابة على عثمان:

«.. وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم: إن شتم أزيدكم صلاة زدكنم، وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخير ذلك عنه»

وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة كيف حاول عثمان الدفاع عن أخيه الوليد وحمايته في وجه الذين كانوا يشهدون عليه، وفي وجه الذين يطالبون بعزله عن منصبه:

فمن الزهري نقلاً عن كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني «خرج رطب من اهل الكوفة الى عثمان في أمر الوليد. فقال: أكلمنا غضب رجل على أميره رماه بالباطل؟! لئن أصبحت لكم لأنككن بكم.

فاستجاروا بعائشة. وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الخلقة.

فقال: أما يجئ فساق العراق ومراقها ملجأ إلا بيت عائشة؟

فسمعت، فرفعت نعل رسول الله (ص) وقالت: تركت سنة صاحب هذا النعل! وتسامع الناس فجاءوا حتى ملؤوا المسجد، فمن قاتل: قد أحسنت، ومن قاتل: ما للنساء ولهذا؟ حتى تخاصموا وتضاربوا بالنمال.

ودخل رهط من أصحاب رسول الله (ص) على عثمان فقالوا له: اتقي الله ولا تعطل الحدود، وأهزل أخاك عنهم.

ف فعل

وعن المدائني نقلًا عن كتاب الاغانى لأبي الفرج الاصفهاني قدم رجل من أهل الكوفة الى المدينة فقال لعثمان: اني صليت صلاة الغداة خلف الوليد، فالتفت في الصلاة الى الناس، فقال: أأزيدكم؟ فاني أجد اليوم نشاطًا وشمئنا منه رائحة الخمر.

ف ضرب عثمان الرجل.

فقال الناس: عطلت الحدود، وضربت الشهود!

وقد ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ما يشير الى مدى شدة إيمان الوليد. فقد روى عن علقمة أن الوليد بن عقبة، وهو على رأس جيشي للمسلمين، كان يشرب الخمر، إلى درجة أن جنوده فكروا في إقامة الحد عليه، ثم تراجعوا من أجل المصلحة:

«... فشرب الوليد الخمر، فأردنا أن نحده.

فقال حذيفة: أتحدون أميركم وقد دنوتم من عدوكم، فيطمعوا فيكم...»

وأمام تواتر أخبار فسق الوليد ومجونه، والشهود الكثر على ذلك، والأدلة القاطعة، لم يجد عثمان بداً من إقامة الحد الشرعي عليه، وعزله عن منصبه. ويلاحظ في كل الروايات التي تتحدث عن ذلك أن عثمان كان يوجه خطابه دائماً الى علي بن ابي طالب، دون غيره، ويسأله عما ينبغي عمله ويطلب منه أخيراً أن يطبق الحد عليه. وهذا يدل على أن علياً كان بالفعل يمارس ضغطاً متواصلًا على عثمان لكي يضع حداً للوليد وممارساته. والارجح ان الكثيرين من أهل الكوفة كانوا يلجأون الى علي بالذات ليسوا اليه شكواهم على الوليد، لأنهم خافوا أن يتألمهم غضب الخليفة بسبب انحيازه لأخيه.

وقد ورد خبر شربه الخمر وحده في صحيح مسلم، كتاب الحدود، على النحو التالي :

عن حصين بن المنذر، أبي ساسان، قال «شهدت عثمان بن عفان، وأني بالوليد، قد صلى الصبح ركعتين ثم قال: أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان، أحدهما حمران، أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقياً.

فقال عثمان: انه لم يتقياً حتى شربها. فقال: يا علي: قم فاجلده.

فقال علي: قم يا حسن. فاجلده!

فقال الحسن: ولّ حارها من تولّى قارها (فكانه وتجدّ عليه). فقال: يا عبد

الله بن جعفر، قم فاجلده!

فجلده، وعلي يعدّ، حتى بلغ أربعين. فقال: أمسيك.

ثم قال: جلد النبي (ص) أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكلّ سنة. وهذا أحسنّ النبي⁽¹⁾

وروى أحمد بن حنبل في مسنده خير جلد الوليد كما يلي:

عن حصين بن ساسان الرقاشي «انه قديم ناس من أهل الكوفة على عثمان رضي الله عنه فأخبروه بما كان من أمر الوليد، أي بشره الخمر. فكلّمه عليّ في ذلك

فقال: دونك ابن عمك فأقم عليه الحد.

فقال: يا حسن قم فاجلده.

قال: ما انت من هذا في شيء، ولّ هذا غيرك!

قال: بل ضعفت ووهنت وعجزت! قم يا عبد الله بن جعفر.

فجعل عبد الله يضربه ويعد علي حتى بلغ أربعين ثم قال: أمسيك، أو قال كصف، جلد رسول الله (ص) أربعين وأبو بكر أربعين، وكملها عمر ثمانين، وكلّ سنة⁽²⁾

(1) وأما ثبوت صحة الرواية لم يجد لها كثير بدأ من الاعتراف بمصادقة صلاة الوليد بالناس مخموراً وشهادة الشهود عليه ولكنه أخرجها في البداية والنهاية باختصار شديد وأشار إلى أن عثمان أمر بجلده.

وقد أخرج ابن شيبة في تاريخ المدينة نفس رواية أبي ساسان التي في صحيح مسلم، مع زيادة تنسب لعليّ تمنيه ابنه الحسن لرفضه تنفيذ الجلد.

(2) ووردت نفس الرواية مرة أخرى في مسند أحمد عن حصين بن المنذر بن الحرث بن وعلق، ولكن في مقدمتها «ان الوليد بن عتبة صلى بالناس الصبح أرباعاً ثم انقضت بهم فقال: أزيدكم؟»

ولا بدّ من التحفظ بشأن ما ورد في هذه الروايات على لسان عليّ من إقراره اجتهد عمر بالجلد ثمانين، خلافاً لعمل رسول الله وقوله عن ذلك «كلّ سنة». فمنهاج علي، الشديد الالتزام بأحكام النبي (ص)، يتناقض تماماً مع هذا القول المنسوب له. كما أن عصيان الحسن لأبيه حين طلب منه أن يقوم بالجلد لا يمكن تصديقه. بل الأرجح أن الهدف من هذه الدعوى القول بأن الحسن ليّن ورقيق، بخلاف أبيه.

فالرواية الأخرى التي رواها ابن شبة عن هراير بن موسى الهمداني تبدو أقرب للصحيح «لما كان من أمر الوليد بن عقبة ما كان، حيث شهدوا عليه أنه شرب الخمر. فأتي به عثمان رضي الله عنه. فلما ثبت الشهادة قال علي: أنا جلاّد قريش سائر اليوم فصرّته الحنّة...» ثم يتابع فيقول أن علياً ذكر أن بني إسرائيل هلكوا بسبب تعطيلهم الحدود عن أشرفهم ولذلك لا يجوز للمسلمين أن يكونوا مثلهم.

فمن البين أن الخليفة أمر بإقامة الحد على الوليد، مُرغماً غير راغب، وأن ذلك كان ظاهراً على حاله وقوله، مما جعل الناس يهابون تطبيق حد الجلد على الوليد. وهذا أيضاً ما جعل علياً أكثر إصراراً على تطبيق الحد ولو بنفسه. فتلك مسألة مبدأ لدى علي: فحكم الله يجب أن يطبق على أيّ كان، مهما كان منصبه ومرتبته.

روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة المزيد من التفاصيل:

قال أبو الفرج الأصفهاني نقلاً عن أبي عبيدة وهشام بن الكلبي والاصمعي «كان الوليد زانياً يشرب الخمر. فشرّب بالكوفة، وقام ليصلي بهم الصبح في المسجد الجامع.

فصلى بهم أربع ركعات!

ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟

وتقياً في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته في الصلاة:

علق القلب رباباً بعدما شابت وشاباً

فشخص اهل الكوفة الى عثمان فأخبروه بخبره، وشهدوا عليه بشرب الخمر.

فأتى به. فأمر رجلاً من المسلمين أن يضربه الحد. فلما دنا منه قال: نشدتك الله وقرايتي من أمير المؤمنين! فتركه.

فخاف علي بن ابي طالب عليه السلام أن يعطل الحد، فقام اليه فحده بيده فقال الوليد: نشدتك الله والقراية!

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): اسكت ابا وهب، فإنما هلك بنو اسرائيل لتعطيلهم الحدود.

فلما ضربه وفرغ منه قال: لتدعوني قرش بعدها جلاداً

وروى ابو الفرج أيضاً عن ابي الضحى «كان ناس من اهل الكوفة يطلبون عثرة الوليد بن عقبة، منهم أبو زينب الأزدي، وأبو مروع. فجاء يوماً ولم يحضر الوليد الصلاة، فسألا عنه، فتلفظا حتى علما أنه يشرب، فأتحما الدار فوجداه يقيئ. فاحتملاه وهو سكران حتى وضعاه على سريره، وأخذوا خاتمه من يده.

فأفاق، فافتقد خاتمه، فسأل عنه أهله فقالوا: لا ندري. وقد رأينا رجلين دخلا عليك فاحتملاك فوضعاك على سريرك. فقال: صغوهما لي. فقالوا: أحدهما آدم طوال حسن الوجه، والآخر مريض مريوع عليه خميصة. فقال: هذا أبو زينب وهذا أبو مروع.

ولقي أبو زينب وصاحبه عبد الله بن حبيش الأسدي وعلقمة بن يزيد البكري وغيرهما فأخبروهم. فقالوا: اشخصوا الى أمير المؤمنين فاعلموه. وقال بعضهم: انه لا يقبل قولكم في أخيه.

فشخصوا اليه فقالوا: إنا جئناك في أمر، ونحن مخرجوه اليك من أحناننا. وقد قبل انك لا تقبله.

قال: وما هو؟

قالوا: رأينا الوليد وهو سكران من خمر شريها، وهذا خاتمه أخفناه من يده وهو لا يعقل.

فأرسل عثمان إلى علي (عليه السلام) فأخبره، فقال: أرى أن تشخصه فإذا شهدوا عليه بمحضر منه حدثه.

فكتب عثمان إلى الوليد فقدم عليه. فشهد عليه أبو زينب وأبو مورع وجندب الأزدي وسعد بن مالك الأشعري.

فقال عثمان لعلي: قم يا أبا الحسن فأجلده...

وروى أبو الفرج عن الشعبي أن الشاعر الحطيئة قال

شهِدَ الحطيئة يوم يلقى رَبَّهُ أَنَّ الوليدَ أحقَّ بالعرسِ

نادى وقد تمت صلاتهم أَلزَيْدُكُمْ - سَكْرًا - ولم يدرِ

فأبوا أباه وبوا لو أذنوا لقرنت بين الشفع والوترِ

كفوا عنانك إذ جريت ولو تركوا عنانك لم تزل تجري⁽¹⁾

ويبدو أن الظرفاء من الرواة قد أدخلوا بعض التفاصيل الطريفة في أخبار سيرة الوليد في الكوفة. فموقف الوليد وهو يؤم الناس سكرانا مسطولا يثير الخيال ويطلق العنان للرواة للاستغاضة في التفاصيل. وهكذا ظهر شعر كثير منسوب لنديمه أبي زيد والمشاعر النصراني الحطيئة حول الوليد وشربه⁽²⁾.

(1) كما روى ابن شبة في تاريخ المدينة أيضا الشعر الذي قاله الحطيئة بتلك المناسبة، وفيه اختلافات طفيفة. كما روى عن خالد بن سعد أبياتا قالها صديقه المقرب أبو زيد الطائي «وكان نديما للوليد وكان نصرانيا»

وقال ابن هسار في تاريخ دمشق إن الناس قد زادوا البيتين التاليين إلى شعر الحطيئة:

نادى وقد تمت صلاتهم أَلزَيْدُكُمْ؟ ثَمَلًا وما يدرى

لنزيلهم غيراً ولو فعلوا لأمت صلاتهم على المشر

وهذا كله يدل على انتشار حادثة صلاة الوليد بن عقبة بالناس وهو سكران وذويعها، حتى أصبحت ماثرة تتدر

(2) وأضاف ابن عبد البر في الاستيعاب إلى شعر حطيئة أعلاه قوله:

«كلم في الصلاة وزاد فيها علانية وجاهر بالفاقة

ومنع الخمر في ستر المصلى ونادى والجميع إلى الفراق

ألزَيْدُكُمْ على أن تحملوني فما لكم وما لي من خلقي»

ولكن مع ذلك فإن فسق الوليد وخلاعه أمر متواتر لا يرقى إليه الشك.

وقد ازدادت صورته سوء بعد توليه إدارة شؤون الكوفة، فعُرف بتقريب صديقه النصراني أبي زييد، الذي أنزله في دار الضيافة بالقرب من منزله، وأدخله المسجد برغم نصرانيته، وأقام له الموائد الشهرية التي تنصدها الخمر. وتمادى الوليد في تجاوزاته، فأدخل أحد السحرة إلى المسجد ليقيم ألعابه، مما أثار الناس عليه، حتى وصل الخبر إلى المدينة. وهناك أخبار كثيرة جدا حول ذلك⁽¹⁾.

منها ما رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن أبي الفرج الاصفهاني أن الوليد استقبل صديقه القديم، أبا زييد الطائي، لما قدم عليه الكوفة، وأنزله داراً قريبة للمسجد، بعد أن كان استوهمها من صاحبها عقيل بن أبي طالب. فطعن أهل الكوفة على الوليد «لأن أبا زييد كان يخرج من داره حتى يشق المسجد إلى الوليد فيسمر عنده، ويشرب معه، ويخرج فيشق المسجد وهو سكران. فذاك نبههم عليه» وقال في رواية أخرى «فكان مما احتج به عليه أهل الكوفة أن أبا زييد كان يخرج إليه من داره وهو نصراني يخرق المسجد فيجعله طريقاً»

وقد روى الذهبي في سير اعلام النبلاء عدة روايات عن حادثة الساحر الذي كان يلعب عند الوليد في المسجد، مما أثار استهجان الصالحين من الناس وخاصة الصحابي جندب الأزدي الذي اندفع إلى قتل الساحر والدخول في مشكلة مع الوليد الذي عاقبه بسبب ذلك. فعن أبي عثمان النهدي «أن ساحراً كان يلعب عند الوليد بن عقبة الأمير. فكان يأخذ سيفه فيلعب نفسه، ولا يضربه. فقام جندب إلى السيف فأخذه فضرب عنقه ثم قرأ (أفئتون الساحر وأنتم تبصرون)»

وأضاف في رواية عن أبي مخنف أن الساحر كان يدخل في جوف حمار ويخرج من دبره، ويضرب عنق الرجل ثم يحييه! فقتله جندب بن كعب «فأراد الوليد بن عقبة قتله، فلم يستطع. فحبسه»

(1) رواية أبي مخنف من أكثرها تفصيلاً. وهي مذكورة في أنساب الاشراف للبلاذري.

وقال أيضاً في رواية عن أبي الأسود «فسجنه الوليد. فتهربه السجن
لصلاحه»

ويدو ان علاقة السم والشرب بين الوليد بن عقبة وصديقه أبي زيد
الطائي كانت وثيقة الى حد أنهما دفنا الى جوار بعضهما البعض في الرقة.
روى ابن عساكر في تاريخ دمشق :

«مر مسلمة بن عبد الملك بقبر الوليد بن عقبة بن أبي معيط بالرقة فقال:
قبر من هذا ؟

قيل: قبر الوليد بن عقبة.

قال: رحم الله أبا وهب وجعل يشي عليه.

قبر من هذا الآخر؟

قيل: قبر أبي زيد الطائي الشاعر .

قال: وهذا فرحمه الله

فقيل: انه كان نصرانياً.

قال: انه كان كريماً»

وقد لخص اليعقوبي في تاريخه ضمن كلامه عن أحداث سنة 26 للهجرة
أخبار الوليد بن عقبة فقال «وفيها ولي الوليد بن عقبة بن أبي معيط الكوفة،
مكان سعد، وصلى بالناس الغداة، وهو سكران، أربع ركعات، ثم تهوَّج في
المحراب، والثفت الى من كان خلفه فقال: أزيدكم؟

ثم جلس في صحن المسجد وأتى بساحر يدعى بطروى من الكوفة،
فاجتمع الناس عليه، فجعل يدخل من دبر الناقه ويخرج من فيها، ويعمل
أعاجيب.

فراه جندب بن كعب الأزدي فخرج الى بعض الصائقة، فأخذ منه سيفاً
ثم أقبل في الزحام وقد ستر السيف حتى ضرب عنقه ثم قال له: احبي نفسك
إن كنت صادقاً!

فأخذ الوليد فأراد أن يضرب عنقه فقام قومٌ من الأزد فقالوا: لا تقتل
والله صاحبنا!

فصيره في الحبس. وكان يصلي الليل كله، فنظر إليه السجان، وكان يكتئب
أبا سنان، فقال: ما عذري عند الله إن حبستك على الوليد يقتلك؟ فأطلقه.

فصار جندب إلى المدينة، وأخذ الوليد أبا سنان فضره مائتي سوط،
فوثب عليه جرير بن عبد الله، وعدي بن حاتم، وحذيفة بن اليمان، والأشعث
بن قيس، وكتبوا إلى عثمان مع رسلهم

فعرله وولى سعيد بن العاص مكانه.

فلما قدم الوليد قال عثمان: مَنْ يضره؟ فأحجم الناس لقرابته، وكان أخوا
عثمان لأمه، فقام عليٌّ فضره.

ثم بعث به عثمان على صدقات كلب ويلقين»

أكاذيب سيف بن عمر

لم يكتب سيفٌ بن عمر بالتغاضي عن سليات الوليد أو التخفيف من
حدة بعض الأخبار المتعلقة به ولا حتى بالدفاع عنه في بعض مواقفه وسياساته
بل قدم منظومة متكاملة من الروايات الملفقة حول ممارسات الوليد بن عقبة
خلال عهده في الكوفة تؤدي نيتها إلى صورة تختلف تماماً عن كل ما ذكره
الآخرون.

ولما كانت مسألة شرب الخمر وإقامة الحد عليه بسبب ذلك هي
الفضيحة الأكثر لصوقاً بالوليد وسمت، فقد لجأ سيف إلى مواجهتها بشكل
محترف وعلى النحو التالي:

فهو أولاً تطرق إلى سبب «الوشاية» التي تعرض لها الوليد. وقد أرجع
الأمر إلى «حقد شخصي» تجاه الوليد أضمره مجموعة من أهل الكوفة لا ذنب
للوليد فيه إلا قيامه بتطبيق القانون وتنفيذ واجبات منصبه! فقد روى الطبري
في تاريخه عن سيف أن الوليد «كان أحب الناس في الناس وأرقهم بهم»،
فكان ذلك خمس سنين وليس على داره باب» ثم بدأ يتحدث عن مشكلة

وقعت بين مجموعة من شباب الكوفة قامت خلالها مجموعة منهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن أبي مورع الأسدي وشبل بن أبي الأزدي بالاعتداء على شاب آخر هو ابن الحيسمان الخزاعي وقتله. فشهد عليهم لدى الوليد أبو شريح الخزاعي وابنه «فكتبَ فيهم إلى عثمان، فكتب إليه في قتلهم، فقتلهم على باب القصر». ويضيف سيف أنه بسبب تلك الحادثة، التي لا ذنب فيها للوليد على الإطلاق، أصبح آباء الشبان المعدمين، وخاصة جندب وأبي مورع، أعداء شخصيين للوليد، يترصدون به ويحاولون الإيقاع به!

ثم انتقل سيف ليماجد المسألة الأصعب وهي شرب الخمر، وإذ به، وبجراحة وصفقة نادرة، ينفيها من أصولها! ولم يأبه بالأخبار المتواترة، ولا بالصحيح، ليكمل الأمر كله تليقاً تعرض له الوليد «المظلوم» على يد المجموعة الحاقلة! وهكذا خرج سيف قصته كما رواها الطبري في تاريخه وابن عساکر في تاريخ دمشق: فهو يقول إن جندب الأزدي ومن معه أطلقوا «إشاعة» إن الوليد يشرب الخمر «جاء جندب ومن معه إلى ابن مسعود فقالوا: الوليد يشكف على الخمر! وأقاصوا ذلك حتى طرح على السن الناس. فقال ابن مسعود: من استر عنا بشيء لم نتبع حورته ولم نهتك ستره...»

ثم تناول سيف موضوع أبي زيد الطائي، تديم الوليد في جلسات الشرب كما يلي:

«كان عمر بن الخطاب قد استعمل الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة فنزل في بني تغلب. وكان أبو زيد في الجاهلية والاسلام في بني تغلب حتى أسلم وكانت بنو تغلب أخواله. فاضطهده أخواله كئناً له، فأخذ له الوليد بحقه، فشكرها له أبو زيد وانقطع إليه وغشى بالمدينة. فلما ولي الوليد الكوفة أتاه مسلماً معظماً على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة، فنزل دار الفيغان، وآخر قدمة قدمها أبو زيد على الوليد وقد كان يتجمعه ويرجع، وكان نصرانياً قبل ذلك فلم يزل الوليد به وعنه حتى أسلم في آخر إمارة الوليد وحسن إسلامه فاستدخله الوليد. وكان حريياً شاعراً حين قام على الإسلام.

فأتى أتى أبا زنب وأبا مورع وجندباً وهم يحقدون له مذ قتل إبناءهم ويضعون له العيون فقال لهم: هل لكم في الوليد يشارب أبا زيد؟ فتأروا في

ذلك. فقال ابو زينب وابو مورع وجندب لأناس من وجوه اهل الكوفة: هذا اميركم وابو زيد خيرته وهما حاكفان على الخمر. فقاموا معهم ومزل الوليد في الرحبة مع صمارة بن عتبة وليس عليه باب. فأتحموا عليه من المسجد ويأبه الى المسجد.

فلم ينجأ الوليد إلا بهم؛ فتخى شيئاً فأدخله تحت السرير. فأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره. فإذا طَبَّقَ عليه تغاريق عنب! وإنما نحاء استحياء أن يروا طبعه ليس عليه الا تغاريق عنب.

فقاموا فخرجوا على الناس فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. وسمع الناس بذلك فأقبل الناس عليهم يسرونهم ويلعنونهم ويقولون أتوام غضب الله لعمله وبعضهم أرغمه الكتاب فدعاهم ذلك الى التحسس والبحث. فستر عليهم الوليد وطواه عن عثمان. ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء وكره ان يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر.

ويلاحظ في سياق رواية سيف ان الوليد يستحق الثناء والتقدير على اخلاصه في سبيل دين الله ونجاحه في إدخال صديقه النصراني في الاسلام كما لا بد من التنويه بحسن خصال الوليد الذي يصبر على الأذى ويكره ان يضر هؤلاء الحاقدين فلا يبلغ الخليفة بما جرى!

واما كيف حُذِّ الوليد وعُزِّل؟ فيقول سيف ان الحاقدين انفسهم تابعوا مؤامراتهم ضد الوليد من أجل عزله

«ففسدوا الوليد وأكبروا عليه. فبيناهم معه يوماً في البيت وله امرأتان في المخدع بينهما وبين القوم ستر، احدهما بنت ذي الخمار والاخرى بنت ابي عقيل.

فتأتم الوليدُ.

وتفرق القوم عنه. وثبت ابو زينب وابو مورع، فتناول احدهما خاتمه، ثم خرجا.

فاستيقظ الوليد وامراتاه عند رأسه فلم ير خاتمه فسألها عن فلم يجد عندهما منه علماً. قال: فأبي القوم تخلف عنهم؟ قالتا: رجلان لا نعرفهما ما

غشياك الا مذكريب. قال: حلياهما. فقالتا: على احدكما خميسة وعلى الآخر مطرف وصاحب المطرف ابعدهما منك فقال: الطوال؟ فقالتا: نعم فقال: والقصير؟ فقالتا: نعم. وقد رأينا يده على يدك.

قال: ذاك ابو زينب والآخر ابو مروع وقد أرادا داهية فليت شعري ماذا يريدان؟

فطلبهما فلم يقدر عليهما. وكان وجههما الى المدينة

فقدما على عثمان ومعهما نفر ممن يعرف ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال

فقالوا له.

فقال: من يشهد؟ قالوا: ابو زينب وابو مروع. وكاع الآخرين.

قال: كيف رأيتما؟

قالا: كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر

فقال: ما بقيء الخمر الا شاربها

فبعث اليه فلما دخل على عثمان رأهما فقال متمثلا:

ما إن خشيت على امر خلوت به فلم أخفك على امثالها حار

فحلف له الوليد وأخبره خبرهم

فقال: نقيم الحفوة ويبرء شاهد الزور بالنار. فاضرب يا أخي.

فامر سميد بن الحاص فجلده. فأورث ذلك عداوة بين ولديهما حتى اليوم

وهكذا يحاول سيف بن عمر أن يظهر الوليد بن عقبة، الفاسق بالإجماع، وبالمنص القرآني، وابن أختي أعداء رسول الله (ص)، بمظهر الوالي الطيب المسكين الذي يأكل قطفاً من عنب لا غيراً بينما يحاول «الأشرار» الإساءة إليه، حتى أنهم يجردونه خاتمه من على إصبعه دون أن يشعر بهم لأنه نائم

ثم شهدوا عليه زورا عند عثمان الذي اضطر - رغم اقتناعه ببراءة الوليد - الى تطبيق الحد عليه.

وقد علق العلامة ابن عبد البر في الاستيعاب على هذه القصة كما يلي «وقد روي، فيما ذكر الطبري، أنه تعصب عليه قوم من أهل الكوفة بغياً وحسداً، وشهدوا عليه زوراً أنه ثقيلاً الخمر، وذكر القصة، وفيها أن عثمان قال له: يا أخي اصبر، فإن الله يأجرك، ويؤد القوم بإثمك.

وهذا الخبر من نقل أهل الأخبار لا يصح عند أهل الحديث، ولا له عند أهل العلم أصل»

ومن المفيد التامل في الرواية التالية لملاحظة التلاعب الذي قام به سيف بن عمر :

فقد روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن أبي الضحى :

«كان أبو زينب الأزدي، وأبو مروع، يلتمسان عثرة الوليد. فجاء يوماً - ولم يحضر الصلاة - فسألا عنه وتلففا حتى علما أنه يشرب. فاقتهما الدار فوجدهما بقي، فاحتملاه وهو سكران فوضعهما على سرير، وأخذتا خاتمه وخرجاه. فأفاق، ففقد خاتمه، فسأل، فقالوا: قد رأينا رجلين دخلا (الدار فاحتملاك فوضعاك على سريرك). فقال: صفوهما. فوصفوهما. فقال: هذان أبو زينب وأبو مروع. ولقي أبو زينب وأبو مروع عبد الله بن جبير الاسدي، وعقبه بن يزيد البكري، وغيرهما فأخبراهم فقالوا: اشخصوا الى امير المؤمنين فأعلموه. فشخصوا .

فقالوا له: انا جئناك لأمر نحن مخرجوه اليك من أعناقنا .

قال: وما هو؟

قالوا: رأينا الوليد سكران من خمر قد شربها، وهذا خاتمه أخذناه وهو لا يعقل.

فأرسل الى علي رضي الله عنه يشاوره. فقال: أرى أن تشخصه فإن شهدوا عليه بمحضرته حدثته.

فكتب اليه عثمان رضي الله عنه قلمي. فشهدوا عليه -ابو زينب وابو مروح وجندب الاسدي وسعد بن مالك الاشعري- ثم شهد عليه الايمان فقال عثمان رضي الله عنه لعلي: قم فاضربه....»

وهذه الرواية كما لا يخفى أكثر وجاعة من رواية سيف. فهي تختلف عنها في نقطة رئيسية: إثبات شرب الخمر. وطبعاً انتزاع خاتم الوليد من يده وهو سكران أمر ممكن، بعكس ما يدعيه سيف بأنهم انتزعوا خاتمه من يده وهو نائم، ودون أن يفيق!

ثانياً: تعيين سعيد بن العاص واليا على الكوفة⁽¹⁾

إذن قام عثمان في عام 29 أو 30 للهجرة باستبدال الوليد بن عقبة في منصب والي الكوفة بسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية وسعيد بن العاص هذا كان قد نشأ في حجر عثمان، بالإضافة طبعاً الى كونه من أبناء عمومه.

ذكر ابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب وابن الاثير في أسد الغابة:

«ولد عام الهجرة، وقيل: بل ولد سنة إحدى. وقتل أبوه العاص بن سعيد بن العاص يوم بدر كافرًا، قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: رأيته يوم بدر يبحث التراب عنه كالأسد، فصمد إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله....»

وكان سعيد بن العاص هذا أحد أشرف قريش، ممن جمع السخاء والفصاحة، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان رضي الله عنه

استعمله عثمان على الكوفة. وغزا بالناس طبرستان فافتتحها. ويقال انه افتتح أيضا جرجان في زمن عثمان سنة 29 أو سنة 30»

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 4 ص 95-97 وج 5 ص 32)، شرح نهج البلاغة لابن أبي العليد (ج 17 ص 242 وج 2 ص 59 وج 16 ص 188)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 272 + ص 753)، أسد الغابة لابن الاثير (ج 2 ص 310)، تاريخ دمشق لابن حساك (ج 21 ص 114)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 364) وكثر العمال للمفتي الهندي (ج 5 ص 623) ومروج الذهب للمسعودي (ج 2 ص 265)

ومن المؤكد أن هذا التعيين الجديد سبب خيبة أمل شديدة في أوساط الكوفيين. فما يروونه أمامهم هو مجرد تغيير في الاسم، لا في المضمون. فالوالي الجديد يشترك مع الوليد بن عقبة في المعالم الرئيسية: فكلاهما من أقرباء الخليفة من العائلة الأموية. وكلاهما ابنٌ لواحدٍ من أشرس أعداء رسول الله (ص) ممن قتلهم علي بن أبي طالب يوم بدر. وكلاهما رمزٌ لقريش وسلطانها. والفارق هنا أن الوالي الجديد أصغر سناً، فهو يبلغ من العمر 29 عاماً فقط.

وبعد كل تلك المشاكل والفضائح التي سببها الوليد بن عقبة في الكوفة، كان من المتوقع أن يعين الخليفة والياً له خبرة واستقامة لإصلاح الضرر. ولكن عثمان لم يفعل، وفضل تعيين قريبه الشاب في ذلك المنصب الحساس. وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وابن عبد البر في الاستيعاب شعراً قاله أحدهم معبراً فيه عن رأي الناس في هذا التعيين الجديد:

قُرِّرَتْ من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ قزعوا فباروا
 بلينا من قريش كل عامٍ أميرٌ محدثٌ أو مستشار
 لنا نأثر تحرقنا فنخشى وليس لهم -ولا يخشون- نأثر

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي، وكرده عنه ابن هساكو في تاريخ دمشق:

«فلما قدم الكوفة قديمها شاباً شترقاً ليست له سابقة.

فقال: لا أصعد المنبر حتى يُطهر! فأمر به ففسل.

ثم صعد المنبر فخطب أهل الكوفة وتكلم بكلام قصر بهم فيه ونسبهم إلى الشقاق والخلاف. فقال: إنما هذا السواد يستأثر لأهلهم من قريش! فشكوه إلى عثمان فقال: كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نمنله!»

وعبارة «إنما هذا السواد يستأثر لأهلهم من قريش» التي قالها سعيد بن العاص سوف

تشتهر وتنتشر وسوف يكون لها تأثير مهم على مستقبل الأحداث في الكوفة وعلى مصير الخليفة ذاته. وسيأتي الحديث عنها لاحقاً.

وفي رواية للواقدي في تاريخ الطبري «ان عثمان بعث سعيد بن العاص الى الكوفة أميراً عليها حين شهد على الوليد بن عقبة بشرب الخمر من شهد عليه، وأمره أن يبعث اليه الوليد بن عقبة.

فقدم سعيد بن العاص الكوفة فأرسل الى الوليد: أن أمير المؤمنين يأمرك أن تلتحق به.

فتضجع أياماً. فقال له: انطلق الى أخيك فإنه قد أمرني أن أبعثك اليه.

وما صعد منبر الكوفة حتى أمر به أن يغسل! فتأشده رجال من قريش كانوا قد خرجوا معه من بني أمية وقالوا: ان هذا قبيح! والله لو أراد هذا غيرك لكان حقاً أن تنب عنه! يلزمه عار هذا أبداً

فأبى إلا أن يفعل. فغسله

وأرسل الى الوليد أن يتحول من دار الامارة. فتحول منها ونزل دار عمارة بن عقبة»

وذكر المسعودي في مروج الذهب «... فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن يصعد المنبر حتى يغسل، وأمر بغسله وقال: ان الوليد كان نجساً رجساً»

وقد عبر ابن عبد البر في الاستيعاب عن غيبة أمل الناس واحباطهم من تعيينات الخليفة، خاصة بعد أن شاهدوا سياسات سعيد :

«فكتبوا الى عثمان: لا حاجة لنا في سعيدك ولا وليدك!

وكان في سعيد تجبرٌ وغلبة، وشدة سلطان.

وكان الوليد أسخى منه وآنس وألين جانباً، فلما عزل الوليد وانصرف قال بعض شعرائهم:

يا وليدنا قد ذهب الوليدُ وجاءنا من بعده سعيدُ

ينقص في الصاع ولا يزيدُ»

استطرد بشأن فروع بني أمية

ومبادرة سعيد بن العاص الى «غسل المتبر» في الكوفة قبل ان يصعده، لتطهيره من «رجس» الوليد بن عقبة، والتي تدل على احتقاره الشديد له، تعتبر مدخلاً مناسباً للتطرق الى بطون العائلة الأموية.

فيمكن تقسيم بني أمية الى أربعة بطون:

آل حرب: وهؤلاء ابناء وسلالة حرب بن أمية. ومن هؤلاء أبو سفيان صخر بن حرب، وابنه معاوية وحفيده يزيد بن معاوية. وهذا الفرع الأموي له سؤدد سياسي ومالي في مكة. فحرب بن أمية كان يقود جموع قريش في معاركها. وكذلك ابنه صخر الذي تابع حرب ابيه فتولى قيادة قريش، على مدار سبعة أعوام، في حروبها ضد النبي (ص) بعد مصرع القيادات الكبيرة يوم بدر. وبالإضافة الى نزعة السياسة والقيادية، يمتاز هذا الفرع الأموي بفناه ونشاطه التجاري البارز. وهذا الفرع الأموي هو الأشهر والأبرز، وأخباره ذائعة ومعروفة.

آل العاص: ومن أبرز هؤلاء سعيد بن العاص بن أمية، الملقب بأبي أحiche، الذي كان عظيم الشأن في قريش، ثرياً، مهاباً مطاعاً، حتى يروى أنه كانت له عمامة زرقاء وكان يمنع أي أحد من قريش أن يرتدي مثلها! قال ابن الأثير في اسد الغابة «كان أبو أحiche إذا اعتم بمكة لا يعتنم أحد بلون عمامته إعظاماً له. وكان يقال له: ذو الناج» وقد كان أبو أحiche هذا شديد العداء لمحمد (ص) ودعوته في مكة رغم كونه طاعناً في السن. فلما سمع أن ابنه خالد قد أسلم سرّاً وتبع محمداً (ص):

«فدعاه، وكنهه أن يدع ما هو عليه.

فقال خالد: لا أدع دين محمد حتى أموت عليه!

فصره أبو أحiche بقراعة في يده حتى كسرها على رأسه ثم أتر به الى الحبس. وصيّق عليه، وأجاعه وأعطشه. حتى لقد مكث في حُر مكة ثلاثاً ما يذوق ماء...»⁽¹⁾

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد

وحتى بعد أن هرب ابنه منه وهاجر مع المسلمين إلى الحيرة، بقي سعيد بن العاص بن أمية غاضباً وحاقداً على محمد (ص)، حتى أنه مرض مرة:

«... فقال: لئن رفعني الله من مرضي هذا، لأتبعه إلى ابن أبي كبشة بيطن مكة...»

وقد قتل ابنه العاص بن سعيد كافراً في معركة بدر على يد علي بن أبي طالب. ويشتهر من هذا الفرع الأموي سعيد بن العاص، والي الكوفة أيام عثمان، ووالي المدينة أيام معاوية. وهو ابن القتل في بدر، ويحمل نفس اسم جده أبي أحيحة، فاسمه الكامل سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية. ولذلك يحصل تشوش لدى الكثير من الباحثين بسبب تشابه الاسم بين الجد والحفيد.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الفرع الأموي قد خرج منه جناح آمن بالاسلام مبكراً. وقد مر ذكر خالد بن سعيد ومشكلته مع أبيه بسبب ذلك. بل إن خالد بن سعيد، رغم كونه أموياً بالنسب، يمكن وصفه بأنه شيعي! فبعد وفاة النبي (ص) كان يقول: لا أباع إلا علياً، وبقي لفترة طويلة مُصرّاً على رفضه لبيعة أبي بكر.

وكان خالد يقول لبني هاشم: «أنتم الظهور والبطن والشعائر دون الدثار، والمصا دون اللحم، فإذا رضيتم رضيتم وإذا سخطتم سخطنا أما والله يا بني هاشم: إنكم الطوال الشجر، الطير الثمر...»⁽¹⁾
«وبقي خالد ثلاثة أشهر لم يبيع أباً بكر»⁽²⁾

وقد حاول أبو بكر أن يستميله ويسترضيه. فبعد هودته من اليمن، التي كان النبي (ص) قد بعث عليها، قرر الخليفة الجديد تعيينه قائداً لأحد الجيوش المتجهة لفتح الشام. ولكن عمر بن الخطاب تدخل لدى أبي بكر من أجل عزله. فقام أبو بكر بعزله وعيّن مكانه يزيد بن أبي سفيان وأعطاه لواءه.

والسبب كان شكّ عمر في ولائه للقيادة الجديدة لأنه كان ممن رفض

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد. وكذلك ورد في كثر المال للمطري الهندي

بيعة أبي بكر، وكان هوامع عليّ، كما روى ابن سعد في الطبقات الكبرى
 ورواه خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبابكر. ثم مر عليه أبو بكر بعد ذلك فظفروا
 وهو في داره فسلم عليه. فقال له خالد: أتحب أن أبابيك؟ فقال أبو بكر: أحب
 أن تدخل في صلح ما دخل فيه المسلمون. قال: مرعدك العشة أبابيك. فجاء
 وأبو بكر على المنبر فبايعه. وكان رأي أبي بكر فيه حسناً وكان معظماً له، فلما
 بعث أبو بكر الجنود على الشام عقد له المسلمين، وجاء بالهواء إلى بيته. فكلّم
 عمر أبابكر وقال: تولي خالد وهو القاتل ما قال؟ فلم يزل به حتى أرسل أبابكر
 أروى الدوسي فقال إن خليفة رسول الله (ص) يقول لك: اردد إلينا لواءنا.
 فأخرجه فدفعه إليه وقال: والله ما سرتنا ولا يتكلم ولا ساءنا عزلكم وإن المليم
 غيرك»

ورغم هذا الخلاف مع أبي بكر، إلّا أن خالداً، ومعه اخواه عمرو وأبان،
 خرجوا مع الجيوش المتجهة إلى الشام. وكان بلاؤهم حسناً فاستشهدوا
 جميعاً في معارك اجنادين، ومرج الصفر واليرموك.

والخلاصة أن فرع آل العاص هو أكرم فروع بني أمية وأكثرها شعوراً.
 واعتداداً بالنفس. ورغم أن سعيد بن العاص، كان بالتأكيد ملتزماً بالخط
 الأموي العام أثناء عمله لعثمان ومعاوية من بعده، إلّا أنه كان يظهر لديه في
 بعض المواقف ما يشير إلى كرم الأصل والمنبت. فكان يأبى أن يمارس سلوكاً
 ينم عن خسة مما تعافه النفس السوية، بخلاف أقربائه الأمويين من البطون
 الأخرى وبالأذات مروان بن الحكم والوليد بن عقبة. فمثلاً هو كان يرفض
 أن يشتم الإمام علي بن أبي طالب على المنبر في المدينة. كما أنه لم يمتنع
 أن يُدفن الإمام الحسن بن علي عند قبر جده رسول الله (ص) لما توفي ولم
 يتدخل فيما جرى بين بني هاشم ومروان بن الحكم، رغم كونه الوالي على
 المدينة آنذاك. عدا عن أن سعيد بن العاص لم يحارب الإمام علي في الجمل
 وصفين، وبقي في مكة ورفض أن يتابع المسير مع عائشة إلى البصرة، ولم
 يذهب إلى معاوية إلّا بعد أن بوع بالخلافة.

آل أبي العاص: وهؤلاء سلالة أبي العاص بن أمية، وأبرزهم الخليفة

عثمان بن عفان بن أبي العاص، وابن عمه مروان بن الحكم بن أبي العاص، ومن بعده ابنه عبد الملك وبقية خلفاء بني أمية حتى انهيار دولتهم. وهذا الفرع لم يكن بارزاً ولا معروفاً بالسيادة والعلو. فهو لا يعدّ نذراً لآل حرب ولا آل العاص من أمية. بل إن في ممارسات وسلوكيات الحكم بن أبي العاص، بعد أن اضطرّ للدخول في الاسلام، ما يشير الى نزعة للتعتك والمخالعة مما تأباه الأنفس الكريمة.

آل أبي معيط: وهؤلاء سلالة أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية. وهذا الفرع هو الأكثر غملاً وسفالة من بين بطون أمية. بل إن هناك عدة روايات تطعن في صحة نسب هذا الفرع. فيقال إن أبا عمرو بن أمية، واسمه الاصلي ذكوان، كان في الحقيقة عبداً لأمية، اشتراه من صفورية من الشام، وتبناه واستلحقه فيما بعد. ومن أشهر شخصيات هذا الفرع عقبة بن أبي معيط الذي أعده رسول الله (ص) يوم بدر، وابنه الوليد بن عقبة، والي عثمان على الكوفة، وقد مر ذكره.

وهذه البطون الأموية كانت تتنافس فيما بينها، وتتحاسد، وتتفاخر. ومن الامثلة على ذلك، كما روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، أن بطن أبي العاص الأموي، رأى في قيام معاوية بن أبي سفيان باستلحاق زياد بن أبيه بنسبه محاولة لتقوية فرع آل حرب على حسابيه حتى أن عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص قال لمعاوية «لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا».

وفي ختام هذا الاستطراد لا بد من الإشارة الى مجموعة أخرى من الشخصيات البارزة التي يمكن اعتبارها أموية رغم عدم انتسابها لأمية من الناحية السلالية. فأمية هو ابن عبد شمس بن عبد مناف. وعبد شمس هذا له عقب غير أمية، وهو أخوه حبيب وابنه ربيعة. وهناك شخصيات لعبت أدواراً مهمة تنتمي الى ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، منها من عظماء قريش وأعداء النبي (ص) في مكة: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابنته هند زوجة أبي سفيان. ومن الجيل اللاحق اشتهر عبد الله بن عامر بن كريز، والي عثمان على البصرة،

قال ابن الأثير في ترجمته في اسد الغابة «واستعمله عثمان على البصرة سنة 29 بعد أبي موسى. وولاه أيضاً بلاد فارس بعد عثمان بن أبي العاص. وكان عمره لما ولي البصرة أربعاً أو خمساً وعشرين سنة»

ويشأن الأهلية الإسلامية لعبد الله بن عامر: بما أنه قد ولد في السنة الرابعة للهجرة، لا يمكن الحديث عن أي دور له شخصياً في الفترة النبوية لا سلباً ولا إيجاباً، لأن عمره حين توفي النبي (ص) لم يكن يتجاوز السادسة الا قليلاً. وأما أبوه، فلا يوجد له ذكر في أحداث الفترة النبوية. فلا هو معروف ضمن أعداء النبي (ص) من قيادات قريش في مكة، ولا هو من الذين أسلموا واتبعوا النبي (ص). بل كل ما يذكر عنه انه كان من المطلقاء من مسلمة الفتح. وأغلب الظن أنه كان شخصية خاملة رغم نسبه الرفيع. والظاهر أنه اكفى بدور التابع البسيط لأعمامه عتبة وشيبة ابني ربيعة الذين كانوا يتصدران أهل مكة في مواجهة محمد (ص).

وهكذا يكون عثمان قد تابع مسلسل تعييناته لأقربائه وأبناء عائلته في المناصب القيادية العليا في الدولة. وهو هنا يعين قريبه من بني عبد شمس وابن خاله والياً على البصرة عام 29 للهجرة بعد أن عزل واليها الصحابي القديم أبا موسى الأشعري.

وهناك منحةٌ صلاحيات واسعة، رغم صغر سنّه الذي لم يتجاوز الخمسة وعشرين، ثم ولاءه أيضاً بلاد فارس بعد عزل عثمان بن أبي العاص الثقفي.

ومثلما كان رد فعل سعد بن أبي وقاص حينما عزل عن الكوفة وعُين مكانه الوليد بن عقبة، كان رد أبي موسى: الاستياء والاستنكار:

قال خليفة بن خياط في تاريخه عن أحداث عام 29 للهجرة «فيها عزل عثمان بن عفان أبا موسى الأشعري عن البصرة، وعثمان بن أبي العاص عن فارس، وجمع ذلك أجمع لعبد الله بن عامر بن كريز.

فحدثني الوليد بن هشام قال: حدثني أبي عن جدي عن الحسن قال: قال أبو موسى: يقدم عليكم غلامٌ كريمٌ الجملات والمصامت، يجمع له الجنان. فقدم ابن عامر.

وسمعت أبا اليقظان ذكر نحو ذلك وقال: قدم ابن عامر وهو ابن أربع أو خمس وعشرين سنة»

قال اليعقوبي في تاريخه «وعزل أبا موسى الأشعري وولى مكانه عبد الله بن عامر بن كريز وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة. فلما بلغ أبا موسى ولاية عبد الله بن عامر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: قد جاءكم غلامٌ كثير الممات والمخالات والجبّات في قرش، يفيض عليكم المال فيضاً»

وفي رواية للطبري عن أبي بكر الهذلي أن أبا موسى قال لأهل البصرة لما استبدل بابن عامر «يأتاكم غلامٌ خراج ولاج، كريم الجبّات والمخالات والممات، يُجمع له الجندان.

قال الحسن: قدّم ابن عامر. فجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي»

وكذا به المتواصل وعادته في الدفاع عن عثمان وسياساته، كائناً ما كانت، لم يفت سيف بن عمر أن يجد تبريراً لقرار عزل أبي موسى وتعيين ابن عامر مكانه. فانفرد الطبري، في روايته عن سيف، في ذكر قصة طويلة ملخصها أن أهل (إيذج والاكرد) قد ارتدوا فتدبّ الوالي أبو موسى الناس للخروج للجهاد حتى لو كانوا راجلين فاستجابوا، ولكنهم فوجئوا أن أبا موسى لما خرج معهم «أخرج ثقله من قصره على أربعين بهلاً» مما أثار استياءهم «ومضوا فأتوا عثماناً فاستخفوه منه وقالوا: ما كل ما نعلم نحب أن نقوله. فأبذلنا به.

فقال: من تحبون؟

فقال غيلان بن خرشة: في كل أحدٍ عوض من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فيها. فلا تنفك من أشعري كان يظلم ملكه عن الأشعريين ويستصفر ملك البصرة. وإذا أثرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه أو مهترأ كان فيه عوض منه، ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه.

فدعا عبد الله بن عامر وأثّره على البصرة»

وهذا الوصف الوارد في رواية سيف هذه في نعت أبي موسى العبد الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا هو قاسي جداً بحقه، ولا يوجد له نظير في المصادر الأخرى، التي هي في إجمالها تشير إلى أن أبا موسى كان والياً ناجحاً. وكلمة (العبد) المستعملة هنا غريبة ومستهجنة، فأبو موسى صريح من عرب اليمن وليس من الموالي حتى يشتمه عدوه بقوله عنه «عبد». وهناك رواية أخرى في الطبري عن علي بن مجاهد، ربما أمكن قبولها، وهي تذكر أن غيلان بن خرشة هذا قال لعثمان أما منكم غسيس ترفعوه؟ أما منكم فقير تمجروه؟ يا معشر قريش حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد؟

فانتبه لها الشيخ فلامها عبد الله بن عامر

وهذه الرواية أخف وطأة من رواية سيف، فلا يستبعد أن يكون غيلان هذا قد اقترح على عثمان استبدال أبي موسى بواحد من قومه، تزلزلاً ونفاقاً للخليفة وتقرباً منه. فالارجح أن سيف بن عمر قد أخذ هذه الرواية وحرفها وأضاف إليه فقرة الأريمين بغلاً والأوصاف المسيئة بحق أبي موسى. كل ذلك من أجل إيجاد عذر لعثمان في عزله.

والظاهر أن غيلان بن خرشة هذا قد نال مكافأة من عبد الله بن عامر بعدما تولى. فقد ذكر البلاذري في فتوح البلدان أن من ضمن الأنهار التي كان ابن عامر يحفرها في البصرة واحداً عرف باسم أمه: نهر أم عبدالله دجاجة فتولاه غيلان بن خرشة القسي.

ولست متأكداً من المقصود بـ «تولاه» هنا، ولكن أظنها تعني امتلاك حقوقه والسيطرة عليه.

وعلى كل حال فإن عثمان لم يرَ نفسه مضطراً إلى شرح أسباب عزله لأبي موسى الأشعري واكتفى بأن كتب له «إني لم أحزلك عن عجز ولا خيانة... وإني لأعرف فضلك وإني من المهاجرين الأولين ولكنني أردت أن أصل قربة عبد الله بن عامر...» كما ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى وابن عساکر في تاريخ دمشق.

رابعاً: تعيين عبد الله بن سعد بن أبي السرح واليا على مصر⁽¹⁾

هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري. وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاة.

خلفية ابن أبي السرح

من الضروري التذكير بأن هذا الشخص كان من أغنيى رجالات قريش منذ القدم. فبخلاف غيره من سادة قريش الذين رفضوا دعوة محمد (ص) وحاربوه علناً وبكل صراحة، فقبل هو محاربة محمد (ص) بطريقه أغنيى وألماً فقد تظاهر بالإيمان بدعوة محمد (ص) وهو مستضعف في مكة، وتقرّب منه إلى أن جعله من الذين يكتبون الوحي القرآني. وبعد ذلك ارتدّ وعاد إلى إخوانه في قريش ليقول لهم إن محمداً (ص) كذاب وليس نبياً: «ما يدري ما يقول! إني لأكتب له ما شئت!»

وليس هناك اختلاف يُذكر بين أصحاب السير والحديث والأخبار حول سيرة ابن أبي السرح. فمثلاً قال عنه ابن اسحق، صاحب السيرة، كما يروي ابن هشام «أنه قد كان أسلم، وكان يكتب لرسول الله (ص) الوحي، فارتدّ مشركاً راجعاً إلى قريش» وذكر ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمته فوكان يكتب الوحي لرسول الله (ص) ثم ارتدّ مشركاً وصار إلى قريش بمكة فقال لهم: انني كنتُ أصرف محمداً حيث أريد. كان يملئ عليّ عيز حكيم فأقول: أو عليم حكيم. فيقول: نعم كلّ صواب!» وقال الواحدي في أسباب النزول، وقريبٌ منه ما رواه الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين، أن الآية (ومن

(1) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج 4 ص 44)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 3 ص 173)، أسباب النزول للواحدي (ص 148)، المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج 3 ص 45) و (ج 2 ص 54)، كتاب المغازي للواقدي (ج 1 ص 74)، تاريخ دمشق لابن حسّان (ج 29 ص 32-33-34) و (ج 39 ص 301)، الأصابة لابن حجر المصقلاني (ج 4 ص 95)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 190)، سنن النسائي (ج 7 ص 106)، سنن أبي داود (ج 1 ص 127)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 2 ص 141)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 435)، الكامل لابن الأثير (ص 372)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 315)، كتاب الثقات لابن حبان (ج 2 ص 244)، تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 164).

قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قد أنزلت فيه، وذلك حين دعاه رسول الله (ص) ليكتب له آية خلق الإنسان حيث قال: **لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إليّ كما أوحى إليّ، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال.** وارتدّ عن الإسلام، وروى الواقدي في كتاب المغازي أن ابن أبي السرح ارتدّ ورجع ليقول لقريش **«ما كان يعلمه إلا ابن قنطة، عبد نصراني. قد كنتُ أكتب له فأحوّل ما أردتُ. فأنزل الله عز وجل (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر. لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)»**^(١)

ويسبب هذا الدور الدعائي الحفيري الذي لعبه ابن أبي السرح، قرر الرسول (ص) إعدامه يوم فتح مكة: روى ابن عساكر **«قال رسول الله (ص): من وجد ابن أبي السرح فليضرب عنقه، وإن وجد متعلقاً بأستار الكعبة»** وقد كان المسلمون حريصين جداً على تنفيذ الأمر النبوي بقتله، لولا أنّ عثمان بن عفان خبّاه ثم أتى به إلى النبي (ص) فجاءه ليشفع له، فألح عليه كثيراً إلى أن أحرجه فتركه وأعرض عنه.

وقد ورد في سنن النسائي وسنن أبي داود واللفظ للأول، **«لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله (ص) الناس إلا أربعة نفرٍ وامرأتين وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، عبد الله بن خططل، مقيس بن صبابه وعبد الله بن سعد بن أبي السرح. فأما عبد الله بن خططل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبقّ إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيداً عماراً وكان أشبّ الرجلين قتلته. وأما مقيس بن صبابه فأدركه الناس في السوق فقتلوه وأما عكرمة فركب البحر..... وأما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله (ص) إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي (ص).**

قال: يا رسول الله بايع عبد الله!

قال: فرفّع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كلّ ذلك يابى.

(١) الآية رقم ١٥٣ من سورة النحل.

فبايعه بعد ثلاث.

ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رأيته كفتُ يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلّا أوامرت إلينا بعينك؟

قال: إنه لا ينبغي لشيء أن تكون له خاتمة أعين⁽¹⁾

وبالرغم من طريقة إسلامه هذه إلا أن ابن أبي السرح لم يعدم من يتعاطف معه على قاعدة «عفا الله عما سلف»، ومن هؤلاء ابن عبد البر الذي قال عنه في الاستيعاب «حسّن إسلامه، فلم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك. وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قریش»

عزل عمرو بن العاص

ورغم هذه الخلفية الحافلة لابن أبي السرح، لم يرَ الخليفة بأساً في تعيينه في منصب رفيع جداً وحساس.

ففي مصر عين عثمانُ عبدالله بن سعد بن أبي السرح حاكماً بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص عام 25 للهجرة⁽²⁾

والذي حدث أن عمرو بن العاص، الداهية والسياسي والقائد المشهود له، قد تعرّض إلى نكسة شديدة في عهد عثمان بن عفان. فقد أسفر صراعٌ باطني، طويلٌ ومُضني، بين عمرو بن العاص ورجلٍ يماثله في الخلق: عبد الله بن أبي السرح، على أرض مصر، قواؤه المكائد والشائعات، عن انتصار الأخير، الذي لا شك استغلَّ علاقته الوطيدة بالخليفة، وكونه أخاه بالرضاعة. فقام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وتعيين ابن أبي السرح مكانه.

(1) سنن الترمذي. وسنن أبي داود، باب قتل الأسير لا يعرض عليه الإسلام. وكذلك روى ابن عساکر في تاريخ دمشق. والجزء الأول من الرواية ورد في المستدرک علی الصحیحین للحاکم النیابوری. وأيضاً وردت القصة بألفاظ مختلفة لدى ابن سعد في الطبقات الكبرى وابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر المسقلائي في الإصابة.

(2) أسد الغابة لابن الأثير

وكان عزل عمرو عن ولاية مصر قد تم على مرحلتين: الأولى كَفَّ يده عن مالية البلاد وتسليمها لابن أبي السرح. وطبعاً لن يستقيم أمر البلاد برأسين متنافسين ولا بد من إطاحة أحدهما. قال ابن الأثير في الكامل ضمن كلامه عن سنة 27 «في هذه السنة عَزَلَ عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل عليه عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وكان أخا عثمان من الرضاعة. فتباغيا. فكتب عبد الله إلى عثمان يقول: إن عمراً كسر عليّ الخراج. وكتب عمرو يقول: إن عبد الله قد كسر عليّ مكيّة الحرب.

ف عزل عثمان عمراً واستعمله، واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وغزاهما»⁽¹⁾

ولكن ابن عبد البر في الاستيعاب يذكر سبباً مباشراً لعزل ابن العاص «في سنة 25 انتفضت الاسكندرية، فافتتحها عمرو بن العاص، وقتل المقاتلة وسبى الذرية. فأمر عثمانُ بردَ السبي الذين سُبوا من القرى، ولم يصح عنده نقضهم. وعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن أبي السرح»⁽²⁾

وأنا لا أظن أن عثمان قد عزل ابن العاص عن ولاية مصر بسبب خطأ إداريٍّ معيّن كما توحي بذلك هذه الرواية الأخيرة لابن عبد البر وابن حبان واليعقوبي، بل المرجح أن عثمان أراد حاكماً لمصر يدين له شخصياً بالولاء والطاعة، فكان ابن أبي السرح هو الحل. فابن أبي السرح يدين بحياته كلها لعثمان الذي أنقذه من حكم الإعدام الذي كان النسي (ص) قد أصدره عليه، وإخلاصه لشخص عثمان لن تشوبه شائبة.

أول ما صنعه عمرو بن العاص في سبي الاسكندرية كان ذريعة اتخذها عثمان لتبرير قراره الذي كان مضمراً في نفسه.

وأما سيف بن عمر فإن روايته لتعيين ابن أبي السرح تصل درجة من السخف تجعلها لا تستحق البحث الجدي. وفيما يلي ملخصها كما روى

-
- (1) وهذه الرواية منقولة بالتأكيد من تاريخ الطبري الذي وردت فيه بصيغة «قال ابن عمرو حدثني أسامة بن زيد عن يزيد بن أبي حبيب»
(2) ومثل هذه الرواية وردت في كتاب الفُتُوح لابن حبان وكذلك وردت في تاريخ اليعقوبي

ابن عساكر في تاريخ دمشق: وحسب قول سيف فإن المسألة كلها سببها ذلك الشخص اليهودي الشيطاني عبد الله بن سبأ! فابن سبأ قد رسّم لأتباعه في مصر، وخاصة سودان بن حمران والغافقي وكنانة بن بشر، خطة جهنمية لزعزعة الأوضاع فيها. فقرر لهم أن يطمعوا في الوالي عمرو بن العاص ويكثروا الشكوى منه وأن يطالبوا بتعيين عبد الله بن أبي السرح مكانه! وأنهم نقلوا تلك الخطة إلى أن نجحوا في معامهم لدى عثمان بن عفان على خطوتين: فاولاً عين عثمان ابن أبي السرح على الخراج واستبقى عمراً على الصلاة بالناس. فسمى أتباع ابن سبأ بالإفساد بين ابن أبي السرح وابن العاص وأغروهما ببعضهما البعض! إلى أن نجحوا ثانياً وأخيراً في إقناع الخليفة، بناء على إصرارهم، بتعيين عبد الله ابن أبي السرح والياً مطلقاً على مصر!

واقبس ابن كثير في البداية والنهاية جوهر الرواية وذكرها بدون سند ودون التصريح باسم عبد الله بن سبأ بل استبدله بلفظة (الخوارج) فقال عن عزل عمرو وتولية ابن أبي السرح فكان سبب ذلك أن الخوارج من المصريين كانوا محصورين من عمرو بن العاص، مقهورين معه لا يستطيعون أن يتكلموا بسوء في خليفة ولا أمير. فما زالوا حتى شكوه إلى عثمان ليزعه عنهم ويولي عليهم من هو أليّن منه. فلم يزل ذلك دليهم حتى عزل عمراً عن الحرب وتركه على الصلاة، وولى على الحرب والخراج عبد الله بن سعد بن أبي السرح. ثم سعوا فيما بينهما بالنميمة فوقع بينهما، حتى كان بينهما كلام قبيح. فأرسل عثمان فجمع لابن أبي السرح جميع عمالة مصر، خراجها وحريها وصلاتها. ويحث إلى عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك!

خامساً: توسيع ولاية معاوية بن أبي سفيان⁽¹⁾

في الشام وسّع عثمان صلاحيات معاوية، وهو واحد من بني عموته من بني أمية، وزاد في ولايته وجعلها تشمل كل بلاد الشام، دمشق وحمص

(1) مصادر هذا البحث: البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص109)، تاريخ الطبري (ج3 ص304)، كتاب الفتاح لابن حبان (ج2 ص241)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص161)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج7 ص406) و (ج4 ص375)، فتح البلدان للبلاذري (ج1)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص135)

والأردن وفلسطين وأضاف لها الجزيرة، بعد أن كانت تقتصر على دمشق، أو بعض الشام بتعبير آخر، أيام عمر.

قال ابن كثير في البداية والنهاية إن يزيد بن أبي سفيان هو أول من تولى إمرة دمشق من المسلمين وذلك في زمن عمر، بعد أن كان أبو بكر قد وعده بذلك حين أرسله قائداً لأحد الجيوش الأربعة التي بعثها لفتح الشام، ولكنه توفي في طاعون عمواس القاتل «ولما مات كان قد استخلف أخاه معاوية على دمشق. فأمضى عمر بن الخطاب له ذلك»

وذكر الطبري في تاريخه أسماء عمال عمر بن الخطاب على الولايات عند وفاته في أواخر سنة 23 للهجرة. وكان منهم «وعلى حمص عمير بن سعد⁽¹⁾، وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان»

وكذلك روى ابن حبان في كتاب الثقات عن عمال عمر لدى وفاته «وعلى حمص أعمالها عمير بن سعد الضمري، وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان»

وقال اليعقوبي في تاريخه عن عمال عمر لدى فاته «وعمر بن سعد الانصاري على حمص، ومعاوية بن أبي سفيان على بعض الشام»

وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى عن معاوية «ولاء عمر بن الخطاب دمشقاً عملاً أخيه يزيد بن أبي سفيان حين مات يزيد. فلم يزل والياً لعمر حتى قتل عمر رضي الله تعالى عنه. ثم ولاء عثمان بن عفان ذلك العمل وجمع له الشام كلها»

وروايات البلاذري في كتابه فتوح البلدان تفيد بأن عمير بن سعد كان قد تولى حمص والجزيرة لعمر بن الخطاب، وذلك بعد أن توفي واليها السابق

(1) وقد ذكر ابن سعد في طبقاته أن عمير بن سعد هو صحابي أنصاري، كان أبوه قد شهد بدرًا، واستشهد في معركة القادسية. وذكر له بسنده خطبة نزل على حرسه على الرحبة وعلى العدل والحق فكان يقول وهو أمير على المنبر على حمص، وهو من أصحاب النبي (ص): «ألا إن الإسلام حائط منيع وباب وثيق. فحائط الإسلام العدل وبابه الحق. فإذا نفخ الحائط وحطم الباب استفتح السلام. فلا يزال الإسلام منها ما اشد السلطان. وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل»

عياض بن غنم الذي كان له دور بارز في فتح منطقة الجزيرة. فقام عثمان بضم كل ذلك الى عمل معاوية.

والظاهر أن ولاية الشام قد استقرت أيام عمر بن الخطاب على اقليمين: جنوبي ومركزه دمشق برئاسة معاوية ويشمل الاردن وفلسطين وجزء من لبنان، وشمالاً مركزه حمص برئاسة عمير بن سعد الانصاري ويشمل قنسرين والرقّة وكل منطقة الجزيرة. روى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن الزهري «فزع عثمان عمير بن سعد وجمع الشام لمعاوية» وعنه أيضاً «لم يفرد معاوية بالشام حتى استخلف عثمان»

مع العلم أن طلائع جيوش الفتح العربي التي أرسلها الخليفة أبو بكر الى الشام كانت مقسمة الى أربعة جيوش ولها أربعة اتجاهات: جند دمشق، جند الاردن، جند فلسطين وجند حمص، وكان لها أربع قادة. ولكن بعد نجاح الفتح استقرت الولاية على ما ذكرناه.

وثمة ملاحظة هنا: وهي ان معاوية كان هو الوحيد الذي استبقاه الخليفة عثمان من ولاية عمر بن الخطاب. وهو قام بتغيير عمال كل الولايات الأخرى ونزع عنها ولاية عمر. والمفارقة هنا ان عثمان كان يحتج على الذين يلومونه بسبب وضعية معاوية العالية جداً في الدولة بقوله ان عمر قد ولاه وللسائل أن يسأل: ان عمر قد ولي أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص وغيرهم، فلماذا استبدلهم عثمان اذن؟ ان استبقاه معاوية- الاموي- فقط من بين عمال عمر كان يدعم نظرية كارهي الخليفة الذين قالوا انه أراد أن تسيطر عائلته على كل مفاصل دولة الاسلام.

وبالإضافة الى توسيع حدود ولاية معاوية، غيّر عثمان أسلوب التعامل معه عما كان أيام عمر. فبعد أن كان عمر يحكم قبضته على كل كبيرة وصغيرة من شؤون الحكم في الولايات كلها، لجأ عثمان إلى أسلوب تفويض الصلاحيات إلى الوالي. وسواء اتخذ عثمان هذا المنحى بسبب ضعفه في شخصيته، أم بسبب صعوبات موضوعية ناتجة عن بُعد المسافات وضخامة حجم الدولة، فالنتيجة واحدة وهي المزيد من اللامركزية في الإدارة والقرارات.

فتخلص معاوية، أخيراً، من شبح عمر المُهمين، وأصبح حراً طليقاً في ولايته الضخمة والغنية. فعدا عن المبلغ السنوي الذي يرسله معاوية من خراج الشام إلى مركز الخلافة في المدينة، صار معاوية مستقلاً بالفعل فيما يختص بشؤون الجيوش والإدارة، والتجمعات العربية التي استوطنت الشام، والعلاقة مع أهل البلاد القديمة ومع دولة الرومان في الشمال.

واستغل معاوية قربته من عثمان وصلاته العائلية به، في ترسيخ هيمنة وسيطرته على مقاليد الأمور في الشام. فكان يقول لرعيته إن كل ما يأمر به ويقرره إنما هو أمر الخليفة وسياسته. ولم تكن هناك قنوات تواصل بين الخليفة في المدينة وبين الرعية في الشام، إلا من خلال معاوية. وبمرور الوقت، أخذ الناس في الشام يسمون أن معاوية هو فقط من يعبر عن مؤسسة الخلافة ويتنطق باسمها، ويمتلك صلاحية القرار بالنيابة عنها.

وسوف يأتي لاحقاً الحديث عن الدور الذي صار معاوية يلعبه في أواخر عهد عثمان، وكيف تحول إلى الرجل القوي في الامبراطورية الاسلامية يلجأ له الخليفة عثمان عندما يريد أن يؤدب أحداً عارضه أو يقمع خطراً هدهد.

سادساً: والي اليمن يعلي بن أمية⁽¹⁾

وفي اليمن كان رجل عثمان وواليه المخلص هو يعلي بن أمية (وهو أحياناً ينسب إلى أمه منية، فيقال له: يعلي بن منية). وعلى الرغم من أنه لم يكن من أقرباء عثمان، بل كان من قبيلة تميم، إلا أنه كان من حلفاء قريش في مكة. وكان كغيره من ولاة عثمان من الطلقاء ومسلمة الفتح.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب عن المدائني «استعمل أبو بكر الصديق يعلي بن أمية على بلاد حلوان في الرقة. ثم عمل لعمر على بعض اليمن، فعمى نفسه حتى بلغ ذلك عمر، فأمره أن يمشي على رجله إلى المدينة / فعمى خمسة أيام، أو ستة إلى صعدة، وبلغه موت عمر فركب! فقدم المدينة على عثمان رضي الله عنه، فاستعمله على صنعاء.

(1) مصادر هذا البحث: الاستيعاب لابن عبد البر (ص 765)، اسد الغابة لابن الأثير (ج 5 ص 128)، حياة الصحابة للكاتب العلوي (ج 1 ص 564)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النخعي (ج 3 ص 1028)، شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد (ج 10، ص 239 - 244)

ثم قدم وافداً على عثمان، فمرّ عليّ على باب عثمان، فرأى بقلته جوفاء عظيمة فقال: لمن هذه البقلة؟ فقالوا: هي ليعلي. قال: ليعلي والله! وكان عظيم الشأن عند عثمان، وله يقول الشاعر:

إذا ما دعا يعلي وزيد بن ثابت لأمر ينوب الناس أو لخطوب
وقال عنه ابن الأثير في اسد الغابة:

«أسلم يوم الفتح. وشهد حنيناً والطائف وتبوك..»

وهو حليف بني نوفل بن عبد مناف. واستعمله عمر بن الخطاب على بعض اليمن، واستعمله عثمان على صنعاء.

وقدم على عثمان، فمرّ علي بن أبي طالب على باب عثمان فرأى بقلته جوفاء عظيمة، فقال: لمن هذه البقلة؟ قالوا: ليعلي. قال: ليعلي والله! وكان ذا منزلة عظيمة عند عثمان.

وقول علي «ليعلي والله» هو من قبيل الاستهجان والاستكثار لمنزلة ذلك الطليق الرفيعة عند الخليفة.

ورغم تصريح ابن الأثير أنه شهد غزوات حنين والطائف وتبوك مع النبي (ص) بعد فتح مكة، إلا أن هناك ما يشير إلى أنه كان يفعل ذلك مداراة، وأنه كان يتحين الفرص والأعداء للتخلف ما أمكنه ذلك. ومن ذلك ما ذكره الكاتندهلوي في حياة الصحابة عن أبيهقي «أن يعلي بن منية رضي الله عنه قال: أذن رسول الله (ص) بالغزو، وأنا شيخ كبير ليس لي خادم، فالتصّمت أجيراً، وأجرني له سهمه، فوجدت رجلاً...»

فكيف يكون يعلي شيخاً كبيراً بينما كان له دور ملحوظ في حرب الجمل بعد حوالي 25 عاماً؟ وكيف يكون بلا خادم وهو يقول أنه استأجر رجلاً ليذهب مكانه للغزو مع النبي (ص)؟

وسوف يأتي الحديث عن دوره في التحضيرات لحرب الجمل لاحقاً. وهناك رواية تقول بأن يعلي بن منية كان هو بالذات سبياً في محاولة اغتيال تعرض لها عثمان بن عفان في السابق نتيجة لظلمه للناس. فقد جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة التميري أن رجلاً أراد قتل عثمان بالخنجر

فكمن له ولكنه فشل في محاولته وقبض عليه، ولما سأله عثمان عن السب الذي دفعه لذلك أجابه «ظلمني عاملك باليمن» فأمر به عثمان فبقي في الحبس حتى مات.

ورغم أني لم أجد هذا الخبر في مصدر آخر، إلا أن علاقة يعلي الوطيدة الوطيدة بالخليفة هي أمر مؤكد، وكذلك اختناؤه من منصبه الرفيع في زمان عثمان. وقد أشار معاوية بن أبي سفيان في رسالة منه إلى يعلي بعد مقتل عثمان أن من المأخذ التي عيت على عثمان تعيينه يعلي على اليمن لفترة طويلة. ولما يلي نص الرسالة كما ذكرها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة :

«وكتب إلى يعلي بن أمية: حاظك الله بكلامته، وأيدك بتوقيفه. كتب إليك صبيحة ورد على كتاب مروان بخير قتل أمير المؤمنين، وشرح الحال فيه. وإن أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصت قواه، وتقلت نهضته، وظهرت الرعشة في أعضائه، فلما رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعاً للإمامة والأمانة وتقليد الولاية، وثبوا به، وألبوا عليه، فكان أعظم ما تقموا عليه وعاهيوه به، ولايتك اليمن وطول مملكك عليها. ثم تراسى بهم الأمر حالا بعد حال، حتى ذبحوه ذبح النطيحة.....»

واعلم يا بن أمية أن القوم قاصدوك بادئ بدء لاستطاف ما حوته يدك من المال، فاعلم ذلك واعمل على حبه ...»

وكان جواب يعلي «وكتب إليه يعلي بن أمية: إنا وأنتم يا بني أمية كالحجر لا يبنى بخير مدر، وكالسيف لا يقطع إلا بضاربه. وصل كتابك بخير القوم وحالهم، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النطيحة بودر بها الموت لينحرن ذابحه نحر البينة وأنى بها الهدى الأجل ! تكلمتي من أنا ابنها إن نمت عن طلب وتر عثمان، أو يقال: لم يبق فيه رمق ! إني أرى العيش بعد قتل عثمان مرا، إن أدلج القوم فلاني مدلج، وأما قصدكم ما حوته يدي من المال، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان، وإن أبوا ذلك أنفقنا المال على قتالهم، وإن لنا ولهم لعمركة تتناحر فيها نحر القدار النقائق، عن قليل تصل لحومها ...»



كلمة بشأن أهلية وكفاءة ولاية عثمان⁽¹⁾

لا بد من الإشارة الى خطأ يقع فيه الكثيرون، ممن تدعشهم وتثير استنكارهم قرارات الخليفة عثمان بتعين أقرباه اللصيقين الذين بعضهم شبان بلا خبرة في تلك المناصب المهمة. والخطأ يتمثل في القفز للاستنتاج بأن هؤلاء الولاة كانوا مجموعة من التافهين وعديمي الكفاءة الذين انصرفوا الى اللهو والدعة. وربما يكون في بعض سلوكيات وممارسات هؤلاء الولاة، وخاصة الوليد بن عقبة، ناهيك عن تحدرهم من العائلة الأموية الغنية والارستقراطية، ما يدفع الى ذلك الاستنتاج. ولكن ذلك الاستنتاج ليس صحيحاً.

فإذا تجاوزنا النظر الى الأمور من الزاوية الدينية الشرعية المحضة، أو الأخلاقية والروحية، سنجد أن عمال عثمان هؤلاء كانوا في الحقيقة أصحاب قدرات قيادية مميزة. بل أكثر من ذلك أنهم يستحقون الثناء والتعريض على نجاحهم في قيادة الجيوش والقوات، وإدارة الرجال والمقاتلين، وقوتهم في مواجهة أشرس الأعداء والانتصار عليهم في الميدان، وعلى جرأتهم وذكائهم. فرغم فساد أخلاقه وسوء سلوكه، إلا أنه لا ينبغي الاعتقاد بأن الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان رخواً أو متعاصاً عن أداء مهام منصبه الأساسية. فهو كان يقوم بمسؤولياته في تنظيم القوات ومتابعة الفتوحات. وهو قاد الجيش الذي هاجم آذربيجان وأرمينيا سنة 26 للهجرة وعاد من هناك ظافراً بعد أن هزمت قواته أهلها، كما ذكر الطبري في تاريخه. فالوليد كان له سهمٌ ظاهرٌ في الفتوح وقاتل الأعاجم. وروى البلاذري في فتوح البلدان أن الوليد بن عقبة لما تولى «غزاً الديلم مما يلي قزوين، وغزاً آذربيجان، وغزاً جيلان وموقان، والبير، والطيلسان»

(1) مصادر حلا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص307)، فتوح البلدان للبلاذري (ج2 ص393)، الاستيلاء لابن عبد البر (ص272)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص310) و (ج3 ص191+ 174)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج29 ص36-39)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص193)، شرح نهج البلاغة لابن أبي العفندي (ج16 ص136) و النزاع والتخاصم للمقريزي (ص87).

ويشأن سعيد بن العاص، ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب وابن الاثير في
أسد الغابة :

«استعمله عثمان على الكوفة. وغزا بالناس طبرستان فاقطعها. ويقال
انه افتتح أيضا جرجان في زمن عثمان سنة 29 أو سنة 30» وروى البلاذري في
فتوح البلدان ان سعيد بن العاص أيضا «غزا الديلم ومصر قزوين، فكانت تغر
أهل الكوفة وفيها بنيانهم»

وأما عبد الله بن عامر فقد قال عنه ابن الاثير في أسد الغابة «افتتح خراسان
كلها، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان، وهي أعمال غزنة. أرسل
الجيوش ففتح هذه الفتوح كلها. وفي ولايته قتل كسرى يزديجرد، فأحرم ابن
عامر من نيسابور بممرة وحجة شكر الله عز وجل على ما فتح عليه»

وكذلك فإن عبد الله بن سعد بن أبي السرح، كانت له صولات وجولات
في الغزو والقتال. وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق تفاصيل حملاته التي
نوجزها كما يلي :

فهو قاد الجيش الذي توغل في إفريقية سنة 27 للهجرة حتى وصل
القيروان وعاد ظافراً.

ثم إنه غزا النوبة والسودان والحشة سنة 31 للهجرة

كما انه كان قائد غزوة ذات الصواري البحرية العظيمة التي ألحق فيها
المسلمون هزيمة مدوية بالرومان وأسطولهم البحري سنة 34 للهجرة.

وقال عنه ابن الاثير في أسد الغابة «... وكان على ميمنة عمرو بن العاص
لما افتتح مصر وفي حروبه هناك كلها

.... ثم ولاء عثمان بعد ذلك مصر سنة 25، ففتح الله على يديه إفريقية،
وكان فتحاً عظيماً بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف مثقال ذهباً وسهم الرجل ألف
مثقال

... وغزا عبد الله بن سعد بعد إفريقية الاسود من أرض النوبة سنة احدى
وثلاثين وهو الذي هادنهم الهندية الباقية الى اليوم

وغزا غزوة الصواري في البحر الى الروم»

وامام معاوية بن ابي سفيان فقد كان مشاركاً في حركة الفتوحات في الشام منذ بداياتها، وخبرته في هذا المجال طويلة. ومؤهلاته وقدراته الفذة في القيادة والادارة والتخطيط مشهورة ومعروفة.

فولاء عثمان هؤلاء كانت لهم مهمة أساسية أرسلهم عثمان لتنفيذها وهي متابعة حركة الفتوحات التي كانت أيام عمر بن الخطاب. ويبدو أن هذا كان معيار النجاح والفشل بنظر الخليفة. وهم كانوا يدركون ذلك فصرقوا جهدهم في اتجاه الحملات العسكرية التي كانوا يباشرونها بأنفسهم حيناً وعن طريق قادة يختارونهم أحياناً أخرى.

وعلى الصعيد الشخصي، ويميداً عن مقاييس التقوى والورع والایمان، كان هؤلاء أهل كفاية وثقافة. فالوليد بن عقبة كان شاعراً وصاحب بلاغة وقوي الشكيمة. وسعيد بن العاص كان كذلك فصيحاً إلى الحد الذي جعل عثمان يضمه إلى لجنة نسخ المصحف. وابن عامر كان كريماً وقوي الشخصية. وكان ابن ابي السرح ذكياً ومتعلماً وقوياً.

والعائلة الأموية باجمالها كانت متعلمة وغنية وذات نفوذ قديم. فلا عجب أن يكون أبناؤها مؤهلين للمناصب القيادية.

وسوف تثبت مجريات الأحداث كيف كان هؤلاء فعّالين ومؤثرين في الصراع الكبير الذي خاضوه ضد الامام علي بقيادة معاوية.

لقد كان بنو أمية على أتم استعداد وجاهزية لاهتبال الفرصة الذهبية التي يوفرها لهم الخليفة عثمان. فتحت الأبواب أمامهم وأشرعت للوصول إلى قمة الهرم ومفاصل الحكم والادارة في الدولة، ولم يكونوا في وارد إضاعة هذه الفرصة الثمينة التي ربما لا تتكرر. وكانت القيادات الأموية من العناصر الشابة، الذكية والقوية، تعلم أن شيخها لن يدوم لها طويلاً. فعثمان رجلٌ عجوز وبالتالي ينبغي التصرف بسرعة وتركيز من أجل تحقيق أكبر قدر من الاستفادة من الموارد اللامحدودة والهائلة التي تتدفق على خزينة الدولة، والتي أصبحت فعلياً بين أيديهم. ونجح الأمويون، وبالأخص معاوية بن ابي سفيان ومروان بن الحكم، في السيطرة تماماً على أجهزة الحكم في الدولة: الإدارية

والتنظيمية والعسكرية، وقاموا ببناء شبكة واسعة من «قيادات الصف الثاني» المرتبطة مصلحياً وعضوياً بهم، لتعمل معهم وفي خدمتهم. وفي كل بلاد المسلمين، أوجد الأمويون طبقة تدين لهم بالولاء ولا ترى مستقبلها إلا معهم ولا تعرف رؤساء لها سواهم. وسواء اتفق الخليفة مع مخططات وطموحات القيادات الأموية أم لم يتفق، فإن قدرة هؤلاء مؤكدة على ترويض عثمان، إن هو أبدى بعض التحفظ والممانعة في الانسحاق وراء تحقيق الأحلام الأموية. وذلك الذي حدث. فقد تمكن الاتجاه الأموي من شل الخليفة والاستحواذ على القرار بشكل كامل.

ولذلك كله لم يتورع مروان بن الحكم، في أواخر أيام عثمان من قولها علانية: إنه الملك الأموي الصريح!

فقد قال مروان أمام حشود المتمردين من أهل الكوفة والبصرة ومصر: «جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا. أخرجوا عنا. أما والله لنن رمتونا ليمرن عليكم أمر يسوكم. ولا تحمدوا غيّه. ارجعوا إلى منازلكم: فوالله ما نحن مغلوبين على ما بأيدينا»⁽¹⁾.

فينظر مروان فإن دولة بني أمية قد قامت بالفعل، وهو نظراؤه لن يفرطوا بها!

وبعد ذلك، أنا لا أستبعد أن تكون رواية ابن أبي الحديد والمقرئ صحيحة:

«قال أبو سفيان في أيام عثمان، وقد مرّ بقبر حمزة، وضربته برجله وقال: يا أبا عمار! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلامتنا اليوم يتلمبون به»⁽²⁾.

فقول كهذا ليس غريباً على شخصية أبي سفيان.

(1) البداية والنهاية لابن كثير
(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 16 ص 136). وفي رواية المقرئ: «(مر 87) من النزاع والتخاصم، إضافة على لسان أبي سفيان مرثناً استقر به من تيم وعدي».

الجزء الثاني:

معارضة عثمان في اوساط الصحابة

الفصل الأول: علاقة علي بعثمان⁽¹⁾

مقدمة

كانت علاقة الامام علي في معظم الأوقات متوترة مع الخليفة عثمان. وكل الروايات تشير الى غضب علي الشديد مما كان يعتبره فسادا في سياسة عثمان وحكمه. وكان علي يصّر على مجابهة عثمان مباشرة. وكان عثمان لا يستيخ ذلك ولا يطيقه إلا على مضض.

وقد سلط ابن شبة الكثير من الضوء على العلاقات المتوترة بين علي والخليفة عثمان، وكيف أن عثمان كان يقول بأن الطاعين عليه «يتخذون علياً عضداً» ويعتبرونه «كهفاً» لهم، وكيف أن الأوساط المحيطة بعثمان كانت ذات موقف شديد العداء لعلي، فيصفونه بـ «أبي تراب»⁽²⁾ ويتهمون به بأنه «رأس الطمن» على الخليفة.

وروي ابن قتيبة في الامامة والسياسة أن عثمان قال لعلي مرة وهو

(1) مصادر هذا البحث: نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 1 ص 35)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج 8 ص 235 ص 259) و (ج 8 ص 302-303) و (ج 9 ص 2-30)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج 3 ص 1044-1048)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 51)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 377)، تاريخ دمشق لابن عسك (ج 39 ص 263-266)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 188)، كتاب الفتح لابن أحمم الكوفي (ج 2 ص 378-380 و ص 392)، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (ج 2 ص 268) و صحيح البخاري (ج 2 باب التمتع والاقتران من كتاب الحج) و أنساب الأشراف للبلاقي (ج 6 ص 147+ ص 99)

(2) وأبو تراب، هو اللقب الذي سجد له معاوية بن أبي سفيان وجماعته لوصف علي بن أبي طالب وشيخه.

يعوده لمرض ألم به «والله يا أبا الحسن ما أدري ؟ أشتهي موتك أم اشتهي حياتك؟ فوالله لئن مت لا أحب أن أبقي بعدك لفيرك، لأنني لا أجد منك خلفاً. ولئن بقيت لا أعدم طاعياً يتخذك سلماً وعضداً، ويعدك كهفاً وملجأ، لا يمنعني من إلا مكانه منك، ومكانك مني. فأنا منك كالابن العاق من أبيه: إن مات فجمعه، وإن عاش فقد أفلما سلم فسلم، وأما حرب فتحارب. فلا تجعلني بين السماء والأرض. فإني والله إن قتلتني لا تجد مني خلفاً، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً. ولن يلي أمر هذه الأمة باديئ لنته»

وهذا النص يظهر حيرة عثمان الحقيقية تجاه علي: فهو لا يدري ماذا يفعل تجاهه، فاكفى بتحذيره من الفتنة.

أسباب الخلاف

أولاً: معارضة علي لتسليم قيادة دولة الاسلام لبني أمية

فالظاهر أن السبب الرئيسي وراء غضب علي الشديد كان التعيينات التي قام بها عثمان لأقاربه في قيادة الدولة، وسياساتهم التي طبقوها.

وفي نهج البلاغة لخص عليّ بلاغته الفريدة موقفه من عثمان ورهطه من بني أمية. فقال عن عثمان في خطبته الشقشقية المشهورة «... إلى أن قام ثالث القوم نالوجاً حصني، بين ثيليه ومثقفيه. وقام معه بنو أبيه يخفيمون مأل الله تخضعة الإبل نبتة الربيع. إلى أن انتكث عليه قتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطشه...»⁽¹⁾

ومن المفيد التأمل بالنص التالي الذي أورده الطبري في تاريخه من رواية للواقدي. وفيه تظهر حيرة علي وإحباطه الشديد من عثمان وسياسة التي لا يرى لها سبباً مقنعاً. وكان موضوع ولاية عثمان، وبالأخص معاوية وابن

(1) نالوجاً حصني: والمعنى لهما. والمثقف: ما بين الإبط والكشح. يقال للمتكبر جاء نالوجاً حصني. ويقال مثله لمن امتلأ بطنه طعاماً. والثيل: الروث. والمثقف: موضع العلف. والخضم: الأكل بأقنى الأضراس أو ملء الفم بالمأكل. انتكث قتله: انتفض. والبطنة: البطر والأشر والاسراف في الشبع. وكبت به: من كبا الجواد إذا سقط لوجهه.

عامر، من الأمور التي يلح عليّ بن أبي طالب على عثمان بشأنها ويطلبه بعزل هؤلاء. وفيما يلي الحوار:

قال علي لعثمان فوالله ما أدري ما أقول لك! وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقك إلى شيء فتخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فتبلغك، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيتُ وسمعتُ وصحبتُ رسول الله (ص) ونلتُ صهره. وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك. وإنك أقرب إلى رسول الله (ص) رجماً، وقد نلتُ من صهر رسول الله (ص) ما لم يتالا، ولا سبقك إلى شيء.

فأله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل. وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة.

تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى فأقام سنة معلومة وأما بدعة متروكة. فوالله إن كلا ليين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام. وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأما سنة معلومة وإحيا بدعة متروكة. وإنني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معه نصير ولا حاذر فيلقى في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم

وإنني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه يقال: يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة وتلبس أمورُها عليها ويتركهم شيئا فلا يصرون الحق لعلو الباطل يمجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً

فقال عثمان: قد والله علمتُ ليقولن الذي قلت! أما والله لو كنتُ مكاني ما عفتك ولا أسلمتك ولا عبثُ عليك ولا جئتُ منكراً أن وصلتُ رحماً وسدّدتُ خلة وآويتُ ضالماً ووليتُ شياً بمن كان عمر يولي.

أنشدك الله يا علي: هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟

قال: نعم.

قال: فتعلم أن عمر ولا؟

قال: نعم.

قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟

قال علي: سأخبرك! أن عمر بن الخطاب كان كل من ولي فإنما يطأ على صمائه. إن بلغه عنه حرفٌ تجلبه ثم بلغ به أقصى الغاية. وأنت لا تفعل. ضجعت وورقت على أقرباك

قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً!

فقال علي: لعمرى أن رحمهم مني لقريبة. ولكن الفضل في غيرهم.

قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولي معاوية خلافة كلها؟ فقد وليته.

فقال علي: أنشدك الله! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر، من يرأى غلام عمر، منه؟

قال: نعم.

قال علي: فلأن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها. فيقول للناس:

هذا أمر عثمان. فيبلغك ولا تغير على معاوية⁽¹⁾!

ومن المهم ملاحظة إصرار عثمان على موضوع صلة الرحم في تبرير تلك التعيينات، بالإضافة إلى القول بأن عمر بن الخطاب كان قد استعمل أشخاصاً ليسوا ذوي أهلية إسلامية، بل أصحاب كفاءات إدارية واستشهد على ذلك بالمغيرة بن شعبة، الذي يتفق كلاهما على أنه ساقط من الناحية الدينية (بتعبير عثمان: ليس هناك) وأشار إلى أن عمر ولي معاوية ذاته. مما اضطر علياً لتوضيح الفارق بين عمر وعثمان في التعامل مع الولاة.

(1) وقد أخرج ابن كثير في البداية والنهاية هذه الرواية عن الواقدي في سياق كلامه عن سنة 34 للهجرة، حين كثر كلام الناس واتقادهم لعثمان فطلبوا من علي أن يكلم عثمان.

ثانياً: اعتراض علي على سياسة عثمان تجاه مجموعة من الصحابة
غير القرشيين ويطشه بهم

وكان ما أظهره عثمان من بطش وقسوة تجاه الصحابة من ذوي الأصول المتواضعة، الموالي وذوي الأصول غير القرشية الذين أوقع بهم عثمان عقاباً معنوياً ومالياً بل وجسدياً عتيفاً لأنهم واجهوه وأعلنوا رفضهم لمنهجه، مما يفاقم من المشاكل بين علي وعثمان، لأن علياً كان يدافع عنهم بحرارة، وخاصة أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود.

أخرج ابن أبي الحديد رواية عن الواقدي وفيها أن عثمان لما حضر أبا ذر الغفاري من الشام وتبادل معه كلاماً حاداً، التفت إلى الحضور وقال أشيروا علي في هذا الشيخ الكلاب، إما أن أضربه أو أحبه أو أقتله، فإنه قرق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام.

فترك علي عليه السلام - وكان حاضراً - فقال: أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون (فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم. إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب).

فأجابه عثمان بجواب غليظ، وأجابه علي عليه السلام بمثله.

ولم تذكر الجوابين تلميحاً متهماً

ولا يخفى أن تشبيه علي لأبي ذر بمؤمن آل فرعون فيه ذم شديد للسلطة الحاكمة ورئسها عثمان، الذي فهم المغزى وردة على علي بجواب مقذع استبشعه ابن أبي الحديد.

روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ضمن كلامه عن حادثة نفي أبي ذر الغفاري من المدينة المنورة أن علياً وآل بيته قد خرجوا لوداع أبي ذر رغم نهى عثمان عن ذلك. ولما تصدى مروان بن الحكم لتنفيذ أمر الخليفة وحاول أن ينهى علياً عن وداع أبي ذر، غضب علي وضرب وجه راحلة مروان بالسوط وطرده. وأثار ذلك غضب عثمان فورجع القوم إلى المدينة فجاه علي عليه السلام إلى عثمان.

فقال له: ما حملك على ردّ رسولي وتصغير أمرِي؟
فقال علي عليه السلام: أما رسولك، فأراد أن يرّد وجهي فرددته، وأما
أمرك فلم أحضره.

قال: أما بلغك نهبي عن كلام أبي ذر؟
قال: أوكلما أمرت بأمر معصية أظعنك فيه؟
قال عثمان: أتريد مروان من نفسك.

قال: ممّ ذا؟

قال: من شتمه وجذب راحلته.

قال: أما راحلته فراحلتي بها، وأما شتمه إياي فوالله لا يشتمني شتمه إلا
شتمتك مثلاً. لا أكذب عليك.

فغضب عثمان وقال: لم لا يشتمك؟ كأنك خير منه؟

قال علي: إي والله، ومنك! ثم قام فخرج.

فأرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين والانصار وإلى بني أمية، يشكو
اليهم علياً عليه السلام. فقال القوم: أنت الذي عليه، وإصلاحه أجمل. قال:
وددت ذلك.

فأتوا علياً عليه السلام فقالوا: لو اعتذرت إلى مروان وأنته؟

فقال: كلا! أما مروان فلا أتبه ولا أعتذر منه. ولكن إن أحب عثمان أتيته.

فرجعوا إلى عثمان فأخبروه. فأرسل عثمان إليه. فأثابه ومعه بنو هاشم.

فتكلم علي عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما ما وجدت
عليّ فيه من كلام أبي ذر ووداعه، فوالله ما أردت مسامتك ولا الخلاف عليك.
ولكن أردت به قضاء حقه. وأما مروان فإنه اعترض يريد زدي عن قضاء حق
الله عز وجل، فرددته رد مثلي مثله. وأما ما كان مني إليك، فأنك أغضبتي،
فأخرج الغضب مني ما لم أرد.

فتكلم عثمان، فحمد الله واثى عليه ثم قال: أما ما كان منك إليّ فقد وهبته لك. وأما ما كان منك إليّ مروان فقد عفا الله عنك. وأما ما حلفت عليّ فأت البر الصادق. فأخذ يده فضمها إلى صدره.

وروى المسعودي في مروج الذهب تفاصيل أكثر عن الغضب المتبادل بين الخليفة وعلي بسبب تشييعه لأبي ذر فشقوا مروان إلي عثمان ما فعل به علي بن أبي طالب فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يطعنني من علي؟ ردّ رسولني عما وجهته له، وفعل كذا. والله لنعطينه حقه.

فلما رجع علي استقبله الناس فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غاضب لتشيعك أبي ذر.

فقال: علي: غَضِبَ الخيل على المُجِم!

فلما كان بالعشي جاء إلي عثمان، فقال له: ما حملك علي ما صنعت بمروان؟ ولت اجتراء عليّ ورددت رسولني وأمرني؟

قال: أما مروان، فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردّي. وأما أمرك فلم أركه.

قال عثمان: ألم يبلغك أني قد نهيتُ الناس عن أبي ذر وعن تشييعه؟

فقال علي: أوكلي ما أمرتنا به من شئ نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل!

فقال عثمان: أتريد مروان.

قال: ومم أتريد؟

قال: ضريت بين أذني راحلته (وشتمته، فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك).

قال علي: أما راحلتي فهي تلك، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً.

قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما أنت عندي بأفضل منه!

فغضب علي بن أبي طالب وقال: ألي تقول هذا؟ ويمروان تعلمانني؟ فأناب
والله أنفصل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك! وهذه نبلي قد
نلتها، وعلم فأنزل بنبلك!

فغضب عثمان واحمر وجهه، فقام ودخل داره. وانصرف علي. فاجتمع
إليه أهل بيته، ورجال من المهاجرين والانصار.

فلما كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكوا اليهم علياً وقال: انه
يعينني ويظهر من بعيني، يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما. فدخل
الناس بينهما (حتى اصطلحا) وقال له علي: والله ما أردت بشييع أبي ذر إلا
الله تعالى!

وكذلك حصل خلاف بين الرجلين بشأن عبد الله بن مسعود. فعندما
أوقع عثمان عقاباً جديداً على ابن مسعود بسبب مشكلته^(١) مع الوليد بن عقبة
تصدى له علي ولامه على ذلك. روى البلاذري في أنساب الأشراف أنه لما
استدعى عثمان ابن مسعود من الكوفة تبادل معه كلاماً قاسياً... ثم أمر به
عثمان فأخرج من المسجد اخراجاً عنيفاً. وضرب به عبد الله بن زمعة بن
الاسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي الارض، ويقال بل احتمله
يحموم غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الارض ففُتق
ضلعاه.

فقال علي: يا عثمان أتفعل هذا بصاحب رسول الله (ص) بقول الوليد
بن عقبة؟!؟

فقال: ما بقول الوليد فعلت هذا، ولكن وجهت زبيد بن الصلت الكندي
إلى الكوفة فقال له ابن مسعود: ان دم عثمان حلال!

فقال علي: أحلت من زبيد على غير ثقة..... وقام علي بأمر ابن مسعود
حتى أتى به منزله...!

(١) سيأتي الحديث مفصلاً حول ابن مسعود ومشاكله مع عثمان والوليد

وجهة نظر عثمان في سبب معارضة علي له، وردة علي

روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أن عثمان زار العباس بن عبد المطلب شاكياً وقال له: «أما بعد، فلاني جئتك استعذرك من ابن أخيك علي: سبني وشهر أمري، وقطع رحمي، وطعن في ديني. وإنني أعود بالله منكم يا بني عبد المطلب! إن كان لكم حق تزعُمون أنكم غلبتم عليه، فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم، وأنا أقرب إليكم رحمة منه، وما لمت منكم أبداً إلا علياً، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه فتركه لله والرحم، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه»

وقد خصص ابن أبي الحديد فصلاً في شرح نهج البلاغة للحديث عما شجر بين علي وعثمان أيام خلافته، ذكر فيه روايات عديدة عن الزبير بن بكار في المواقفات، وأبي العباس المبرد في الكامل، والجوهري في السقيفة، والواقدي في الثوري، وعن الجاحظ، وعن أبي سعد الأبي.

وهذه الروايات تتكامل لتظهر مدى التوتر الذي كان يميز علاقتهم، والغضب المتبادل والمطاحن التي كان كل منهما يذكرها عن الآخر. ويظهر فيها عثمان وهو يشكو مَرَّ الشكوى من علي الذي يعتبره رأس الطاعنين عليه وحاسداً قد اجترأ عليه رغم قرابته. وكان عثمان يقول أنه ليس ذنبه أن قرئشاً لا تحب علياً! وتوضح الروايات أن عثمان لجأ في أحيان كثيرة إلى طلب وساطة خاله⁽¹⁾ العباس، وأحياناً عبد الله بن العباس، من أجل أن يكف علي عنه. وتذكر الروايات دفاع ابن عباس عن علي وقوله لعثمان أن علياً ليس مصدر الطعن عليه بل هو يقول مثل ما يقوله الناس بشأن سياسة الخليفة. وفي هذه الروايات يظهر أيضاً عمار بن ياسر كرجل علي، اللصيق به، والمحرض على عثمان الذي كان بدوره يحمته ويتوعده. وفي مقابل عمار بن ياسر، يلعب مروان بن الحكم دوراً متناظراً في جانب عثمان، فيحرضه هو وينو أمية على علي وعمار.

(1) العباس هو خال عثمان سجلاً، لأنه ليس أمياً له، بل أخو جده. فأم عثمان هي أروى بنت كرز - من بني عبد شمس. ولكن أمها - أي جدة عثمان - هي البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم. وقد ذكر البلاذري في أنساب الأشراف أنها كانت الاغت التوام لمعد الله والد النبي (ص). ولذلك كان عثمان كثيراً ما يخاطب العباس بصيغة الخال.

وأنا هنا أختار رواية للواقدي لأنها توضح فكرة عثمان بأن علياً لم يخالف أباً بكر وعمر بينما يخالفه هو رغم أنه امتداد لأبيهما، وتظهر أن موقف علي كان ناتجاً عما يراه سياسة ظالمة للمسلمين عامة وليس له خاصة، ولذا هو لا يسمعه السكوت:

«عن ابن عباس رحمه الله قال: شهدتُ عتاب عثمان لعلي عليه السلام يوماً،

فقال له في بعض ما قاله: نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً، فلعهدي بك وانت تطيع عتيقاً وابن الخطاب طاعتك لرسول الله (ص). ولست بدون واحد منهما، وأنا أمس بك رحماً، وأقرب اليك صهراً. فلن كنت تزعم أن هذا الأمر جعله رسول الله (ص) لك، فقد وأيتك حين تولي نازعت ثم أقررت. فلن كانا لم يركبا من الأمر جدداً، فكيف أذعنت لهما بالبيعة ويخعت بالطاعة؟ وإن كانا أحسننا فيما وليا، ولم أقصر عنهما في ديني وحسبي وقرابتي، فكن لي كما كنت لهما.

فقال علي عليه السلام: أما الفرقة فمعاذ الله أن أفتح لها باباً، وأسهل إليها سبيلاً. ولكنني أنهارك عما ينهارك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدي. وأما عتيق وابن الخطاب، فلن كانا أخذنا ما جعله رسول الله (ص) لي، فانت أعلم بذلك والمسلمون. وما لي ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين. فأما ألا يكون حقِّي بل المسلمون فيه شرع، فقد أصاب السهم الثمرة. وأما أن يكون حقِّي دونهم، فقد تركته لهم، طبتُ به نفساً، ونفستُ يدي عنه استصلاحاً.

وأما التسوية بينك وبينهما، فلست كأحدهما: إنهما وليا هذا الأمر، فظلفا أنفسهما وأهلهما عنه، وجمعت فيهما عروم السابغ في اللجة!

فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل بقي من عمرك إلا تظلم الجحار؟ فحتى متى وإلى متى؟ ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أضرار المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟! والله لو ظلم عاملٌ من عمالك حيث تقرب الشمس لكان إثمُه مشتركاً بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك العتيا وأفعل وأعزل من عمالي كل من تكرمه ويكرمه المسلمون.

ثم ائترقا، فصمهم فرعان بن الحكم عن ذلك وقال: يجترأ عليك الناس، فلا تعزل أحدا منهم.

مشاجرات ووساطات

ويبدو أنه كثيراً ما كانت تطور الأمور بين علي وعثمان إلى مشاجرات حادة، خاصة بعد وفاة العباس، مما يستدعي تدخل وسطاء آخرين بينهما.

ورد في نهج البلاغة «ومن كلام له عليه السلام وقد وقعت بينه وبين عثمان مشاجرة، فقال المغيرة بن الأحنس لعثمان: أنا أكفيكها»

فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة: يا ابن اللعين الأبر، أنت تكفيني! فوالله ما أهر الله من أنت ناصره، ولا قام من أنت منهضه. أخرج هنا أبعد الله نواك، ثم ابلف جهلك. فلا أبقي الله عليك إن أبقيت!

وشرح ابن أبي الحديد هذا الكلام على النحو التالي:

المغيرة بن الأحنس بن شريق الثقفي: كان أبوه من كبار المنافقين، الذين أسلموا كرها يوم الفتح، فأخذ أبوه مائة من الإبل من النبي (ص) مع غيره من المؤلفة قلوبهم. والمغيرة حاقده على الإمام علي الذي قتل بنفسه أخاه أبا الحكم بن الأحنس يوم أحد كافرا

وقد قال له علي: يا ابن الأبر لأن من كان عقبه ضالاً غيباً فهو كمن لا عقب له، بل من لا عقب له خير منه

قال ابن أبي الحديد «واعلم ان هذا الكلام لم يكن بحضور عثمان، ولكن حوالة روى عن اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي: أن عثمان لما كثرت شكايته من علي عليه السلام، أقبل لا يدخل إليه من أصحاب رسول الله (ص) أحد إلا شكاه إليه علياً.

فقال له زيد بن ثابت الانصاري - وكان من شيعته وخاصة: أفلا أمشي إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتي إليك. قال: بلى. فأتاه زيد ومعه المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي - وعداده في بني زهرة، واهمة عمة عثمان بن عفان - في جماعة، فدخلوا عليه

فحمد زيد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الله قدم لك سلفا صالحا في الاسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمك، ووالي هذه الأمة، فله عليك حقان: حق الولاية وحق القرابة. وقد شكنا إليك أن علينا عرض لى، ويرد أمرى علي. وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهية أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما.

قال: فحمد علي عليه السلام الله، وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم قال: أما بعد، فما أحب الاعتراض، ولا الرد عليه، إلا أن يأمرى حق الله لا يسعني أن أقول فيه إلا بالحق. والله لأكفرن عنه ما وسعني الكفر.

فقال المغيرة بن الأخنس، وكان رجلا وقاحا، وكان من شيعة عثمان وخلصته: اتك والله لتكفرن عنه أو لتكفرن، فإنه أقدر عليك منك عليه! وإنما أرسل هؤلاء القوم من المسلمين اعزازا لتكون له الحجة عندهم عليك.

فقال له علي عليه السلام: يا ابن اللعين الأبر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفني! فوالله ما أهر الله من أنت ناصره. أخرج أبعاد الله نواك، ثم اجهد جهدك. فلا أبقي الله عليك ولا على أصحابك إن أبقيتم!

فقال له زيد: إنا والله ما جئناك لتكون عليك شهودا، ولا ليكون مشانا إليك حجة، ولكن مشينا فيما بينكما التماس الأجر إن يصلح الله ذات بينكما، ويجمع كلمتكما. ثم دعا له ولعثمان. وقام فقاموا معه.

وهذا الخبر يدل على أن اللفظة (أنت تكفني)، وليست كما ذكره الرضى

رحمه الله (أنت تكفيني)، لكن الرضى طبق هذه اللفظة على ما قبلها، وهو قوله (أنا أكفينك). ولا شبهة أنها رواية أخرى^(١)

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر رواية عن صهيب مولى العباس بن عبد المطلب قال أرسلني العباس إلى عثمان أدهوه. فأتيته فإذا هو يفدي الناس فدهوته.

فأتاه فقال: أفلح الوجه أبا الفضل!

فقال العباس: ووجهك يا أمير المؤمنين.

فقال عثمان: ما زدت إذ اتاني رسولك وأنا أغدي الناس فغديتهم ثم أقبلت.

قال له العباس: أذكرك الله في علي! فإنه ابن عمك وأخوك في دينك وصاحبك مع رسول الله (ص) وصهرك. فإنه قد بلغني أنك تريد أن تقوم بعلي وأصحابه، فأعطني من ذلك يا أمير المؤمنين.

فقال عثمان: إن أول ما جئتك به أن قد شفعتك أن علياً لو شاء ما كان أحد دونه، ولكنه أبى إلا رأيته!

قال ثم بعث العباس إلى علي فقال له (أحسبه قال): أذكرك الله في ابن عمك وابن عمتك وأخيك في دينك وصاحبك مع رسول الله (ص) وولي بيعتك.

قال علي: والله لو أمرني أن أخرج من داري لخرجت! فأما أذهبن أن لا أقام بكتاب الله فلم أكن لأفعل!

ولم يكن العباس ليتدخل عارضا وساطته لولا شعوره بمدى تدهور العلاقة بين علي وعثمان. ويلاحظ هنا قول عثمان أنه لو شاء علي لكان أقرب الناس إليه، ولكنه أبى إلا رأيته! ورأيه هذا لا شك أنه منحاز ضد الخليفة

(١) ورواية ابن أبي الحديد الأخيرة هذه التي استلحا إلى الشعبي أعرجها أيضاً ابن أتهم الكوفي بإسناده الجمعي في كتاب الفتح بنفس العبارات تقريباً، وفيها كلام المخيرة الوقح الموجه إلى علي فوالله! لنكفن عنه شئت أو أبيت، وهو والله أقدر عليك منك عليه.

وسياسته ويطاّته مما جعل العباس يشعر انه «يريد ان يقوم بعلي واصحابه». كما يلاحظ فشل وساطة العباس بسبب رفض علي للمجاملات وإصراره على المبدأ: فهو لن يدهن في كتاب الله. فعلي يريد تغييراً جدياً في سياسة الخليفة، ولن يقبل ما دون ذلك.

ردود فعل عثمان على مواقف عليّ

ولكن عثمان، مع امتعاضه وغيظه، لم يكن يستطيع أن يوقع عقاباً مباشراً بعليّ، عدا عن تهميته وتجاهله. وقد روى ابن عساكر أن الناس كانوا يأتون علياً ليشتكوا إليه وفاة عثمان، فكذب عليّ صحيفة وأرسلها إلى عثمان فردّها ولم يستجب.

ففي تاريخ دمشق لابن عساكر روايتان حول خلافات علي وعثمان :
واحدة عن محمد بن علي بن ابي طالب (ابن الحنفية) يقول فيها ان ان
أباه أرسله بكتاب يتضمن شكوى الناس من جباة عثمان وسعاته، فردّه ولم
يستجب الاكان الناس أتوا علياً يشكون اليه سماء عثمان.

فأرسلني أبي فقال: يا بني: خذ هذا الكتاب، فإن فيه عشر النبي (ص)
والصدقة. فاذهب به الى عثمان.

قال فأتيته فأخبرته به.

فقال: انطلق فلا حاجة لنا به!

فأتيت أبي فأخبرته فقال: لا عليك. ضعه حيث أخذته»

وقد تدخل أحد الرواة لتأويل موقف عثمان، الرافض لقبول كتاب علي ومطالباته لعثمان بالالتزام بسياسة النبي (ص): «قال سفيان: ونرى ان عثمان
انما رده ان عنده من ذلك علما، فاستغنى عنه»

وهنا يلاحظ كيف كان الكثيرون يلجأون لعلي بالذات ليث شكواوهم.
ولا شك ان ذلك ألتفتهم به وباتحيازه الحازم للحق، وربما أيضا لخوفهم من
الخليفة ومن بطاّته .

وكان عثمان في بعض الأحيان يتجاوب مع طلبات علي ومسايعه، خاصة إذا لم يكن الأمر ذا خطر. ومثال ذلك ما رواه ابن أحم في كتاب الفتح حول تدخل علي للحيولة دون ضرب الرسول الذي حمل كتاب شكوى وتظلم من أهل الكوفة إلى عثمان، وهو من قبيلة عترة فقامر عثمان بالعتري، فجردوه من ثيابه ليضرب.

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لماذا يضرب هذا الرجل؟ إنما هو رسول جاء بكتاب وأبلغك رسالة حملها، فلم يجب عليه في هذا ضرب.

فقال عثمان رضي الله عنه: أفتري أن أحبه؟

قال: لا، ولا يجب عليه الحبس.

قال: فخلى عثمان عن العتري، وانصرف إلى الكوفة، وأصحابه لا يشكون أنه قد حبس أو ضرب أو قتل، قال: فلم يشعروا به إلا وقد طلع عليهم، فما بقي في الكوفة رجل مذكور إلا أنه ممن كان على رأيه، ثم سأله عن حاله فأخبرهم بما قال وما قيل له، ثم أخبرهم بصنع علي رضي الله عنه، فعجب أهل الكوفة من ذلك ودعوا لعلي بخير وشكروه على ما فعله.

وكان العباس بن عبد المطلب، عم علي وأكبر بني هاشم سناً، هو الأكثر قياماً بدور الوسيط بين الخليفة وعلي. فكان العباس يتدخل مرات من تلقاء نفسه حين يرى التوتر وقد بلغ ذروته، ومرات بطلب من عثمان نفسه الذي كان يتردد في موقفه من علي فلا يدري دائماً ماذا يفعل. وكانت ردود فعل الخليفة على وساطات العباس تتراوح ما بين الاستجابة الجزئية لبعض مطالب علي، وبين الإعراض والتجاهل. وفي بعض المواقف التي استجاب فيها عثمان لمطالب، كانت استجابته شكلية دائماً، ولم تمس جوهر سياسته وتوجهاته.

ألم يكن علي قادراً على التفاهم مع صحابي قديم كعثمان؟

هكذا كانت الأمور بين علي والخليفة: توتر دائم وخلاف متواصل⁽¹⁾ ترتفع

(1) بل إن حدة الخلاف بينهما تلمت المواقف السياسية والنظرة إلى طريقة إدارة الدولة فوصلت إلى القضايا الدينية والشرعية. وهناك نص في صحيح البخاري (ج 2) باب التنسج والاقتران من كتاب الحج يشير بوضوح إلى أن علياً لم يكن يعترف بعثمان كمصدر للفتوى الشرعية ولم يكن يتردد في مخالفته بشكل علني.

حدثه وتنخفض حسب الطرف والموقف. ولا يوجد ما يشير إلى انسجام أو تآلف بينهما أو تعاون في قيادة الأمة، كما هو متوقع من شخصيتين من كبار الصحابة في زمان بدأ يقل فيه وجود صحابة حقيقيين ممن عاصروا النبي (ص) واحتكوا به. والروايات أيضاً تشير بوضوح إلى وجود رغبة واستعداد حقيقي لدى عثمان للتفاهم مع علي واسترضائه وكسب وده، وأن الصدّ والرّفص كان يأتي من طرف علي الذي كان يصير على مواجهة الخليفة ومعارضته والتصدي له.

وهذا السلوك، الفاعل والقوي، من علي تجاه عثمان يختلف عن سلوكه تجاه الخلفيتين أبي بكر وعمر. فلم يُرو أنه كان يجابههما بانتقادات حادة فيما يتعلق بالشؤون العامة.

فلم كان ذلك؟ وهل حصل ذلك، كما تصور عثمان نفسه، لأن علياً كان يملكه الشعور بأن منصب الخليفة من حقه هو وأن عثمان مقتصب له؟ والجواب هو بالنفي. فعليّ كما أثبت بالسلوك والفعل كان لديه الاستعداد الكامل للتنازل عن حقوقه هو بالذات، والتغاضي عن مشاعره الشخصية، وتحمل الاحساس بالغبن والظيم، في سبيل الاسلام والمسلمين. فما دامت حقوق الناس مصونة، وما دام ولي الأمر القائم بذلك جاهد لتحقيق العدل بين المسلمين، وما دامت قيادة الدولة تسعى لرفع شأن الاسلام في الأرض، فلن يشير عليّ أي خلاف ولن يحدث أية فرقة.

وتلك كانت المشكلة مع عثمان. فعليّ يرى انحرافاً تاماً عن مبادئ الاسلام يحصل أمام ناظريه، ولم يكن يسهه السكوت. فما كان مطلوباً من عثمان يتجاوز جميل القول وعبارات المجاملة بكثير. كان علي يريد تفسيراً ملموساً في سياسة الخليفة. وهذا ما لم يكن عثمان ليفعله. فعثمان كان لديه كامل الاستعداد لأكرام علي وتقريه منه ورفع مكانته في الدولة بشرط أن يدهه يحكم كما يشاء.

هسبعت عثمان وعلياً بين مكة والمدينة، وعثمان ينهي عن المشعة وأن يجمع بينهما .
فلما رأى ذلك علي أهل بهما جميعاً قالاً: ليك حمرة وحمرة تمأ.
فقال عثمان: تراثني تنهي الناس من شيع وتعلمه انت ؟
فقال علي: لم أكن لأدع سنة رسول الله (ص) لقول أحد من الناس

وبين هذين الموقنين لم يكن ممكناً الالتقاء.

وليس هناك سبب وجيه يدعو إلى الشك في مصداقية المصادر التي اعتمدناها في هذا البحث. فهي أقديمة ومتنوعة ولا تنحصر في إخباري معين. وهي متكاملة ومتسقة مع سياق الأحداث التاريخية.

وسوف نتطرق إلى المزيد من علاقة علي بعثمان عند الحديث عن ظروف الثورة على الخليفة ومقتله.

وسوف نفرد فصلاً نتكلم فيه عن موقف الإمام علي من مقتل الخليفة عثمان ودوره في تلك الأحداث المعصية.

الفصل الخامس: عثمان يقسو على معارضيه

من الصحابة غير القرشيين

هذه من كبار أصحاب الرسول يتصدون لعثمان

تصدى عددٌ من كبار صحابة الرسول (ص)، ذوي المعاصي الإسلامي العريق والبارز، لعثمان بن عفان. كانت شخصيات معروفة وذات مكانة عالية في الإسلام، ممن تمتلك مؤهلات شرعية مرموقة ترى أمام أعينها مدى الانحراف عن السياسة النبوية الذي كان الخليفة يمارسه. وبدأت الضغوطات على عثمان على شكل نصائح، وملاحظات وطلبات من أجل التوقف عن تطبيق سياسة الانفراد والهيمنة الأموية على الدولة. فكيف يمكن لهؤلاء أن يتقبلوا، مثلاً، وضع مروان بن الحكم الجديد؟! فقد تحول مروان إلى ما يقرب من رئيس وزراء فعلي للدولة الإسلامية. لقد استغنى عثمان عن الاستعانة بكبار الصحابة من سكان المدينة، واكتفى بمروان بن الحكم الذي جعله مستشاره وكاتب سره ووزيره. ولم يعد عثمان يستشير إلا خاصة من بني أمية ولا يستمع إلا لهم. فليس غريباً أن يشير ذلك غضب علي بن أبي طالب⁽¹⁾ وغيره من قدامى الصحابة الذين عايشوا الفترة النبوية منذ بداياتها، فحاولوا أن يثني عثمان عن استعمال بطانته هذه، وخاصة مروان، دون جدوى.

(1) قال له علي بن أبي طالب في أحد المواقف طاماً وغيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحركك من ديتك ومن طمك. مثل جمل الطمعة يفتاد حيث يسار به. والله ما مروان بأي رأيي قبيح ولا في نفسه... أنهيت شرقك وغيت على امرئ كما روى الطبري في تاريخه (ج 3 ص 397)

وقد وضعنا أن علي بن أبي طالب كان هو المعارض الأبرز والصوت الأعلى في معارضة عثمان. وإذا كان علي، بحكم وضعه المرتفع والمميز في المنظومة الإسلامية، قد نجا من العقوبة المباشرة والصارمة للخليفة، إلا أن غيره من الصحابة ذوي الأصل الأدنى من الموالي أو الحلفاء أو القبائل البعيدة، الذين لا يتحللون من قریش وعلیائها، قد انصب عليهم جام غضب عثمان، وكأنه كان يريد التعويض عن عجزه عن إيقاع العقوبة بغيرهم⁽¹⁾

وسوف نتطرق فيما يلي من صفحات إلى تفاصيل الصراع الذي خاضه ثلاثة من أشهر هؤلاء الصحابة ضد عثمان: أبو ذر الغفاري، عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر.

أولاً: أبو ذر الغفاري: صراخه مع عثمان ومعاوية ونفيه ووفاته⁽²⁾

على الرغم من أن الصحابي أبا ذر الغفاري قد توفي عام 30 للهجرة، وبالكال لم يشهد أحداث الثورة على عثمان ومقتله سنة 35 للهجرة، إلا أنه يمكن القول أن أبا ذر كان له دور وتأثير في تلك الأحداث الكبيرة.

خلفية أبي ذر

وأبو ذر كان من الشخصيات المميزة فعلاً في ميزان الشرعية الإسلامية.

- (1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 3 الصفحات 335-337، 368، 378، 399، 430)، صحيح البخاري (باب قصة زمزم ج 4 ص 221) و(باب ما أدى زكاته فليس بكثر ج 2 ص 133)، (ج 1 ص 27 باب العلم قبل القول والعمل)، سنن ابن ماجه ج 1 ص 35، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 2 الصفحات 62، 65، 68-69، 74، 77)، شرح نهج البلاغة لأبي أبي الحديد (ج 4 الصفحات 246، 253، 257، 258، 259، 260، 261، 262 و ج 13 ص 228)، تاريخ المدينة لأبن شبة النميري (ج 3 الصفحات 1034-1041)، المستدرک علی الصحیحین للحاکم (ج 3 ص 343)، حلل الفروق فی (ج 6 ص 236)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 6 ص 171)، البيان والتبيين للجاحظ (ج 3 ص 122)، سنن الفرمي (ج 1 ص 136)، تاريخ الخلفاء (ج 2 ص 171-172)، الطبقات الكبرى لأبن سعد (ج 4 ص 226-230) و (ج 2 ص 354)، فتح الباري في شرح صحيح البخاري لأبن حجر (ج 1 ص 148)، البداية والنهاية لأبن كثير (ج 7 ص 185)، صحيح ابن حبان (ج 15 ص 38)، السيرة النبوية لأبن هشام (ج 4 ص 139)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج 2 ص 178) ومسنند أحمد بن حنبل (ج 1 ص 63)

فقد كان له فضل لا يتوفر لغيره، وهو فضل السعي الذاتي للحقيقة والإيمان. فهو كان يدوياً من قبيلة غفار، البعيدة عن مكة، ولكنه كان يمتلك نفساً تسعى للحقيقة وتتوق للوصول إلى سبيل الهداية. كانت نفس أبي ذر تأبى وتستكر ما شاع بين الناس في الجاهلية من شرك وضلال. ولذلك فعندما سمع من بعض الحجاج أن هناك رجلاً يقول إنه نبي في مكة، أثاره ذلك إلى حد أنه أرسل أخاه إلى مكة ليأتيه بخبره. ولما عاد لم يشق خليل روحه الظامئة إلى الحق، فشد الرحال إلى مكة ووصلها في أحلك الظروف سواداً على رسول الله (ص)، حين كان يعاني الأمرين من جباري قريش. فأخذ يبحث عن النبي (ص)، وهو غريب في مكة، إلى أن التقى صدقةً بعلي بن أبي طالب الذي أخذه حتى أتى النبي (ص) فسمع منه وآمن به فوراً. أوقعت إسلامه هذه مشهورة ومعروفة وقد رواها أصحاب السير والحديث ومنهم البخاري في صحيحه (باب قصة زمزم) فأبو ذر يعتبر من الطبقة الأولى من صحابة النبي (ص). وقد وردت بحقه مجموعة من الأحاديث النبوية، ومن أشهرها ذلك الذي يتحدث أهم خصاله، وهي الصدق والاخلاص. فقد ورد في سنن ابن ماجه :

«عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: ما أَقَلَّتْ الغبراء ولا أَظَلَّتْ الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»

معارضة أبي ذر لعثمان

وباستعراض مجمل أخبار معارضة أبي ذر للخليفة عثمان، يمكن تمييز ثلاثة محاور، أو جذور، لتلك المعارضة :

1 - المحور الاقتصادي، ويتجلى ذلك في رفض مظاهر الاتراء الفاحش واكتناز الأموال من قبل الطبقة القرشية الحاكمة ومن سار على نهجها، والدعوة إلى إنصاف الفقراء والمحرومين والمهثمين.

وقد روى الامام البخاري حديثاً يظهر كيف كانت علاقة أبي ذر بالاثرياء من قريش أيام عثمان. فقال انه كان يمرّ على «الملا من قريش» وهو بهيئة خشن، فيهددهم بالعذاب في النار يوم القيامة لأنهم من كاتزي الأموال ويقول

عنهم أنهم لا يعقلون شيئاً، فكانوا يكرهون كلامه. وفيما يلي النص من صحيح البخاري (باب ما أدى زكاته فليس بكنز):

عن الاحنف بن قيس قال «جسّ إلى ملأ من قرش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم فسلم ثم قال: بئس الكاذبين برضوا بحمي عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلقة ثدي أحدهم حتى يخرج من نفخ كفه، ويوضع على نفخ كفه حتى يخرج من حلقة ثديه يتززل».

ثم ولّى مجلس إلى سارية، وتبعته وجسّ إليه، وأنا لا أدري من هو.

فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلت.

قال: أنهم لا يعقلون شيئاً! قال لي خليلي

قلت: من خليلك؟

قال النبي (ص): يا أبا ذر، أتبعير أحدًا؟ قال: فنظرت إلى الشمس ما بقي من النهار وأنا أرى أن رسول الله (ص) يرسلني في حاجة له، قلت نعم.

قال: ما أحب أن لي مثل أحد ذعياً أنفقته كله، إلا ثلاثة دنائير.

وإن هؤلاء لا يعقلون! يجمعون الدنيا لا والله لا أسألهم دنيا ولا استفتيهم عن دين حتى أتى الله⁽¹⁾

ولا شك أن السلوك الشخصي لعثمان، وثوراه الفاحش، وما عُرف عنه من استمتاعه بمباهج ونعم الحياة⁽²⁾، كان مما يشعل أعصاب أبي ذر ويزيد من عزيمته. فينظر أبي ذر كان عثمان رمزاً لقرش وثر الثنا وكائنها،

فمثلاً أخرج ابن أبي الحديد رواية عن الواقدي بشأن الجدال العنيف الذي دار بين الخليفة عثمان وأبي ذر الغفاري لما أحضره من الشام

(1) رواد أيضاً اللحي في سير أعلام النبلاء بمبارات قرية

(2) ومثال ذلك ما رواه الطبري في تاريخه عن عبيد الله بن عامر «كنت أظفر مع عثمان في شهر رمضان، فكان يأتيها بطعام هو أكل من طعام عمر. قد رأيت على مائدة عثمان التمرك الجديد وصغار الفسان كل ليلة. وما رأيت عمر قط أكل من الفتيق كسجراً ولا أكل من الخنم إلا مسجها»

وفي معرض الكلام المتبادل سأله عثمان «أنت الذي تزعم أننا نقول: يد الله مفلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء»

فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مآل الله على عباده...

وأخرج ابن شبة في تاريخ المدينة رواية تظهر كيف أن أبا ذر كان يعتقد أن الله تعالى خير اكتناز الأموال من حيث المبدأ، حتى لو تم إخراج الزكاة الشرعية. ورواه هذا عبر عنه حتى بحق الصحابي الكبير عبد الرحمن بن عوف، فكيف الأمر بما يتعلق بغيره ممن ليس لهم صحة ولا يتصدقون كما كان يفعل ابن عوف؟

فمن عبد الله بن الصامت قال عن أبي ذر وعثمان: ودخل عليه وهو يقسم مال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بين ورثته، وعنده كعب.

فأقبل عثمان رضي الله عنه فقال: يا أبا اسحق، ما تقول في رجل جمع هذا المال فكان يتصدق منه، ويحمل في السيل، ويصل الرحم؟ فقال: اتني لأرجو له خيراً.

فغضب أبو ذر، ورفع عليه المصبي وقال: وما يدريك يا ابن اليهودية؟ ليؤكد صاحب هذا المال يوم القيامة أن لو كان عقارب تلسع السويده من قلبه⁽¹⁾

وقد روى أحمد بن حنبل في مسنده قصة الصدام بين أبي ذر وكعب الأحبار بحضرة عثمان بن مالك بن عبد الله الزياتي عن أبي ذر أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان رضي الله عنه فأذن له ويده عصاه. فقال عثمان رضي الله عنه: يا كعب إن عبد الرحمن توفي وترك مالا، فما ترى فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه.

فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال: سمعت رسول الله (ص) يقول: ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني، أذر خلقي منه ست أواق، أنشدك الله يا عثمان أسمعت؟ ثلاث مرات.

(1) ونفس هذه الرواية أخرجهما اللهم في سير اعلام النبلاء.

قال نعم.

وروي ابن شبة في تاريخ المدينة رواية ثانية تظهر كيف كان أبو ذر غاضباً من عثمان وسياساته المالية. فمن مالك بن أنس بن الحدثان «جاء أبو ذر وأنا جالس مع عثمان رضي الله عنه.

فسلم عليه عثمان رضي الله عنه. وقال: كيف أنت يا أبا ذر؟

فقال: كيف أنت؟ وولى وجهه!

فاستفتح (الهمك التكاثر)، رفع بها صوته حتى إن للمسجد لرجة، أو للجة (شك أبو عاصم).

قال: فانتهدت به القراءة إلى سارية فركع ركعتين فجود فيهما. وركبه الناس - وأنا في الناس - فقالوا: يا أبا ذر حدثنا عن رسول الله (ص).

قال: سمعتُ النبي (ص) يقول: في الإبل صدقتها والبقرة صدقتها، والغنم صدقتها، وفي البر صدقتها. ومن جمَعَ دنانير ودراهم أو تبر ذهب أو تبر فضة لا ينفقه في سبيل الله ولا يعده لغيره فهو كثر يَكْوِي به يوم القيامة.

قال: فقلتُ: يا أبا ذر اتق الله وانظر ما تقول، فإن هذه الأموال قد كثرَت في الناس.

قال: يا ابن أخي من أنت؟

فانتسبُ له. فقال: قد عرفتُ نسبك الأكبر، يا ابن أخي اتقِ القرآن؟

قلت: نعم.

قال: أليس يقول الله (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله)؟

قلت: بلى.

قال: فافقه اذن يا ابن أخي!

2 - محور الاخلاق والقيم، وما كان يراه من انحراف من عهد رسول الله (ص) وتعاليمه.

فكان الكثير مما يجري في عهد عثمان مثار استهجان أبي ذر وغضبه. وقد روى الحاكم في المستدرک على الصحيحين أن أبا ذر كان يروي عن رسول الله (ص) «إذا اقترَبَ الزَّمانُ كَثُرَ لَيْسُ الطَّيَالِسَةِ، وكَثُرَتِ التَّجَارَةُ، وكَثُرَ الْمَالُ، وعَظُمَ رَبُّ الْمَالِ بِمَالِهِ، وكَثُرَتِ الْفَاحِشَةُ، وَكَانَتْ إِمَارَةُ الصَّبِيانِ، وكَثُرَ النِّسَاءُ، وَجَارَ السُّلْطَانُ، وَطَقَّفَ فِي الْمَكِيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَيُرِي الرَّجُلُ جِرْوَةَ الْكَلْبِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُرِي وَلَدًا لَهُ، وَلَا يُوقِرُ كَبِيرٌ وَلَا يُرْحَمُ صَغِيرٌ، وَيَكْثُرُ أَوْلَادُ الزَّنا حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ لَيْفَشِيَ الْمَرْأَةَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ فَيَقُولُ امْثُلُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ لَوْ اعْتَزَلْتُمَا عَنِ الطَّرِيقِ، وَيَلْبِسُونَ جُلُودَ الْفُصَّانِ عَلَى قُلُوبِ الْغُلَّابِ امْثُلُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ الْمُدَاهِنُ»

وهذا يعني أن أبا ذر كان يرى أن الاخلاق قد فسدت والضمائر قد خربت من بعد رسول الله (ص). وكان يعارض ذلك ويحمل المسؤولية للحاكم.

وقد ورد في البيان والتبيين للجاحظ كيف كان أبو ذر مصراً على الاستمرار على منهاج الرسول (ص) في الزهد والتواضع فقال أبو ذر: فارقْتُ رسولَ الله (ص) وقوتني من الجمعة إلى الجمعة مُدَّةً، ولا والله لا أزدادُ عليه حتى ألقاهُ.

فكان أبو ذر يمتلك تصميماً شديداً على تبليغ ونشر وصايا النبي (ص) مهما كان الثمن باهظاً. ومن ذلك ما رواه العارفي في سننه أن أبا ذر قال: فأمرنا رسول الله (ص) أن لا يغلبونا على ثلاث: أن نأمر بالمعروف، وننهي عن المنكر، ونعلم الناس اللسن، وهذا ما كان يفعله أبو ذر ومستعد أن يضحي في سبيله.

ومن ذلك أيضاً ما رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء أن أبا ذر قال «يا بني رسول الله (ص) خمساً، وواقفتني سبعا، وأشهد الله علي سبعا: ألا أخاف في الله لومة لائم».

وروى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن الواقدي أن عثمان لما استقدم أبا ذر من عند معاوية فقال له: أنت الذي فعلت وفعلت 19

فقال أبو ذر: نصحتك فاستغفشتني، ونصحت صاحبك فاستغفشتني!

قال عثمان: كُلبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبها. قد أنفكت الشام علينا.

فقال له أبو ذر: اتبع سنة صاحبك لا يكن لأحد عليك كلام.

فقال عثمان: مالك وذلك، لا أتم لك!

قال أبو ذر: والله ما وجدت لي علواً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن

المعكر.

3 - محور التشيع لعلي بن أبي طالب ولآل بيت النبي (ص).

فالأرجح أن ما تميز به أبو ذر من ولاء شديد لشخص علي بن أبي طالب وآل بيته كان لا يروق لعثمان وبطلانته من حيث المبدأ. فالخليفة ومستشاروه كانوا يعتبرون ما يذيعه أبو ذر من حديث النبي (ص) بشأن آل البيت عملاً عدائياً موجهاً ضدهم.

فقد ورد في حلل الدارقطني عن أبي ذر أن رسول الله (ص) قال لأبيها الناس: إني تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعتري أهل بيتي، ولكن يفرقا حتى يردا علي الحوض، ومثلها مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا.

وهناك مؤشرات أن التشيع لعلي بن أبي طالب لم يكن بدعة لاحقة في الإسلام نشأت في زمن عثمان، بل كان تياراً أصيلاً ترجع جذوره إلى أيام الرسول (ص) وامتدت لما بعد وفاته. وقد كان عددٌ من أهم صحابة الرسول (ص)، ممن ليسوا من أصول قرشية، متمسكين بضرورة ولاية علي بن أبي طالب بعد رسول الله (ص). وكان أبو ذر من تلك المجموعة التي اشتهر منها أيضاً عمار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد بن عمرو. وهؤلاء الأربعة يحفظون بتقدير كبير جداً من أتباع المذهب الشيعي قديماً وحديثاً.

وقد ورد في تاريخ اليعقوبي نص ما قاله أبو ذر الغفاري في المسجد النبوي في بداية عهد عثمان بن عفان:

هو بلخ عثمان أن أبا ذر يقعد في مسجد رسول الله، ويجمع إليه الناس، فيحدث بما فيه الطعن عليه. وأنه وقفت بباب المسجد فقال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري، أنا جندب بن جندادة الردي.

إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. محمد الصفوة من نوح، فالأول من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل، والعتره الهادية من محمد. إنه شرف قريتهم واستحقوا الفضل في قومهم فينا كالسما المرفوعة وكالكعبة المستورة أو كالقبة المنصوبة أو كالشمس الضاحية أو كالقمر الساري أو كالنجوم الهادية أو كالشجرة الزيتون أنصاء زيتها ويورك زيتها. ومحمد وارث علم آدم وما فضل به النبيون. وعلي بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه.

أيها الأمة المتحيرة بعد نبيها أما لو قلتم من قدم الله وأخرتم من أخر الله وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما حال ولتي الله، ولا طاش سهم من فرائض الله ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه.

فأما إذا قلتم ما فعلتم فذوقوا وبأل أمركم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ويتبع هذا: القدح في بني أمية والتشكيك في شرعيتهم الاسلامية

فمثلاً أخرج ابن أبي الحديد رواية أخرى عن الواقدي بشأن الجدل الذي دار بين الخليفة عثمان وأبي ذر الغفاري قبل أن يصدر قراره بنفيه.

وفي معرض ذلك الحوار العاصف قال أبو ذر فأشهدني سمعت رسول الله (ص) يقول (إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً، جعلوا مال الله دولاً، وصباه خولاً، ودينه دخلاً).

فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله ؟

قالوا: لا.

قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله؟

فقال أبو ذر لمن حضر: أما تدرون أنني صدقت؟

قالوا: لا والله ما ندري.

فقال عثمان: ادعوا لي علياً.

فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني أبي العاص.

فأعاده.

فقال عثمان لعلي عليه السلام: أسمعت هذا من رسول الله (ص)؟

قال: لا، وقد صدق أبو ذر!

فقال: وكيف عرفت صدقه؟

قال: لأنني سمعت رسول الله (ص) يقول: (ما أغلقت الخضراء ولا أغلقت

الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر).

فقال من حضر: أما هذا فسمعناه كلنا من رسول الله

قال أبو ذر: أحذركم أنني سمعت هذا من رسول الله (ص) فتهموني؟

ما كنت أظن أنني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد (ص).⁽¹⁾

ويقال أبو ذر مخلصاً في ولائه لعلي بن أبي طالب وداعياً إلى ولايته حتى آخر

لحظة في حياته. فقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن أبي رافع:

«لَبِثْتُ أبا ذر بالربذة أودعه، فلما أردت الانصراف قال لي ولأناس معي:

سَكُونُوا فَتَنَةً. فَاتَّقُوا اللَّهَ. وَعَلَيْكُمْ بِالشَّيْخِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ، فَاتَّبِعُوهُ. فَإِنِّي

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِي وَأَوَّلُ مَنْ يَصَافِحُنِي

يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَأَنْتَ الصَّدِيقُ الْأَكْبَرُ، وَأَنْتَ الْفَارُوقُ الَّذِي يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ

وَالْبَاطِلِ. وَأَنْتَ يَحْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَالُ يَحْسُوبُ الْكَافِرِينَ. وَأَنْتَ أَعْمَى

وَوَزِيرِي، وَخَيْرٌ مَنْ أَتْرَكَ بَعْدِي، تَقْضِي دِينِي وَتَنْجِزُ مَوْعِدِي»

(1) وقد ذكر الحقوقي في تاريخه هذه الرواية، باختصار، وفيها «بنو أمية» بدلاً من «بنو أبي

العاص»

والتيجة كانت معارضة لا هودة فيها أظهرها أبو ذر للخليفة عثمان، معارضة تصاعدت وتفاقت واتصفت بالجفيرة. والرواية التالية لدى اللخمي في سير أعلام النبلاء تظهر مدى كره أبي ذر للنظام الحاكم، وكل من يعمل في خدمته من الرعية. والرواية تقول أنه عندما كان أبو ذر مريضاً يوشك على الموت وهو منفي بالريذة، مر به قوم من المسلمين فاسترقفتهم زوجته لكي يكفئوا زوجها إن قضى نحيبه، فخاطبهم أبو ذر **«أَنشدكم الله: أن لا يكفئني رجل منكم كان أميراً أو مريضاً أو برئداً»**.

فكل القوم كان نال من ذلك شيئاً، إلا قضى من الانصار قال: **«أنا صاحبك، ثوبان في عيتي من غزل أمي، وأحد ثوبي مدين الدين علي»**.
قال: **«أنت صاحبني، فكفني»**.

تسلسل أحداث صراع أبي ذر مع عثمان

ذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

«واعلم أن الذي عليه أكثر أرباب السيرة وعلماء الأخبار والنقل:

أن عثمان نفي أباً ذراً أولاً إلى الشام،

ثم استقدمه إلى المدينة لما اشتكى منه معاوية،

ثم نفاه من المدينة إلى الريذة لما عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام»

ولا مانع أبداً من قبول هذا التسلسل للأحداث. وأما لماذا نفاه عثمان أولاً إلى الشام، فالجواب أن تلك الممارسة كانت مأثورة في زمان عثمان، الذي كان يلجأ أحياناً إلى نفي الناقمين عليه والمعارضين له إلى الشام، حيث ابن عمه وثقته ورجل الدولة القوي معاوية، فيقوم بتأديبهم وإخضاعهم بطريقة. وسيأتي الحديث عن ذلك.

النفي إلى الشام

يتابع ابن أبي الحديد روايته السابقة:

«أصل هذه الواقعة: أن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوت

الأموال، واختص زيد بن ثابت بشيء منها، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: بشر الكافرين بعذاب أليم ويرفع بذلك صوته ويثقل قوله تعالى (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم).

فرفع ذلك إلى عثمان مراراً وهو ساكت.

ثم إنه أرسل إليه مولى من مواله: أن انتبه عما بلغني عنك!

فقال أبو ذر: أوبنهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى؟! وعيب من ترك أمر الله تعالى. فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ وبخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان.

فأغضب عثمان ذلك وأحفظه، فتصابر وتماسك، إلى أن قال عثمان يوماً، والناس حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرصاً، فإذا أيسر قضى؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك.

فقال أبو ذر: يا ابن اليهوديين، أتعلمنا ديننا؟!!

فقال عثمان: قد كثر أذاك لي، وتولمك بأصحابي. الحق بالشام. فأخرجه إليها.

وقال يعقوبي في تاريخه بشأن حادثة النفي الأولى:

فويلع عثمان أيضاً أن أبا ذر يقع فيه، ويذكر ما غير ويدل من سنن رسول الله، وسنن أبي بكر وعمر. فسيره إلى الشام، إلى معاوية.

وكذلك روى الذهبي في سير أعلام النبلاء تفاصيل عن نفي عثمان لأبي ذر إلى الشام بعد ذلك الحوار الذي لجأ خلاله عثمان إلى الاستشهاد بمسئله كعب الأحبار ليؤكد أنه ليس على المسلم أكثر من دفع الزكاة، بينما أصر أبو ذر على أنه لا يجوز للمسلم أن يكتسب المال وأنه قال لكعب الأحبار بحضرة الخليفة: يا ابن اليهودية. وأن عثمان كان يهين أبا ذر عن طريق تركه فترة طويلة ينتظر على بابه لدى استدعائه.

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة حادثة التفني إلى الشام، وفي روايته ما يظهر بأن بطانة الخليفة وحاشيته كانت تساهم في تحريف كلام أبي ذر، ونقله إلى عثمان بعد اتهميله وحرفه عن مقصده. فعن ابن عباس أن عثمان قال لأبي ذر لما دخل عليه فأنت الذي تزعم أنك خير من أبي بكر وعمر؟

قال أبو ذر رضي الله عنه: ما قلتُ عليه.

قال عثمان: اني أقيم عليك البيعة.

قال: ما أدري ما بيتك؟ قد عرفتُ ما قلتُ.

قال: فكيف قلتُ؟

قال: قلتُ ان رسول الله (ص) قال (ان أحبكم إليّ وأقركم مني الذي يأخذ بالعهد الذي تركته عليه حتى يلحقني). وكلكم قد أصاب من الدنيا خيري. فأنا على العهد، وعلى الله البلاغ.

قال له عثمان رضي الله عنه: الحق بمعاوية. فأخرجه إلى الشام.

بين أبي ذر ومعاوية

لا يمكن تصور رجلين في الكون كله، في ذلك الزمان، أكثر اختلافاً وتنافراً وتناقضاً من معاوية بن أبي سفيان وأبي ذر الغفاري. فمعاوية الثري أباً عن جد، الأستقرطي في قريش، رجل الدولة المحدث والسياسي الداهية، لا يطبق رجل مبادئ وأخلاق، بدوي من قبيلة لا تسامي قريشاً، زاهد في الدنيا، صارم لا يداهن، كأمي ذر. فكان الصدام بينهما حتمياً.

ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميزي أنه لما وصل أبو ذر إلى الشام فأخذ يخلو بالناس، فأبكي عيونهم وأوغر صدورهم. وكان فيما يقول: لا يبقين في بيت أحد منكم دينار ولا درهم ولا ثير ولا فضة، إلا شيء ينفعه في سبيل الله أو يهدم لغريم.

ومن الطبعي أن يستشعر معاوية بالخطر الداهم من وجود رجل مثل هذا الصحابي الجليل، وبهذه الأفكار، عنه في الشام. ويحكم طريقة تفكيره

المعهودة، حاول معاوية أن يستكشف إمكانية رشوة أبي ذر، أو إيقاعه بإغراء مالي لكي يفضحه بين الناس ويؤاخذه عليه. يتابع ابن شبة :

«فبعث إليه معاوية رضي الله عنه بجمع الليل بألف دينار. أراد أن يخالف فعله قوله وسريته علانيته.

فلما جاءه الرسول قسم الألف فلم يصحب عنده منها دينار ولا درهم.

فلما أصبح معاوية رضي الله عنه دعا الرسول فقال له: انطلق إلى أبي ذر فقل له: أنقل لي جسدي من عذاب معاوية، أنقل الله جسدك من النار، فإنه أرسلني إلى غيرك فأخطأت بك.

فقال له أبو ذر: اقرأ علي معاوية السلام وقل له: يقول لك أبو ذر ما أصبح عندنا من دنائرك دينار واحد. فإن أخذتنا بها فأنظرنا ثلاث آيال نجتمعها لك.

فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله وسريته تصليق علانيته كتب إلى عثمان رضي الله عنه: إن كان لك بالشام حاجة فأرسل إلى أبي ذر، فإنه قد أوفر صدور الناس عليك.

فكتب إليه عثمان رضي الله عنه: أن الحق بي»

وفي رواية ثانية أن معاوية كتب لعثمان «إن كان لك في الشام حاجة فأخرج أبا ذر منه، فإنه قد نقل الناس⁽¹⁾ عندي»

وفي متابعة لرواية ابن أبي الحديد السابقة:

«فكان أبو ذر يكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه يوماً معاوية ثلاثمائة دينار.

فقال أبو ذر لرسوله: إن كانت من عطائي الذي حرمتونه عامي هذا أقبلها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها. وردّها عليه.

ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق. فقال أبو ذر: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الأسراف.

(1) نقل الناس أي أنسحهم

وكان أبو ذر يقول بالشام: والله لقد حدثت أعمال ما أهرقها. والله ما
هي في كتاب الله ولا سنة نبيه (ص). والله اني لأرى حقاً بطلاً وباطلاً يفتن
وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقى، وصالحاً مستأثراً عليه.

قال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: ان أبا ذر لمفسدٌ عليكم الشام،
فتدارك أهله ان كان لك فيه حاجة.

كما ذكر ابن أبي الحديد رواية أخرى تلقى مزيداً من الضوء على الاشتباك
الذي حصل بين أبي ذر ومعاوية في الشام. فمن كتاب (السيفانية) للجاحظ
عن جلام الغفاري أنه جاء معاوية يوماً فسمعتُ صارخاً على باب داره يقول:
أتكتم القطار بحمل النار! اللهم المن الأمرين بالمعروف الناركين له. اللهم
المن الناهين عن المنكر المرتكبين له.

فأزيار معاوية وتغير لونه، وقال: يا جلام، أتعرف الصارخ؟
فقلتُ: اللهم لا.

قال: من عذيري من جنذب بن جنادة؟ يأتينا كل يوم فيصرخ على باب
قصرنا بما سمعتُ!

ثم قال: أدخلوه عليّ. فجئني بأبي ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين
يديه.

فقال له معاوية: يا عدو الله، وهدو رسوله! تأتينا في كل يوم فتصنع
ما تصنع. أما اني لو كنتُ قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير
المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكنتُ أستاذك فيك.

قال جلام: وكنتُ أحب أن أرى أبا ذر، لأنه رجل من قومي. فالتفت إليه
فلذا رجل أسير ضرب من الرجال، خفيف الباعضين، في ظهره جنا.

فأقبل على معاوية وقال: ما أنا بعدو لله ولا لرسوله، بل أنت وأبيوك
عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الاسلام وأبطتما الكفر. ولقد لعنتك رسول الله
(ص)، ودعا عليك مرات الأثني عشر. سمعتُ رسول الله (ص) يقول (إذا ولي
الامة الامين الواسع البهيم، الذي يأكل ولا يشبع، فلتأخذ الامة حفرها منه).

فقال معاوية: ما أنا ذلك.

قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل. أخبرني بذلك رسول الله (ص)، وسمعتة يقول وقد مررت به (اللهم العنه ولا تشبهه إلا بالتراب). وسمعتة (ص) يقول (است معاوية في النار).

فصحك معاوية وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان فيه...

ورغم أن تبادل العبارات الجادة جداً، كما هو وارد في هذه الرواية، بين أبي ذر ومعاوية أمرٌ طبيعيٌّ ومتوقع، إلا أنه يبدو واضحة تدخلات وإضافات الرواة، وخاصة افتعالهم على لسان أبي ذر (است معاوية في النار).

ويضيف اليعقوبي في تاريخه:

«...وكان يجلس في المسجد فيقول كما كان يقول، ويجتمع إليه الناس حتى كثر من يجتمع إليه ويسمع منه. وكان يقف على باب دمشق، إذا صلى صلاة الصبح فيقول: جاءت القطار تحمل النار، لعن الله الأبرين بالمعروف والتاركين له، ولعن الله الناهين عن المنكر والأتقين له.

وكتب معاوية إلى عثمان: أنك قد أفدست الشام على نفسك بأبي ذر! فكتب إليه: أن أحمله على قتب بغير وطاء! فقدم به إلى المدينة، وقد ذهب لحمل فخفيه...»⁽¹⁾

وكان معاوية لما عجز عن التوصل إلى أي تقاض مع أبي ذر، وإلى أن يأتيه فيه أمر عثمان، قد أصدر أوامره بعزل أبي ذر عن المجتمع عن طريق تهديد كل من يتصل به أو يستمع إليه.

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الأحنف بن قيس أنه زار الشام فرأى في المسجد رجلاً يصلي عند سواريه فيؤخر عنه الناس. فلما سأله، طلب منه أبو ذر أن يتعد عنه لأنه لا يريد أن يصيبه شر بيبه فقال: ثم عني لا أهلك بشر. فقلت له: كيف تعذبني بشر؟ قال: إن هذا، يعني معاوية، نادى مناديه ألا يجالسني أحد!

(1) ويلاحظ غلو الرواية من تفاصيل الكلام المتبادل بين معاوية وأبي ذر.

النفى إلى الريلة^(١)

وأخيراً قرر الخليفة أن يتخلص من مشكلة أبي ذر، جذرياً. لم يعد عثمان يطبق وجود أبي ذر في عاصمته، ولا في أي مكان مأهول من دولته، فكان قرار النفي القاسي، إلى مكان موحش مقفر، حيث لن يجد أبو ذر من يستمع إليه من المسلمين لكي «يفسده» بكلامه المتواصل عن الظلم والفساد. ففي الريلة، لمن سيتحدث أبو ذر حول وصايا النبي (ص) بالعدل بين الناس، والزهد والورع؟ ولأن أبا ذر لم تكن له قاعدة قبلية تحميه، لم يتورع الخليفة عن اتخاذ أقسى العقوبة بحقه، ربما لجعله عبرة لمن يعتبر!

كان قرار عثمان هو بالفعل حكم بالموث، بيطء، على أبي ذر. وبالفعل لم يلبث أبو ذر في الريلة طويلاً، فمات هناك وحيداً.

وفي متابعة لرواية ابن أبي الحديد من كتاب (السياتية) للجاحظ عن جلام الغفاري:

«فكتب عثمان إلى معاوية أن أحمل جندباً إلى علي أغلظ مركب وأوعره. فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارب ليس عليها إلا قتب، حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم فخذه من الجهد.

فلما قدم بعث إليه عثمان: الحق بأي أرض شئت.

قال: بمكة؟

قال: لا

قال: بيت المقدس؟

قال: لا

قال: بأحد المصرين؟

(١) بلغت شهرة حادثة النفي تلك إلى حد أنه حتى ابن اسحاق قد ذكرها في السيرة النبوية بقوله «لما نفي عثمان أبا ذر إلى الريلة وأصابه بها قنطرة، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلالة... في السيرة النبوية لابن هشام

قال: لا . ولكنني مُسَيَّرٌك إلى ربنة .

فَسَيَّرَهُ إليها فلم يزل بها حتى مات .

روى اليعقوبي في تاريخه انه لما حُوِّل أبو ذر من الشام إلى المدينة، وبعد جدال عنيف مع عثمان :

«... فلم يقم بالمدينة إلا أياماً حتى أرسل إليه عثمان: والله لتخرجن عنها !

قال: أخرجني من حرم رسول الله؟

قال: نعم! وأنفك واضم.

قال: فألى مكة؟

قال: لا .

قال: فألى البصرة؟

قال: لا .

قال: فألى الكوفة؟

قال: لا ولكن إلى الربذة التي خرجت منها حتى تموت بها ! يا مروان اخرج به . ولا تدع أحداً يكلمه حتى يخرج»

وفي رواية أخرى لابن أبي الحديد عن الواقدي

«ثم إن عثمان حظر على الناس أن يقاعدوا أباه ذر، أو يكلموه . فمكث كذلك أياماً، ثم أتى به فوقف بين يديه .

فقال أبو ذر: ويحك يا عثمان! أما رأيت رسول الله (ص)، ورأيت أباه بكر وعمر؟ هل هديك كهديكم؟ أما أنك لتبش بي بعش جبار .

فقال عثمان: اخرج عنا من بلادنا .

فقال أبو ذر: ما أبغض إليّ جوارك . فألى أين أخرج؟

قال: حيث شئت .

قال: أخرج الى الشام أرض الجهاد؟

قال: إنما جلبتك من الشام لما قد أنفستها، فأفارتك اليها؟!

قال: فأخرج الى العراق؟

قال: انك إن تخرج اليها تقدم على قوم أولي شبه وطعن على الأمة والولاة

قال: فأخرج الى مصر؟

قال: لا

قال: فالى أين أخرج؟

قال: الى البادية.

قال ابو ذر: أصير بعد الهجرة امرايياً؟

قال: نعم

قال ابو ذر: فأخرج الى بادية نجد؟

قال عثمان: بل الى الشرق الأبعد، أقصى فأقصى. امض على وجهك هذا فلا تعدون الريلة.

فخرج اليها

مناقشة روايات ابن سعد

واما ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد أورد عدة روايات حول نفي أبي ذر للريلة :

واحدة عن ابن سيرين، يبدو فيها أنه بذل مجهوداً لتخفيف وطأة ما جرى. وقد لجأ إلى إقحام رسول الله (ص) في الأمر حين ذكر أنه (ص) كان قال لأبي ذر «إذا بلغ البناء سلعاً فأخرج منها - ونحنا بيده نحو الشام- ولا أرى أمراك

بدهونك». وهو يريد أن يوحى أن ما جرى كان تنفيذاً لأمر الرسول (ص) ونبوءه! فقد خرج أبو ذر إلى الشام كما أمره الرسول (ص)، وأيضاً حال «أمرأه» بينه وبين المقام هناك كما تنبأ الرسول (ص)! وأمرأه في هذه الحالة هو معاوية بالطبع. ويقول ابن سيرين إن معاوية كتب لعثمان أن أبا ذر «أفسد الناس بالشام» فطلب منه الخليفة أن يرسله له فلما وصله قال له «كُنْ عندى تغدو عليك وتروح اللقاح. قال: لا حاجة لى فى دنياكم. ثم قال: اللئى لى حتى أخرج إلى الريلة. فلأنى له»

ورواية عن حصين عن زيد بن وهب أنه لقي أبا ذر وهو بالريلة فسأله عن سبب وجوده هناك فقال له انه اختلف مع معاوية بشأن تفسير الآية «والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها...» لأن معاوية قال انها نزلت في أهل الكتاب بينما قال أبو ذر ان المسلمين مشمولون بها، فشكاه لعثمان الذي استجلبه إلى المدينة وقال له «إن شئت تنحيت فكننت قريباً» وهذا سبب وجوده في الريلة.

: وثالثة: عن عبد الله بن سيدان السلمي «تاجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما» وأن أبا ذر خرج من هذه (المناجاة) مبتسماً فقال له الناس: مالك ولأمر المؤمنين؟ قال: سامع مطيع. ولو أمرني أن أتى صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت. وأمره عثمان أن يخرج إلى الريلة»

ويلاحظ ان ابن سعد قد اخراج عددا كبيرا من الروايات التي تتحدث عن وصية رسول الله (ص) المشددة والمؤكدة لأيي ذر أن يسمع ويطيع لكل من يؤلى عليه، وان لا يشق عصا الطاعة وان لا يتمرد على الأمراء الفاسدين... الخ وأنه بالتالي فإن أبا ذر كان شديد الطاعة لعثمان إلى درجة انه كان يقول ان عثماناً لو صلبه على أطول خشبة لسمع له وأطاع! وأنه أجاب نقرأ من اهل العراق ممن مروا به وهو بالريلة فقالوا له «فعل بك هذا الرجل وفعل، فهل انت ناصب لنا راية فلنكمل برجال ما شئت؟» فنهاهم عن ذلك وقال لهم «... لا تملأوا السلطان، فإنه من أقل السلطان فلا توبة له!»

فلو كان أبو ذر حقاً بهذه الدرجة من الطاعة والولاء لعثمان، والحرص

على السلاطين والأمراء، فلمْ طعن على معاوية ؟ ولم تحدّث الخليفة ؟ ولم حاجة قريشاً ؟ ولم تحمّل النبي من بلد لآخر ؟ ولم ولم ؟ أما كان ممكناً له أن يجلس وادعاً مستقراً في بيته، يصلي ويصوم ويعبد ربه، تاركاً الدنيا وما فيها لأهلها ؟ وهل يمكن لأبي ذر أن يخالف تلك التوصيات المشددة من النبي (ص) له بأن لا يواجه الأمراء الذين يستأثرون بالنبي ؟

بل إن هناك ما يشير إلى أن موقف أبي ذر المعارض للسلاطين والولاة كان يتسع ليصل كل من تولّى عملاً لهم وتعاون معهم، حتى لو لم تظهر منه ممارسات فاسدة أو منحرفة. فكان أبو ذر يرى هؤلاء الحكام رجساً ودنساً ولا يجد عزراً لمن يسير في ركابهم. روى ابن سعد أن أبا موسى الأشعري لما قديم كان يُقيل على أبي ذر ويلزمه ويقول له «مرحباً بأخي» فكان أبو ذر يعتمد عنه ويدفعه قائلاً له «لست بأخيك إنما كنت أخاك قبل أن تستعمل»^(١). هذا مع العلم أن أبا موسى لم يكن من ولاة عثمان المطعون عليهم، بل إنه لم يعمل لعثمان سوى فترة قصيرة في أول عهده قبل أن يعزله ويولي قريه ابن عامر. فأبو موسى كان عاملاً لعمر في الأساس، ويمكن القول أنه كان ناجحاً في إدارته. ومع ذلك يلومه أبو ذر.

إن سيرة أبي ذر العملية، وما جرى له، يقطع بالجزم بأن حقيقة ما رواه أبو ذر عن النبي (ص) كان :

«أوصاني خليلي بسبع :

أمرني بحب المساكين والفقير منهم

وأمرني أن أنتظر إلى من هو دوني ولا أنتظر إلى من هو فوقني

وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً

وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت

وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأ

(١) وهذه الرواية أخرجه أيضاً المحيي في سير أعلام النبلاء .

وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم
وأمرني أن أكثر من (لا حول ولا قوة إلا بالله) فإنهن من كنز تحت
العرش»

وذلك خلاف روايات الطاعة التي استعرضناها

الوداع الأخير

وأصدر عثمان أوامره بأن لا يخرج أحدٌ لوداع أبي ذر عند مسيره إلى
منغاه الموحش. ولكن علياً بن أبي طالب تحبّى قرار عثمان وخرج لوداع أبي
ذر، هو وولدها الحسن والحسين، ومعهم عمار بن ياسر. وقد روى الشريف
الرضي في نهج البلاغة (شرح محمد عبده، ج 2 ص 178) الكلام الذي قاله له
علي عندما ودّعه لما نفاه عثمان إلى الرينة :

«يا أبا ذر، إنك غضبتَ لله، فأرجُ من غضبتَ له. إن القوم خافوك على
ديناهم وخفتهم على دينك. فأتوك في أيديهم ما خافوك عليه، وأهرب منهم بما
خفتهم عليه. فما أحوجهم إلى ما تمنعهم، وما أغناك عما تمنعوك. وستعلمُ من
الرابع غداً، والأكثر حسداً. ولو أن السموات والأرضين كانتا على عيدين تقآنم
أتقى الله لجمع الله له منهما مخرجاً. ولا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا
الباطل. فلو قبلتَ ديناهم لأحبوك، ولو قرضتَ منها لأمنوك»

وروى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن كتاب السقيفة
للجوهرى خبر إخراج أبي ذر من المدينة عن عكرمة عن ابن عباس :

«لما أخرج أبو ذر إلى الرينة، أمر عثمان فتودي في الناس لا يكلم أحدٌ
أبا ذر ولا يشيعه. وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به. فخرج به.
وتحاماه الناس إلا علي بن أبي طالب عليه السلام، وعقيلاً أخاه، وحسناً
وحسيناً عليهما السلام، وعماراً، فإنهم خرجوا معه يشيعونه.

فجعل الحسن عليه السلام يكلم أبا ذر، فقال له مروان: أيها يا حسن! ألا
تعلم أن أمير المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل؟ فإن كنتَ لا تعلم فاعلم
ذلك.

فحمل علي عليه السلام على مروان فصر به أبلسوط بين أنفي راحته
وقال: تتع لحاك الله إلى النار

فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر، فتلظى علي عليه
السلام.

ووقف أبو ذر فودعه القوم، ومعه ذكوان مولى أم هانئ بنت أبي طالب.
قال ذكوان: فحفظت كلام القوم - وكان حافظاً

فقال علي عليه السلام: يا أبا ذر، انك غضبت لله! إن القوم خافوك على
دنياهم وخفتهم على دينك. فامتحنوك بالقلبي ونفوك إلى الفلا. والله لو كانت
السموات والأرض على عبد رتقاً ثم اتقى الله لحمل له منها مخرجاً. يا أبا ذر
لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل.

ثم قال لأصحابه: ودعوا عنكم. وقال لعقيل: ودع أخاك.

فتكلم عقيل، فقال: ما عسى أن تقول يا أبا ذر؟ وأنت تعلم أنا نحبك وأنت
تحبنا. فأتى الله فإن التقوى نجاة. واصبر فإن الصبر كرم. واعلم أن استقالك
الصبر من الجزع، واستبطائك العافية من اليأس. فدع اليأس والجزع.

ثم تكلم الحسن فقال: يا عماء! لولا أنه لا ينفي للمودع أن يسكت،
وللمشيع أن يتصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف. وقد أتى القوم اليك
ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها.
واصبر حتى تلقى نيك (ص) وهو عنك راض.

ثم تكلم الحسين فقال: يا عماء! إن الله تعالى قادر أن يشير ما قد ترى.
والله كل يوم هو في شأن. وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك. فما أغناك
عما منعوك، وأحوجهم إلى ما منعتهم! فاسأل الله الصبر والنصر، واستعذبه
من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لا يقدم رزقاً،
وجزع لا يؤخر أجلاً.

ثم تكلم عمار رحمه الله مغضباً فقال: لا آتس الله من أوحشك، ولا آمن
من أخافك! أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رصيت أعمالهم لأحبوك.

وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدينيا، والمجزع من الموت. مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب. فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، ففسدوا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

فيكي أبو ذر رحمه الله، وكان شيخاً كبيراً، وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة! إذا رأيتم ذكرت بكم رسول الله (ص). ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم. اني ثقلت على عثمان بالحجاز، كما ثقلت على معاوية بالشام، وكره أن اجاور أخاه وابن خاله بالمصريين فأفسد الناس عليهما، فسيرني إلى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله. والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما أنتشى مع الله وحشة.

ورجع القوم إلى المدينة^(١)

وروى اليعقوبي في تاريخه ان عثمان لما أمر أبا ذر بالخروج إلى الريدة قال :

«... يا مروان أخرجه. ولا تدع أحداً يكلمه حتى يخرج.

فأخرجه على جمل ومعه امرأته وابنته. فخرج علي والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر ينظرون. فلما رأى أبو ذر علياً قام إليه فقبل يده ثم بكى وقال: اني اذا رأيتك ورأيته ولك ذكرت قول رسول الله فلم أصبر حتى أبكي. فذهب علي يكلمه، فقال له مروان: ان أمير المؤمنين قد نهى أن يكلمه أحد. فرقع علي السوط فضرب وجه ناقة مروان وقال: تنزع نحاك الله إلى النار! ثم شيعه، فكلمه بكلام يطول شرحه. وتكلم كل رجل من القوم وانصرفوا.

وانصرف مروان إلى عثمان، فجري بينه وبين علي في هذا بعض الوحشة وتلاحيا كلاماً»

(١) ويمكن التحفظ على وجود عقيل بن أبي طالب ضمن المودعين لأي ذر مع أخيه علي وبينه وعمار (كما في هذه الرواية). فعقيل لم يعرف عنه نشاط يذكر في تحدي عثمان أو الاعتراض على سياسته.

في الريلة: الوفاة

استأثرت قصة أبي ذر ونهالته المأساوية ووفاته وحيداً في الصحراء مشاعر الكثيرين من المسلمين الذين راوا فيها ظملاً تعرّض له ذلك الرجل الكبير بسبب إصراره على تحذّي الحاكمين ومواجهتهم بدعوة للحق لا تلين ولا تسام. لقد تحوّل أبو ذر الي رمز للبطولة في نظر الكثيرين، والرموز دائماً ما تحتوي قصصهم على إضافات من قبل الرواة لإضفاء حيكة تناسب المقام الذي يراد للشخصية الرمز أن تبلغه.

وهذا ما حصل بشأن وفاة أبي ذر. فالرجل توفي في الريلة بلا شك معزولاً وحيداً، ربما بمعية زوجته أو ابته. ولكن لا بد من الاضافات...

روى البلاذري في أنساب الأشراف عن الواقدي أن زوجة أبي ذر قالت إنه حدثها بأن النبي(ص) قد تيّباً بتفاصيل وفاة أبي ذر فقال لي رسول الله (ص): إنك تموت بأرض غريبة. وأخبرني أنه يلي دفني وهدّ صالحون، وتقول الرواية هذه «أن أبا ذر رضي الله تعالى عنه مات، فقالت امرأته: بينا أنا جالسة عنده، وقد توفي، إذ أقبل ركب فسلموا فقالوا: ما فعل أبو ذر؟ قلت: هو فاميتاً قد عجزت عن غسله ودفنه. فأتاناخوا فحضروا له وغسلوه. وأخرج جرير بن عبد الله حنوطاً وكفنّا فحنطه وكفنه. ثم ففوه وحملوها الى المدينة»

وهناك عدة روايات تجعل عدداً من الذين سيكونون فيما بعد اجداء للخليفة عثمان هم أنفسهم الذين تصادف مرورهم بالريلة لدى وفاة أبي ذر. وأهم هؤلاء مالك الأشر.

ومنها ما رواه اليعقوبي في تاريخه:

«... فلم يزل أبو ذر بالريلة حتى توفي. ولما حضرته الوفاة قالت له ابته: اني وحدي في هذا الموضع، وأخاف ان تغلبن عليك السباع! فقال: كلا، انه سيحضرني نفر مؤمنون، فانظري أترين أحداً؟ فقالت: ما أرى أحداً. قال: ما حضر الوقت. ثم قال: انظري هل ترين أحداً؟ قالت: نعم أرى ركباً مقبلين. فقال: الله أكبر صدق الله ورسوله! حولي وجهي الى القبلة، فإذا حضر القوم

فأقر بهم مني السلام، فلذا فرغوا من امري فاذبحي لهم هذه الشاة وقولي لهم: أقسمت عليكم إن يرحم حتى تأكلوا. ثم قضى عليه، فأتى القوم، فقالت لهم الجارية: هذا ابو ذر صاحب رسول الله قد توفي. فتلوا، وكانوا سبعة نفر، فيهم حذيفة بن اليمان، والاشتر، فبكوا بكاء شديداً. وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه. ثم قالت لهم: انه يقسم عليكم ألا تبرحوا حتى تأكلوا. فذهبوا الشاة وأكلوا، ثم حملوا ابنته حتى صاروا بها الى المدينة.»

ومنها ما رواه البلاذري عن أبي مخنف لما حضرت أبا ذر الوفاة بالريذة أقبل ركب من أهل الكوفة فيهم جرير بن عبد الله البجلي، ومالك بن الحارث الأشتر النخعي، والأسود بن يزيد بن قيس بن يزيد النخعي، وعلقمة بن قيس بن يزيد عم الأسود، في عدة آخرين. فسألوا عنه لياموا عليه فوجدوه وقد توفي. فقال جرير: هذه غنيمة ساقها الله لنا. فحنطه جرير وكفنه ودفنه وصلى عليه - ويقال بل صلى عليه الاشتر - وحملوا امرأته حتى أتوا بها المدينة»

واما الواقدي -لدى البلاذري- فجعل عدواً آخر لعثمان هو الذي صلى عليه ا عبد الله بن مسعود.

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه رواية تقول بأنه عندما كان ابو ذر مريضاً يوشك على الموت وهو متغي بالريذة، مر به قوم من المسلمين فاستوقفتهم زوجته لكي يكفنا زوجها إن قضى نحبه، فخطبهم ابو ذر قائلاً: إني أشهدكم أن لا يكفنتي رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً

فليس أحد من القوم إلا قارف بعض ذلك، إلا قسى من الانصار فقال: يا عم، أنا أكفنتك، لم أصيب مما ذكرت شيئاً. أكفنتك في رفاي هذا وفي ثوبين في عيتي من غزل أمي حاكنتا لي.

كفنته الانصاري في النفر الذين شهدوه. منهم حجر بن الادبر ومالك بن الاشتر في نفر كلهم يمان»

وهنا يضيف ابن حبان اسم عدو آخر للحكم الأموي: حجر بن عدي الكندي (وهو الذي أعدمه معاوية فيما بعد).

وفي الروايات التي مرت كلها لا يمكن تصديق تلك الصدقة العجيبة التي تجعل أشخاصاً من أمثال الأشر أو حجر بن عدي هم بالذات الذين يتصادف مرورهم بالريفة أثناء أو بعيد وفاة أبي ذر. هنا يظهر تدخل الرواة.

كيف لخص الامام البخاري موضوع أبي ذر؟

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب قال «مررت بالريفة فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه.

فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟

قال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في (الذين يكتزون الذهب والنفقة ولا يشقونها في سبيل الله)، قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلت نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذلك.

وكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني.

فكتب إلي عثمان أن أقدم المدينة.

فقدمتها. فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك.

فذكرت ذلك لعثمان. فقال لي: إن شئت تنحيت فكننت قريباً.

فذاك الذي أنزلني هذا المنزل.

ولو أتروا علي حبشاً لسمعت وأطعت»

والرواية هذه مخففة جداً، وتخفي أكثر مما تكشف. وهي تحاول أن تقول إن خلافاً فقهاء بين «صحابيين» بشأن تفسير آية قرآنية كان أساس المشكلة كلها. ولا تتحدث هذه الرواية عن خلافاً بين عثمان وأبي ذر ولا عما جرى بينهما. وتستخدم هذه الرواية الصيغة المطلقة والغامضة لحادثة النبي «إن شئت تنحيت»، وهذه الصيغة حمالة أوجه. وتختم الرواية بالقول الشائع المنسوب إلى أبي ذر عن السمع والطاعة.

ولكن الامام البخاري نفسه في موضع آخر من صحيحه أخرج ما يتعلق بمشاكل أبي ذر مع عثمان.

روى البخاري في صحيحه (باب العلم قبل القول والعمل). وقال أبو ذر: لو وضعتم الصمصامة على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنني أنفذ كلمة سمعتها من النبي (ص) قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها. (والصمصامة هي السيف الصارم).

ولما كانت هذه الرواية مبسرة وتخلو من مقدمة الحديث التي يظهر فيها السبب الذي دفع أبا ذر إلى القول أنه سيبلغ حديث النبي (ص) حتى لو تعرض للقتل بسبب ذلك، فقد تولّى شارح صحيح البخاري توضيح ذلك. فقد ذكر ابن حجر المسقلافي في فتح الباري في شرح صحيح البخاري أن أبا ذر كان جالساً عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع إليه الناس يستفتونه فأتاه رجلٌ فوقف عليه ثم قال: ألم تُنّه عن الفتيا؟

فرفع أبو ذر رأسه إليه وقال: أرقب أنت عليّ؟ لو وضعتم الصمصامة.....

وذكر ابن حجر «إن الذي خاطبه رجلٌ من قريش وإن الذي نهاه عن الفتيا عثمانٌ رضي الله عنه»

وهذا يعني أن عثمان قد حاول لجم أبي ذر وإسكاته، ولكن لما فشل في ذلك، واستمر أبو ذر في إشاعة أحاديث الرسول (ص) والفتيا لمن يريد من المسلمين، لجأ عثمان إلى الحل الأخير وهو النفي القاسي.

وأيضاً ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج 2 ص 354) أن الرجل قال لأبي ذر «ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟»

أكاذيب: دفاهاً عن عثمان ومعاوية

قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بشأن أبي ذر «واعلم أن أصحابنا رحمهم الله قد رووا أخباراً كثيرة معناها أنه أخرج إلى الريلة باختياره»

وكمثال على ذلك روى عن قاضي القضاة في «المغني» عن شيخه أبي علي «أن معاوية كتب يشكوه وهو بالشام. فكتب إليه عثمان: أن حير إلى المدينة.

فلما صار إليها قال له: ما أخرجك إلى الشام؟

قال: اني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: إذا بلغت عمارة المدينة موضع
كذا فأخرج منها. فلذلك خرجتُ.

فقال: أي البلاد أحب إليك بعد الشام؟

قال: الريلة.

قال: فسير إليها

وبعد أن أخرج بعض روايات أخرى بهذا الاتجاه، أعلن العلامة ابن أبي
الحديد رأيه القيم :

«ونحن نقول: وهذه الأخبار، وإن كانت قد رويت، لكنها ليست في
الاشتهار والكثرة كذلك الأخبار.

والوجه أن يقال في الاعتذار من عثمان وحسن الظن بفعله: انه خاف
الفتنة واختلاف كلمة المسلمين، فغلب على ظنه أن إخراج أبي ذر إلى الريلة
أحسن للشعب، وأقطع لأطماع من يشرب إلى شق العصا. فأخرجه مراعاة
للمصلحة. ومثل ذلك يجوز للإمام.

هكذا يقول أصحابنا المعتزلة، وهو الأليق بمكارم الأخلاق. فقد قال
الشاعر:

إذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلة عدوا

وانما يتأول أصحابنا لمن يحمل حاله التأويل كعثمان. فاما من لم يحمل
حاله التأويل، وإن كانت له صحة سالفاً كمعاوية وأخراجه، فإنهم لا يتأولون لهم
إذا كانت أفعالهم وأحوالهم لا وجه لتأويلها، ولا تقبل العلاج والاصلاح»

أي ان ابن أبي الحديد يقول انه لا داعي للكذب والتلفيق واختراع الروايات
للدفاع عن عثمان فيما قرره بشأن أبي ذر الغفاري. فالصحيح هو الاقرار بما
ارتكبه عثمان بحق أبي ذر، ولكن لا بد من محاولة التماس عذر وتأويل لما
فعله الخليفة على أساس حقه في تقدير المصلحة العامة للمسلمين، باعتبار ان

عثمان صحابي قديم من المهاجرين مما يجيز حسن الظن به، بخلاف معاوية ومجموعته الذين لا تسمح شناعة أفعالهم بالتماس أعذار لهم.

كما ان ابن شبة التميري في تاريخ المدينة قد أخرج عدة روايات بشأن الخروج الطوعي لأبي ذر إلى الريلة. وهذه الروايات أقل ما يقال فيها بأنها هزيلة وركيكة ومبتسرة، ويظهر فيها أبو ذر وكأنه مضرب المثل في الطاعة والولاء لعثمان، إلى حد القول انه لو طلب منه أن يحبو على الأرض لحباً وبعض الرواة يذكر ان أبا ذر كان يقول لعثمان انه ليس من الخوارج! وأخرى تنسب للرسول (ص) أقوالاً بشأن إخراج أبي ذر. وبعضها تتحدث عن حرص عثمان على راحة أبي ذر في مفاء الطوعي وما شابه ذلك من أخبار.

بل انه روى كيف ان محمد بن سيرين كان يغضب بشدة إذا سمع أحداً يقول ان عثمان أخرج أبا ذر إلى الريلة، ويصرّ على انه خرج من تلقاء نفسه!

وكذلك ابن كثير في البداية والنهاية تجاهل كل ملاسات وفاة أبي ذر وخلفياتها واختزلها بالقول فتخرج إلى الشام فكان فيه حتى وقع بينه وبين معاوية فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ثم نزل الريلة فأقام بها حتى مات.

كيف تناول الطبري هذا الموضوع؟

قد أعرض نحن كل الروايات التي تكشف عن حقيقة ما جرى، واختار فقط ما رواه سيف بن عمر، لأنه الكاتب الوحيد الذي حفظ للسلطان ماء وجهه، واستفد من حواقب تلك الأحداث كما صرح بذلك الطبري نفسه في مستهل حديثه عن هذه القصة، فقال:

«في هذه السنة، 30 للهجرة، كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية، وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة. وقد ذكر في سبب إشخاصه إياه منها أمور كثيرة كرهت ذكر أكثرها.

فأما العاذرون معاوية فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلى السري يذكر أن شعبياً حدثه سيف»

ويسرد الطبري هذه القصة مردداً بين فقراتها (قال سيف) (قال سيف)

حتى أتى على آخرها. ثم قال: «وأما الآخرون فلأنهم رَوَوْا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأَمْوَرًا شنيعة كَرِهْتُ ذِكْرَها».

إذن يقرر الطبري، صاحب الموسوعة التاريخية الكبرى، أن ينقل فقط رواية سيف، ولا شيء غيره! إذن هو يقرر أن يروي ما قاله «العاذرون معاوية» فقط، وأما الآخرون فالطبري كره ذكر أخبارهم!

والآن ماهي رواية سيف بن عمر التي يتمسك بها الطبري فلا يروي سواها؟
«لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر. فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية، يقول المأل مأل الله؟! ألا إن كل شيء لله، فكأنه يريد أن يلحجه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين!»

فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مأل المسلمين مأل الله؟! قال: يرحمك الله يا أبا ذر. ألسنا عباد الله، والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟

قال: فلا تقله.

قال: فإني لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين.
وأتى ابن السوداء أبا الدرداء. فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً.
فأتى عبادة بن الصامت، فتعلق به، فأتى به معاوية. فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر!

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا يتفقرونها في سبيل الله بمكاي من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبه على الأغنياء، وحتى شكوا الأغنياء ما يلقون من الناس.»

ثم يذكر تسيير معاوية أبا ذر إلى المدينة على أحسن هيئة، فيكرمه الخليفة، رضي الله عنه، أحسن إكرام ويتلطف به، غير أن أبا ذر يصر على أن يهجر المدينة ليرتد أحراباً فيذهب باختياره إلى المنفى في الريزة، بناء على وصية النبي (ص) له بأن يخرج من المدينة إذا بلغ البناء فيها منطقة سلع! وأن عثمان أكرمه وأعطاه إيلاً ومملوكين لرعايته.

وواضح من هذه القصة أنها فصلت لكي تدافع عن الحكام: عثمان
ومعاوية.

ولكن وللأسف فإن ترويع هكذا رواية من قبل الطبري فيه إساءة عظيمة
لواحد من أرفع الصحابة السابقين إلى الإسلام مكانة، وهو أبو ذر في سبيل
الدفاع عن الحكام رضي الطبري أن يجعل أبا ذر في موقف التابع الغيبي لإرادة
اليهودي الماكر (وهو ابن سبأ، الذي يلقبه بابن السوداء)، ثم جعل منه رجلاً متمرداً
على الخليفة بإيعاز من ذلك اليهودي، ثم جعل منه مرتدّاً أعرابياً بعد الهجرة!

إن الطبري باختياره هذا يصرح بالقول والفعل أنه قد وقف إلى جانب
الأمير الغالب، ملتصقاً له العذر على كل حال، وإن لم يجد هذا العذر إلا عند
الوضّاع سيف بن عمر. وهذا هو السبب الوحيد الذي يفسر إعراضه المعلن
عن سائر أحاديث «العاذرين أبا ذر» - وهو الطرف المغلوب - واكتفائه برواية
«العاذرين معاوية» - وهو الأمير الغالب.⁽¹⁾

ولم يوضح سيف بن عمر في روايته هذه ماذا فعل معاوية بابن السوداء
بعد أن أحضره له عبادة بن الصامت؟ ولكن أخذاً بعين الاعتبار ما يرويه سيف
عن نشاط ابن السوداء اللاحق في بلاد أخرى، فلا بد من الاستنتاج أن معاوية
قد أطلقه، بكل بساطة!

وعدا عن كل هذا التهافت في رواية سيف بن عمر، فإن هناك إشكالاً من
حيث الشكل أيضاً. فسيف بن عمر نفسه يذكر أن ابن سبأ، الذي يسميه ابن
السوداء، كان موجوداً في البصرة بعد عام 32 للهجرة! فقد روى الطبري عنه
في تاريخه أنه «لما مضى من إمارة ابن عامر ثلاث سنين» نزل عبد الله بن سبأ
ضيفاً على أتباعه في البصرة، وعلى رأسهم حكيم بن جبلة العبدي «فاجتمع
إليه نفر فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح بقبولها منه واستعظموه».

وأرسل إليه ابن عامر فسأله: ما أنت؟

(1) وفي موضع آخر، أعلن الطبري أنه قرر الإعراض عن ذكر كثير من الأسباب التي كانت
وراء الثورة التي أدت إلى قتل عثمان. فقال «فأعرضنا عن ذكر كثير منها لعلنا ندع إلى
الإعراض عنها» ولم يوضح ماغية تلك المعلل، إلا أنه من الواضح أن ذلك يندرج في
نطاق سعيه للدفاع عن عثمان.

فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام، وورع في جوارك فقال: ما يبلغني ذلك: أخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فاستقر بمصر...^١

وبما أن ابن عامر تولى منصبه عام 29 للهجرة، فلا شك أن هذا الاجتماع المذكور بينه وبين ابن سبأ كان في سنة 33 أو 32 على أقل تقدير.

بينما نجد سيفاً نفسه يقول في رواية أخرى له «كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء، أمه سوداء. فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم. فبدأ بالمعجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجه حتى أتى مصر...»^٢

وهذا يعني أن ابن سبأ قد توجه إلى الشام بعد البصرة والكوفة. فمضى اجتمع بأبي ذر الغفاري بالشام؟ فأبو ذر توفي في عام 30 للهجرة^(١)، وبالتالي كيف يمكن أن يكون موجوداً في دمشق، ليجتمع مع ابن سبأ بعد ثلاثة أعوام من وفاته؟

ثانياً: مشكلة عبد الله بن مسعود⁽²⁾

خلفية ابن مسعود

وعبد الله بن مسعود هو أيضاً من الشخصيات الإسلامية البارزة، بامتياز. فقد كان من السابقين الأولين للإيمان بمحمد(ص) في الفترة المكية من

- (1) تقول روايات البلاذري في أنساب الأشراف أنه توفي سنة 31
- (2) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج 1 ص 232)، صحيح البخاري (باب مناقب عبد الله بن مسعود ج 5 ص 35)، سنن الترمذي (باب مناقب عبد الله بن مسعود ج 5 ص 338 رقم 3898)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 3 ص 256 و ص 260)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 3 ص 150) و (ج 3 ص 161)، مستد الأمام أحمد بن حنبل (ج 1 ص 450)، المعقد الفريد لابن عبد ربه (ج 5 ص 56)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة التميمي (ج 3 ص 1049 و ص 1006 و ص 1051 و ص 1050)، التاريخ الصغير للإمام البخاري (ج 1 ص 106)، طبقات خليفة بن خياط (ص 47)، تاريخ اليعقوبي (ج 2 ص 171 و ص 170)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 183)، تاريخ دمشق لابن حسكر (ج 33 ص 136-137-183-188-191) و (ج 63 ص 240 و ص 243)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 1 ص 473-499)، فتح الباري لابن حجر (ج 7 ص 45) و كتاب الفتوح لابن أعمش الكوفي (ج 2 - ص 393) و أنساب الأشراف للبلاذري (ج 6 ص 140)

دعوته. وابن مسعود كان من الضعفاء والفقراء في مكة، فهو ذو أصل متواضع، من قبيلة هذيل.

ويبلغ من شدة حمائه للدين الذي آمن به أنه كان أول من أصر على الجهر بقراءة القرآن على مسامع جبارة قريش في مكة، فتاله أذى شديد جزاء ذلك كما ورد في السيرة النبوية لابن هشام.

وقد شارك في معركة بدر، وكان له شرف الاجهاز علي أبي جهل ذاته حين وجده بين الحياة والموت بعد أن هاجمه الفتيان الانصارى. ويروى أن أبا جهل، وهو في لحظاته الأخيرة، قد وصفه بـ «روعي الغنم» مما يدل على الاحتقار الذي كان ابن مسعود يلقاه من كبار قريش.

وفي الفترة المدنية كان ابن مسعود شديد القرب من رسول الله (ص)، كما ذكر البخاري في صحيحه (باب مناقب عبد الله بن مسعود)، حيث قال أنه من كثرة دخوله وغروجه هو وأمه من وإلى بيت النبي (ص) ظن أبو موسى الأشعري من أهل البيت: «قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجلاً من أهل بيت النبي (ص) ! لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي (ص)»

وقد صار ابن مسعود من أبرز المتعمقين بالقرآن، قراءته وتلاوته وأسباب نزوله وعلومه.

جاء في سنن الترمذي «عن عبد الله بن عمرو: قال رسول الله (ص): خلدوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة».

الخلاف بين ابن مسعود والخليفة

ومن استعراض الروايات المختلفة التي تتحدث عن خلاف ابن مسعود وعثمان، يمكن القول أنه كان هناك سببان للمشكلة:

السبب الأول: هو ممارسات الوليد بن عقبة بن أبي معيط في الكوفة، وعدم سكوت ابن مسعود عنه

والظاهر أن الخلاف بين ابن مسعود والخليفة بدأ مع قدوم واليه، الفاسق المستهتر بشؤون الدين، الوليد بن عقبة، إلى الكوفة. ولا شك أن الوليد بن

عقبة، بكل ما في نفسه من كبر وخيلاء، لم يكن لينسى أن ابن مسعود كان في ماضي الأيام راعياً لغنم أبيه. فقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة وابن سعد في الطبقات الكبرى في قصة هجرة النبي (ص) إلى المدينة عن ابن مسعود كنت غلاماً يافعاً في غنم لعقبة بن أبي معيط أرحاهما...».

وقد كان ابن مسعود على بيت مال المسلمين في الكوفة (وكان عمر قد ولّاه ذلك) حين بعث عثمان الوليد بن عقبة والياً عليها. ومن المرجح أن الوليد لم يكن ليقبل أن يحاسبه ابن مسعود على تصرفاته وقراراته، لأنه أعلى منه منصباً عدا عن علاقته الخاصة بالخليفة.

وكان ابن مسعود يعتبر أموال المسلمين أمانة في عنقه، ولا يحتمل أي عبث بها. فهو على هذا الصعيد من مدرسة عمر بن الخطاب.

فكان الصدام بين الرجلين أمراً حتمياً: إن كان بحكم وظيفة ابن مسعود كأمين على بيت المال، أو كان بحكم وضعيته كصحابي عريق له مسؤولية معنوية عن أخلاق وتعاليم الاسلام الصافي الذي جاء به محمد (ص).

وقد حصل الصدام بالفعل في الاتجاهين :

وقد نظرنا الى ما فعله الوليد من شرب للخمر وتهتك في الصلاة وعبث مع السحرة وغيرها من سلوكيات كانت طبعا تثير حفيظة ابن مسعود وتدفعه الى المواجهة. فقد روى الامام أحمد في مسنده أن الوليد بن عقبة آخر الصلاة مرة. فقام عبد الله بن مسعود فثرب بالصلاة فصلى بالناس.

فأرسل اليه الوليد: ما حملك على ما صنعت ؟ أجابك من أمير المؤمنين أم فيما فعلت أم ابتدعت ؟

قال: لم يأتي أمر من أمير المؤمنين ولم ابتدع. ولكن أبي الله عز وجل علينا ورسوله أن نتظرك بصلاتنا وأنت في حاجتك⁽¹⁾

وقد أخذ الوليد مالا من بيت المال دون وجه معلوم، ودون إذن ابن مسعود.

(1) روى مثل هذه الرواية أيضاً ابن عساکر في تاريخ دمشق

روى ابن عبد ربه في العقد الفريد عن عبد الله بن سنان قال فخرج علينا ابن مسعود ونحن في المسجد، وكان على بيت مال الكوفة، وأمير الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فقال: يا أهل الكوفة، فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف لم يأتي بها كتاب من أمير المؤمنين، ولم يكتب لي بها براءة.

قال: فكتب الوليد بن عقبة إلى عثمان في ذلك، فترعه عن بيت المال»

وأما البلاذري في أنساب الأشراف فروى عن أبي مخنف أن الوليد قد أخذ قرصاً من بيت المال، أي يعلم ابن مسعود، ولكنه لم يردّه لما قدم الوليد الكوفة ألقى ابن مسعود على بيت المال فاستقرضه مائلاً، وقد كانت الولاية تفعل ذلك ثم ترد ما تأخذ، فأقرضه عبد الله ما سأله. ثم أنه اقتضاه إياه. فكتب الوليد في ذلك إلى عثمان. فكتب عثمان إلى عبد الله بن مسعود: إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال.

فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنت أظن أنني خازن للمسلمين، فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك. وأقام بالكوفة بعد الفائه مفاتيح بيت المال»⁽¹⁾

وهكذا تخلص الوليد من ابن مسعود :

جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري «إن الوليد بن عقبة كتب إلى عثمان رضي الله عنه يبيّضه على ابن مسعود وإن عثمان رضي الله عنه سيره من الكوفة إلى المدينة وحرّمه عطاء ثلاث سنين»

(1) وقد نظرنا سابقاً إلى الروايات التي تحدثت عن خلاف الخليفة عثمان مع خازن بيت المال عبد الله بن الأرقم والذي استقال احتجاجاً على سياسة عثمان المالية. وتلك الروايات فيها عبارات مشابهة لهذه المنسوبة إلى ابن مسعود هنا «إنما أنت خازن لنا ... والقاء المفاتيح». ولكن لا مانع من قبول الروايين لأن ابن الأرقم كان خازن بيت المال في المدينة بينما ابن مسعود كان خازن بيت مال الكوفة. وليس غريباً تشابه رد الفعل من قبل الرجلين لأن ذلك منقطع من الموظف المخلص الأمين تجاه تجاوزات الحاكم.

السبب الثاني، وهو الأشهر: قرار عثمان بحرق كل المصاحف، بما فيها مصحف ابن مسعود، واعتماد نسخة زيد بن ثابت فقط.

وكان لما أقام من كره ابن مسعود لثمان وسيئاته، ما سبق وقرره عثمان من إحراق مصحفه بالعراق، واعتماد المصحف الذي أوكل مهمة نسخه لزيد بن ثابت، الذي اعتبره ابن مسعود غير مؤهل للبت هكذا مهمة.

وبعد وفاة الرسول (ص)، أصبح ابن مسعود علماً يلجأ إليه عامة المسلمين، من أهل العراق خاصة، ليتعلموا القرآن. وكان ابن مسعود قد كتب المصحف، بنفسه ويده، كما سمعه من رسول الله (ص). وكان فخوراً جداً بمصحفه الذي كان يعتني به كثيراً ويعلمه للناس في العراق مع شروحاته لأسباب نزول الآيات وسيرة النبي (ص).

روى اليعقوبي في تاريخه فوجع عثمان القرآن وألفه، وصير الطوال مع الطوال، والقصار مع القصار من السور، وكتب في جمع المصاحف من الأفاق حتى جمعت، ثم سلقها بالماء الحار والخل، وقيل أحرقها، فلم يبق مصحف إلا فعل به ذلك...⁽¹⁾

فكان غضب ابن مسعود شليداً بسبب حرق مصحفه هو، واعتماد مصحف يكتبه زيد بن ثابت كنسخة نهائية لعموم المسلمين قيل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما لك لا تقرأ علي قراءة فلان؟ فقال: لقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة فقال لي: لقد أحسنت، وإن الذي يسألوني أن أقرأ على قراءته في صلب رجل كافر⁽²⁾

وفي ترجمة ابن مسعود لدى ابن عساكر (تاريخ دمشق) ليس هناك كلام صريح عن غضب ابن مسعود لحرق مصحفه واعتراضه على عثمان. ولكن هناك إشارات غير مباشرة لذلك. فبعض الروايات تحدثت عن قوله بشأن زيد

(1) وحسب تاريخ اليعقوبي ينحصر سبب الخلاف بين ابن مسعود وعثمان في مسألة حرق المصاحف. فهو لم يتحدث عن مشاكل ابن مسعود مع الوليد. وربما يرجع ذلك إلى ميل اليعقوبي للاختصار والتلخيص والتركيز على ما هو أشهر.

(2) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري

بن ثابت، دون الإشارة إلى عثمان. فقد أخرج روايات الأعمش عن أبي وائل وعلمقة بن قيس وشقيق وفيها أن ابن مسعود قال: «لقد أخذت من في رسول الله (ص) بضعا وسبعين سورة وإن زيد بن ثابت له ذؤابة يلعب مع الغلمان» أو «كيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله (ص) بضعا وسبعين سورة وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان» أو رواية أبي عوانة عن اسماعيل بن سالم عن أبي سعد الأزدي: «أقرأني رسول الله (ص) سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد بن ثابت»

فبعد الله بن مسعود لم يصدق أن عثمان يختار زيد بن ثابت بالذات وهكذا مهمة حساسة فرسول الله (ص) كان أكبر من (زيد بأربعين سنة على الأقل⁽¹⁾)، وبالتالي لم يكن زيد، بنظر ابن مسعود، قد خالط رسول الله (ص) بما يكفي لكي يختاره عثمان من بين بقية الصحابة الأكبر، والأعلم بالقرآن منه. فقد جاء في سيرة ابن هشام أن زيدا كان حدثا صغيراً يوم أحد، حتى أن رسول الله (ص) لم يُجزه لكي يكون في الجيش. وبالتالي فإن زيدا كان عمره حوالي 34 عاماً فقط في بداية عهد عثمان، على افتراض أن عمره يوم أحد كان 13 عاماً.

العقوبة

ذكر ابن الأثير في أسد الغابة أن عثمان أرسل إلى ابن مسعود يأمره بالقدوم إلى المدينة فقال له أهل الكوفة «أقيم ونحن نمثلك أن يصل إليك شيء نكرهه⁽²⁾». ثم أورد خبراً آخر عن عيادة الخليفة لابن مسعود أثناء مرضه وعرضه عليه عطاءه، وأن ابن مسعود رفض لأن النبي (ص) قال له إن من قرأ سورة الواقعة لن يصيبه الفقر. وعلق ابن الأثير على هذا الموقف قوياً قائلاً: «عثمان ألا أمر لك بعطائك لأنه كان قد حبسه عنه ستين⁽³⁾...»

- (1) ذكر البخاري في التاريخ الصغير أن زيد بن ثابت شهد الخندق وكان ابن خمس عشرة.
- (2) وهذا يدل على خشيتهم أن يتأله سوء، رغم أن ابن الأثير لم يوضح سبب ذلك.
- (3) ومن قبيل الأمانة العلمية ذكر ابن الأثير الرواية الأخرى المضممة للدفاع عن الخليفة، ولكنه ذكرها بصيغة نفي بتشككه بها فقولاً: «بل كان عبد الله ترك العطاة استنفات عنه»

وقد أخرج الذهبي (في سير اعلام النبلاء) أن الخليفة أرسل يأمر ابن مسعود بالتقدم من الكوفة فخاف عليه الناس فلما بعث عثمان إلى ابن مسعود يأمره بالمجيء إلى المدينة، اجتمع إليه الناس فقالوا: أقم فلا تخرج، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء نكرهه. فقال: إن له علي طاعة، وانها ستكون أمور ونحن لا أحب أن أكون أول من فتحها. فرد الناس وخرج إليه

ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى عن هشام بن عروة عن أبيه أن عثمان حرم ابن مسعود عطاءه لمدة سنتين وأن الزبير ذهب إلى عثمان وطلبه بعطاء ابن مسعود بعد موته وقال له فأعطني عطاء عبد الله. فأهل عبد الله أحق به من بيت المال.

فأعطاه عطاءه عشرين ألفاً أو خمسة وعشرين ألفاً⁽¹⁾

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر هناك اعتراف ان عثمان منع عن ابن مسعود عطاءه (دون الإشارة إلى السبب). ففي رواية عن يحيى بن أبي زكريا الغساني عن هشام «وصى عبد الله بن مسعود إلى الزبير وكان عثمان بن عفان قد حبس عطاءه سنتين⁽²⁾». وهذه كانت أكثر الروايات صراحة ان عثمان منعه عطاءه، ولكن حتى سياق غيرها - المخففة - يوحى بذلك ايضاً. فمثلاً رواية شجاع عن أبي فاطمة ان عثمان لما عاده في مرضه قال له فأفلا تأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه اليوم. قال: تدعه لأهلك وعيالك. قال: قد علمتهم شيئاً اذا قالوه لم يفتقروا: سمعت رسول الله (ص) يقول: من قرأ الواقعة كل ليلة لم يفتقر.

وهناك روايات تقول ان عقوبة ابن مسعود لم تقتصر على حرمانه من عطاءه، بل انه تعرض إلى عقوبة جسدية (الضرب). ومن ذلك النص الذي أورده ابن أعمش الكوفي في كتاب الفتوح وفيه يلوم الزبير بن العوام الخليفة عثمان على تصرفاته، وكان مما فيه هالك ولعبد الله بن مسعود هجرت قراءته

- (1) لم يوضح ابن سعد هنا طبيعة المشكلات بين الخليفة وابن مسعود.
- (2) ونفس هذه الرواية أخرجها ابن عساكر أيضاً عن طريق الفضل بن دكين عن حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن الزبير

وأمرت بدوس بطنه، فهو في بيته لما به وقد أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عثمان: إن الذي بلغني من ابن مسعود أكثر مما بلغت منه، وذلك أنه قال: وددت أني وعثمان برمل عالج يحث علي وأحث عليه حتى يموت الأصغر منا»

ومن هؤلاء اليقوي الذي روى في تاريخه «وكان ابن مسعود بالكوفة، فامتنع أن يبلغ مصحفه إلى عبد الله بن عامر⁽¹⁾، وكتب إليه عثمان: أن أشخصه، إنه لم يكن هذا الدين خيالاً وهذه الأمة فساداً.

فدخل المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: إنه قد قدمت عليكم دابة سوء / فكلمه ابن مسعود بكلام غليظ، فأمر به عثمان فجرّ برجله حتى كسر له ضلعان، فتكلمت عائشة وقالت قولاً كثيراً.....»

وقد ذكرنا سابقاً رواية البلاذري في أنساب الأشراف التي تذكر أن عثمان قد أمر بإخراجه بعنف من المسجد فتم الاعتداء عليه وضربه بقسوة مما استدعى تدخل علي بن أبي طالب لرعايته. وفي نفس تلك الرواية وصف عثمان الشنيع له «دوية سوء»

وعلى الرغم من روايات ابن أعمش واليقوي والبلاذري هذه، إلا أنني استبعد أن يكون عبد الله بن مسعود قد تعرض للضرب والاهانة بهذه الطريقة (الدوس بطنه، كسر ضلعه...). فالأغلب وجود مبالغة هنا. كذلك الأمر بالنسبة لكلمة عثمان «دابة سوء»، فلا يعقل أن يستقبله بشيعة كهذه لدى دخوله المسجد. فما أرجحه هو قيام عثمان بلومه واعتابه بلهجة حازمة واتهامه بخلق الشقاق والخلاف فدافع عن نفسه فاستفز عثمان فقام بإهاتته وطرده من المسجد وحرمه من عطاياه. وربما تعرض ابن مسعود للدفع الخشن من قبل بعض رجال الخليفة مما أدى إلى سقوطه وإصابته.

نهاية ابن مسعود

واستمر هذا العقاب القاسي إلى أن شارف ابن مسعود على الموت.

(1) ويلاحظ هنا خطأ الرواي في ذكر عبد الله بن عامر الذي كان والياً على البصرة، لا الكوفة.

عندها رقى الخليفة فذهب يعود غارضاً عليه عطاءه الذي حرّمه منه لسنوات طويلة، ولكنه تلقى صفعة مؤلمة من ابن مسعود، صاحب النفس الآبية:

لما بلغ عثمان أن عبد الله مريض، حمل إليه عطاءه خمسة عشر ألفاً، وكان عطاء البدرين خمسة آلاف. فدخل عليه عثمان رضي الله عنه فقال: كيف تجدك؟

قال: مردود إلى مولاي الحق.

قال: يرحمك الله. كأنها ظنة. هذا عطاؤك خمسة عشر ألفاً فاقبضه.

قال: منعتني إذ كان يتعني! فأنا آخذه منك يوم القيامة.

فانصرف ولم يقبل عطاءه⁽¹⁾

وقد بلغ من شدة كره ابن مسعود للخليفة وشعوره بالظلم أنه أوصى ألا يصلي عليه عثمان فجاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري:

«أوصى عبد الله إلى الزبير وأتراه ألا يصلي عليه عثمان.

فلما مات عجله.

وانتهى عثمان رضي الله عنه إلى القبر حين رفعوا أيديهم من التراب..

فقال: يا زبير! لم لم تؤذن أمير المؤمنين ولم تعلمه؟

قال الزبير: إنما كرامة الميت تعجيله.

فقال عثمان رضي الله عنه: فعلت هذا عمداً، لم يكن بك تعجيله. لولا أن تكون سنة نبينا حتى أصلي عليه. فقال الزبير: ما كنت تصل إلى ذاك. وتفرقا⁽²⁾.

وواضح من النص كيف أن الخليفة شعر بإهانة عظيمة بسبب وصية ابن مسعود إلى حد أنه فكر بإخراجه من القبر ليصلي عليه ثم يعاد دفنه!

ويذكر ابن الأثير في أسد الغابة أن عبد الله بن مسعود توفي سنة 32

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري

(2) وأيضاً روى خليفة بن خياط في طبقاته أن الزبير بن العوام هو الذي صلى على ابن مسعود بعد وفاته.

للهمزة «وصلى عليه عثمان، وقيل صلى عليه عمار بن ياسر، وقيل صلى عليه الزبير ودفنه ليلاً، أوصى بذلك. وقيل لم يعلم عثمان رضي الله عنه بدفنه فعائب الزبير على ذلك»

وروى اليعقوبي في تاريخه «واعتل ابن مسعود فأتاه عثمان يومه، فقال له: ما كلام بلغني عنك؟ قال: ذكرتُ الذي فعلته بي: انك أمرتُ بي فوطئ جوفي، فلم أقبل صلاة الظهر، ولا العصر، ومنعتني عطائي».

قال: فإني أقبلك من نفسي، فافعل بي مثل الذي فعلتُ بك! قال: ما كنتُ بالذي أفتح القصاص على الخلفاء. قال: فهذا عطاؤك فخذ.

قال: منعتني وأنا محتاج إليه، وتمطيني وأنا غني عنه؟ لا حاجة لي به.

فانصرف. فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي. وصلى عليه عمار بن ياسر، وكان عثمان غالياً فستر أمره. فلما انصرف رأى عثمان القبر فقال: قبر من هذا؟ فقيل: قبر عبد الله بن مسعود قال: فكيف دفن قبل أن أعلم؟ فقالوا: ولي أمره عمار بن ياسر. وذكر أنه أوصى ألا يخبر به...»

وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى «قال محمد بن عمر: وقد روي لنا انه صلى على عبد الله بن مسعود نحمائر بن ياسر. وقال قائل: صلى عليه عثمان بن عفان. واستغفر كل واحد منهما لصاحبه قبل موت عبد الله».

قال: وهو أثبتُ عندنا ان عثمان بن عفان صلى عليه»

وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عروة أن عثمان كان قد حرم ابن مسعود عطاءه لمدة سنتين، فلما مرض ابن مسعود جاءه عثمان عائداً وعرض عليه أن يأمر له بعطاء فرفض وقال: لا حاجة لي به.

وروى أيضاً أن ابن مسعود قد أوصى إلى الزبير ان يصلي عليه، وان الزبير قد راجع عثمان بعد وفاته وطالبه بعطاء ابن مسعود فأعطني عطاء عبد الله، فعيال عبد الله أحق به من بيت المال. فأعطاه خمسة عشر ألفاً»

واخيراً فإن أغلب الروايات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق تشير إلى ان عبد الله بن مسعود قد أوصى للزبير وانه الذي صلى عليه (وليس عثمان كما هو مفترض كونه الخليفة)، وان الزبير قد أخذ عطاءه من عثمان بعد وفاته

وهو خمسة عشر ألفاً لعمالة. وتوجد روايات قليلة تشير ان الذي صلى عليه كان عمار بن ياسر «أو عثمان بن عفان».

انحياز بعض الرواة والمؤرخين ضد ابن مسعود

ومن هؤلاء الامام الذهبي. فهو في ترجمة ابن مسعود من سير اعلام النبلاء لم يورد أي شيء عن علاقته بالوليد بن عقبة. ولكنه ذكر الروايات التي تفيد بغضه من تولية زيد بن ثابت كتابة المصحف وبأنه كان يعارض ذلك لعدم أهلية زيد بنظرة. ففي رواية قال عبد الله: لقد قرأت من في رسول الله (ص) سبعين سورة، وزيد له ذؤابة يلعب مع الغلمان» وفي رواية أخرى انه قال عن زيد «والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب أبيه كافر».

وقد دافع الذهبي عن عثمان ولام ابن مسعود على موقفه الراض لزيد بن ثابت فقال «إنما شق على ابن مسعود لكون عثمان ما قدمه على كتابة المصحف، وقدم في ذلك من يصلح أن يكون ولده. وإنما عدل عنه عثمان لغيبه عنه بالكوفة، ولأن زيدا كان يكتب الوحي لرسول الله (ص)، فهو إمام في الرسم، وابن مسعود فإمام في الاداء. ثم ان زيدا هو الذي نكبه الصديق لكتابة المصحف وجمع القرآن، فهلا عتب على أبي بكر؟ وقد ورد ان ابن مسعود رضي وتابع عثمان ولله الحمد. وفي مصحف ابن مسعود أشياء أظنها نسخت. وأما زيد فكان أحدث القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي (ص) عام توفي على جبريل»

وهذا رأي له وجاهة من قبل الامام الذهبي. وهو لا يستد الى تزيف للحقائق التي لا ينكرها (بشأن الخلاف الذي حصل). ولذلك يجب احترام رأيه. وهذا يختلف عن سيف بن عمر الذي يسعى لترويع آرائه المؤيدة لعثمان عن طريق اختلاق الروايات وتلفيقها.

فهكذا جاءت روايات سيف بن عمر كما ذكرها ابن عساکر في تاريخ دمشق: فقد ذكر احتيكاكاً بين ابن مسعود والوليد، ولكنه روى ذلك في سياق الدفاع عن الوليد وتبرئته! فبعد ان تحدث عن كيد الحاقدين على الوليد له، ودخلهم عليه وقصة «قطف المنب» الذي وجدوه مخفياً لديه اضاف «فقالوا:

الوليد يعكف على الخمر، وأفادوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس. فقال ابن مسعود: من استتر منا بشئ لم تتبع عورته ولم تهتك ستره.

فأرسل إلى ابن مسعود فأثاه فعاتبه في ذلك وقال: يرضى من مثلك بأن يجيب أقواما موتورين؟ على أي شئ استتر به؟ إنما يقال هذا للملجلج.

فتلاحيا واقتربا على تفاضب. ولم يكن بينهما أكثر من ذلك»

كما هب سيف بن عمر لإنفاذ سمعة عثمان «كان ابن مسعود قد ترك عطائه حين مات عمر⁽¹⁾. وفعل ذلك رجال من أهل الكوفة أغنياء. واتخذ ضيعة برافان فعات عن تسعين ألف مثقال سوى رقيق وعروض وماشية بالسليحين. فلما رأى الشر ودنو الفتنة استأذن عثمان فلم يأذن له قرب موته فقدم على عثمان فلم يلبث أن مات. فولى عثمان وبينهما أشهر» وواضح مدى التفاهت في هذه الرواية التي جعلت من ابن مسعود رجلا غنيا اقطاعيا له ضياع وأموال وعبيد وماشية في نواح من العراق بحيث قرر أن يتخلى عن عطائه «حين مات عمر؟»، كما أن الفارق الزمني بين وفاة ابن مسعود وعثمان لم يكن بضعة أشهر بل سنوات. فابن مسعود مات حسب أغلب الروايات سنة 32 للهجرة بينما قتل عثمان سنة 35! وبالتالي يكون قول سيف «لما رأى الشر ودنو الفتنة» مردودا عليه بالتأكيد.

وأما ابن كثير في البداية والنهاية فقد أغفل الحديث عن أي خلافات بين ابن مسعود وعثمان في خلال استعراضه لوفاة ابن مسعود. ويبدو التعمد وأضحاً في إخفاء المعلومات من طرف ابن كثير: فهو يتحدث عن عيادة عثمان لابن مسعود في مرضه وعرضه عليه عطائه «وكان قد تركه ستين» وامتناع ابن مسعود عن أخذه ورفضه حتى أن يعطيه لبناته من بعده «لأنه أوصاهن بقراءة سورة الواقعة التي لن يفقرن من يقرأها كل ليلة». ولم يشر ابن كثير إلى مشاكل ابن مسعود مع الوليد ولا إلى حرق مصحفه. ورغم ذلك يعترف أن ابن مسعود قد أوصى للزبير «يقال أنه هو الذي صلى عليه ليلاً، ثم عاتب عثمان الزبير على ذلك، وقيل بل صلى عليه عثمان، وقيل عمار، قاله أعلم». لم يذكر ابن كثير الأسباب.

(1) واللهي أيضاً (في سير أعلام النبلاء) روى عن سيف بن عمر ما يشير إلى أن ابن مسعود كان قد ترك عطائه طواعية «أن ابن مسعود ترك عطائه حين مات عمر» دون أن يذكر السبب الذي يجعله يأخذ عطاه عمر ويرفضه في زمن عثمان؟

ثالثاً: ما حصل لعمار بن ياسر على أيدي الخليفة عثمان⁽¹⁾

خلفيات العلاقة بين عمار وعثمان

كان عمار بن ياسر من المشهورين في السبق للإسلام، هو والداه. وكانوا من المستضعفين في مكة، من حلفاء بني مخزوم. وبعد دخولهم في الإسلام تعرّضوا لتعذيب فظيع على أيدي جبابرة قريش، وبني مخزوم بالأخص، مما أدى إلى استشهاد أبويه الذين قُتلا وهما تحت التعذيب من أيّ جهل واضرابه. وأما عمار فقد عذبه القرشيون حتى اضطروه أن يشتم محمداً (ص) لكي ينقذ نفسه من الموت. وقد أقرّه النبي (ص) على ذلك وقال له إنه ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان فلا بأس أن يقول للجبابرة ما يرضيهم. فالرسول (ص) كان يحبه، وكان يؤلمه جداً ما يتعرّض له عمار من اعتداء وحشي بسبب إيمانه.

ونتيجة لتاريخه المجيد والمشرف منذ بدء دعوة الإسلام في مكة، كان النبي (ص) يحفظ لعمار بمودة خاصة، صادرة من أعماق نفسه الكريمة التي كانت لا ترى في عمار ذلك المولى المستضعف ذي الأصل المتواضع، بل نموذجاً للمسلم المثالي، ويظهر ذلك حتى في اللغة التي كان يستعملها النبي (ص) في وصف عمار، فمثلاً:

«جاء عمار بن ياسر يستأذن على النبي (ص) فقال: ائذنوا له. مرحباً

بالطيب المطيب»⁽²⁾

- (1) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج2 ص122)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص260)، سنن الترمذي (ص332 ج3 باب مناقب عمار بن ياسر حديث3888)، تاريخ العقوبي (ج2 ص172)، المستدرک علی الصحیحین للعاکم النیابوری (ج3 ص391)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص50)، المقدّم للفريد لابن عبد ربه (ج5 ص57)، ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاقي (ص315)، أنساب الأشراف للبلاقي (ج6 ص162)، شرح نهج البلاغة لابن أبي العدي (ج3 ص48) و(ج10 ص102)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1091-1098 و ص1099-1102)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج1 ص420)، تاريخ الطبري (ج3 ص394 و ص428)، كتاب الفتوح لابن أحمم الكوفي (ج2 - 372-373-393)، الأصباه لابن حجر العسقلاني (ج7 ص259)، تاريخ الإسلام للذهبي (ج4 - 135)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ص481)، والبلدلة والنهاية لابن كثير (ج7 ص191) (سنن الترمذي باب مناقب عمار بن ياسر)
- (2)

فكان عمار يرى في رسول الله (ص)، ودينه ودعوته، ملافاً له من جبروت عظماء قريش، وطريقاً للخلاص من ظلمها. ورغم أن أخوة الاسلام قد جمعت مع الصحابي عثمان بن عفان، خاصة في مراحل الاسلام الاولى، إلا أن كل الدلائل تشير إلى أن عماراً كان ينظر بريبة وتوجس إلى عثمان، ذلك التاجر الثري، ذي المكانة الرفيعة في قريش، ويعتبره وجهاً آخر، مُحَسَناً، للقيلة التي لا مكان فيها للضعفاء والفقراء من امثاله.

وهناك مؤشرات على ان العلاقة بين عمار وعثمان لم تكن على ما يرام، حتى أيام النبي (ص).

فمن المفيد التأمل في خبر ورد في السيرة النبوية لابن هشام، ويفيد بأنه أثناء انتداب الرسول (ص) لأصحابه لبناء مسجده بعد وصوله إلى المدينة، وانخراطه هو شخصياً في العمل المرهق لكي يشجعهم ويكون قدوة لهم، كان عمار يعمل بهمة ونشاط شديدين، حتى انه كان يحمل أثقالاً كبيرة من اللبن. وذكر ابن اسحق «وارتجز علي بن أبي طالب رضي الله عنه يومئذ :

لا يستوي من يعمر المساجد يدب فيه قائماً وقاعداً

ومن يرى عن الغبار حالداً»

وظاهر سياق الرواية يشير إلى أن الامام علياً ارتجز هذه العبارات لأنه رأى البعض من الصحابة يأنف عن العمل الشاق.. فأثار موقفهم ذاك حفيظة عمار بن ياسر، الذي أخذ يردد بصوت عال ما ارتجزة علي بن أبي طالب (وهو يقصد ان يسمعه).

ويضيف ابن هشام أنه عندئذ «ظن رجلاً من أصحاب رسول الله (ص) أنه إنما يقرض به».

فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن اسحاق. وقد سمي ابن اسحاق الرجل.

فقال: قد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية. والله اني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك / وفي يده عصا.

فغضب رسول الله (ص) ثم قال: ما لَهم وعمار؟ يدعونهم إلى الجنة ويدعونهم إلى النار. إن عماراً جليلاً ما بين عيني وأنفي. فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يشق فأجتنبهه»

والملاحظة المهمة على هذه الرواية أن ابن هشام قد تدخل فيها بشكل فظ، للتغطية على شخص الصحابي الذي اشترك مع عمار بن ياسر. وأنا أقول إن عثمان بن عفان كان ذلك الرجل. فكل شيء يشير إلى ذلك. ولا عجب أن يتدخل ابن هشام بهذا الشكل الصارخ في الرواية. ففي هذه الحادثة ما لا يتسق مع المقام الرفيع الذي يتمتع به الخليفة الثالث لدى ابن هشام ومن على رآيه. فابن هشام قرر أن يجد حلاً للمعضلة مع المحافظة على ذكر الحادثة لكي يرضي ضميره ويقنع نفسه بأنه لم يحذف سيرة النبي (ص) نفسها فكان التدخل عنده أن يروي معظم الرواية دون أن يذكر فيها اسم عثمان، لكي يبقى الرجل الذي أغضب عماراً وتدخل الرسول (ص) ضده، مجهولاً للقارئ. وهكذا فإن ابن هشام قرر أن يبقى اسم عثمان طي الكتمان، واستبدله بـ «رجل» من أصحاب رسول الله، رغم أنه اعترف بأن ابن إسحاق، صاحب السيرة الأصلي، قد سقى ذلك الرجل صراحة.

فيبدو أن عثمان بن عفان، وهو التاجر المرموق، كان يشارك بقية المسلمين مجارة للرسول (ص) لا أكثر، وليس عن رغبة ولا همة، لأن ذلك النوع من العمل لا يناسب مقامه. ويبدو أنه كان يتناقل في نقل اللبن ويظهر اهتماماً زائداً بالمحافظة على نظافة ثيابه وأكمامه، فيغضها من الغبار باستمرار. والأرجح أنه شعر بالضيق والاستياء مما ارتجزه علي بن أبي طالب ولكنه كتم مشاعره لمكانة علي من النبي (ص). ولكنه لما سمع عماراً يكررها وعرف أنه المقصود، لم يتمالك نفسه، فغضب وهدد عماراً بالضرب، مما أدى إلى تدخل الرسول (ص) إلى جانب عمار ووقفه لعثمان عند حذره.

وسوف يأتي الحديث فيما بعد عن الحديث النبوي المتواتر «تثقلت الفتنة بالباغية» والذي قاله النبي (ص) بحق عمار.

وأما لماذا تقول إن عثمان بن عفان هو عين الصحابي الذي أخفى ابن هشام اسمه؟ فلا دليل لدينا سوى جمع القرائن والترجيح.

فسيرة عمار مع الخليفة عثمان مليحة بالخلافات والصراع.

فبعد انتصار النبي (ص)، بقي عمار كارهاً لعظماء قريش ووجوهها، وإلى آخر يوم في حياته.

وكان عمار متمسكاً بشخص رسول الله (ص)، وآله من بعده. وتمثل ذلك في ولاته العظيم لعلي بن أبي طالب من بعده. كان علي بنظر عمار امتداداً حقيقياً للنبي (ص) وحكمه، وضماناً. ومن الواضح أن عماراً كان يشتر من الحكم القرشي ويرى في علي الضمانة الوحيدة دون عودة الوجوه القديمة إلى الصدارة، بقتاع جديد.

وعثمان بن عفان، بنظر عمار، هو رمز قريش في حلتها الجديدة. واختيار قريش لعثمان خليفة كان اعتداءً على حق علي وإبعاداً مقصوداً لآل الرسول (ص) عن مقاليد الحكم التي يستحقونها.

وفي عهد عثمان بن عفان، طفق الكيل بعمار بن ياسر. وأغلب الظن أنه كان كلما رأى الطلقاء من وجهاء بطون قريش يتذكر أمه وأباه وكل المستضعفين من أمثاله الذين كانوا يعانون على أيدي هؤلاء الجبابرة. فكم كان تألمه عظيماً وهو يرى أبناء طلقاء قريش، أعداء الرسول القدماء، وقد تسلموا ولاية أمور المسلمين. وحين كان يسمع أبناء أرسطراطية قريش⁽¹⁾ وهم يصفونه تارة بـ «العبد الأسود» وتارة بـ «ابن السوداء» وتارة بـ «ابن سمية»، كان يشعر أن كل ما بناه الرسول (ص) في طريقه إلى الانهيار. فسمية هذه التي يعبرونه بها هي أول شهيدة في الإسلام!

وقد تمسك عمار بموقف شديد العداء تجاه عثمان، وبقي عليه حتى عندما كان عثمان يمر بأحلك الظروف. فلأن عثمان يعرف أن عماراً ربما يكون مسموع الكلمة لدى الثوار الذين جالوا من مصر وحاصروه، طلب

(1) روى الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحین حادثة نزاع بين خالد بن الوليد وعمار وصف خالداً عماراً بأنه «ابن سمية» وأن رسول الله (ص) أجابه بما خالد: لا تشب عماراً، فإنه من يشب عماراً يشبه الله ومن يشب عماراً يشبه الله ومن يشبه عماراً يشبه الله.

من سعد بن أبي وقاص أن يذهب لعمار ليطلب منه أن يخرج مع علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة الذين حاولوا التوسط ورده الثوار إلى مصرهم، ولكن عماراً رفض وبكل تصميم! روى الطبري في تاريخه عن الواقدي فأرسل عثمان إلى عمار بن ياسر يكلمه أن يركب مع علي، فإبى.

فأرسل عثمان إلى سعد بن أبي وقاص فكلمه أن يأتي عماراً فيكلمه أن يركب مع علي.

قال: فخرج سعد حتى دخل على عمار فقال: يا أبا اليقظان: ألا تخرج فيمن خرج؟ وهذا علي يخرج فأخرج معه وأرشد هؤلاء القوم عن إمامك، فإني لأحسب أنك لم تترك مركباً هو خير لك منه.....

فكلمه سعد وجعل يقتله بكل وجه.

فكان آخر ذلك أن قال عمار: والله لا أردعهم عنه أبداً.

وقد بلغت حدة العداء بين الخليفة وعمار إلى درجة أن معاوية بن أبي سفيان قد اختص عماراً بتهديد صريح عام 34 للهجرة في معرض زيارته للمدينة واجتماعه مع عثمان وبقية الولاة. فقد روى ابن شبة في تاريخ المدينة «حدثنا علي بن محمد، عن أبي دينار - رجل من بني دينار ابن النجار -، عن أبي معبد الأسلمي، عن قيس بن طلحة قال: خرج معاوية رضي الله عنه من عند عثمان رضي الله عنه فمر به نفر من المهاجرين فقال: استوصوا بشيخي هذا خيراً، فوالله لئن قتل لأعطيكم إلا السيف! ..»

ثم أتى عماراً فقال: أبا اليقظان، إني تركت بالشام أكثر من عدد أهل الحجاز، كلهم شجاع فارس، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويحج البيت، لا يعرف عماراً ولا سابقته، ولا علياً ولا قرابته، فإياك أن تنجلي الغمة فيقال هذا قاتل عمار!

فقال: أبا القتل تخوفني؟ والله يا بني أمية لا تسويني وتقول أحسنهم.

وأما من الروايات، فيمكن الإشارة إلى ما ذكره أبو الغادية الجهني، وهو الشخص الذي قتل عمار بن ياسر في معركة صفين عام 36 للهجرة. فهو كان يفتخر لدى أسباده من بني أمية بأنه شخصاً قد خلصهم من «ابن سمية»! روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن كلثوم بن جبر أن أبا الغادية هذا قال «إننا كنا

نعد عمار بن ياسر فينا حثاناً. فينا أنا في مسجد قباء إذ هو يقول ألا إن نعثلاً
هنا بالعثمان، فالتفت، فلو أجده عليه أحواتا لوطئته حتى أقتله! قال قلت اللهم
إنك إن تشأ تمكيني من عمار فلما كان يوم صفين...»⁽¹⁾

وروى ابن سعد أيضاً «أخبرنا أبو حفص وكثوم بن جبر عن أبي الغادية
قال: سمعت عمار بن ياسر يقع في عثمان يشتمه بالمدينة. قال فتوعدته بالقتل
قلت لئن أمكنتي الله منك لأفعلن»⁽²⁾

وقال الذهبي في تاريخ الاسلام بشأن أبي الغادية هو قال ابن عبد البر:
أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام. وقال الدارقطني وغيره: هو قاتل
عمار بن ياسر يوم صفين. وقال حماد بن سلمة: ثنا كثوم بن جبر، عن أبي
الغادية قال: سمعت عمار بن ياسر يشتم عثمان، فتوعدته بالقتل، فلما كان يوم
صفين طعته، فوقع، فقتله»

ورغم أن هناك احتمالاً أن يكون أبو الغادية حريصاً على نيل رضا الأسياد
من بني أمية، من أجل الخطوة عندهم، عن طريق التأكيد على أنه قتل عماراً
«الذي كان يشتم عثمان»، إلا أنه لا يوجد ما يمنع من أن عماراً كان بالفعل يقع
في عثمان علناً في المدينة.

وكان ما جرى لأبي ذر الغفاري على يد عثمان سبباً إضافياً لمشكلة
كبيرة بين عثمان وعمار، كادت أن تتطور لولا تدخل علي بن أبي طالب، وبني
مخزوم. روى البيهقي في تاريخه:

«... فلما بلغ عثمان وفاة أبي ذر قال: رحم الله أبا ذر!

قال عمار: نعم رحم الله أبا ذر من كل أنفسا!

فغلظ ذلك على عثمان. وبلغ عثمان عن عمار كلام، فأراد أن يسيره
أيضاً.

(1) وأخرج البلاذري في أنساب الأشراف هذه الرواية بسنده إلى كثوم بن جبر نفسه، وفيها
أن أبا الغادية قال هذا الكلام بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كريز بواسط
القصبة.

(2) وقد روى ابن جبر المصطلحي في الإصابة هاتين الروايتين عن أبي الغادية نقلًا عن
محبوب بن شيبة وأحمد بن حنبل وابن سعد، من طريق كثوم بن جبر أيضاً.

فاجتمعت بنو مخزوم إلى علي بن أبي طالب وسألوه إعانتهم فقال علي:
لا ندع عثمان ورأيه. فجلس عمار في بيته.

ويلغ عثمان ما تكلمت به بنو مخزوم فأمسك عنه

وقد روى ابن أحمم في كتاب الفتح هذا الخبر كما يلي:

«ويلغ ذلك عثمان فقال: رحم الله يا أبا ذر!

فقال عمار بن ياسر: فرحم الله أبا ذر من كل قلوبنا!

قال: فغضب عثمان ثم قال: يا كذا وكذا أتظن أنني ندمت على تسييره إلى
ريثة؟

قال عمار: لا والله ما أرى ذلك!

قال عثمان: ادفعوا في قفاه، وأنت فالحق بالمكان الذي كان فيه أبو ذر
ولا تبرحه أبدا ما بقيت وأنا حي.

فقال عمار: والله إن جوار السباع لأحب إلي من جوارك، ثم قام عمار
فخرج من عنده.

قال: وعزم عثمان على نفي عمار، وأقبلت بنو مخزوم إلى علي بن أبي
طالب رضي الله عنه فقالوا: إنه يا أبا الحسن قد علمت بأننا أحوال أبيك أبي
طالب، وهذا عثمان بن عفان قد أمر بتسيير عمار بن ياسر، وقد أحيينا أن نلقاه
فتكلمه في ذلك ونسأله أن يكف عنه ولا يؤذي فيه، فقد وثب عليه مرة ففعل به
ما فعل وهذه ثانية، ونخاف أن يخرج معه إلى أمر يندم وتندم نحن عليه، فقال:
أفعل ذلك فلا تعجلوا، فوالله! لو لم تأتونني في هذا لكان ذلك من الحق الذي
لا يسعني تركه ولا عذر لي فيه.

قال: ثم أقبل علي رضي الله عنه حتى دخل على عثمان فسلم وجلس
فقال: اتق الله أيها الرجل وكف عن عمار وغير عمار من الصحابة، فإنك قد
سيرت رجلا من صلحاء المسلمين وخيار المهاجرين الأولين حتى ملك في
تسييرك إياه غريبا، ثم إنك الآن تريد أن تنفي نظيره من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم!

فقال عثمان: لانت أحتق بالمسير منه، فوالله ما أفسد علي عماراً وغيره
سواك !

فقال علي رضي الله عنه: والله يا عثمان ! ما أنت بقادر على ذلك ولا
إليه بواصل فروم ذلك إن شئت، وأما قولك: إني أفسدكم عليك، فوالله ما
يفسدكم عليك إلا نفسك، لأنهم يرون ما ينكروه فلا يسمعون إلا تغيير ما
يرون .

قال: ثم وثب علي رضي الله عنه فخرج واستقبله الناس فقالوا له: ما
صنعت يا أبا الحسن ؟

فقال: صنعت إنه قال لي كذا وكذا وقلت له كذا، فقالوا له: أحسنت والله
وأصبحت يا أبا الحسن ! فوالله لئن كان هذا شأن عثمان ورأيه فينا كلما غضب
على رجل منا نفاه إلى بلد غير بلده فلا يموت أحد منا إلا غريباً في غير أهل
ولا عشيرة، وإلى من يوصي الرجل عند موته ويمن يستعين فيما يتوبه، والله
! لئن نموت في رحلتنا خير لنا من حياة الأبد بالمكان الذي مات فيه أبو ذر
رحمة الله تعالى .

قال: ثم أقبل علي رضي الله عنه على عمار بن ياسر فقال له: اجلس
في بيتك ولا تبرح منه، فإن الله تبارك وتعالى مانعك من عثمان وغير عثمان،
وهؤلاء المسلمون معك، فقالت بنو مخزوم: والله يا أبا الحسن ! لئن نصرتنا
وكننت معنا لا وصل إلينا عثمان بشيء نكرهه أبداً.

ويبلغ ذلك عثمان فكف عن عمار وتدم على ما كان منه

حادثة ضرب عمار

رغم أن الأخبار بشأن الخلافات الحادة بين عمار وعثمان قد انتشرت
حتى بلغت حد التواتر، إلا أن شيوخ التاريخ كانوا أكثر تحفظاً في ذكر واقعة
الضرب الجسدي الذي تعرض له عمار بن ياسر كعقاب له من الخليفة. فيبدو
أن بعضهم قد رأى في هذه الواقعة ما يشين الخليفة عثمان، وبعضهم ربما رأى
فيها ما يسيئ إلى مقام الصحابة عموماً، فقرر الاعراض عنها.

ومع ذلك فيمكن الوصول الى تفاصيل ما حدث من خلال الكثير من المصادر.

ومن أكثر الروايات تفصيلاً في هذا الشأن ما جاء في الإمامة والسياسة لابن قتيبة:

«اجتمع ناس من أصحاب النبي (ص)، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وستة صاحبيه.

وما كان من هيته خمس افرقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذور القريى واليتامى والمساكين.

وما كان من تطاوله في البيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة: داراً لثلاثة وداراً لعاشئة وغيرهما من أهله وبناته.

وبنيان مروان القصور بذي خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله.

وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلبة لا صحة لهم من الرسول (ص) ولا تجربة لهم بالأمر.

وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخير ذلك عنه.

وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم.

وما كان من الحمى الذي حصى حول المدينة.

وما كان من إدراره القطائع والأزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحة من النبي (ص)، ثم لا يغزون ولا يلبون.

وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وإنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب المخلقيتين من قبله بالعدة والخيزران.

ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب بيد عثمان. وكان ممن حضر الكتاب
عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود. وكانوا عشرة.

فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب بيد عمار، جعلوا
يتسللون عن عمار حتى بقي وحده. فمضى حتى جاء دار عثمان فاستأذن عليه،
فأذن له في يوم شاتٍ.

فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية.
فدفع إليه الكتاب. فقرأه. فقال له: أنت كتبت هذا الكتاب؟
قال: نعم.

قال: ومن كان معك؟

قال: كان معي نفر تفرقوا قرعاً منك.

قال: من هم؟

قال: لا أخبرك بهم.

قال: فليتم اجترأت علي من بينهم؟

فقال مروان: يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً) قد
جرأ عليك الناس، وإنك إن قتله نكلت به من وراءه.
قال عثمان: اضربوه.

فضربوه وقسره عثمان معهم حتى نثقوا بطنه. ففشي عليه، فجزّوه حتى
طرحوه على باب الدار.

فأمرت به أم سلمة زوج النبي (ص) فأدخل منزلها

والرواية هذه أخرجه ابن أحم الكوفي في كتاب الفتح ضمن سياق
إسناد جمعي نقلًا عن شيوخ الأخباريين:

«قال أبو محمد أحمد بن أحم الكوفي حدثني أبو الحسين علي بن محمد
القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن مجاهد عن الشمسي وأبي محصن عن
أبي وائل، وعلي بن مجاهد عن أبي إسحاق، قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال:

حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي الأسلمي قال: وحدثني إسحاق بن يوسف القزاري قال: حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال: حدثني لوط به يحيى بن سعيد الأزدي عن الحارث بن الحصين بن عبد الرحمن بن عبيدة والنضر بن صالح بن حسين بن زهير قال: وحدثني عمران بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن يزيد عن صالح بن إبراهيم وزيد بن عبد الرحمن الواقفي وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سرا وعلاتية .

وقد جمعت ما سمعتُ من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فأنفثت حديثا واحدا على نسق واحد
والنص هو:

«واجتمع نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثم إنهم كتبوا كتابا وذكروا فيه كل حدث أحدثه عثمان منذ يوم ولي الخلافة إلى ذلك اليوم، ثم إنهم خوفوه في الكتاب وأعلموه [أنه -] إن لم يتزع عما هو عليه خلعه واستبدلوا به غيره. قال: فكتبوا هذا الكتاب ثم قالوا ننطلق به جميعا حتى نضعه في يده، فإنا إن ذهبنا نكلمه وليس معنا كتاب لم يحضرنا من الكلام ما نريد، ثم أقبلوا على عمار بن ياسر وقالوا له: يا أبا اليقظان ! هل لك أن تكفينا هذا الأمر وتنطلق بالكتاب إلى عثمان ؟ فقال عمار: أفعله .

ثم أخذ الكتاب وانطلق إلى عثمان، فإذا عثمان وقد لبس ثيابه وخضيه في رجله، فلما خرج من باب منزله نظر إلى عمار واقفا والكتاب في يده فقال له: حاجة يا أبا اليقظان ؟

فقال عمار: مالي حاجة ولكننا اجتمعنا فكتبنا كتابا نذكر فيه أمورنا من أمورك لا نرضاهم لك، قال: ثم دفع إليه الكتاب .

فأخذ عثمان فنظر فيه حتى قرأ سطرا منه، ثم غضب ورمى به من يده ! فقال له عمار: لا ترم بالكتاب وانظر فيه حسنا فإنه كتاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا والله ناصح لك !

فقال له عثمان: كذبت يا بن سمية !

فقال عمار: أنا والله ناصح لك !

فقال عثمان: كذبت يا بن سمية !

فقال عمار: أنا والله ابن سمية وابن ياسر .

قال: فأمر عثمان غلمانه، فضربوه ضرباً شديداً حتى وقع لجنبه، ثم تقدم إليه عثمان فوطئ بطنه ومذاكيره، حتى غشي عليه وأصابه الفتق، فسقط لما به لا يعقل من أمر شيئا .

قال: واتصل الخبر ببني مخزوم، فأقبل هشام بن الوليد بن المغيرة في نفر من بني مخزوم فاحتملوا عماراً من موضعه ذلك وجعلوا يقولون: والله لئن مات الآن لقتلن به شيخاً عظيماً من بني أمية، ثم انطلقوا بعمار إلى منزله مفشياً عليه، فلم يصل ظهراً ولا عصراً ولا مقرباً ولا عشاء حتى ذهب بعض الليل، ثم أفاق بعد ذلك من غشيته فقام فقفى ما فاتته من صلواته كلها. قال: فكان هذا من إحداثه الذي تقوموا عليه»

كما أورد ابن أهتم الكوفي في كتاب الفتوح نصاً يلوم فيه الزبير بن العوام الخليفة عثمان على تصرفاته، وكان مما فيه «فما لك وعمار بن ياسر أمرت بدوس بطنه حتى أصابه الفتق ؟ فقال: لأنه أراد أن يخزي الناس بقتلي»

وأخرج ابن عبد ربه في العقد الفريد القصة عن الاعمش كما يلي «كتب أصحاب عثمان عيه وما يتقم الناس عليه في صحيفة. فقالوا: من يذهب بها إليه ؟ قال عمار: أنا.

فذهب بها إليه فلما قرأها قال: أرغم الله أنفك !

قال: ويأنف لبي بكر وعمار.

قال: فقام إليه فوطئته حتى غشي عليه.

ثم ندم عثمان وبعث إليه طلحة والزبير يقولان له: اختر إحدى ثلاث: إما أن تعفو، وإما أن تأخذ الأرض، وإما أن تقتص.

فقال: والله لا قبلت واحدة منها حتى ألقى الله»

وأما البلاذري في أنساب الأشراف فيجعل سبب الضرب اعتراض عمار على سوء تصرف عثمان ببيت المال:

فمن أبي مخنف قال كان في بيت المال بالمدينة سبط فيه حلي وجوهر، فأخذ عثمان ما حلى به بعض أهله. فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه. فخطب فقال: لنأخذن حاجتنا من هذا الفئع وإن رغيتم أنوف أقوام!

فقال له علي: إذا تمتع من ذلك ويحال بينك وبينه.

وقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن اتفي أول راغم من ذلك.

فقال عثمان: أهلي يا ابن المتكأ تجرئ؟! خلوه.

فأخذ، ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى عشي عليه. ثم أخرج فحُمِلَ حتى أتى به منزل أم سلمة زوج رسول الله (ص) فلم يصل الظهر والعصر والمغرب. فلما أفاق توقص وصلى وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أؤذينا فيه في الله.

وقام هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان عمار حليفاً لبني مخزوم، فقال: يا عثمان، أما علي فأتقيته وبني أبيه، وأما نحن فاجترأت علينا وضربت أخاننا حتى أشفيت به على التلف. أما والله لئن مات لأقتلن به رجلاً من بني أمية عظيم السرة! فقال عثمان: وإنك لها هنا يا ابن القسرية....

وقد أتبع البلاذري هذه الرواية بأخرى تتحدث عن كتاب الاحتجاج الذي كتبه الصحابة وحمله عمار إلى عثمان مما أغضبه فتم ضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مفاكيره فأصابه الفتق، ولكنه أخرج هذه الرواية بصيغة «ويقال» مما يشي بتشككه بها.

وأضاف البلاذري رواية ثالثة تجعل سبب الضرب هو قيام عمار بكتمان أمر وفاة ابن مسعود عن الخليفة وتولي الصلاة عليه مما أدى إلى غضبه فاعتدما وطعن عماراً حتى أصابه الفتق. ولكنه أخرج هذه أيضاً بصيغة «وقد قيل».

وأخرج ابن شبة في تاريخ المدينة عدة روايات عن حادثة ضرب عثمان.

أحدهما تقول أنه ضربه عن قصد وحمد: فحين ابن سمعان «ان عثمان أمر بعمار بن ياسر فضرب في أمر نازعه فيه حتى أغمي عليه، فحملة زياد بن سمعان وناس معه إلى بيت أم سلمة زوج النبي (ص) وهو لا يعقل، فصلى الناس الجمعة ثم صلوا العصر ولم يفت عمار ولم يصل حتى دنت الشمس أن تقرب، ثم أفاق قبل أن تغرب الشمس بقليل فصلى الأولى والعصر جميعاً». وأيضاً عن المغيرة قال «اجتمع ناس فكتبوا عيوب عثمان - وفيهم ابن مسعود - فاجتمعوا بباب عثمان ليدخلوا عليه فيكلموه، فلما بلغوا الباب نكلوا إلا عمار بن ياسر فإنه دخل عليه فوعظه، فأمر به فضرب حتى فتي، فكان لا يستسك بره...»

وثانية تقول أنه أمر بضربه بسبب فورة غضب وندم على ذلك: فعن سالم بن أبي الجعد «دعا عثمان رضي الله عنه ناساً من أصحاب رسول الله (ص) وفيهم عمار فقال: اني سألتكم: أنشدكم الله هل تعلمون ان رسول الله (ص) كان يؤثر قريشاً على سائر الناس ويؤثر بني هاشم على سائر قريش؟ فسكت القوم!

فقال: لو ان مفاتيح الجنة في يدي لأعطيها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم. والله لأعطيهم ولاستعملتهم على رغم أنف من رغم!

فقال عمار: على رغم أنفي؟

قال: على رغم أنفك!

قال: وأنف أبي بكر وعمر؟

فغضب عثمان رضي الله عنه، فوثب إليه فوطأه وطأ شديداً، فأجفله الناس عنه.

ثم بعث إلى بني أمية فقال: يا أعياب خلق الله! أفضيتموني على هذا الرجل حتى أرايتي أهلكته وهلكت.

فبعث إلى طلحة والزبير فقال: ما كان نوالي إذ قال لي ما قال إلا أن أقول له مثل ما قال، وما كان لي على قسره من سبيل. إنعابا إلى هذا الرجل فخيراه بين ثلاث: بين أن يقتصر أو يأخذ أرضاً أو يعفو.

فقال: والله لأقبل منها واحدة حتى ألقى رسول الله (ص) فأشكوه إليه...

والرواية الثالثة تقول إن عثمان لم يأمر بضرب عمار أصلاً، بل تم ذلك من دون علمه: فمن جهيم الفهري قال أننا شاهدٌ للأمر: سعد وعمار، فأرسلوا لعثمان إن اتينا فإنا نريد أن نذكرك أشياء أحدثتها وأشياء فعلتها.

فأرسل إليهم: أن انصرفوا اليوم فإنني مشتغلٌ وميعادكم يوم كذا وكذا حتى أتشوف لكم.

فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف. فتناوله رسول عثمان فضربه.

فلما اجتمعوا للميعاد ومن معهم قال لهم عثمان: ما تقولون؟

قالوا: نقم عليك ضربك عماراً.

فقال: جاء سعد وعمار فأرسلت إليهما فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف، فتناوله رسولي عن غير أمري. فوالله ما أمرت ولا رغيئت. فهنيدي يدي لعمار قليصطير. قال أبو محصن: يعني ليقصص.

وأما ابن عبد البر في الاستيعاب فلم تذكر روايته صراحة أن عثمان قد أمر بضرب عمار، واكتفت بإثبات حادثة الاعتداء وتحميل بني مخزوم المسؤولية لعثمان وللحلف والولاء اللذين بين بني مخزوم وبين عمار وأبيه ياسر كان اجتماع بني مخزوم إلى عثمان، حين نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب، حتى انتفتق له فتق في بطنه، وورغمو وكسروا ضلعاً من أضلعه. فاجتمعت بنو مخزوم وقالوا: والله لئن مات لا قتلنا به أحداً غير عثمان.

وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن المرتضى في معرض رده على من أنكّر ضرب عمار أولاً الدفع لضرب عمار، فهو كالإنكار لطلوع الشمس ظهراً وإنشأها وكل من قرأ الأخبار وتصفح السير يعلم من هذا الأمر ما لا تشبهه منه مكابرة ولا مدافعة، وهذا الفعل - أعني ضرب عمار - لم يختلف الراوة فيه، وإنما اختلفوا في سببه... ثم تابع ابن أبي الحديد في ذكر الروايات المختلفة التي وردت في سبب ضربه والتي يمكن تلخيصها كما يلي:

- رواية أبي مخنف التي فيها أن عثمان أخذ جواهر وحلياً كانت في بيت المال وحلى بها بعض أهل بيته، فاعترض عليه قومٌ يشدق، وخاصة علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر، فغضب عثمان كثيراً وقال لعمار بالذات «أعلي يا بن ياسر تجترأ 14 خذوه، فأخذ. فدخل عثمان فدها به فصره حتى غشي عليه» ويعلمها أخذ وعولج في بيت أم سلمة. وأن هشام بن الوليد المخزومي غضب وقال لعثمان انه اتقى علياً بينما اجترأ على بني مخزوم وحليفهم عمار وهدده بقتل رجل من بني أمية إن مات عمار. وأن عائشة أيضاً غضبت لعمار وقالت «ما أسرع ما تركم سنة نيككم، وهذا شعره وثوبه ينعله لم يبل بعد»

- «وروى آخرون» ان السبب كان أن عثمان اكتشف أن عماراً قد تولى الصلاة على عبد الله بن مسعود ودفعه دون إبلاغه فغضب لذلك فوعظها وطمع عثمان عماراً حتى أصابه الفتى»

- «وروى آخرون» ان المقداد وعمار وطلحة والزبير وعدة من أصحاب رسول الله (ص) كتبوا كتاباً عددوا فيه أحداث عثمان وخوفوه وأن عماراً حمل الكتاب لعثمان فأثار غضبه لاجترأه عليه فأمّر عثمان غلماناً له، فمعدوا يديه ورجليه، ثم صر به عثمان برجليه -وهي في الخفين على ملاكيره- فأصابه الفتى، وكان ضعيفاً كبيراً فغشي عليه»

وفي موضع آخر روى ابن أبي الحديد نقلاً عن الاستيعاب لابن عبد البر «قال من صار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب، حتى انتفتق له فتق في بطنه، زعموا، وكسروا ضلعاً من أضلاع»

الروايات المدافعة عن عثمان

بالإضافة إلى الرواية التي ذكرها ابن شبة عن جهيم الفهري، والتي تفيد بأن رسول عثمان قد ضرب عماراً بدون إذن،

روى الذهبي في سير أعلام النبلاء نقلاً عن أبي عوانة في مسنده أن عماراً قال لعثمان: حملت قريشاً على رقاب الناس. عدوا عليّ فصر يوتي

فغضب عثمان ثم قال: مالي ولقريش؟ عدوا على رجل من أصحاب محمد (ص) فضربوه. سمعت النبي (ص) يقول لعمار: تقتلك الفئة الباغية. وقاتله في النار»

وقال ان ابا عوانة روى ذلك من طريق الاعمش عن زيد بن وهب، وايضا من طريق سالم بن ابي الجعد عن محمد بن الحنفية.

ولا يخفى طبعاً ان هذه الرواية مصممة للدفاع عن عثمان. ولو سلمنا بما فيها جدلاً، فلماذا لم ينصف عثمانُ عماراً من قريش الذين اعتدوا عليه؟ ومن هم قريش هؤلاء المشار اليهم؟

وكعادته في الدفاع عن عثمان وسياسته، قام سيف بن عمر بابتكار سبب لتفسير عداء عمار للخليفة. فقد روى الطبري في تاريخه بشأن عمار «كان بينه وبين عباس بن عتبة بن ابي لهب كلام».

فضربهما عثمان. فأورث ذلك بين آل عمار وآل عتبة شراً حتى اليوم»

وهكذا يريد سيف ان يختزل كل مواقف عمار بحقد شخصي ناتج عن عقوبة يحقه قروها الخليفة بسبب مشكلة تشاتم مع عباس بن عتبة

وقد اعتمد ابن كثير، الأموي الهوي، على هذه الرواية في سياق انتقاده لعمار بن ياسر ومواقفه تجاه عثمان، فقال عن عمار في البداية والنهاية: «وكان متعصباً على عثمان بسبب تأديبه له فيما تقدم على أمر، وضربه اياه في ذلك، وذلك بسبب شتمه عباس بن عتبة بن ابي لهب، فأدبهما عثمان، فتأمر عمار عليه لذلك وجعل يحرض الناس عليه...»

الفصل السادس: الاثراء الفاحش في عهد عثمان⁽¹⁾

قرار اقتصادي خطير

وتنفي الإشارة إلى قرار مهم اتخذته عثمان، يتعلق بالسياسة المتبعة بشأن أراضي البلاد المفتوحة، وكان له تأثير على العرب المقيمين في العراق خاصة: فقد قرر عثمان السماح لمن كان يمتلك أراضي في الحجاز أو اليمن باستبدالها بأراضي في البلاد المفتوحة، بعد أن يتنازل لبيت المال عنها.

ذكر الطبري في تاريخه عن رواية لسيف بن عمر أن عثمان جمع أهل المدينة فقال: يا أهل المدينة إن الناس يتمخضون بالفتنة، وإني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك، فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده.

فقام أولئك وقالوا: كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين؟

فقال: نعيمها ممن شاء بما كان له بالحجاز.

ففرحوا... ٩

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج 3 ص 333)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 3 ص 221-222 و ص 134)، صحيح البخاري (ج 4 ص 106)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج 1 ص 33)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 25 ص 103) و (ج 21 ص 451 و ص 114 و ص 123)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 278 و ص 184) و (ج 8 ص 4)، مستد أحمد بن حنبل (ج 6 ص 298)، أسد الغابة لابن الأثير (ج 3 ص 315-317) و (ج 4 ص 24)، تاريخ المدينة لعمري بن شبة (ج 1 ص 219-223)، الأصابة لابن حجر العسقلاني (ج 7 ص 343) و مروج الذهب للمسعودي (ج 2 ص 262).

ورغم أنني لم أجد هذه الرواية لدى مصدر آخر غير سيف بن عمر، إلا أنه ليس هناك سبب لدعائي بل هي تلقي الضوء على طريقة الأثراء الفاحش الذي ميز العديد من كبار الصحابة، كما سيأتي.

ويما أن عددا كبيرا من أبناء قبيلة قریش، بمن فيهم صحابة كبار، وزعماء قبائل أخرى، يمانية وقيسية، كانوا يمتلكون أراض كثيرة في الحجاز واليمن، بعضها موروث، وبعضها مكتسب عن طريق التجارة، وبعضها نصيبهم من الغنائم من أيام الرسول (ص) والخلفيين من بعده (مثلا في منطقة خيبر)، وبعضها من هبات وأعطيات عثمان بن عفان، فقد فتح الخليفة أمامهم آفاقا هائلة للثروة والثراء الفاحش. فالأراضي في داخل الجزيرة العربية كانت في أغلبها فقيرة وغير متجة، ولا تقارن أبدا بالأراضي الغنية والخصبة في بلاد الرافدين، حيث البساتين والغابات في ضفاف الفرات ودجلة.

وقام عدد كبير من القرشيين والزعماء القباليين باستغلال قرار الخليفة إلى الحد الأقصى. فتملكوا مساحات شاسعة من أراضي «السوا» في الكوفة وغيرها من المناطق العراقية. وأصبح عدد من الصحابة من أمثال طلحة بن عبيد الله والزيبر بن العوام من كبار الأثرياء والرأسماليين الذين تنهال عليهم الأموال من تلك الممتلكات الجديدة في العراق. وهناك روايات كثيرة جدا تصف مدى الغنى الفاحش الذي صاروا يرفلون فيه، حتى وهم يقيمون في المدينة المنورة، دون الحاجة إلى الإقامة في العراق. وطبعاً كان لبني أمية، من أمثال مروان بن الحكم، وللقرشيين بشكل عام، نصيب الأسد من هذه الامتيازات.

يتابع سيف روايته السابقة فكان طلحة بن عبيد الله قد استجمع له عامة سهمان خيبر إلى ما كان له سوى ذلك. فاشترى طلحة منه من نصيب من شهد القادسية والملائن من أهل المدينة ممن أقام ولم يهاجر إلى العراق الناشئج بما كان له بخير وغيرها من تلك الأموال. واشترى من بشر أريس شيئا كان لعثمان بالعراق.

واشترى منه مروان بن الحكم بمال كان له، أعطاه إياه عثمان، نهر مروان، وهو يومئذ أجمه

واشترى منه رجال من القبائل بالعراق بأموال كانت لهم في جزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضر موت. فكان ممن اشترى منه الاشعث بمال كان له في حضر موت ما كان له بطيخ نابذ»

ولا بد من ملاحظة كيفية انشاء ابن عم الخليفة في قول الراوي عن مروان «بمال كان له» أعطاه أباه عثمان». وهذا يعني ببساطة ان الخليفة أعطى ابن عمه أموالاً وليس معروفًا تبرير ذلك إلا صلة الرحم، فقام هذا بدوره باستبدالها بمصالح في العراق فأصبح له نهر يعرف باسمه هناك!

ثروات الصحابة في عهد عثمان

ومن أبرز الامثلة على هؤلاء المستفيدين كان طلحة بن عبيد الله، الصحابي الكبير الذي استغل جيكم عثمان بن عفان كثيرًا فبلغت ثروته أرقامًا خيالية، فهو استفاد من حركة الفتوحات ليكسب قصورًا وضياعًا وأراضي خاصة في العراق.

ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد:

عن الواقدي «كان طلحة بن عبيد الله يقل بالعراق ما بين اربعمائة ألف الى خمسمائة ألف، ويقل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر. وبالأراضى له غلات. وكان لا يدع أحدا من بني تميم عائلاً إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله وزوج أيامهم وأخدم عائلتهم وقضى دين غارمهم. ولقد كان يرسل إلى عائشة إذا جاءت غلته كل ستة عشرة ألفاً. ولقد قضى عن صحبة النبي ثلاثين ألف درهم»

وعن الواقدي ايضاً «كانت قيمة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقار والاموال وما ترك من الناض ثلاثين ألف ألف درهم، ترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، والباقي عروض»

وعنه أيضاً «قتل طلحة بن عبيد الله يرحمه الله وفي يد غارته ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم. وتوفت أصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم»

وعنه ايضاً «قال عمرو بن العاص: حدثت ان طلحة بن عبيد الله ترك مائة بهار، في كل بهار ثلاث قناطر خصب. وسمعت ان البهار جلد ثور»

روى الذهبي في سير أعلام النبلاء :

عن ابن عينة «كانت غلة طلحة كل يوم ألف واثني»

وعن الحسن البصري «أن طلحة بن عبيد الله باع أرضاً له بسبع مئة ألف فبات أرقاً من ذلك المال، حتى أصبح فقيراً»

وعن الواقدي «من موسى بن طلحة أن معاوية سأله: كم ترك أبو محمد من العين؟

قال: ترك ألفي ألف درهم ومئتي ألف درهم. ومن اللهب مئتي ألف دينار فقال معاوية: عاش حميداً سخيّاً شريفاً، وقتل قتيلاً، يرحمه الله»

والواقفي: درهم وأربعة دنانير

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر عن رواية ابن سعد عن الواقدي، عن موسى بن طلحة أن معاوية سأله «كم ترك أبو محمد يرحمه الله من العين؟ قال: ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف دينار. وكان ماله قد اقتتل كان يغفل كل سنة من العراق مائة ألف سوى غلاته من السراة وغيرها. ولقد كان يدخل قوت أهله بالمدينة مستهم من مزرعته بقناة كان يزرع على عشرين ناضحاً. وأول من زرع القمح بقناة هو....»

وذكر ابن عساكر أيضاً رواية الزبير بن بكار «أن طلحة بن عبيد الله من الناسق بالعراق خمس مائة ألف درهم. فقسمها حتى أتى على آخرها وهو في حنيف» وروى عن عمرو بن دينار «كان غلة طلحة بن عبيد الله كل يوم ألف واثني»

وكذلك كان الزبير بن العوام من كبار الأثرياء والرأسمالين وأصحاب المصالح في عهد عثمان.

وقد جاء في صحيح البخاري تفاصيل ثروة الزبير التي أورثها بعد مقتله، وهي تحتوي على غابة كان الزبير قد اشتراها بسبعين ومائة ألف وباعها ابنه عبد الله بألف ألف وستمائة ألف، بالإضافة إلى إحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين

بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر وأنه «.. كان للزبير أربع نسوة، وُرفِعَ الثلث، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف»

وقد قدم ابن كثير في البداية والنهاية (ج 7 ص 278) حصة تفصيلية أدق من حصة البخاري لثروة الزبير عند مقتله. فقال عنه «وقد كان الزبير ذا مال جزيل وصدقات كثيرة جداً. لما كان يوم الجمل أوصى إلى ابنه عبد الله فلما قتل وجدوا عليه من الدين ألفي ألف ومائتا ألف فوقوها عنه، وأخرجوا بعد ذلك ثلث ماله الذي أوصى به، ثم قسمت التركة بعد ذلك، فأصاب كل واحدة من الزوجات الأربع من ربع الثمن ألف ألف ومائتا ألف درهم. فعلى هذا يكون مجموع ما قسم بين الورثة ثمانية وثلاثين ألف ألف وأربعمائة ألف. والثلث الموصى به: تسعة عشر ألف ألف ومائتا ألف. فعلى هذا يكون جميع ما تركه من الدين والوصية والميراث تسعة وخمسين ألف ألف وثمانمائة ألف».

واتما نبهنا على هذا لأنه وقع في صحيح البخاري ما فيه نظر ينبغي أن ينبه له. والله أعلم»

ويبدو أن ابن كثير قد لاحظ مدى ضخامة هذه الثروة وعظمتها، فقرر أن يعللها لكي يزيل من ذهن القارئ أي شك بشأن مصدرها، فقال «وقد جمع ماله هذا بعد الصدقات الكثيرة، والمآثر الغزيرة مما أفاء الله عليه من الجهاد، ومن خمس الخمس ما يخص أمه منه، ومن التجارة المبرورة من الخلال المشكورة. وقد قيل إنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج. فربما تصدق في بعض الأيام بخراجهم كلهم رضي الله عنه وأرضاه»

ولم يشر ابن كثير إلى أنه كانت تنهال عليه عطايا بني أمية أيام عثمان بلا حساب. فمثلاً ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر، أن الزبير «قدم مرة الكوفة فأعطاه وإليها الأموي سعيد بن العاص 700 ألف درهم، فأعطىها، فقال له الوالي «لو كان في بيت المال أكثر منها لبشت بها إليك». وأعطاه عثمان مرة 600 ألف من مال أصبهان».

ودرى ابن سعد في الطبقات الكبرى بعض مظاهر ثراء عبد الرحمن بن

عوف:

عن الواقدي هرك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة بالبيع ومائة فرس ترمى بالبيع. وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً، وكان يدخل قوت أهله من ذلك سنة.

وعن حماد بن زيد أن عبد الرحمن بن عوف توفي وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها ثمانين ألفاً.

وعن الواقدي قال أصاب ما ضربت الاصبغ ربع الثمن فأخرجت بمائة ألف وهي إحدى الأربع.

وروى أحمد بن حنبل في مسنده أن عبد الرحمن قال لأم سلمة قد خفت أن يهلكني كثرة مالي. أنا أكثر قريش مالاً.

وقال ابن الأثير في ترجمته في أسد الغابة :

هو كان عظيم التجارة، مجتهداً فيها، كثير المال.

فيل أنه دخل على أم سلمة، فقال: يا أمه، خفت أن يهلكني كثرة مالي.

وقال أيضاً:

«... فكثر ماله حتى قلعت له سبعة مائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام. فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة. فقالت عائشة: ما هذه الرجة؟ فقيل لها: حير قلعت لعبد الرحمن بن عوف سبعة مائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام. فقالت عائشة: سمعت النبي (ص) يقول: يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً. فلما بلغ ذلك عبد الرحمن قال: يا أمه اني أشهدك أنها بأحمالها وأحلاسها وأقطبها في سبيل الله عز وجل»

وقال عنه أيضاً:

هو خلف مالا عظيماً من ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه. وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترمى بالبيع. وكان له أربع نسوة، أخرجت امرأة ثمانين ألفاً. يعني صولحت.

وأما ابن كثير في البداية والنهاية، فيعد أن روى عن الزهري واحمد بن حنبل قصة السبعملة العير المحملة التي تبرع بها في سبيل الله أضاف ولما حضرته الوفاة أوصى لكل رجل ممن بقي من أهل بدر بأربعمئة دينار - وكانوا مائة - فأخذوها حتى عثمان وعلي، وقال علي: اذهب يا ابن عوف فقد أدركت صفوها وسبقت زيفها. وأوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كثير حتى كانت عائشة تقول: سبناه الله من السلسيل. وأحتى خلقاً من ممالئكه، ثم ترك بعد ذلك كله مالا جزئياً من ذلك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال. وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالقيح. وكان نساؤه أربعاً فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفاً.

وقال عنه المسعودي في مروج الذهب «بنتى داره ووسمها. وكان علي مربيته مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الفهم. وبلغ بعد وفاته رُبع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً»^(١)

و«ثروة» علي بن ابي طالب ١٩

أنقل هنا بعضاً مما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية. وابن كثير كما هو معلوم اموي الهوى، وهو آخر من قد يُتهم بالشيعة لعلي بن ابي طالب. فما يذكره بشأن فضائل علي يمكن اعتباره الحد الأدنى، أو غييض من فيض.

فهو قال ان علياً لم يبن البيوت ولا القصور «وقال ابو نعيم: سمعتُ سفيان الثوري يقول: ما بنى عليّ لينة ولا قصبة علي لينة»

وهو ذكر ان علياً ما كان عنده من الثياب ما يقيه برد شتاء العراق «قال ابو عبيد: حدثنا عباد بن العوام، عن مروان بن عترة، عن ابيه قال: دخلتُ على علي بن ابي طالب بالخورنق، وعليه قطيفة، وهو يرجع من البرد فقلت: يا أمير المؤمنين ان الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت

(١) ومن المثير فعلاً مقارنة ما تركه طلحة والزبير وعبد الرحمن من أموال، مع ما تركه صحابئ كبير آخر من ذوي الأصل المتواضع. فقد روى ابن عساکر في تاريخ دمشق أن تركه سلمان الفارسي لدى وفاته لم تزد على ثلاثين درهماً!

ترعد من البرد؟ فقال: اني والله لا ارضا من مالكم شيئا. وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي - او قال من المدينة»

كما ذكر أنه كان يشتري القميص بثلاثة دراهم ا فغن ابن عباس «اشترى علي قميصا بثلاثة دراهم وهو خليفة، وقطع كتفه من موضع الرسغين، وقال: الحمد لله الذي هذا من ريشته»

بل انه ذكر أن عليا كان ربما يضطر الي بيع سيفه ليشترى بعض ما يريد به ا فغن مجمع بن سمعان التيمي قال «خرج علي بن ابي طالب يسيفه الي السوق فقال: من يشتري مني سيفي هذا ؟ فلو كان عندي أربعة دراهم اشترى بها ازارا ما بعته»

وذكر ابن الاثير في اسد الغابة ان الحسن بن علي ذكر ان اباہ لم يترك إلا 600 درهم، اشترى بها خادما.

ورغم ذلك، فعلي كان له مال يبيع، فالمصادر حافلة بالاشارة الي ذهاب علي المتكرر الي «مال له يبيع»، وخاصة تلك التي تتحدث عن حصار عثمان ومقتله. ويبدو ان عليا كان يذهب الي «ماله يبيع» كلما رغب في الابتعاد عن عثمان لغضبه عليه أو إحباطه من سياسته. وبيع كما هو معلوم تقع الي الشمال من جدة على البحر الاحمر.

ولكن، ماذا كان ذلك المال الذي له يبيع؟

من أكثر المصادر تفصيلا في هذا الشأن كتاب تاريخ المدينة لعمر بن شبة:

«وكانت أموال علي رضي الله عنه حيونا متفرقة يبيع، منها حين يقال لها «عين البحر» وعين يقال لها «عين أبي نزر» وحين يقال لها «عين نولا»، وهي اليوم تدعى العمد وهي التي يقال ان عليا رضي الله عنه حمل فيها يده. وفيها مسجد النبي (ص) متوجهة الي ذي العشرة يتلقى مير قريش...»

وعمل علي رضي الله عنه ايضا يبيع «البخيات»، وهي عيون منها عين يقال لها «خيف الراك» ومنها عين يقال لها «خيف ليلي» ومنها يقال لها «خيف بسطاس» فيها خليج من النخل مع العين»

ويذكر ابن شبة ثلاث روايات بشأن كيفية تملك تلك الأرض في بيع:

الأولى تقول إن تلك الأرض كان رسول الله (ص) قد أقطعها لابن أبي كشد الجهني فاشترها من عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة الأنصاري بثلاثين ألف درهم، ولكنه كرهها بسبب ريحها الشديدة فعرضها على علي بن أبي طالب **فنهى لك أن تباعها؟ قال علي: قد أخذتها بالثمن. قال: هي لك، فتخرج إليها علي رضي الله عنه. فكان أول شيء عمله فيها البقية، وأنفذها.**

وفي الرواية الثانية **إن عمر رضي الله عنه قطع لعلي رضي الله عنه بيع، ثم اشترى علي رضي الله عنه إلى قطعة عمر أشياء، فحضر فيها عينا.**

وفي الثالثة **أنقطع النبي (ص) علياً رضي الله عنه بلدي العشرة من بيع، ثم أقطعه عمر رضي الله عنه بعد ما استخلف إليها قطعة، واشترى علي رضي الله عنه إليها قطعة، وحضر بها عينا.**

وتجمع روايات ابن شبة إن علياً لم يكن يستفيد هو شخصياً من تلك الأموال بل كان يصدعها في سبيل الله، روايتان متشابهتان عن جعفر بن محمد (الامام الصادق)، نص أحدهما **بشر علي رضي الله عنه بالبقية حين ظهرت فقال: تسر الوارث. ثم قال: هي صدقة على المساكين وابن السبيل وذي الحاجة الأقرب.**

وتقول أخرى (عن محمد بن كعب القرظي) **«تم تصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، القريب والبعيد، وفي الحياة والسلام والحرب. ثم قال: صدقة لا توهب ولا تورث، حتى يرثها الله الذي يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوراثين»**

ويمكن الشك في عبارة «صدقة لا توهب ولا تورث» الواردة في رواية محمد بن كعب القرظي. فربما المقصود منها تأييد الخلفاء (لاحقاً) في حرمان وريثة علي من حقهم فيها.

فالأرجح أن علياً قد وقف ذلك الماء يبيع على الفقراء مع احتفاظه بحق الملكية، أي أنه لم يتنازل عنها لبيت المال. ومما يدل على ذلك ما رواه ابن شبة نفسه **«وكانت البقية مما عمل علي رضي الله عنه وتصدق به. فلم نزل في صدقاته حتى أعطاها حسين بن علي ابن عبد الله بن جعفر بن أبي**

طالب، يأكل ثمرها ويستعين بها على دينه ونزولته، على ألا يزوج ابنته يزيد بن معاوية بن أبي سفيان». ويدعم ذلك رواية لابن حجر المسقلاني تشير إلى أن علياً أباح للحسن والحسين بيعها إن دعتهم الحاجة لذلك، ولكن الحسين رفض بيعها لمعاوية رغم عرضه المفرى.

فقد ذكر ابن حجر المسقلاني في الإصابة في ترجمة أبي نيزر، نقلاً عن كتاب الكامل للمبرد أنه «كان يقوم بصيحتي علي اللتين في البقيع، تسمى أحدهما البقيعة، والآخرى عين أبي نيزر» وأضاف أن علياً «وقفهما على فقراء المدينة وابن السبيل، إلا أن يحتاج الحسن أو الحسين فهما طلق» وأضاف «وفي آخر الخبر أن الحسين احتاج لأجل دين عليه، فبلغ ذلك معاوية فدفع له في عين أبي نيزر مائة ألف، فأبى أن يبيعها وأمضى وقفها»

ورواية المبرد هذه، التي ذكرها ابن حجر، تتكلم عن ممتلكات لعلي في البقيع، أي في المدينة المنورة. ولكن الصحيح والشائع أن «البقيعة» وعين أبي نيزر، هي في ينبع. وذلك مشهور وخاصة فيما يتعلق بالبقيعة.

على أن الامام علي كان له بعض الممتلكات في مناطق أخرى، سوى ينبع. روى ابن شبة:

«وكان له أيضا صدقات بالمدينة: «الفقرين» بالمالية، و«بئر الملك» ببقنة، و«الادية» بالأضم»

وفي وادي القرى «عين ناقة» و«عين موات»

وفي مكان وعرب بين المدينة والشام يدعى «حرة الرجلاء» كان له «واد يدعى الاحمر، شطره في الصدقة وشطره بأيدي آل مناع من بني عدي، منحة من علي» و«واد يقال له البيضاء فيه مزارع وعفا، وهو في صدقته. وله أيضا بحرة الرجلاء أربع أبر يقال لها «ذات كمات» و«ذوات العشاء» و«عين» و«رعوان» فهذه الأبر في صدقته»

وقريباً من ذلك المكان، ناحية فذك، له مال يقال له «القصية» و«واد بين لابتى حرة يدعى «روية» فيه نخل ووشل من ماء يجري على سقا بزرنوق، فلذلك في صدقته»

والمتمثل في «ممتلكات» الامام علي هذه، يرى أن معظمها يقع في المناطق التي كانت لليهود، مثل وادي القرى وقرب فلك. ولم يذكر ابن شبة كيفية تملك الامام علي لها. ولكن يبدو أنها كانت من نصيبه من الفتوحات أيام النبي (ص). كما يلاحظ انها في معظمها حيون ماء وآبار. والظاهر أن الامام علي كان يحرص على حفر الآبار ليحيي تلك الارض ويجعلها ذات قيمة وفائدة ثم يتصدق بها. قال ابن شبة لما أشرف علي رضي الله عنه على ينبع، فنظر إلى جبالها قال: لقد وضعت على نقي من الماء عظيم»

ويخلاف غيره من كبار الصحابة القرشيين، لم يرد أبداً ما يشير إلى ممتلكات لعلي في العراق أو غيره من البلاد المفتوحة. وطبعاً لا يوجد أي حديث عن غايات وأنهار أو آلاف العبيد الذين يؤدون خراجهم له أو يعملون لحسابه، ولا عن ذهب مكتسب لديه، ولا عن مئات الجمال ولا قوافل محملة له. كل ما تذكره المصادر هو إشارات متفرقة إلى ممتلكات بسيطة (حيون ماء وآبار استصلحها بنفسه) جعلها من المعهد النبوي.

ومن المؤكد أن الامام علياً كان معارضاً لسياسة الطبقة الأموية الحاكمة التي تسيطر على ثروات هائلة من موارد الأمصار، وكان الصرف يتم بلا حساب لمن شاء الخليفة وولاته. وكان نصيب كبار الصحابة من عطاياهم وإمراً. فذلك التصرفات كانت تثير حفيظة علي بن ابي طالب وغضبه، رغم محاولاتهم استرضاءه. ومن ذلك ما ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق من رواية ابن سعد «وقدم سعيد بن العاص المدينة وانفذ على عثمان. فبعث إلى وجوه المهاجرين والانتصار بصلات وكسا. وبعث إلى علي بن ابي طالب أيضاً فقبل ما بعث به اليه. وقال علي: إن بني أمية ليفوتوني تراث محمد تفويقاً والله لئن بقيت لهم لأنقضنهم من ذلك نقض القصاب التراب بالوزنة»

ويمكن التحفظ على فقرة «فقبل علي ما بعث به اليه»، فهي تتناقض مع سياق الرواية نفسها: فكيف يقبل عطايا بني أمية وهو يتزعمهم؟

الجزء الثالث:

الأمصار وتمرد على الخليفة

الفصل الاول: التمرد في مصر⁽¹⁾

الظاهر أن التمرد ضد حكم الخليفة عثمان كان قد بلغ أشده في مصر. فليس فقط أن الوفد المصري الذي ذهب إلى المدينة وانتهى به الأمر إلى المشاركة في قتل عثمان كان هو الأكبر بالقياس إلى وفود البصرة والكوفة، ولكن أيضا قام أعداء عثمان بالسيطرة على مصر وخرج والي الخليفة عبد الله بن سعد، وذلك في الفترة الحرجة التي شهدت الاضطرابات التي انتهت بقتل الخليفة.

دور محمد بن أبي حذيفة .

من الغريب جدا أنه كان من أبرز المعارضين لعثمان وحكمه والمحرّضين عليه شخص من أقرب الناس نسبا إلى عثمان ومعاوية! فمحمد بن أبي حذيفة هو شاب من بني عبد شمس، كان أبوه من المسلمين الأولين في مكة. وأبو

(1) مصادر هذا البحث: ترجمة علي بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري (ص387-389)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص178 و ج8 ص109)، ترجمة عبد الله ابن أبي السرح وترجمة محمد بن أبي حذيفة في الاستيعاب لابن عبد البر (ص435 و ص644)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج52 ص269-273) و (ج29 ص37)، المعجم الكبير للحافظ الطبراني (ج2 ص82-88)، تاريخ الطبري (ج2 ص429 و ج3 ص391 و ص393 و ص379 و ص407 و ج4 ص80-81)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص256 و ص259)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج3 ص1117-1121 و ج4 ص1160)، الإصابة لابن حجر المصنفاني (ج6 ص9-11 و ج4 ص95)، المستدرک علی الصحیحین للحاکم (ج4 ص61)، الاغیاء الطوال للدينوري (ص168)، الإمامة والسياسة (ج1 ص56)، أسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص174)، تاريخ الطبري (ج2 ص164)، البحر المعاملي في وسائل الشيعة (ج30 ص455)، و رجال الطوسي (ص82) و تاريخ ابن خلدون (ج4 ص294)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج6 ص10-11 و ص101)

حذيفة هو ابن عتبة بن ربيعة، وأخو هند أكلة كبد حمزة، كان قد خالف أباه وقومه، فكان من القلة القليلة من أبناء بطون قريش العريقة الذين آمنوا بمحمد (ص) وهاجروا إلى الحبشة، فولد ابنه محمد هناك⁽¹⁾. ولما استشهد أبو حذيفة في معركة اليمامة، تولى عثمان بن عفان رعاية ابنه محمد، بحكم كونه تاجراً غنياً، ومراعاة للقرابة.

وليس معروفاً على وجه الدقة السبب الذي جعل محمد بن أبي حذيفة يكون من أشد الكارهين لعثمان وحكمه والمؤيدين عليه. فمن المنطقي والمتوقع أن يكون ابن أبي حذيفة مثل بقية أقرانه من بني أمية وعبد شمس الذين استفادوا من فترة حكم الخليفة المعجوز فحازوا على أعلى المناصب والمراتب. ولكن ذلك لم يحصل. بل إن كل المصادر التاريخية تجمع على أن محمد بن أبي حذيفة، بالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، كانا أبرز النشطاء في مصر المعادين لعثمان والمؤيدين للأموية الحاكمة. وهناك أوجه شبه كثيرة بين المحدثين ابن أبي بكر وابن أبي حذيفة: فهما شابان من نفس الجيل، واستقرا في مصر، وهما ابنا لاثنتين من كبار الصحابة السابقين إلى الإسلام وأخيراً هما من صميم قبيلة قريش. ولعل ابن أبي حذيفة تأثر بشخصية وأفكار ابن أبي بكر الذي كان ربيباً لعلني بن أبي طالب، وأخاً لأبناء جعفر بن أبي طالب من جهة الأم.

فماذا تقول المصادر عن ابن أبي حذيفة ؟

ذكر البلاذري في أنساب الأشراف جملة من أخبار ابن أبي حذيفة، نقلاً عن أبي مخنف وغيره. ويمكن تلخيصها على النحو التالي :

- إن عثمان بن عفان كان كفل محمد بن أبي حذيفة وتولى تربيته بعد استشهاد أبيه يوم اليمامة. وقد قال فيما بعد لما بلغه تمرد محمد بن أبي حذيفة «اللهم اني ربيته رحمة له وصلة لقرابته، حتى لقد كنت أنكث المنخ فأخصه به دون نفسي وولدي»

(1) هناك إجماع على ذلك، مثلاً: الإصابة لابن حجر العسقلاني وكذلك المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابوري

- شريك محمد بن أبي حذيفة الخمر فأقام عليه عثمان الحد .
- تنسك محمد بن أبي حذيفة بعدها وأقبل على العبادة، ورغب في أن يغزو البحر فاستأذن عثمان أن يأتي مصر فأذن له. وكان خروجه إليها متراماً مع خروج عبد الله بن أبي السرح.
- لما وصل مصر «رأى الناس عبادته فلزموه وأعظموه ومالوا إليه»
- كان ابن أبي حذيفة مع ابن أبي السرح في غزوته البحرية عام 34 فحصل عبد الله بن سعد بن أبي السرح يوماً فكثير محمد بن أبي حذيفة من خلقه تكبيرة أفرغته، فنهاه وقال: انك حدثت أحق ولولا ذلك لفاربت بين خطاك».
- «وكان ابن أبي حذيفة يعيه ويعيب عثمان بتوليته إياه، ويقول: استعمل عثمان رجلاً أباح رسول الله (ص) دمه يوم الفتح، ونزل فيه: ومن أظلم ممن اتقى على الله كذباً أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله»
- كان محمد بن أبي بكر أيضاً من الذين شخصوا مع ابن أبي السرح إلى مصر. فكان يعين ابن أبي حذيفة في الطعن على الوالي. فكتب ابن أبي السرح إلى عثمان شاكياً إياهما «إنهما قد أنفلا عليه المغرب وأفسداه».
- أجابه عثمان بكتاب أمر إياه بالتسامح معهما «أما محمد بن أبي بكر فإنه يهوب لأبي بكر ولعائشة أم المؤمنين. وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيته، وهو فرخ قرش» فكتب له ابن أبي السرح «إن هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير»
- أرسل عثمان إلى ابن أبي حذيفة كسوة وثلاثين ألف درهم، ولكنه جمع ما وصله من عثمان «فوفخ في المسجد ثم قال: يا معشر المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن ديني ويوشوني عليه»
- «فازداد أهل مصر طمناً على عثمان رضي الله عنه وإعظاماً لابن أبي حذيفة، واجتمعوا إليه فيأبوه على رئاستهم»

- فلم يزل ابن أبي حذيفة يحرض أهل مصر ويؤليهم على عثمان حتى
سربهم إلى المدينة، فاجتمعوا إليه مع أهل المصريين، وكانوا أشدّهم
في أمره، وشخص محمد بن أبي بكر معهم؟

ولم يذكر البلاذري مصير محمد بن أبي حذيفة ولا كيف تخلص منه
معاوية.

وقال ابن عبد البر في ترجمة محمد بن أبي حذيفة بعد أن ذكر أنه ولد في
الحبشة في زمن رسول الله (ص) «وكان محمد بن أبي حذيفة أشدّ الناس تألياً
على عثمان.... وكان عثمان قد كفّل محمد بن أبي حذيفة بعد موت أبيه أبي
حذيفة، ولم يزل في كفّالته ونفقته سنين. فلما قاموا على عثمان كان محمد بن
أبي حذيفة أحد من أعان عليه، وألب وحرض أهل مصر.»

ولم يوضح ابن عبد البر أسباب عداء محمد لعثمان.

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة مجموعة من أخبار ابن أبي حذيفة.
ومنها رواية

عن محمد بن سيرين «قدم محمد بن أبي حذيفة على عثمان رضي الله
عنه فأجازه بمائة ألف. ثم طعن عليه بعد ذلك، وقال: ما جمل هؤلاء أحق
بالمال مني؟»

وعلى كل حال، فإن سياق الأحداث وتواتر الروايات يشير إلى أن مشكلة
ابن أبي حذيفة مع ابن أبي السرح في مصر لم تكن قابلة للحل، بل كانت مسألة
مبدأ. فبعد الله بن أبي السرح كان ينظر محمد بن أبي حذيفة مرتداً لعيناً ولم
يكن جائزاً لعثمان تعيينه في ذلك المنصب من الأساس.

ورواية ابن كثير في البداية والنهاية عن غزوة ذات الصواري تظهر ذلك
قال الواقدي: فحدثني معمر عن الزهري قال: كان في هذه الغزوة محمد
بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر. فأظهرا حبّ عثمان وما غير وما خالف
أبا بكر ومعمر. ويقولان: دُيُّ جلال لأنه استعمل عبد الله بن سعد - وكان قد
ارتدّ وكفر بالقرآن العظيم وأباح رسول الله دمه - وأخرج رسول الله (ص)

أقواماً واستعملهم عثمان. ونزع أصحاب رسول الله (ص) واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر.

فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبنا معنا.

فركبنا في مركب ما فيه أحد من المسلمين، ولقوا العدو فكاننا أنكرل المسلمين قتالاً. فليل لهما في ذلك فقالا: كيف تقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكمه؟

فأرسل اليهما عبد الله بن سعد فنهاهما أشد النهي وقال: والله لو لا لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبتكما.

محمد بن أبي حذيفة مع كعب الأحبار

ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق رواية مثيرة عن ابن سيرين، توضح كيف كان استياء محمد بن أبي حذيفة من الهيئة الحاكمة يمتد ليصل إلى كل المقرين منها والمتظرين لها، ومن هؤلاء كعب الأحبار، اليهودي المسلم الذي كان من خاصة عثمان الذين يستشيرهم ويقربهم. ومن المشروع التخمين أن محمد بن أبي حذيفة كان حاضراً في المدينة حين حصل ذلك الصراع الحاد بين أبي ذر الغفاري والخليفة عثمان، وربما شاهد كيف كان كعب الأحبار يقف إلى جانب الخليفة. ويُنتهي له بأن المسلم بعد دفع زكاة ماله ليس عليه أي حق ملزم تجاه غيره، بخلاف ما ينادي به أبو ذر. فلا شك بأن محمداً كان يزدري كعباً وما يشيعه من «علم» بين المسلمين مستنداً إلى تورااة اليهود. والرواية تظهر كيف كان محمداً يسخر بكعب ورواياته مما استفزه وأثار أعصابه:

«إن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وكعباً، وكباً سفينة في البحر. فقال محمد: يا كعب! أما تجد سفينة هله في التوراة كيف تجري؟

فقال: لا! ولكن أجده فيها رجلاً أشقى الفتية من قريش، يمزو في الفتنة كما يمزو الحمام. لا تكون أنت هو!

فقال ابن سيرين: فزعموا انه كان هو⁽¹⁾

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة رواية ابن سيرين والتي فيها حادثة استهزاء محمد بن ابي حذيفة الشديد بكعب الاحبار وهما في السفينة كما يلي «ركب كعب الاحبار ومحمد بن ابي حذيفة في سفينة قبل الشام - زمن عثمان- في غزوة غزاها المسلمون .

فقال محمد لكعب: كيف تجد نعت سفيتنا هذه في التوراة تجري غدا في البحر؟

فقال كعب: يا محمد لا تسخر بالتوراة، فإن التوراة كتاب الله.

قال: ثم قال له ذلك ثلاث مرات.

فقال: لا أجد سفيتنا هذه منوعة في التوراة، ولكني أجد في بعض كتاب الله أن فتنة قد أطلت، يترو فيها رجل من قريش له سن شاذية نزو الحمار في القيد. فأتيتك ألا تكون ذلك الرجل؟

وفي رواية أخرى أن جواب كعب كان فأجد في كتاب الله أن رجلا من قريش اسمه اسمك أشر الثنايا يحجل في الفتنة كما يحجل الحمار في القيد. فأحذر ألا تكون أنت». وفي رواية ثالثة أن كعبا قال له عن الفتنة «شب فيها غلام من قريش أشقى الثنتين، فيؤخذ فيضرب عنقه. فانظر ألا تكون ذلك. فكان هو»

كما أخرج رواية السفينة عن الزهري أيضا، ولكن فيها اختلافه مع ابن السرح «غزا ابن ابي سرح ذات الصواري سنة 34، ومعه محمد بن ابي بكر ومحمد بن ابي حذيفة، فكانا يمييان عثمان. فحملهما ابن ابي سرح في سفينة مع القبط، ثم كلم فيهما فحولهما. فلما رجع كتب الى عثمان بما كان منهما. فكتب اليه: أن أشخص إلي ابن ابي بكر. وقال عثمان: العجب لابن ابي حذيفة

(1) ونفس هذه الرواية بالحرف، وودت في المعجم الكبير للمحافظ الطبراني بسند كامل حدثنا سليمان بن الحسن المطار ثنا أبو كامل الجهمري ثنا إسماعيل بن إبراهيم ثنا بن عون عن محمد بن سيرين.

أكلته وريته، ثم هو يولب الناس عليّ. اللهم انه لم يشكر بلائي، فأجرتني منه»

وفي رواية أخرى ان عثمان قال «ألا تعجبون لابن أبي حذيفة؟ ضممت الرجل لرحمه، فكنّحت أجس بطنه من الليل، أنظر أجانح هو أم شعبان، ثم هو يسمي في خلعي وسفك دمي. اللهم فأجزه جزاء من كفر النعمة وفجر»

وربما يكون كلام ابن أبي حذيفة لكعب الاحبار، ومشكلته مع أبي أبي السرح، في ذات الغزوة: ذات الصواري. فلا تناقض بالضرورة بين روايتي الزهري وابن سيرين.

ممارسات ابن أبي السرح في مصر

الدلائل تشير إلى أنه بعد تعيينه والياً على مصر، اتجه ابن أبي السرح إلى تطبيق سياسة قاسية، ومرتكزة إلى جمع الضرائب الباهظة من أهل البلد. والظاهر أن ذلك قد حظى برضى وإعجاب الخليفة. فيمكن القول ان ابن أبي السرح قد صبَّ جهده وطاقته في انتزاع الأموال، بكل الوسائل، من أهل البلد، دون ان يراعي ظروفهم وأحوالهم كما ينبغي.

ويبدو أن ابن أبي السرح كان همه أن يثبت لسيده وولّي نعمته، عثمان، أنه اتخذ قراراً صائباً حين ولّاه، بدليل تدفق الأموال التي يجبيها الوالي ويرسل جزءاً كبيراً منها إلى العاصمة.

وبالفعل، فقد بدأ عثمان يرى أن الأموال التي ترد من الاقليم المصري، على يد واليه الجديد، تصل إلى أضعاف تلك التي كان يرسلها عمرو بن العاص. والروايات تذكر أن ذلك أثار إعجاب الخليفة وأرضاه، إلى حد أنه قرر أن يبلغ ابن العاص بالتفيزات التي تحصل من بعده، وكيف أن واليه الجديد أكثر نفعاً منه. روى ابن عساکر في تاريخ دمشق أن عثمان قال له:

«يا عمرو: أرى تلك اللقاح قد كثرت من بعدك!»

فقال عمرو: إنما كثرت لهلاك فئصالها، وإنها قد هزلت

وفي رواية أخرى أن عمرأ أجابه: إنكم أصبغتم أولادها»
وفي رواية يعقوبي انه بعد أن عيّن عبد الله بن أبي السرح واليا على مصر:

«جئني عبد الله مصر اثني عشر ألف ألف دينار.

فقال عثمان لعمرؤ: ذرت اللقاح!

قال: ذاك إن يتم يضر بالفصلان»

وهذه الروايات يمكن قبولها بالتأكيد. وليس هذا الجواب البليغ بمستغرب من شخص كمعرو، وهو لا يخلو من الصواب. فرغم أنه من الممكن أن يكون عمرو بن العاص أثناء ولايته يتتبع جزء من أموال الخراج والغنائم لنفسه، إلا أنه أصاب كبد الحقيقة حين أخبر عثمان أن سياسة المبالغة في الضرائب والجباية التي يطبقها ابن أبي السرح تكاد تؤدي إلى هلاك أهل البلد من كثرة كدحهم لدفع ما يفرضه الوالي.

ورغم أن الضرائب والخراج كانت تفرض أساساً على القبط، أهل البلد الأصليين وليس على العرب الفاتحين، وبالتالي فهؤلاء كانوا المتضررون الأول من سياسة الوالي، إلا أن ابن أبي السرح قد تمادى في سوء سياسته وسلوكه حتى طال ذلك مجتمع العرب المستوطنين بمصر.

ويبدو أنه كانت تجاوزات ابن أبي السرح فاحشة وهائلة إلى درجة أن شيخ المؤرخين الطبري تخلى عن التزامه بتوثيق ما وصله من أخبار، فأعلن أنه «كره ذكرها» حفاظاً على سمعة الخليفة عثمان كما يبدو. فالطبري قال في تاريخه «وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب سير المصريين إلى عثمان ونزولهم فاحشاً أموراً كثيرة، منها ما قد تقدم ذكره، ومنها ما أهرضت من ذكره كراهة مني ذكره لبشاعته».

وذكر ابن حبان في كتاب الثقات ضمن أحداث سنة 35 للهجرة «فخرج جماعة من أهل مصر إلى عثمان يشكون ابن أبي السرح ويتكلمون منه. فكتب إليه عثمان كتاباً وهدده فيه. فأبى ابن أبي السرح أن يقبل من عثمان، وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان متظلماً وقتل رجلاً من المتظلمة»

وفيما يلي نصٌ جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري نقلًا عن الزهري عن سعيد بن المسيب⁽¹⁾:

«جاء أهل مصر يشكون ابن أبي سرح، فكتب إليه عثمان رضي الله عنه كتاباً يتهدده فيه، فأبى أن يقبل ما نهاه عنه عثمان رضي الله عنه وغضب بعض من أتاه من قبل عثمان من أهل مصر يتظلم منه قتلته .

فخرج من أهل مصر سجمانة إلى المدينة، فنزلوا المسجد، وشكوا إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح بهم.

فقام طلحة بن عبيد الله فتكلم عثمان رضي الله عنه بكلام شديد. وأرسلت إليه عائشة فقالت: قد تقدم إليك أصحاب محمد، وسألك عزك هذا الرجل فأبيت إلا واحدة فهذا قد قتل منهم رجلاً فاقضهم من عاملك. ودخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه -وكان متكلم القوم- فقال: إنما سألك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا عنه دماً فأعزله عنهم واقض بينهم، وإن وجب عليه حتى فأنصفهم منه...»

وفي رواية للطبري في تاريخه عن الواقدي أنه لما دخل المتمردون المصريون على عثمان في داره أمام الصحابة تقدم رئيسهم عبد الرحمن بن عديس البلوي فذكر ما صنع ابن سعد بمصر:

وذكر تعامله منه على المسلمين

وأهل اللمة

وذكر استئثاره منه في غنائم المسلمين، فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ.

ثم ذكروا أشياء مما أحدث بالمدينة وما خالف به صاحبه قال: فرحلنا من مصر ونحن لا نريد إلا دمك أو تتزعج»

(1) ونفس هذا النص بالحرف تقريباً رواه ابن قتيبة في الإمامة والسياسة بإسناده الجمعي (ذكروا). وكذلك روى ابن حبان في كتاب «الثقات»

ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري رواية عن عروة بن الزبير:

«كتب أهل مصر إلى عثمان: من الملأ المسلمين إلى الخليفة المبتلى. أما بعد. فالحمد لله الذي أنعم علينا وعليك. واتخذ علينا فيما أتاك الحجة.

وإنا نذكرك الله في مواقع السحاب فإن الله تعالى قال في كتابه (أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق): أن تحل ما شئت منه بقولك وتحرم ما شئت منه بقولك.

ونذكرك الله في الحدود: أن تعطلها في القريب وتقيمها في البعيد، فإن سنة الله واحدة.

ونذكرك الله في أقوام أخذ الله ميثاقهم على طاعة ليكونوا شهداء على خلقه. نصحوا لك فاغتشت نصيحتهم، وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم. وقال الله في كتابه (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون)

فذكرك الله ونهاك عن المعصية، فإنك تدعي علينا الطاعة وكتاب الله ينطق: لا طاعة لمن عصى الله. فإن تعطى الله الطاعة نوازرك ونوقرك وإن تأب فقد علمنا أنك تريد هلكتنا وهلكتك. فمن يمنعا من الله إن عصيانه وأطعناك، وأنت العبد الميت المحاسب والله الخالق البارئ المصور الذي لا يموت»

وقد روى ابن شبة عن الزهري أن الخليفة بعث لأهل مصر بكتاب عام، لا يحتوي إلا على التأكيد على طاعة أولي الأمر والتشديد على الوفاء بالبيعة والتحذير من الفرقة والفتنة.

فلذا استمر عثمان في دعم وإياد ابن أبي السرح.



مما تقدم يمكن تلخيص أسباب شكوى أهل مصر والجمع بين الروايات على النحو التالي:

(1) السياسة المالية وتوزيع الأموال والظلم الواقع على أهل البلد سواء العرب منهم أو أهل الذمة.

(2) الانتفاضة في تطبيق الحدود الشرعية.

(3) العقوبات الظالمة المطبقة بحق الكثيرين من الناس الصالحين، وخاصة النبي.

(4) التهاون في الواجبات الدينية، وخاصة الصلاة.

تفنيد رواية لسيف بن عمر

ولا بد لسيف بن عمر أن يدلي بدلوه محاولاً كعادته الدفاع عن الخليفة وواليه. فهناك رواية غريبة يرويها الطبري في تاريخه، نقلاً عن سيف، تقول أن عثمان بن عفان أرسلَ عمارَ بن ياسر إلى نصر لكي يتحقق مما يجري هناك، وما يرويه الناس عن سوء الحكم وفساد الإدارة فيها. وتذكر الرواية أن عماراً تأخر في العودة إلى المدينة كثيراً إلى أن وصل كتابٌ من الوالي عبد الله بن سعد بن أبي السرح، يُخبر فيه أن عماراً استماله قومٌ من مصر منهم عبد الله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران وكنانة بن بشر!

ويمكن طرح العديد من علامات التعجب هنا :

- فكيف يمكن تصوّر أن عثمان بن عفان يختار عمار بن ياسر بالذات لمهمة كهذه؟! فعمار بن ياسر كان معروفاً عنه طعنه الدائم في سياسة عثمان وحكمه. وقد مرّ كيف كان عمار من أشد المعارضين للخليفة من البداية، والمعادين للسيطرة الأموية على مقاليد الحكم في الدولة وكيف تعرض إلى عقاب قاسٍ جداً من الخليفة عثمان وصل إلى حد الضرب المبرح .

فهل لم يجد عثمان شخصاً آخر، غير عمار، ليرسله في المهمة المزعومة للتحقق من انتهاكات وتجاوزات واليه هو؟ وهل يعقل أن يختار عثمان شخصاً معادياً له إلى درجة كبيرة، ليشهده على نظافة حكمه وحُسن سياسة واليه، المشكوك في إسلامه، ابن أبي السرح؟

- وتضع هذه الرواية عبد الله بن سعد بن أبي السرح، المرتد القديم والحاكم الذي اشتهر بفساده وظلمه، في موقع الحريص على مصلحة المسلمين، والناصح الأمين لخليفة الإسلام، الساعي إلى مواجهة المؤامرة

اليهودية الشريرة التي يقودها ابن سبأ؟ وفي المقابل تضع الرواية عمار بن ياسر، الصحابي العريق الذي طالما تعذب على رمضاء مكة في سبيل الإسلام ورسوله، في موقع المناق: وراء اليهودي الخبيث، والداخل في دهايلز الخيانة والتآمر مع الأشرار على الخليفة البريء وواله المسكين؟

- ويبدو واضحاً مدى التصنع الظاهر في حشر اسم ابن سبأ بين مجموعة أسماء لأشخاص حقيقيين، كانت لهم مساهمات بقتل عثمان لاحقاً.

تحاشل الرواة على ابن أبي حذيفة

هكذا ورد تفسير عداء المحمدين لعثمان حسب روايات سيف بن عمر في تاريخ الطبري:

قال ان محمد بن ابي حذيفة كان يتيما في حجر عثمان «سأل عثمان العمل حين ولي. فقال: يا بني، لو كنت رضى ثم سألتني العمل لاستعملتك. ولكن لست هناك» فعند ذلك استأذنه محمد في الخروج من المدينة فأذن له وجهه. فذهب الى مصر وهناك انقلب على عثمان لأنه منعة الولاية.

وأما محمد بن ابي بكر فقال عنه ان «الغضب والطمع» دفعاه الى عداء عثمان وفسر ذلك «كان من الاسلام بالمكان الذي هو به وقره أقرام قطع. وكانت له دالة فلزمه حق. فأخذه عثمان من ظهره ولم يلحق. فاجتمع هذا الى هذا فصار مذبذباً بعد أن كان محمداً»

ويلاحظ هنا مدى الكره الذي يكنه سيف لابن ابي بكر الى حد لجوئه الى استعمال نفس اللقب القديم المشين الذي كانت تطلقه قريش على رسول الله (ص): مذمم!

واما ابن حجر العسقلاني في الاصابة فلم يذكر أسباباً لعداء ابن ابي حذيفة لعثمان ولا تفاصيل حول خلافاته مع ابن ابي السرح بمصر.

ولكنه تحدث عن قيام ابن ابي حذيفة بتزوير كتب ورسائل على لسان امهات المؤمنين في المدينة موجهة الى أهل مصر تشكو من الخليفة! فقد روى ان ابا عمر الكندي أخرج من طريق الليث عن عبد الكريم بن الحارث

الحضرمي «إن ابن أبي حذيفة كان يكتب الكتب على السنة أزواج النبي (ص) في الطمن على عثمان. كان يأخذ الرواحل فيحصرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم فيجعلهم على ظهور بيت في الحر، فيستقبلون بوجوههم الشمس، ليلوحهم تلويح المسافرين، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة، ثم يرسلوا رسلاً يخبروا بقدمهم. فيأمر بتلقيهم. فإذا أتوا الناس قالوا لهم: ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب! فيلقاهم ابن أبي حذيفة ومعه الناس فيقول لهم الرسل: عليكم بالمسجد، فقرأ عليهم الكتب من أمهات المؤمنين: إنا نشكو اليكم بأهل الاسلام كذا وكذا من الطمن على عثمان! فيضج أهل المسجد بالبكاء والدعاء»

وهكذا تصور هذه الرواية ابن أبي حذيفة ككذاب محترف. فهو ليس فقط يخترع أخباراً ملفقة وينسبها زوراً إلى أزواج النبي (ص)، بل إنه يعدّ مسرحاً كاملاً من أجل أن تتطلي أباطيله على أهل مصر: فهو يحضر دواباً فيجمعها لكي تهزل فيبدو عليها إعياء السفر الطويل، وهو يرتب مع رجال لكي يلفحوا وجوههم بالشمس فيظهروا بهيئة المسافرين، ويتفق معهم على القدوم من طريق المدينة، وأن يرسلوا من يخبر بقدمهم لأجل تشويق الناس، وأخيراً يقرأ كتبهم المزورة على رؤوس الأشهاد في المسجد !!

خلق ابن أبي السرح

هناك نوع من الغموض في الروايات التاريخية التي تتحدث عن كيفية سيطرة محمد بن أبي حذيفة وأصحابه على مصر، ومتى حدث ذلك بالتحديد. فقد روى البلاذري في أنساب الأشراف «فلما حوَّصر عثمان وثب محمد بن أبي حذيفة على عبد الله بن سعد، فطرده عن مصر، وصلى بالناس وتولى أمر مصر»

وقد أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق أخبار صراعات محمد بن أبي حذيفة في مصر، فقال عنه، نقلاً عن طبقات ابن سعد «وهو الذي وثب بثمان بن عفان وأعان عليه وحرَّض أهل مصر حتى ساروا إليه»

وروى عن أبي سعيد بن يونس أن محمد بن أبي حذيفة «كان أول من انتزى بمصر. انتزى على عقبة بن مالك، وكان خليفة عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر حين خرج وانفذ إلى عثمان. فأخرج عقبة عن القسطنطينة، فخلع عثمان بن عفان وتأمّر على مصر.... وكان يسمى ميشوم قرش»

ومن هذه الرواية يظهر أن محمداً نجح في استغلال غياب ابن أبي سرح عن مصر، فغلب على ناظه. كما روى عن شاهد عيان العزید من التفاصيل حول الصراع بين محمد وعقبة «كنت مع عقبة بن عامر جالساً قريباً من المنبر يوم الجمعة، فخرج محمد بن أبي حذيفة فاستوى على المنبر فخطب الناس، ثم قرأ عليهم سورة من القرآن - وكان من أقرأ الناس - فقال عقبة بن عامر: صدق الله ورسوله: إني سمعتُ رسول الله (ص) ليقرآن رجالاً لا يجاوز تراقيهم يعرقون من الدين كما يعرق السهم من الرمية!

زاد ابن عثمان: قسمها ابن أبي حذيفة فقال: والله لئن كنت صادقاً - واتك ما علمت لكتوب - إنك منهم»

وهذه الرواية توضح مدى اتفاق محمد للقرآن وتأثيره على الناس بما يفوق نائب ابن أبي سرح.

ويروي ابن حجر في الإصابة عن أبي عمر الكندي أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد خرج من مصر متوجهاً إلى عثمان «لما قام الناس عليه، فطلب أمراء الأمصار، وذلك في رجب سنة 35، واستأب عقبة بن عامر ... فوثب محمد بن أبي حذيفة على عقبة بن عامر فأخرجه من مصر، وذلك في شوال من عام 35، ودعا إلى خلع عثمان وأسر البلاد وحرض الناس على عثمان»

كما روى عن عبد العزيز بن عبد الملك السليحي عن أبيه بعض التفاصيل حول الصراع بين محمد وعقبة «كنت مع عقبة بن عامر قريباً من المنبر، فخرج ابن أبي حذيفة فخطب الناس، ثم قرأ عليهم سورة - وكان قارئاً - فقال عقبة: صدق رسول الله (ص): ليقرآن القرآن ناس لا يجاوز تراقيهم.

فسمعه ابن أبي حذيفة فقال: إن كنت صادقاً إنك منهم»

وهذه تشبه رواية ابن عساكر السابقة التي توضح مدى اتقان محمد للقرآن وتأثيره على الناس

وتابع ابن حجر من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب «بأنه أمر مصر محمد بن أبي حذيفة بالإمارة إلا عصاة منهم معاوية بن حديج وسر بن أرطاة، فقدم عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ القلزم وجد هناك خيلاً لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل، فانصرف إلى عسقلان».

وذكر ابن الأثير في أسد الغابة أن الذي استخلفه ابن أبي السرح هو هشام بن عمرو إلى أن أزاله عنها ابن أبي حذيفة.

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة ابن أبي السرح «وغيره الصواري في البحر من أرض الروم سنة 34، ثم قدم على عثمان. واستخلف على مصر السائب بن هشام بن عمرو العامري، فانتزى عليه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فخلع السائب وتأثر على مصر. ورجع عبد الله بن سعد من وفادته فمنعه ابن أبي حذيفة من دخول القسطنطينية...»

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة موقف ابن أبي حذيفة مع عقبة بن عامر (دون الإشارة إلى أنه كان الذي استخلفه ابن أبي السرح على مصر). فروى عن حرملة بن عبد العزيز عن أبيه «كان محمد بن أبي حذيفة يخطب، وكان أقرأ الناس للقرآن. فقال عقبة بن عامر: صدق الله ورسوله! سمعتُ رسول الله (ص) يقول: يقرأ القرآن قوم لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. قال: لئن كنت سمعت هذا من رسول الله (ص) تزعم أنك... لكتوب، أنك ما علمتُ لعنتهم»

كما روى عن سلمة بن مخزوم «لما انتزى ابن أبي حذيفة بمصر، فخلع عثمان، دعا الناس إلى أعطياتهم، فأبى أن يأخذ منه. قال: ثم ركب إلى المدينة فصرّت إلى عثمان فقلت: يا أمير المؤمنين إن ابن أبي حذيفة إمام حلال له كما علمت. وإنه انتزى علينا بمصر فدعانا إلى أعطياتنا فأبى أن يأخذ منه. فقال: عجزت إنما هو حقل. عجزت إنما هو حقل»

والأرجح هو أن ثورة محمد بن أبي حذيفة ومن معه، وخطمهم لابن أبي

السرْح قد حصلت في أثناء فترة الشهور القلائل التي كان فيها عثمان مُحاصراً إلى أن قتل. ربما كانت الأخبار الواردة من المدينة في تلك الأثناء مضطربة ومشوشة بحيث أثارت اضطراب ابن أبي السرح وأفقده توازنه. من المحتمل أن ابن أبي السرح قد وصلته أخبار قتل عثمان وبِيعَة عليّ ففزع وعرف أنه ليس فقط سيفقد منصبه، وإنما قد يصبح مطلوباً للعقاب من قبل الخليفة الجديد على ما اقترفه من تجاوزات أثناء ولايته الطويلة. لا شك أن ابن أبي السرح كان يعرف علياً حق المعرفة، ويعرف صرامته في الحق، وربما قدر أن علياً سيكون كله آذاناً صاغية لكل من له شكوى أو مظلمة ضده.

مصير ابن أبي حذيفة

قال الطبري في تاريخه:

«اختلف أهل السير في وقت مقتله فقال الواقدي قتل في سنة 36. قال وكان سبب قتله أن معاوية وعمرا سارا إليه وهو بمصر قد ضبطها فتزلا بعين شمس فعالجا الدخول فلم يقدرا عليه فخذها محمد بن أبي حذيفة على أن يخرج في ألف رجل إلى العريش فخرج وخلف الحكم بن الصلت على مصر فلما خرج محمد بن أبي حذيفة إلى العريش تحصن وجاء عمرو فنصب المجانيق حتى نزل في ثلاثين من أصحابه فأخذوا فقتلوا قال وذلك قبل أن يبعث على إلى مصر قيس بن سعد .

وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه ذكر أن محمد بن أبي حذيفة إنما أخذ بعد أن قتل محمد بن أبي بكر ودخل عمرو بن العاص مصر وغلب عليها وزعم أن عمرا لما دخل هو وأصحابه مصر أصابها محمد بن أبي حذيفة فبعثوا به إلى معاوية وهو بفلسطين فحبسه في سجن له فمكث فيه غير كثير ثم إنه هرب من السجن وكان ابن خال معاوية فأرى معاوية الناس أنه قد كره انفلاته فقال لأهل الشام من يطلبه قال وقد كان معاوية يحب فيما يرون أن يتجنوا فقال رجل من خشم يقال له عبد الله بن عمرو بن غلام وكان رجلاً شجاعاً وكان عثمانياً أنا أطلبه فخرج في حاله حتى لحقه بأرض البلقاء ببحوران وقد دخل في غار هناك فجاءت حمر تدخله وقد أصابها المطر فلما رأت الحمر الرجل

في الغار فزعت ففطرت فقال حصادون كانوا قريبا من الغار والله إن لنفر هذه
الحمر من الغار لثأنا فقموا لينظروا فإذا هم به فخرجوا ورواقتهم عبد الله بن
عمر بن غلام الخثعمي فسألهم عنه ووصفه لهم فقالوا له ها هوذا في الغار
قال فجاء حتى استخرجه وكره أن يرجعه إلى معاوية فيخلى سبيله فضرب
عنقه^(١)

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أن محمد بن أبي حذيفة قتل بفلسطين
سنة 36، وكان ممن أخرجه معاوية في الرمن من مصر^٢
وروى ابن حجر في الإصابة أنه بعدما قتل عثمان:

فلما علم بذلك من امتنع من مبايعة بن أبي حذيفة اجتمعوا وتبايعوا
على الطلب بدمه. فسار بهم معاوية بن حذيف إلى الصعيد. فأرسل إليهم بن
أبي حذيفة جيشا آخر فالتقوا فقتل قائد الجيش.

ثم كان من سير معاوية بن أبي سفيان إلى مصر لما أراد السير إلى
صفين فرأى ألا يترك أهل مصر مع ابن أبي حذيفة خلفه فسار إليهم في عسكر
كثيف. فخرج إليهم ابن أبي حذيفة في أهل مصر فممنوعه من دخول القسطنطينية.
فأرسل إليهم إننا لا نريد قتال أحد وإنما نطلب قتلة عثمان.

فصار الكلام بينهم في المواقعة. واستخلف بن أبي حذيفة على مصر
الحكم بن الصلت بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف وخرج مع جماعة
منهم عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة بن الصباح
فلما بلغوا به خبر بهم عسكر معاوية وسجنوهم إلى أن قتلوا بعد ذلك.

وذكر أبو أحمد الحاكم أن محمدا بن أبي حذيفة لما ضبط مصر وأراد
معاوية الخروج إلى صفين بدأ بمصر أولا فقاتله محمد بن أبي حذيفة بالعريش
إلى أن تصالحا وطلب منه معاوية ناسا يكونون تحت يده وهما ليأمن جانبهم

(١) وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نفس الرواية الثانية للطبري، التي
تحدثت عن لجوء ابن أبي حذيفة إلى الغار وضرب عنقه على يد ابن غلام، نقلًا عن
المدائني. وحسب هذه الرواية يكون محمد بن أبي حذيفة قد بقي لما بعد محمد بن
أبي بكر.

إذا خرج إلى صفين فأخرج محمد رهنا حلقتهم ثلاثون نفساً فأحيط بهم وهو فيهم فسجنوا

وقال أبو أحمد الحاكم خلع معاوية محمد بن أبي حنيفة حتى خرج إلى العرش في ثلاثين نفساً فحاصره ونصب عليه المنجنيق حتى نزل على صلح فحبس ثم قتل

وأخرج بن عازد من طريق بن لهيعة عن يزيد بن حبيب قال فرقههم معاوية بصفين فسجن بن أبي حنيفة ومن معه في سجن دمشق وسجن بن عديس والباقي في سجن بعلبك....

واختلف في وفاته فقال بن قتية قتله رشدين مولى معاوية وقال بن الكلبي قتله مالك بن هيرة السكوني

فمحمد بن أبي حنيفة ذهب ضحية فخر معاوية حسب أغلب الروايات.

علاقة ابن أبي حنيفة بالامام علي

كان محمد بن أبي حنيفة شيعياً، ولا جدال في ذلك. والمصادر الشيعية تذكره بكل خير وتقول بأن الامام علياً قد أثبت على ولاية مصر لما تولى. فمثلاً قال عنه الحر العاملي في وسائل الشيعية «مشكور. قاله العلامة. وقال الشيخ: كان عامل علي عليه السلام على مصر. وروى الكشي مدحه». وورد في رجال الطوسي أنه كان عامل الامام علي على مصر

ورغم أن المشهور لدى المؤرخين هو ان الذي عينه الامام علي على ولاية مصر لما تولى كان قيس بن سعد بن عباد الانصاري، إلا أنه توجد روايات تقول بأنه كان قد أقر ابن أبي حنيفة فترة قليلة قبل ذلك. فمثلاً قال ابن كثير في البداية والنهاية ان محمد بن أبي حنيفة «كان قد تغلب على مصر، وأخرج منها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، نائب عثمان بعد عمرو بن العاص. فأقره عليها علي مدة يسيرة ثم عزله بقيس بن سعد»

وقال ابن حجر المصقلاني في الاصابة «... وذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن علياً لما ولي الخلافة أقر محمد بن أبي حنيفة على إمرة مصر ثم

ولما محمد بن أبي بكر. وهنا يبدو ابن حجر قد أخطأ بذكر محمد بن أبي بكر مباشرة بعد ابن أبي حذيفة، فهو قد نسي قيس بن سعد.

وأخذنا بعين الاعتبار أنه في الفترة المضطربة التي تولى فيها الإمام علي الخلافة كان ابن أبي حذيفة متغلباً على مصر بالفعل، لا يمكن الجزم بأنه قد عين بالفعل من قبل الإمام علي. فلا يوجد ذكر لحادثة توليته ثم عزله عند معظم المؤرخين. كما لا يوجد سبب محدد يدفع الإمام علياً لتعيينه لتلك الفترة القصيرة جداً ثم استبداله. ولكن ربما هو قام بدور القائم بتصرف الأعمال في مصر إلى حين وصول الوالي الرسمي للإمام علي وهو قيس بن سعد.

ويخلاف محمد بن أبي بكر الذي تربى في بيت علي بن أبي طالب وكان أخاً لأبناء جعفر بن أبي طالب من جهة الأم، لا توجد أدلة كثيرة على علاقة مباشرة وتواصل بين الإمام علي ومحمد بن أبي حذيفة. بل على العكس من ذلك: فابن أبي حذيفة تربى في بيت عثمان بن عفان.

ولكن ينبغي القول بأن ابن أبي حذيفة لم يكن أول حالة لشخصية «أموية» النسب تشيع لعلي بن أبي طالب وتتخلى عن انتمائها العائلي في سبيل ذلك. فقبله كان خالد بن سعيد بن العاص.

وفي حالة محمد بن أبي حذيفة أتنا أرجح أن صداقته لمحمد بن أبي بكر، وقربه منه، جعله يتأثر بأفكاره فيقلب انتماءه وولاه من قريه وربيه عثمان الى علي.

وقد وجدتُ نصاً يتحدث عن رسالة من محمد بن أبي حذيفة إلى الإمام علي. فقد روى الطبري في تاريخه عن الواقدي:

«كان محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة بمصر يحترسان علي عثمان. فقام محمد بن أبي بكر وأقام محمد بن أبي حذيفة بمصر».

فلما خرج المصريون خرج عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وأظهروا أنهم يريدون العمرة. وخرجوا في رجب.

ويعث عبد الله بن سعد رسولاً سار إحدى عشرة ليلة يخبر عثمان أن ابن عديس وأصحابه قد وجهوا نحوه، وأن محمد بن أبي حذيفة شيعهم إلى عجرود ثم رجع.

وأظهر محمد أن قال: خرج القوم حُمَاراً. وقال في السر: خرج القوم إلى إمامهم فإن نزع وإلا قتلوه.

وسار القوم المنازل لم يعدوها حتى نزلوا ذا خشب.

وقال عثمان قبل قدومهم حين جاءه رسول عبد الله بن سعد: هؤلاء قوم من أهل مصر يريدون يزعمهم العمرة، والله ما أراهم يريدونها ولكن الناس قد دخل بهم وأسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمري. أما والله لئن قارتهم ليشنون أن عمري كان طال عليهم مكان كل يوم سنة مما يرون من الدماء المسفوكة والاحن والاثرة الظاهرة والاحكام المنيرة.

قال: فلما نزل القوم ذا خشب جاء الخير أن القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع. وأتى رسولهم إلى علي ليلاً، وإلى طلحة وإلى عمار بن ياسر. وكتب محمد بن أبي حذيفة معهم إلى علي كتاباً، فجاءوا بالكتاب إلى علي فلم يظهر على ما فيه. فلما رأى عثمان ما رأى جاء علياً فدخل عليه بيته فقال: يا ابن عم: إنه ليس لي مترك وإن قرابتي قريبة ولي حق عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب إليهم فتدعم عني...

ورغم أن هدف هذه الرواية الظاهر هو إثبات مسؤولية ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر عن إرسال المتطرفين على عثمان من مصر إلى المدينة، إلا أن فيها ما يشير إلى تواصل مباشر بين ابن أبي حذيفة والامام علي، رغم أنها لم تظهر محتوى الكتاب.

مصير ابن أبي السرح

هناك عدم وضوح فيما يختص بعبد الله بن سعد بن أبي السرح ومصيره عقب مقتل عثمان.

روى البلاذري في انساب الأشراف أنه بعد أن سيطر ابن أبي حذيفة على مصر أثناء حصار عثمان قام بطرد ابن أبي السرح من مصر.

«فصار عبد الله بن سعد إلى فلسطين ثم لحق بمعاوية، ثم إنه صار بعد ذلك إلى إفريقية فيقتل بها. ويقال: مات بفلسطين وكان قد أقام بها. وكان موته في آخر خلافة علي»

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة ابن أبي السرح أنه بعد أن منع ابن أبي حذيفة ابن أبي السرح من العودة إلى مصر.. فمضى إلى عسقلان، فأقام بها حتى قتل عثمان رضي الله عنه. وقيل: بل أقام بالرملة حتى مات فأثراً من الفتنة»

وقال ابن خلدون في تاريخه:

«وخرج عبد الله من مصر مدداً لثمان فخالفه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة إلى مصر وانتزى بها ورجع عبد الله من طريقه فمنعه الدخول فصار إلى عسقلان وأقام بها حتى قتل عثمان ثم سار إلى الرملة وكانت من مهماته فأقام بها هرباً من الفتنة حتى مات ولم يبايع علياً ولا معاوية»

وروى ابن حجر في الإصابة: «بايع أهل مصر محمد بن أبي حذيفة بالإمارة لأن عصاية منهم معاوية بن حذيج ويسر بن أوطاة، فقدم عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ القلزم وجد هناك خيلاً لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل، فأنصرف إلى عسقلان».

وحسب هذه الرواية فإن ابن أبي السرح يكون قد قرر الذهاب إلى معاوية بعد خلعهم من مصر. وهذه الرواية ممكنة لأنه لم ترد أية روايات تفيد بوجود مقاومة لدخول والي عليّ المعين، قيس بن سعد، إلى مصر بعد فترة قصيرة. إذ لو كان ابن أبي السرح مسيطراً على مصر لما سمح لقيس بن سعد بدخولها يفسر..

وليس لابن أبي السرح ذكرٌ مؤكد في أحداث الصراع الدامي الذي دار بين معاوية وعليّ.. رغم أنه يوجد له ذكر لدى الدينوري في الأخبار الطوال ضمن الأشخاص الذين استشارهم معاوية حول التخليع بين جيش العراق وماء الفرات لما وصلوا صفين.

ولكن الأرجح انه مات بفلسطين في بداية تلك الأحداث، خاصة انه ولا شك كان طاعناً في السن، في السبعينات من عمره حتماً. فهو كان قد ارتد في بداية بعثة الرسول (ص)، أي انه كان رجلاً ناضجاً قبل حوالي 55 عاماً من سنة 35 للهجرة. وبذلك يكون ولا شك في أواخر عمره عند مقتل عثمان.

ويقول ابن حجر في الإصابة أن ابن أبي السرح مات في عسقلان (وقيل الرملة) سنة 36 للهجرة. رغم أنه ذكر رواية أخرى تفيد أنه عاش إلى سنة 57، وحتى 59، للهجرة. وذكر ابن الأثير في أسد الغابة انه مات بعسقلان سنة 36 أو 37 رغم أن هناك من روى أنه عاش إلى آخر أيام معاوية.

الفصل الثاني: التمرد في العراق⁽¹⁾

كما في كل مكان وزمان، لا يمكن أن يُعزى التمرد على السلطة والخليفة إلى سبب واحد بعينه أو إلى حادثة محددة. فالثورة تكون نتاج عوامل كثيرة تراكم حتى تصل إلى نقطة الانفجار. وهذا ما حصل في العراق.

فبالإضافة إلى ما ذكرناه بشأن نوعية الولاة الذين عينهم عثمان، والمآخذ الكثيرة على خلفياتهم وسلوكهم الشخصي، تدل كل المؤشرات على أن السياسة الاقتصادية لعثمان وولائه كانت محل نقمة وسبباً لغضب عامة المسلمين. خاصة وأنه كان هناك توجه واضح للاستئثار بالأراضي والمزارع العراقية من قبل الطبقة الأموية الحاكمة وأتباعها كما تقدم. ومن المؤكد أنه لم يكن هناك رضى من الناس عما يرونه من نهب للخيرات تمارسها بطانة الولاة الأمويين.

ومن الطبيعي أن تكون تلك التطورات مثار سخط وخطب لدى قطاع عريض من العرب المقيمين في الكوفة خاصة، منذ فترة طويلة، من أيام الفتح الأول. فأبناء القبائل العربية هناك كانوا يعتبرون أنفسهم، هم دون غيرهم، من قاموا بخوض القتال ضد جيوش الفرس حتى حققوا النصر والفتح، بعد أن قدموا التضحيات الجسام في سبيل ذلك. كانوا يرون أنهم يسوفهم وحوافر

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 21 ص 12)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 5 ص 32)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 361-368 و ص 369)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج 3 ص 1141 و ص 1142)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 6 ص 151-152 و ص 153-154 و ص 155)، كتاب الفتح لابن أحمم (ج 2 ص 384-385 و ص 387-388 و ص 391)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج 7 ص 440)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 134 و ص 185)

خيّلهم، ودماء إخوانهم وآبائهم، هزموا جيوش فارس في القادسية ونهاوند.
وهم الآن يرون القرشيين يسرون باتجاهٍ خطيرٍ جداً، ومضّرٍ بمصالحهم، وهو
الهيمنة على ثروات العراق الاستثارة بها، دونهم. فالأموال تجبى من أراضي
العراق وترسل إلى كبار الأثرياء القرشيين في المدينة المنورة.

وربما كان عدد من سكان العراق العرب لا يمانعون أن يستفيد من
الثروات الناتجة عن الفتوحات أشخاص ذوو ماضٍ إسلاميٍ مجيد، ممن
صحبوا رسول الله (ص) وخاضوا الجهاد معه. ولكن لا شك أن قيام أبناء قبيلة
قريش، والبطن الأموي خاصة، بمن ليست لهم سابقة ولا فضل في الإسلام،
أو ممن امضوا جلّ حياتهم في عداوة رسول الله (ص)، بانتزاع الملكيات
الضخمة في العراق دون وجه حق ولا أهلية، كان يسبب للمقاتلين المستقرين
في العراق المأزقَ عظيمًا. فهم يرون حقهم يضيع أمام أعينهم، وكان لا
بد لذلك أن يؤدي إلى حركة رفض وتمرد، خاصة وأن الخليفة لا يفعل شيئاً
ليوقف تلك الموجة، بل كان هو مسببها والمروج لها.

الكوفة تضطرب

تقييم سعيد بن العاص لأحوال الكوفة

بعد فترةٍ قصيرةٍ من وصوله إلى الكوفة، بعد تعيينه والياً، كتب سعيد بن
العاصٍ تقريراً إلى عثمان حول تقييمه لأوضاع أهلها وأحوالها
وفيما يلي رواية سيف بن عمرٍ بشأن قدوم سعيد والياً كما ذكرها ابن
عساکر في تاريخ دمشق وفيها يظهر تقييمه لأوضاع الكوفة:

فقصص سعيد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه

فقال: والله لقد بُعثت إليكم وائى لكاره. ولكن لم أجد بدأ إذا أمرت أن

أتمر

إلا أن الفتنة قد أطلعت عظمها وصيها. والله لأضربن وجهها حتى
أتمعها أو تعيني الله. وائى لرائد نفسي اليوم.

ونزل، فسأل عن أهل الكوفة فأقيم على حال أهلها

فكتب إلى عثمان بالذي انتهى إليه: أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم
وغلّيب أهل الشرف فيهم والبيوتات والسابقة والقدمة. والغالب على تلك
البلاد روافد ردف وأحزاب لحقت

فلو وأحق طاعتنا حتى ما ننظر إلى ذي شرف فلا بلاء من نازلتها ولا
نايتها.»

وإذا تجاوزنا شكلات نصوص سيف بن عمر التي هي دائماً موجّهة
للدفاع عن عثمان وقراراته (كلامه عن الوالي المجتهد الذي يريد أن يجمع
الفتنة...) يمكننا بوضوح أن نتعرف إلى رؤية الوالي الأموي الجديد لحال
الكوفة: علا فيها شأن الأويش، الذين غير عنهم يروادف ردف وأحزاب
لحقت، وهي بالتالي بحاجة إلى سياسة تعيد الأمور إلى نصابها فلا بد له من
وضع حدّ لأولئك «العامة» الذين صاروا «يتناولون» على الأسياد.

يتابع رواية سيف:

«فكتب إليه عثمان: أما بعد، ففضّل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله
عليه تلك البلاد. وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلا أن يكونوا تناقلوا عن
الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكل منزله، وأعطهم جميعاً
بسطهم من الحق. فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل»

وهذا الكلام ليس ببعيد عن عثمان، وخاصة فكرة الحفاظ على المقامات.

يتابع سيف «فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل الأيام والقاصية
فقال: أنتم وجوه من ورائكم، والوجه ينسب عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي
الحاجة وخلة ذي الخلة. وأدخل معه من يحتمل ذلك من اللواحق والروادف.

وخلص بالفراء والمتشتمين في سمره»

ويستفاد من هذه الفقرة أن سعيداً بدأ يرسّي قواعد سياسة جديدة في
الكوفة قوامها إعادة الاعتبار إلى الزعماء والأشراف والوجهاء وتقريبهم إلى
السلطة، وذلك على حساب الفئات الهامشية من القادمين الجدد وأهل الذمة
وغيرهم ممن قربهم إليه الوليد بن عقبة.

ولكن ينبغي الإشارة إلى أن الاختلاف في السياسة بين الوالين الأمويين الوليد وسعيد ناتج عن المسلك الشخصي لكليهما أكثر من كونه تعبيراً عن فكر أو توجه سياسي. فالوليد كان فاسقاً ومتهتكاً ولذلك قُرب إليه فئات من الموالى والخلعاء بعيداً عن صرامة الأشراف والوجهاء. فليس الأمر أن الوليد كان صاحب سياسة متعاطفة مع الطبقات الأدنى أو أكثر عدالة كما قد يتوهم البعض. فلو وجد الوليد ضالته في الأشراف والقراء، ولو سايره هؤلاء في نزواته وسمره، لما تردد في جعلهم خلصائه وخاصة.

ويتابع سيف «فكانما كانت الكوفة بيتاً شملته نار فانقطع إلى أولئك الضرب فبرهم وفشت القالة والأفاعه».

وكتب سعيد إلى عثمان بذلك. فتأدى منادى عثمان: الصلاة جامعة. فاجتمعوا فأخبرهم بالذي كتب إليه سعيد وبالذي كتب به إليه فيهم، وبالذي جاءهم به من القالة والأفاعه.

قالوا: أصبغت فلا تعفهم من ذلك ولا تطعمهم فيما ليسوا له بأهل، بأنه إذا نهض في الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها

فقال عثمان: يا أهل المدينة استعملوا واستمسكوا فقد دنت اليكم الفتنة.

ونزل فأوى إلى منزله وتمثل مثله ومثل هذا الضرب الذين أسرعوا في

الخلاف

أبني عبيد قد أتى أشياحكم عنكم مقاتلكم وشعر الشاعر

فإذا أتاكم هذه فتلبسوا أن الرماح بصيرة بالحاسر»

وأما ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد اختصر الكلام عن مشاكل سعيد لدى تعيينه في الكوفة، فقال :

«... سعد المنبر فخطب أهل الكوفة وتكلم بكلام قصر بهم فيه ونسبهم

إلى الشقاق والخلاف. فقال إنما هذا السواد بستان لأخيلة من قريش»

فشكوه إلى عثمان، فقال: كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن

نمزله»

وأضاف ابن سعد عن سياسة الوالي الجديد «ثم انصرف سعيد بن العاص الى الكوفة فأعثر بأهلها إضراراً شديداً»

ورغم أن رواية ابن سعد هذه لا تفصل أسباب الخلاف بين الوالي وأهل الكوفة، إلا أنها تفيد في إظهار الدعم الذي تلقاه سعيد من الخليفة الذي رفق بالاستجابة لمطالب الكوفيين. ويظهر من جواب عثمان «كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نعلمه» نوع من الملل الممزوج بالغضب: فعثمان يجد نفسه مطالباً بعزل سعيد بعد فترة وجيزة من عزله الوليد بن عقبة! وهو لا يستخ ذلك.

أما هذا السواد بستان لقريش

يمكن القول إن العبارة الشهيرة لسعيد بن العاص «إنما هذا السواد بستان قريش» هي تلخيص دقيق لمجمل السياسة العثمانية في العراق. وعلى الرغم من أن هذه الكلمة قد صدرت بكثرة لسان من الوالي، إلا أنها أثارت استياء شديداً لدى الكوفيين، وكان لها وقع بالغ السلبية في أوساطهم. ولا شك أنها لامت وترأ حساساً لديهم خاصة وهم يرون واقعاً التطبيق العملي لتلك السياسة «القرشية».

وقد أخرج الطبري في تاريخه روايتين حول المشكلة التي حدثت في الكوفة وأدت الى نفي مجموعة من شخصياتها، ضمن أحداث سنة 33 للهجرة. الأولى هي لسيف بن عمرو والثانية للواقدي.

وسوف يأتي الحديث عن رواية سيف.

وأما رواية الواقدي فهي اصح. تقول «قدم سعيد بن العاص الكوفة، فجعل يختار وجوه الناس، يدخلون عليه ويسمرون عنده. وإنه سمر عنده ليلة وجوه أهل الكوفة منهم: مالك بن كعب الأرحبي، والاسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، وفيهم مالك الأشتر في رجال».

فقال سعيد: إنما هذا السواد بستان لقريش!

فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أقامه الله علينا بأسافنا بستان لك ولقومك؟! والله ما يزيد أوفاكُم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا.

وتكلم معه القوم.

فقال عبد الرحمن الأسدي - وكان على شرطة سعيد- اتردون على الأمير مقاتله؟ وأغلظ لهم..

فقال الأشتر: من ههنا، لا يفوتكم الرجل: فوثبوا عليه فوطؤوه وطأ شديداً حتى شفي عليه. ثم جثرت برجله فالتقى، فتضح بماء فأفاق.

فقال له سعيد: أبك حياة؟

فقال: قتلتني من انتخبت زعمت للإسلام.

فقال: والله لا يسر منهم عندي أحد أبداً.

فجعلوهم يجلسون في مجالسهم ويوتهم، يشتمون عثمان وسعيداً. واجتمع الناس اليهم حتى كثر من يختلف اليهم.

فكتب سعيد الى عثمان يخبره بذلك. يقول ان رطاً من أهل الكوفة سماهم له عشرة يؤليون ويجتمعون على عيك وحسي والطنن في ديتنا. وقد خشيت ان ثبت أمرهم ان يكثروا.

فكتب عثمان الى سعيد ان سيرهم الى معاوية. ومعاوية يومئذ على الشام. فسيرهم وهم تسعة نفر الى معاوية: فيهم مالك الأشتر وثابت بن قيس بن مثع وكميل بن زياد النخعي وصمصمة بن صوحان.

وفيما يلي رواية أبي مخنف حسب ابن شبة النعمري في تاريخ المدينة:

فكتب سعيد بن العاص الى عثمان رضي الله عنه: ان قبلي قوماً يدهون القراء، وهم سفهاء، وثبوا على صاحب شرطتي، فضرروه ظالمين له، وشتموني، واستخفوا بحقي. منهم: عمرو بن زرة، وكميل بن زياد، ومالك بن الحارث، وحر قوص بن زهير، وشريح بن أبي أوفى، ويزيد بن مكثف، وزيد وصمصمة ابنا صوحان⁽¹⁾، وجندب بن زهير.

(1) وقد وصف الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (ج 7 ص 440) أحد أهم المعارضين، وهو زيد بن صوحان، بأوصاف تنبع عن شخصية بليغة وروعة. فبعد ان ذكر انه فقد يده في الجهاد قال فكان زيد بن صوحان يقوم الليل ويصوم النهار، وقال ان حياته الشديدة تلك دفعت الصحابي الكبير سلمان الفارسي الى التدخل لكي يقتله بأن يرفق بنفسه ويؤذي حتى زوجته عليه.

فكتب عثمان رضي الله عنه الى الذين سماهم: أن يأتوا الشام، ويفزروا مغازيها.

وكتب الى سعيد: اني قد كتبتك مؤونتهم؛ فأقرأهم كتابي هذا فإنهم لا يخالفون إن شاء الله. وعليك بتقوى الله وحسن السيرة.

فأقرأهم سعيد الكتاب؛ فشخصوا الى دمشق....»

وكما هو ظاهر تخلو رواية أبي مخنف من ذكر السبب الذي جعل «القراء» يهاجمون صاحب شرطة سعيد.

ونجد عند البلاذري في أنساب الأشراف، من طريق أبي مخنف، رواية أفضل وأوفى مما سبق:

«لما عزل عثمان بن عفان رضي الله عنه الوليد بن عقبة عن الكوفة ولأها سعيد بن العاص وأمره بمداواة أهلها. فكان يجالس قراءها ووجوه أهلها ويسامرهم؛ فيجتمع عنده منهم:

مالك بن الحارث الأشتر النخعي

وزيد وصعصة ابنا صوحان العبدان

وحرقرص بن زهير السعدي

وجندب بن زهير الأزدي

وشريح بن أوفى بن يزيد بن زاهر العبسي

وكعب بن عتبة النهدي - وكان يقال لعبدة بن سعد ذو الحبكة، وكان كعب ناسكاً وهو الذي قتله بسر بن أرطاة بثليث -

وعدي بن حاتم الجواد بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، ويكنى أبا طريف

وكدام بن حضرمي بن عامر، أحد بني مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمه

ومالك بن حبيب بن خراش، من بني ثعلبة بن يربوع
وقيس بن عطار بن حاجب بن زروارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن
دارم

وزياد بن خصفة بن ثقف، من بني تميم الله بن ثعلبة بن عكابة
وزيد بن قيس الأرحبي
وغيرهم

وقد حرصتُ على إثبات الأسماء هنا. وسوف أخصص فصلاً للحديث
بشأنها.

يتابع أبو مخنف «فلأنهم لعنده وقد صلوا العصر إذ تذكروا السواد
والجبيل، ففضلوا السواد وقالوا: هو ما ينبت الجبل، وله هذا النخل
وكان حسان بن محبوب بن بشر بن حوط بن سعة الفهلي الذي ابتدا
الكلام في ذلك.

فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي، صاحب شرطه: لوددتُ أنه
للأمير، وأن لكم أفضل منه.

فقال له الأشتر: تمنّ للأمير أفضل منه، ولا تمنّ له أموالنا!
فقال عبد الرحمن: ما يضرك من تمنّي حتى تزوي ما بين عينيك؟ فوالله
لو شاء كان له!

فقال الأشتر: والله لو رام ذلك ما قدر عليه.
فغضب سعيد وقال: اتما السواد بستاناً لقريش.
فقال الأشتر: أتجعل مراكز ومأخذاً وما أنقاه الله علينا بستاناً لك ولقومك؟
والله لو رامه أحد لقرع قرعاً يتصاحأ منه!
ووثب بابن خنيس فأخذته الأيدي.

فكتب سعيد بن العاص بالملك إلى عثمان وقال: إني لا أملك من الكوفة
مع الأشتر وأصحابه الذين يدهون القرع - وهم السفهاء - شيئاً

فكتب اليه أن سيرهم الى الشام، وكتب الى الأشر: إني لأراك تضر
شيئاً لو أظهرته لحلّ ذلك، وما أظنك متعباً حتى تصيبك قارعة لا يثقي بعدها.
فلذا اتاك كتابي هذا فيسير الى الشام لإنقاذك من قبلك وأنك لا تألوهم غيلاً.

فسير سعيد الأشر ومن كان وثب مع الأشر وهم:

زيد وصعصعة ابنا صوحان

وعائذ بن حملة الطهري، من بني تميم

وكميل بن زياد النخعي

وجندب بن زهير الأزدي

والحارث بن عبد الله الأعرور الهملاني، من بني حوف بن سبغ بن

صعب، إخوة السبغ بن سبغ بن صعب

وزيد بن المكفف النخعي

وثابت بن قيس بن المنعم بن الحارث النخعي

وأصغر بن قيس بن الحارث بن وقاص الحارثي، من بني المعقل.^١

ويخلاف رواية ابن شبة والطبري تذكر رواية البلاذري هذه السبب الذي

جعل سعيد بن العاص يتفوّه بذلك الكلام المتعجرف المتعالي عن هيمنة
قريش ويستأنها. وتسلسل الكلام في الرواية منطقي ومقبول.

ولكن أتم الروايات وأحسنها نجدها لدى ابن أعمش الكوفي في كتاب
الفتوح. فقد روى بإسناده الجمعي^(١): «فيما سعيد بن العاص ذات يوم في
مسجد الكوفة وقت صلاة العصر وعنده وجوه أهل الكوفة إذ تكلم حسان بن
محدوج الدهلي فقال: والله إن سهلنا لخير من جبلنا.

فقال عدي بن حاتم: أجل، السهل أكثر برا وخصبا وخيرا.

فقال الأشر: وغير هذا أيضا، السهل أنهاره مطردة ونخله باسقات، وما

من فاكهة ينبت في الجبل إلا والسهل ينبتا، والجبل خور وعمر يحفي الحافر،

(١) تفاصيل الاستاد الجمعي لدى ابن أعمش سبق ذكرها في هذا الكتاب.

وصخره يعمي البصر ويحبس عن السفر، وليلتنا هذه لا ترى فيها ثلجا ولا قرا شديدا .

قال: فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي صاحب شرطة سعيد بن العاص: هو لعمرى كما تذكرون، ولوددت أنه كله للأمير ولكم أفضل منه ! فقال له الأشتر: يا هذا ! يجب عليك أن تمنى للأمير أفضل منه ولا تمنى له أمورا، فما أقدرك أن تتقرب إليه بشئ هذا .

فقال عبد الرحمن بن خنيس: وما يضرك من ذلك يا أشتر ؟ فوالله ! إن شاء الأمير لكان هذا كله له !

فقال له الأشتر: كتبت والله يا بن خنيس ! والله إن لو رام ذلك لما قدر عليه، ولو رمت أنت لفزعت دونه فزعا يذل ويخشع .

قال: فغضب سعيد بن العاص من ذلك، ثم قال: لا تغضب يا أشتر ! فإنما السواد كله للقرش فما نشاء منه أدخلنا وما نشاء تركنا ! ولو أن رجلا قدم فيه رجلا لم يرجع إليه، أو قدم فيه يدا لقطعتهما .

فقال له الأشتر: أنت تقول هذا أم غيرك ؟

فقال سعيد بن العاص: لا بل أنا أقوله ؛

فقال الأشتر: أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأساننا بستاننا لك وقومك ؟ والله ! ما يصيبك من العراق إلا بكل ما يصيب رجلا من المسلمين .

قال: ثم التفت الأشتر إلى عبد الرحمن بن خنيس فقال: وأنت يا عدو الله ممن يزين له رأي في ظلمنا والتعدي علينا لكون ولاك الشرطة . قال: ثم مد الأشتر يده فأخذ حائل سيف ابن خنيس فجلبه إليه وقال: دونكم يا أهل الكوفة ! هذا الفاسق فاقطعوه حتى لا يكون للمجرمين ظهير .

قال: فأخذته الأيدي حتى وقع لجنبه ثم جرؤا برجله، فوثب سعيد بن العاص مسرعا حتى دخل إلى منزله . وقام الأشتر فخرج من المسجد وخرجوا معه أصحابه وهم يقولون: وفكك الله فيما صنعت وقلت ! فوالله لئن رغبنا

لهؤلاء قليلا لزموا أن دورنا وموارثنا التي ورثناها عن آباءنا في بلادنا لهم من دورنا.

قال: فكتب سعيد بن العاص من ساعته بذلك إلى عثمان كتابا في أوله: (بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من سعيد بن العاص، أما بعد ! فإني أخبر أمير المؤمنين أنني ما أملك من الكوفة شيئا مع الأشتر النخعي، ومعه قوم يزعمون أنهم القراء وهم السفهاء، فهم يردون علي أمري ويميئون علي صالح أعمالي. وأن الأشتر كان بينه وبين صاحب شرطتي كلام ومراجعة في شيء لا أصل له، فأغرى به الأشتر سفهاء أصحابه وأشرار أهل المصر حتى وثبوا عليه وأنا جالس، فغضبوه حتى وقع لجنبه وهو لما به، فكتب إلي أمير المؤمنين برأيه أصمل به إن شاء الله .

كتب إليه عثمان كتابا في أوله: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد ! فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنك لا تملك من الكوفة شيئا من الأشتر، ولعمري إنك تملك منها الجريش الطويل، وقد كتبتُ إلى الأشتر كتابا وضممته كتابك فادفعه إليه وانظر أصحابه هؤلاء الذين ذكرتهم فالحقهم به - والسلام - .

قال: ثم كتب عثمان إلى الأشتر: أما بعد ! فقد بلغني يا أشتر أنك تلقح وتريد أن تنجح ! وأيم الله إنني لأظن أنك تستر أمرا لو أنك أظهرته لحل به دمك، وما أراك متبها عن الفتنة أو يصيبك الله بقارعة ليس معها بقيا. فانظر إذا أنك كتابي هذا فقرأته ورأيت أن لي عليك طاعة فيرجع إلي الشام فتكون بها مقيما حتى يأتيك أمري. واعلم أنني إنما أسترك إليها لأشيء إلا لإفسادك على الناس وذلك بأنك لا تألوهم خيالا وضلالا.

قال: فلما ورد كتاب عثمان على الأشتر وقراه عزم على الخروج عن الكوفة، وأرسل إليه سعيد بن العاص أن أخرج وأخرج من كان معك على رأيك. فأرسل إليه الأشتر: أنه ليس بالكوفة أحد إلا وهو يرى رأيي فيما أظن، لأنهم لا يحبون أن تجعل بلادهم يستأنا لك ولقومك، وأنا خارج فيمن اتبعني فانظر فيما يكون من بعد هذا.

قال: ثم خرج الأشتر من الكوفة ومعه أصحابه وهم صمصمة بن صوحان

العبدى وأخوه وعائذ بن حملة الظهري، وجندب بن زهير الأزدي والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، وأصغر بن قيس الحارثي ويزيد بن المكفف، وثابت بن قيس بن منقح وكميل بن زياد ومن أشبههم من إخوانهم؟

كانت هذه أقدم المصادر التي تتحدث عن مشكلات سعيد بن العاص في الكوفة (الشعبى والواقدي وأبو مخنف). وهي رغم اختلافها في التفاصيل تظهر بوضوح أن استبدال الوليد بن عقبة بسعيد بن العاص كوالٍ للكوفة لم يجد نفعاً، ولم يهذئ الأوضاع. فالمشكلة الحقيقية هي في جوهر السياسة القرشية لولادة بني أمية وما أثارته من شعور بالضييق لدى أبناء القبائل العربية. والأسماء التي تذكر كمحركين للتمرد تشهد بذلك. فلا يوجد بينهم من ينتمي لقريش أو للقبائل القريبة منها (كتيف مثلاً) والمحسوبة عليها. بل هم ينتمون إلى عرب الأطراف كالأزد وتميم وعبد القيس بالإضافة إلى يمانيين.

نقد رواية سيف بن عمر

تبدو رواية سيف لدى الطبري مصممة لتدافع عن الوالي سعيد بن العاص وللوم المعارضين في الكوفة. ولكنها رغم ذلك تفيد أنه بمرور الوقت أصبح الجو متوتراً في الكوفة إلى درجة أن مجرد كلام تفوه به أحد الفتيان من أتباع الوالي سعيد بن العاص كان سبباً في مشكلة كبرى كادت تتأججاً أهلياً! فحسب الرواية يكون سبب المشكلة أن عبد الرحمن بن غنيس⁽¹⁾، وهو حدث، قد قال لسعيد بن العاص، وهو في مجلس عام:

هو الله لو ددنت أن هذا المظالم لك، يعني ما كان لأل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة.

وتضفي الرواية لتقول إن هذه العبارة التي قالها الغلام أثارت هيجاناً عاصفاً من قبل عدد كبير من الكوفيين الذين قالوا «يمنى له من سوادنا» ثم انهالوا عليه ضرباً هو وأبوه، حتى كادوا يقتلوهما. ويذكر سيف أسماء

(1) تجمع روايات الإخباريين الآخرين على أن عبد الرحمن بن غنيس كان صاحب شرطة سعيد بن العاص، وليس حدثاً كما يذكر سيف.

الفاخيين وهم: الاشر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضامى. ولما حاول سعيد بن العاص تهدة الأمور مؤكدا للناس أنها مجرد كلمات تفوه بها غلامٌ جاهل، رفضوا ذلك وقالوا له «أنت والله أمرته بها» وتقول الرواية ان الفتى وأباه بقيا على قيد الحياة مما مكّن سعيد من تجنب الاقتال القبلي الذي كان سينشب بين أهل الغلام من بني أسد والذين ضربوه.

وتضيف الرواية ان المهاجرين بعد ذلك «فعدوا في بيوتهم وأقبلوا على الإذاعة» مما أدّى الى غضب في صفوف أهل الكوفة «فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاوهم الى عثمان في إخراجهم» فأجابهم الخليفة «إذا اجتمع ملوككم على ذلك فألحقوهم بمعايمة» وتضيف «فأخرجوهم. فذلوا وانتقادوا، حتى أتوه وهم بضعة عشر. فكتبوا بذلك الى عثمان. وكتب عثمان الى معاوية: ان أهل الكوفة قد أخرجوا اليك تقرأ خلقوا للفتنة، فرعهم وقم عليهم فإن أتت منهم رشدا فاقبل منهم وإن أعيوك فاردهم عليهم»

وهكذا فإن سيف بن عمر يحاول ان يظهر الأمور وكأن ما حدث مجرد مشكلة داخلية بحثة بين عائلات من أهل الكوفة، ولا علاقة لها بالوالي سعيد بن العاص ولا بسياسة ولا بالخليفة عثمان من قريب ولا بعيد. ويبدو الوالي فيها كرجل مصلح يحاول التوفيق بين المتنازعين، لا أكثر. ويغيب سيف تماماً القول المشهور عن سعيد بن العاص «إنما هذا السواد يستان قريش» والذي كان في الحقيقة السبب المباشر للمشاكل» وليس كلمات ذلك الغلام. والرواية كما لا يخفى تجعل مسؤولية التغي تقع على عاتق أهل الكوفة أنفسهم الذين طالبوا الخليفة بذلك، فاستجاب. ومن اللافت عجز سيف عن ذكر اسم أي شخص من اولئك الذين يصفهم «أشراف أهل الكوفة وصلحاوهم»، باستثناء ربما طليحة الأسدي الذي يرد ذكره في الرواية على رأس الناس المطالبين بالانتقام للغلام وأبيه. ولكن هل طليحة الأسدي من أشراف أهل الكوفة وصلحائهم؟ لا بد من تذكر ان هذا الرجل ليس فقط كان من المرتدين عن الاسلام بعد وفاة النبي (ص) ولكنه أيضاً كان من الذين ادّعوا النبوة ا هذا عدا عن الاشكال المتمثل في ان طليحة بن خويلد كان قد توفي عام 21 للهجرة

كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية فلما يمكن ان يكون حضر ذلك الموقف
في الكوفة سنة 33.

المتنبون الى الشام: الجدل مع معاوية

وهناك اختلاف في تفاصيل الكلام المتبادل الذي جرى في الشام بين
معاوية والمتنبين المراقبين بين روايتي سيف والواقدي (لدى الطبري)، رغم
اتفاقهما على الاطار العام للحوار.

قال سيف⁽¹⁾:

انه لما قرعهم معاوية وامتدح قبيلة قريش متعاليًا عليهم قائلًا لهم «بلغني
انكم تقمتم قريشاً، وإن قريشاً لو لم تكن عنتم أقله كما كنتم...»، رد عليه
أحدهم «أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنها في
الجاهلية فتخرفنا»

فأجابه معاوية «... إن قريشاً لم تميز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله
عز وجل. لم تكن بأكثر العرب ولا بأشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً
وأحضرهم أنساباً وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة. ولم يتمتعوا في الجاهلية
-والناس يأكل بعضهم بعضاً- إلا بالله الذي لا يستل من أعز ولا يوضع من
رفع، فبئراهم حَزْماً آمناً يتخطف الناس من حولهم.

هل تعرفون عرباً أو عجماء، أو سوداً أو حمراء، إلا قد أصابه الدهر في
بلده وحرمة بدولة، إلا ما كان من قريش. فإنه لم يُردهم أحد من الناس بكين
إلا جعل الله خبئه الأسفل، حتى أراد الله تعالى أن ينتقل من أكرم وأتبع دينه
من هوان الدنيا، وسوء مرد الاخرة. فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له
أصحاباً، فكان خيارهم قريشاً. ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخليفة
فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على

(1) ويسبب الكلام المفصل والحوار الطويل بين معاوية ومتنبي الكوفة، شك الباحث
المعاصر هشام جعيط في كتابه الفتنة في صفحة رواية سيف بن عمر على اعتبار ان
نوعية ذلك الكلام الصادر عن معاوية لا تتسم مع تلك المرحلة بل انها اقرب الى
عقيدة معاوية والامويين فيما بعد أيام حكمهم.

كفرهم بالله، أقتراء لا يحوطهم وهم على دينه؟»

ثم وجه معاوية كلامه الى صبيصة بن صوحان بالذات فشتته وقومه
بعبارات قاسية **فلان قرينك شر قرى عربية: أنتها نبتاً وأصعها وادياً وأحرفها**
بالشر والأماها جيراناً / لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سببها وكانت
عليه حجة. ثم كانوا أقيح العرب القبايا، والأمة أصهاراً. نزاع الأسم. وأتسم
جيران الخط وفعلة فارس....»

وهنا يشير معاوية الى قبيلة عبد القيس التي كانت تقطن المناطق الشرقية
للجزيرة العربية، وهي بالتالي مجاورة لآيران.

ثم أكمل سيف على لسان معاوية **هن رسول الله (ص) كان معصوماً**
فولاني وأدخلني في أمره. ثم استخلف أبو بكر رضي الله تعالى عنه فولاني.
ثم استخلف عمر فولاني. ثم استخلف عثمان فولاني. فلم آل لأحد منهم،
ولم يولني إلا وهو راض عني. وإنما طلب رسول الله (ص) للأعمال أهل
الجزءاء عن المسلمين والغنائم، ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها
والضعف عنها....»

وهنا يشتط سيف بن عمر ويتطرف في دفاعه عن معاوية ا فمتى ولاه
رسول الله ؟ ومتى أدخله في أمره؟ بل ومتى ولاه أبو بكر ؟ إنما ولي أخاه
يزيداً. ثم يقول سيف ان معاوية بعد ان حذرهم وهددهم أطلقهم وأعطاهم
حرية الذهاب الى أين شاؤوا، بعد أن كتب الى عثمان ان هؤلاء **أقوام ليست**
لهم عقول ولا أديان! أثقلهم الاسلام وأضجرهم العدل! لا يريدون الله
بشيء ولا يتكلمون بحجة. إنما همهم الفتنة وأموال أهل الفئمة، والله مبتليهم
ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم....»

ثم يقول ان هؤلاء اختاروا ان يذهبوا الى منطقة الجزيرة، لأنهم خشوا
إن رجعوا الى الكوفة أن يُشمت بهم. وهنا استدعاهم عبد الرحمن بن خالد
بن الوليد الذي كان حاكم حمص القوي. فاستقبلهم بقوله **يا أكلة الشيطان!**
لا مرحباً بكم ولا أهلاً!.... يا معشر من لا أعرف! أصرت هم أم صميم! لكي لا
تقولوا لي ما يلغني أنكم تقولون لمعاوية. أنا ابن خالد بن الوليد! أنا ابن من

قد عجمته العاجمات، أنا ابنُ فاقمِ الردة... والله لئن بلغني يا صمصعة بن ذل أن أحد ممن معي دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى...
ومارس عليهم إذلالاً جسدياً وإرهاباً معنوياً... فأقامهم أشهراً، كلما ركب
أشاهم، فإذا مر به قال: يا ابن الخطيئة! أعلمت أن من لم يصلحه الخير
أصلحه الشر... حتى أجبرهم أخيراً على إعلان التوبة أمامه. فأرسل الأشتر
إلى عثمان فأعلن التوبة والندم أمامه فقال عثمان للأشتر: احمل حيث شئت.
فقال: مع عبد الرحمن بن خالد، وذكر من فضله»

وهكذا فإنه حتى التنكيل القاسي بالمعارضين وإذلالهم على يد ابن خالد
يجعله سيف بن عمر أمراً اختاره هؤلاء طواعية ويؤادتهم! وأن الأشتر بعد كل
ذلك يمتدح ابن خالد ويرغب في العيش في كتفه!!

وأما الواقدي فقد ذكر في روايته مجموعة من العبارات المتبادلة بين
معاوية والتمرديين، مما لم يرق لسيف فلم يروه. ومن ذلك أن معاوية افتخر
امامهم بأبيه «وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... وإني
لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً. قال صمصعة: كذبت...»
ومن ذلك أيضاً طعن المعارضين بأهلية معاوية نفسه لمنصبه الذي
يتولاه «لست بأهل ذلك ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله.... فلما نامرك
أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك! قال: من هو؟ قال:
من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك وهو بنفسه أحسن قدماً منك في الإسلام...»
وأنا أشك في أن يكون العراقيون - في تلك الظروف - قد طالبوا معاوية
باعتزال عمله.

ثم يضيف الواقدي أنه في نهاية هذا التبادل الحاد للعبارات بينهم وبين
معاوية «وثبوا عليه فأخذوا برأسه ولحيته». وهذا مما يمكن الشك به، لأن
معاوية كان دائماً محاطاً بالحرس، إلا أن يكونوا قد غافلوه.

ثم يقول أن معاوية كتب إلى عثمان «... فلذلك بعثت إلي أقواماً يتكلمون
بالسنة الشياطين... فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم
من أهل الكوفة. ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يفروهم بسحرهم

وفجورهم... فكتب اليه عثمان يأمره أن يردهم الى سعيد بن العاص بالكوفة.
فردهم اليه. فلم يكونوا إلا أطلق السنة منهم حين رجعوا. وكتب سعيد الى
عثمان يشرح منه. فكتب عثمان الى سعيد أن سيرهم الى عبد الرحمن بن خالد
بن الوليد

واما رواية أبي مخنف فتجدها لدى ابن شبة والبلاذري. وهي في إجمالها
تخلو من تفاصيل ذلك الجدل المطول بين المنفيين ومعاوية والذي نجده
لدى سيف بن عمر، ويدرجة أقل لدى الواقدي.

وفي رواية أبي مخنف لدى ابن شبة النميري في تاريخ المدينة:
«... فشحصوا الى دمشق، فأكرمهم معاوية. وقال لهم: انكم قدمتم بلداً
لا يعرف أهله إلا الطاعة. فلا تجادلوهم فتدخلوا الشك قلوبهم.
فقال عمرو بن زرارة، والاشتر: ان الله قد أخذ على العلماء موثقاً أن
يبينوا علمهم للناس. فإن سألنا سائل عن شيء نعلمه لم نكتمه.
فقال معاوية: قد خفت أن تكونوا مرصدين للفتنة! فاتقوا الله ولا تكونوا
كالذين تفرقوا واختلفوا فيه.

فحبسهما معاوية رضي الله عنه. فقال له زيد بن صوحان: ما هذا؟ ان
الذين أشخصونا اليك من بلادنا لم يعجزوا عن حبسنا لو أرادوا ذلك. فإن كنا
ظالمين فنستغفر الله ونتوب اليه، وإن كنا مظلومين فنسأل الله العافية.

فقال معاوية رضي الله عنه: اني لأحبك امرأ صالحاً، فإن شئت أذنت
لك أن تأتي مصرك، وكتبُ الى أمير المؤمنين أعلمه إذني لك.
فقال: أخشى أن تأذن لي وتكتب الى سعيد.

فلما أراد الشخص كلمه في الاشر وعمرو بن زرارة فأخرجهما.
فأقاموا لا يرون أمراً يكرهونه.

ويبلغ معاوية ان قوماً يأتونهم، فأشخصهم الى حمص. فكانوا بها حتى
اعتزم أهل الكوفة على إخراج سعيد، فكتبوا اليهم فقدموا»

ولدى البلاذري في أنساب الأشراف يشير أبو مخنف أن تسييرهم الى حمص، حيث عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، قم تم بناء على أمر عثمان لما اشكى له معاوية من ان المظفين قد يفسدون اهل الشام. ولا تذكر الرواية أنهم بقوا في حمص الى حين عزم أهل الكوفة على اخراج سعيد.

ولا بد من ذكر الرواية المفصلة لذلك الحوار التي أوردها ابن اعثم في كتاب الفتح بإسناده الجمعي:

«... حتى صاروا إلى كنية يقال لها كنية مريم، فأرسل إليهم معاوية فدعاهم، فجالوا حتى دخلوا ثم سلموا وجلسوا فقال لهم معاوية: يا هؤلاء اتقوا الله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليقين). قال: ثم سكث معاوية .

قال له كميل بن زياد: يا معاوية ! (فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) فنحن أولئك الذين دعاهم الله .

فقال له معاوية: كلا يا كميل ! إنما أولئك الذين أطاعوا الله ورسوله وولاء الامر فلم يفتروا محاسنهم ولا أشاعوا مساوئهم .

فقال كميل: يا معاوية ! لولا أن عثمان بن عفان وفق منك بمثل هذا الكلام وهذه الخديعة لما اتخفك لنا سجنًا. فقال له الأشتر: يا كميل ! ابتدأنا بالمنطق وأنت أحدثنا سنا، قال: فسكت كميل وتكلم الأشتر فقال: أما بعد ! فإن الله تبارك وتعالى أكرم هذه الأمة برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فجمع به كلمتها وأظهرها على الناس، فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث، ثم قبضه الله عز وجل إلى رضوانه ومحل جنانه - صلى الله عليه وسلم كثيرًا، ثم ولى من بعده قوم صالحون عملوا بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجزاهم بأحسن ما أسلفوا من الصالحات، ثم حدثت بعد ذلك أحداث فرأى المؤمنون من أهل طاعة الله أن ينكروا الظلم وأن يقولوا بالحق فإن أعاننا ولاتنا أعفاهم الله من هذه الاعمال التي لا يحبها أهل الطاعة، فنحن معهم ولا نخالف عليهم، وإن أبوا ذلك فإن الله تبارك وتعالى قد قال في كتابه وقوله الحق: (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينن للناس ولا تكمونه

فنبهوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا فيس ما يشرون) فلما يا معاوية
ا بكاتمي يرمي الله عز وجل ولا بتاركي أمر الله لمن جهله حتى يعلم مثل
الذي علمنا، وألا فقد غشنا أنمتنا وكنا كمن نبت الكتاب وراء ظهره .

فقال له معاوية: يا أشتر إني أراك معلنًا بغلاتنا مرتضيا بالمداوة لنا،
والله لأشدن وثاقك ولأطيلن حبسك. فقال له عمرو بن زرارة⁽¹⁾: يا معاوية ا
لئن حبسته لتعلمن أن له عشيرة كثيرة عددها لا يضام، شدعا شديد على من
خالفها ونبرها .

فقال معاوية: وأنت يا عمرو تحب أن يضرب عنقك ولا تترك حيا،
اذهبوا بهم إلى السجن.

قال: فذهبوا بهم إلى السجن. فقال زيد بن المكفكف⁽²⁾ فقال: يا معاوية
ا إن القوم بعثوا بنا إليك لم يكن بهم عجز في حبسنا في بلادنا لو أرادوا ذلك،
فلا تزيدينا وأحسن مجاورتنا ما جاورناك، فما أقل ما تجاورك حتى تفارقك إن
شاء الله تعالى .

قال: ثم وثب صمصمة بن صوحان فقال: يا معاوية ا إن مالك بن
الحارث الأشتر وعمرو بن زرارة رجلا لهما فضل في دينهم وحالة حسنة في
عشيرتهم وقد حبستهم، فأثر بإخراجهم فذلك أجمل في الرأي .

فقال معاوية: علي بهم، فأتي بهم من الحبس، فقال معاوية: كيف ترون
عفري عنكم يا أهل العراق بعد جهلكم واستحقاقكم الحبس ؟ رحم الله أبا
سفيان لقد كان حليماً، ولو ولد الناس كلهم لكانوا حلماً ا

فقال صمصمة بن صوحان: والله يا معاوية ا لقد ولعهم من هو خير من
أبي سفيان، فسفهاؤهم وجهالهم أكثر من حلماهم ا

فقال معاوية: قاتلك الله يا صمصمة ا قد أعطيت لسانا حديدا، اخرجوا
واتقوا الله واحسنوا الثناء على أنمتكم فإنهم جنة لكم .

(1) لم يذكر ابن أشم اسم ضمن قائمة المظنين الى الشام في بداية روايته.

(2) يرد اسمه أحيانا يزيد بن المكفكف

فقال صعصعة: يا معاوية! إننا لا نرى لمخلوق طاعة في معصية الخالق.
فقال معاوية: أخرج عني، أخرجك الله إلى النار! فلعمري أنك خدثت.
فخرج القوم من عند معاوية وصاروا إلى منازلهم، فلم يزلوا مقيمين
وقد وكل بهم قوم يحفظونهم ألا يبرحوا⁽¹⁾

سياسة النفي

تحدث ابن كثير في البداية والنهاية بأسلوب مخفف، مصمم للدفاع عن
الخليفة، عن سياسة النفي التي طبقها عثمان. وأنا أورد نص كلام ابن كثير كله،
لأنه لا يتهم بالكبحاميل عثمان، من أجل إثبات حصول النفي، بغض النظر عن
تبريرات ابن كثير وآرائه. فقال عن أحداث سنة 33 للهجرة:

وفيهما سير أمير المؤمنين جماعة من قراء أهل الكوفة إلى الشام. وكان
سبب ذلك أنهم تكلموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن عامر⁽²⁾ فكتب إلى
عثمان في أمرهم. فكتب إليه عثمان أن يجلبهم عن بلده إلى الشام. وكتب
عثمان إلى معاوية أمير الشام أنه قد أخرج إليك قراء من أهل الكوفة فأنزلهم
وأكرمهم وتألفهم.

فلما قدموا أنزلهم معاوية وأكرمهم واجتمع بهم وعظّمهم ونصحهم فيما
يعتمدونه من اتباع الجماعة وترك الأفراد والابتعاد.

فأجاب متكلمهم والمترجم عنهم بكلام فيه بشاعة وشناعة، فاحتملهم
معاوية لحلمه. وأخذ في مدح قريش - وكانوا قد نالوا منهم - وأخذ في المدح
لرسول الله (ص) والثناء عليه، والصلاة والتسليم. واقتخر معاوية بهواله
وشرفه في قومه. وقال فيما قال: وأظن أبا سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد
إلا حازماً⁽³⁾

فقال له صعصعة بن صوحان: كلبت⁽⁴⁾ أ قد ولد الناس كلهم لمن هو خير
من أبي سفيان، من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا
له، فكان فيهم البر والفاجر والاحق والكيس.

(1) هذا وهم. والمقصود سعيد بن العاص

ثم بذل لهم النصح مرة أخرى، فلذا هم يتجادون في فهمهم، ويستمررون على جهالتهم وحمائتهم. فعند ذلك أخرجهم من بلده وتفاهم عن الشام، لئلا يشوشوا عقول الطغافا، وذلك أنه كان يشتمل مطاوي كلامهم على القدح في قرش كونهم فرطوا وضيعوا ما يجب عليهم من القيام فيه، من نصرة الدين وقمع المفسدين. وإنما يريدون بهذا التنقيص والعيب ورجم الغيب. وكانوا يشتمون عثماناً وسعيد بن العاص. وكانوا عشرة، وقيل تسعة وهو الأشبه، منهم كميل بن زياد، والأشتر النخعي - واسمه مالك بن يزيد - وعلقمة بن قيس النخعيان، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير العامري، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمر بن الحنظلي المخزاعي.

فلما خرجوا من دمشق أروا إلى الجزيرة، فاجتمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - وكان نائباً على الجزيرة ثم ولي حمص بعد ذلك - فهدمهم وتوعدهم. فاعتذروا إليه وأنبأوا إلى الإقلاع عما كانوا عليه، فدعا لهم وسير مالكاً الأشتر النخعي إلى عثمان بن عفان ليعتذر إليه عن أصحابه بين يديه.

فقبل ذلك منهم وكف عنهم وخبرهم أن يقيموا حيث أحبوا. فاختاروا أن يكونوا في معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فقدموا عليه حمص، فأمرهم بالمقام في الساحل، وأجرى عليهم الرزق.

ويقال: بل لما مقتهم معاوية كتب فيهم إلى عثمان، فجاءه كتاب عثمان أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة. فردهم إليه. فلما رجعوا كانوا أزلق السنة، وأكثر شراً. فضج منهم سعيد بن العاص إلى عثمان، فأمره أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص، وأن يلزموا الدروب.

وفي هذه السنة سير عثمان بعض أهل البصرة منها إلى الشام، وإلى مصر، بأسباب مسوغة لما فعله رضي الله عنه.

فكان هؤلاء ممن يؤلب عليه ويمالح الأعداء في الحط والكلام فيه. وهم الظالمون في ذلك، وهو الباطل الراشد رضي الله عنه.

ويدو أن النفي كان من أساليب العقاب المفضلة عند الخليفة عثمان. ولم يكن مقصوداً على حالات بعينها. وأحياناً كان النفي يحصل لأسباب غير سياسية. وقد روى الطبري في تاريخه عن سيف بن عمر حادثة نفي حمران

بن ابان من المدينة الى البصرة لأنه تزوج امرأة في عدتها. وكذلك حادثة نفي
عامر بن عبد قيس من البصرة الى الشام بسبب ما أشيع عنه من رفضه أكل
اللحم والزواج وحضور صلاة الجمعة.

كما تقدم الحديث عن حادثة نفي أبي ذر الغفاري إلى الري، وحادثة
نفي عبد الرحمن بن حنبل إلى خيبر.

أهل الكوفة يخاطبون الخليفة مباشرة

وقد أثار أسلوب سعيد بن العاص، وقراراته، ومجمل نهج عثمان،
وخاصة سياسة النفي بحق المعارضين، استياءً وخفيباً عدد كبير من أهل
الكوفة مما دفعهم إلى المغامرة بإرسال كتاب احتجاج للخليفة، رغم خوفهم
من ردة فعله، طالبيه فيه بالإصلاح. وليس هناك ما يحول دون تصديق الخبر.
فحتى تلك اللحظة لم يكن نظام الحكم قد تحول إلى ملكي بعد. وكان الناس
لا يزالون يعتبرون أن من حقهم التواصل المباشر مع الخليفة وتقديم النصح
له بشأن مصلحة المسلمين، وكان لذلك سوابق في عهد عمر. ويمكن اعتبار
ذلك محاولة لوقف السياسات الخاطئة للخليفة بطريقة شرعية، عن طريق
مخاطبته مباشرة وتجاوز ولاته الذين كانوا هم من أسباب الشكوى.

روى ابن شبة التميمي في تاريخ المدينة عن يونس بن أبي اسحق
الهمداني «كتب ناس من وجوه أهل الكوفة ونساکهم، منهم: معقل بن قيس
الرياحي، ومالك بن حبيب، وعبد الله بن الطفيل العامري، وزیاد بن حصص
التميمي، ويزید بن قيس الارحبي، وحجر بن عدي الكندي، وعمر بن الحمق
الخزاعي، وسليمان بن صرد، وزید بن حصن الطائي، وكعب بن عتبة النهدي،
إلى عثمان - ولم يسم أحد نفسه في الكتاب إلا كعب - أن سعيد بن العاص كثر
عنك على قوم من أهل الفضل والدين، فحملك من أمرهم على ما لا يحل.
وإنا نذكرك الله في أمة محمد: فإني قد بسطت يدك فيها وحملت بني أبيك
على رقابها. وقد خفت أن يكون فساد هذه الأمة على يدك. فإن لك ناصراً
ظالماً، وناقماً عليك مظلوماً! فمتى نقم عليك النقم، ونصرك الظالم تباین
الفرقان واختلفت الكلمة. فاتي الله فإنيك أميرنا ما أطعت الله واستعظمت.

ويشوا بالكتاب مع أبي ربيعة المعتزي. فقال له عثمان رضي الله عنه: من كتب هذا الكتاب؟

قال: صلحاء أهل مصر.

قال: ستمهم لي.

قال: ما أسمى لك إلا من سمي نفسه.

فكتب عثمان رضي الله عنه إلى سعيد: انظر ابن ذي الحبكة فاضربه عشرين سوطاً وحول ديوانه إلى الري. فضربه سعيد عشرين سوطاً وسيره إلى جبل ديباوند.....⁽¹⁾

وأسماء الأشراف الذين كانوا وراء الكتاب إلى عثمان، حسب هذا النص، تختلف عن تلك المجموعة التي تصادمت مع سعيد بن العاص وثبتت إلى الشام. وهذا يعطي النص مصداقية، ويدل على مدى اتساع دائرة المعارضة للوالي الأموي. فالرواة لا يجدون أدنى صعوبة في ذكر الكثير من الأسماء.

وقد أورد ابن أضم الكوفي في كتاب الفتوح الخبر الذي ذكره ابن شبة بتفصيل أكثر. وفيه أن وجهاء أهل الكوفة قد أرسلوا كتابين للخليفة: واحد بصيغة الجمع دون ذكر أسماء المرسلين «من الملأ المسلمين من أهل الكوفة» والثاني من كتب بن عبيدة النهدي الذي أصر على التوقيع باسمه الصريح. وقد حمل الكتابين رجل من قبيلة عترة بعد نقاش جرى بينهم يشير إلى خوفهم من سطوة الخليفة فوالله ما يبلغ هذا الكتاب إلا رجل لا يبالي أخسب أم نجس أم تقتل أم نفي أم حرم، فأيكم عزم على أن يصيه خصلة من هذه الخصال فليأخذ. فقال القوم ما هنا أحد يحب أن يتلى بخصلة من هذه الخصال. فقال المعتزي: هاتوا كتابكم، فوالله إني لا عافية لي، وإن ابتليت فما أنا يائس أن يرزقني ربي بيسرا وأجرا، قال: فدفعوا إليه كتابهم.

وأنا هنا أورد نص كتاب كتب بن عبيدة النهدي لأنه يلخص بتركيز

(1) ويمكن مقارنة هذه الرسالة بتلك التي أرسلها أهل مصر لعثمان (رواية عروة بن الزبير) وملاحظة التشابه في المضمون إلى حد كبير.

أسباب النعمة على عثمان هبسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من كعب بن عيثة، أنا بعد ! فإني نذير لك من الفتنة، متخوف عليك فراق هذه الأمة، وذلك أنك :

قد نفيت خيارهم

ووليت أشرارهم

وقسمت فيأهم في صدورهم

واستأثرت بفضلهم

ومزقت كتابهم

وحملت قطر السماء ونبت الأرض،

وحملت بني أبيك على رقاب الناس حتى قد أوغرت صدورهم واخترت عداوتهم،

ولعمري لئن فعلت ذلك فلأنك تعلم أنك إذا فعلت ذلك وتكرمت فلأنما فعله من فيثنا وبلادنا، والله حسيك يحكم بيننا وبينك، وإن أنت أبيت وعنت قتلنا وأذانا ولم تفعل فلأننا نستعين الله ونستجير من ظلمك لنا بكرة وعشياً - والسلام!

ومشير ابن أحثم إلى مصير كعب بن عيثة بعد أن ثار عليه غضب الخليفة فأمر بإحضاره من الكوفة، فأدخلوه عليه فلما سلم عليه جعل عثمان ينظر إليه ثم قال: (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) ! أنت تعلمني الحق وقد قرأت القرآن وأنت في صلب أب مشرك! ١٩

قال كعب: على رسلك يا بن عفان، فإن كتاب الله لو كان للأول دون الآخر لم يش للأخر شيء، ولكن القرآن للأول وللآخر.

فقال عثمان: والله ما أراك تدي أين ربك !

قال: بلى يا عثمان ! هو لي ولك بالمرصاد.

فقال مروان: يا أمير المؤمنين ! حطمتك على مثل هذا وأصحابه أطمع فيك الناس.

فقال كعب: يا عثمان! إن هذا وأصحابه أعمروك وأغرونا بك! قال عثمان: جردوه! فجردوه، وضربته عشرين سوطاً، ثم أمر به فثد إلى الكوفة^(١)

ويجب ملاحظة رد الفعل من جانب عثمان: فخلافاً لما عرف عنه من هودة ولين، هو هنا يتصف بالزق والمصيبة. وهذا يشير إلى حالة التوتر التي سيطرت عليه في مرحلة الاضطراب تلك في العراق، إلى الحد الذي جعله لا يحتمل سماع المزيد من الشكاوى خاصة إذا جاءت من طريق شخص يعتبره «مكره»!

وتتفق رواية أبي مخنف لدى البلاذري مع ما رواه ابن شبة وابن أئثم في أن الرجل من قبيلة عترة قد حمل كتابي الشكوى إلى عثمان: أحدهما من وجوه أهل الكوفة الذين لم يرغبوا بتسمية أنفسهم للخليفة، والآخر من كعب بن عتبة الهندي. وسأورد هنا الجزء الأخير من الرواية لأنه يظهر مدى اتزان ورصانة شخص الشاب كعب بن عتبة في مقابل توتر عثمان وحذنه:

فتقول الرواية أن عثمان بعدما قرأ الرسالة أمر سعيداً بإشخاص كعب إلى المدينة، ففعل ذلك وأرسله مع أعرابي فقلما قدم به على عثمان قال عثمان: لأن تسمع بالمعدي خير من أن تراه! وكان شاباً حديث السن نحيفاً.

ثم أتبل عليه فقال: آئت تعلمني الحق وقد قرأت كتاب الله وأنت في صلب رجل مشرك!^{١٩}

فقال له كعب: إن إمارة المؤمنين إنما كانت لك بما أوجبته الشورى حين عاهدت الله على نفسك لتسيرن بسيرة نبيه لا تقصر عنها. وإن يشاؤونا إليك ثانية نقلناها عنك! يا عثمان: إن كتاب الله لين يلقه وقرأه، وقد شركناك في قراءته ومتى لم يعمل القارئ بما فيه كان حجة عليه.

(١) وقد أشار ابن أئثم إلى أن عثمان لاحقاً شعر بتأنيب الضمير تجاه ما صنعه بكعب بن عتبة فأمر سعيد بن العاص برده، واعتذر منه وعرض عليه أن يقتادته، فرفض.

فقال عثمان: والله ما أظنك تدري أين ريك!

قال: هو بالمرصاد.

فقال مروان: حليمك أغرى مثل هذا بك وجزأه عليك.

فامر عثمان بكعب فجرد وشرّب عشرين سوطة وسيره الى دباوند، ويقال الى جبل الدخان...

إن ما قاله الشاب كعباً منطقياً ومفجعاً: فهو يرفض أن يعبّره الخليفة بصغر سنّه ويقول له: كتاب الله يتنا ويتك. وهذا الجواب الصادم كان السبب وراء فورة دم عثمان ومعاقبته للكوفي النحيف (التي ندم عليها فيما بعد كما تضيف الرواية).

الكوفة تتفرض: خلغ سعيد بن العاص⁽¹⁾

للأسف يعتمد الطبري في ذكره لأحداث الجرة⁽²⁾ على روايات سيف بن عمر، وهي ضعيفة جداً وتتكلم عن اتباع ابن السوداء ومعارضة القعقاع لهم في الكوفة وحديث عن الفتنة وتقلات عجيبة للأشتر وغير ذلك مما يجعلها غير جديرة بالبحث الجدي.

ولذلك سنعتمد على ما رواه غير الطبري.

فابن سعد قدم روايته في الطبقات الكبرى بشأن تفاصيل التمرد في الكوفة والذي أدى إلى خلغ الوالي سعيد بن العاص في أواخر عهد عثمان، سنة 34 للهجرة.

فقال :

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 5 ص 33)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 21 ص 116)، تاريخ خليفة بن خياط (ص 124)، مروج الذهب للمسعودي (ج 2 ص 265-266)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 371)، أنساب الأشراف للبلقافري (ج 6 ص 157-159)،

(2) الجرة مكان مشرف قرب القادسية يمر به القادمون الى الكوفة. وقد اشتهرت به أحداث خلغ سعيد لأن المتمردين انتظروه هناك ليردوه الى المدينة.

فَوَرَّحَلْ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى عَثْمَانَ مَالِكُ الْأَشْتَرِ وَزَيْدُ بْنُ مَكْفُوفٍ وَثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ وَكَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ التَّخَمِي وَزَيْدُ وَصَمْعَةَ ابْنَا صُوحَانَ الْعَبْدِيَّانِ وَالْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَعْمُورُ وَجَنْدُبُ بْنُ زَهْرٍ وَأَبُو زَيْنَبِ الْأَزْدِيَّانِ وَأَصْغَرُ بْنُ قَيْسِ الْحَارِثِيِّ، يَسْأَلُونَهُ عَزَلَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ عَنْهُمْ؟

وَهَذَا لَدَيْنَا اشْكَالِيَّةٌ: فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي يَذْكُرُهَا ابْنُ سَعْدٍ (مَجْمُوعَةٌ الْأَشْتَرِ) هِيَ ذَاتُهَا الَّتِي سَبَقَ لِعَثْمَانَ عِقَابُهُمْ وَنَفْيُهُمْ وَإِذْلَالُهُمْ قَبْلَ حَوَالِي سَنَةِ، وَعَلَى يَدِ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ، بِسَبَبِ صِرَاعِهِمُ الْأَوَّلَ مَعَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ. فَلَا يَعْقِلُ أَنَّهُمْ الْآنَ قَدْ عَادُوا ثَانِيَةً إِلَى عَثْمَانَ وَبِهَذِهِ السَّرْعَةِ وَلِنَفْسِ الْغَايَةِ بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ (جَنْدُبُ وَأَبُو زَيْنَبِ) كَانُوا مِمَّنْ انْخَرَطُوا فِي الصِّرَاعِ الْقَدِيمِ مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ عَقَبَةَ.

فَالْأَصَحُّ عِنْدِي أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ أَيُّ وَفَدٍ جَدِيدٍ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى عَثْمَانَ سَنَةَ

34.

يَتَابِعُ ابْنُ سَعْدٍ فَوَرَّحَلْ سَعِيدٌ وَانْفَدَّ عَلَى عَثْمَانَ فَوَافَقَهُمْ عِنْدَهُ

فَأَمَّا عَثْمَانُ أَنْ يَعْزِلَهُ وَأَمْرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عَمَلِهِ

وَالصَّحِيحُ أَنَّ عَثْمَانَ قَدْ رَدَّ سَعِيدًا إِلَى عَمَلِهِ بَعْدَ انْتِهَاءِ مُؤْتَمَرِ الْقَعْمَةِ بَيْنَ عَثْمَانَ وَوَلَاةِ الْأُمَاصِ، وَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ سَبَبَ سَفَرِ سَعِيدِ إِلَى الْمَدِينَةِ (وَلَيْسَ لِبُورَاةِ الشُّكَاةِ عِنْدَ عَثْمَانَ).

تَتَابِعُ الرِّوَايَةُ فَخَرَجَ الْأَشْتَرُ مِنْ لَيْلَتِهِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَتَارَ عَشْرَ لَيَالٍ إِلَى الْكُوفَةِ، فَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا وَصَعِدَ الْمَنْبَرَ فَقَالَ:

هَذَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ قَدْ أَتَاكُمْ يَزْعُمُ أَنَّ هَذَا السَّوَادَ بَسْتَانٌ لِأَخِيْلَمَةَ مِنْ قَرِيشٍ وَالسَّوَادَ مَسَاقِطُ رُؤُوسِكُمْ وَمَرَائِزُ رِمَاحِكُمْ، وَفِيؤُوكُمْ وَفِيءُ آبَائِكُمْ.

فَمَنْ كَانَ يَرَى لَهُ عَلَيْهِ حَقًّا فَلْيَنْهَضْ إِلَى الْجَرَّةِ. فَخَرَجَ النَّاسُ فَعَسَكُرُوا فِي الْجَرَّةِ، وَهِيَ بَيْنَ الْكُوفَةِ وَالْحِيرَةِ

الدُّورُ التَّحْرِيزِيُّ الْكَبِيرُ وَالْقِيَادِيُّ لِمَالِكِ الْأَشْتَرِ أَمْرٌ مُؤَكَّدٌ. وَيَدُو أَنَّ الْأَخْبَارَ قَدْ وَصَلَتْهُ وَمَجْمُوعَتُهُ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ جَدَّدَ ثَقَّتَهُ بِالْوَالِيِّ سَعِيدٍ فَقَدَّرُوا بِأَنَّهُ

قادم بمزيد من التشدد تجاههم فكان لا بد لهم أن يتصرفوا قبل أن ينالهم تنكيل جديد.

تتابع الرواية «وأقبل سعيد بن العاص حتى نزل العذيب».

فدعا الأشتر يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كنانة العبدي، وكانا محبرين، فعدد لكل واحد منهما خمسمائة فارس.

وقال لهما: سيرا إلى سعيد بن العاص، فأزعماه وألحقاه بصاحبه، فإن أبي فاضلنا عنقه وإتياني برأيه».

ينبغي تجاهل كلمات «ضرب العنق» و«الأتان بالرأس»! ولكن الفكرة هي منع الوالي بالقوة من دخول الكوفة.

تتابع «فأتياه فقالا له: ارجل إلى صاحبك».

فقال: إيلي انضاء ألعفها أياماً، وتقديم المصّر فنشتري حوائجنا ونترود، ثم أرتحل.

فقالا: لا والله! ولا ساعة لترتعلن أو لنضربن عنقك.

فلما رأى الجد منهما ارتحل لاحقاً بثمان.

وأتيا الأشتر فأخبراه. وانصرف الأشتر من معسكره إلى الكوفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

والله يا أهل الكوفة ما غضبْتُ إلا لله ولكم. وقد ألحقنا هذا الرجل بصاحبه. وقد وليتُ أبا موسى الأشعري صلاتكم وثركم، وحذيفة بن اليمان على فيثكم».

لا ينبغي التوقف كثيراً عند قيام الأشتر «بعتين» أبي موسى وحذيفة - كما هو ظاهر النص. فالواقع أن الأشتر لم يزد على إعلان الرغبة العامة بين أهل الكوفة في العودة إلى سياسة ما قبل عثمان، في التخلص من أقرباء عثمان جملة وتفصيلاً. وأبو موسى هو من رموز عهد عمر.

يتابع ابن سعد «ثم نزل وقال: يا أبا موسى اصعد».

فقال أبو موسى: ما كنت لأفعل. ولكن هلموا فيايموا لأمر المؤمنين عثمان، وجددوا له البيعة في أحنالكهم. فأجابته الناس إلى ذلك، فقبل ولايتهم. وجدد البيعة لعثمان في رقابهم^(١)

وهذا التصرف متوقع تماماً من رجل كابي موسى. فهو يريد الإصلاح وليس الانشقاق. ولذلك كان حرصاً على إعلان الطاعة للخليفة عثمان وقام بتجديد البيعة العامة له، واستجاب الناس لذلك. وهذا يدل على أن التمرد الذي حصل في الكوفة لم يكن انشقاقاً عن جسد الأمة، ولا رفضاً لمؤسسة الخلافة. كان ما جرى هو تصويب لأوضاع تدهورت وساءت، ولسياسة انحرفت وفشلت، بعد أن طفق الكيل بعموم الكوفيين بسبب رفض الخليفة، أو عجزه، عن اتخاذ أي إجراء تجاه واليه المرفوض.

تتابع الرواية فوكتب إلى عثمان بما صنع، فأعجب ذلك عثمان وسره. فقال عتبة بن الرزح شاعر أهل الكوفة:

تصدق علينا يا ابن عفان واحسب وأمر علينا الأشعري لياليا

فقال عثمان: نعم، وشهوراً وسنين إن بقيت^(٢)

وهذا ليس صحيحاً. فعثمان لم يسر بما حصل. وحتى لو قبل بأبي موسى، فهو قبل بأمر واقع فرضته عليه الأحداث.

وتختتم رواية ابن سعد هوكان الذي صنع أهل الكوفة بسعيد بن العاص أول ومن دخل على عثمان حين اجترأ عليه.

ولم يزل أبو موسى والياً لعثمان على الكوفة حتى قتل عثمان

ولم يزل سعيد بن العاص حين رجع عن الكوفة بالمدينة حتى وثب الناس بعثمان فحضره فلم يزل سعيد في الدار معه يلزمه فيمن يلزمه لم يفارقه ويقاثل دونه^(٣)

ابن سعد مصيب تماماً في وصفه لما جرى بأنه أول ومن دخل على

(١) وقد نقل ابن حساكر في تاريخ دمشق هذا النص بالحرف عن ابن سعد.

عثمان»، لأن قيام الكوفة بفرض إرادتها على الخليفة قد يصير مثلاً يحتذى في أماكن أخرى. ولا يغير من حقيقة الأمر تظاهر عثمان بقبول والي الكوفة الجديد وبيعت.

وأظن أن عثمان قد بدأ يفكر في طريقة لإعادة فرض واليه المخلو، من أجل استعادة هيبة في الكوفة. ومن المرجح أن يكون الخليفة قد بدأ مداولات مع مستشاريه حول ما ينبغي عمله لمعاينة هؤلاء الذين أصروا على تحديهم له، وبالأخص مالك الأشتر ومجموعته. فلا بد من أسلوب آخر معهم.

ولكن التطورات المتسارعة لم تمهل عثمان ليفعل أي شيء. إذ سرعان ما تعرض إلى ما هو أخطر بكثير: تمرد ضخم اجتاحت عاصمته وصار يهدده في منصبه وحياته.

وبالعودة إلى الروايات، فالإلاخري في أنساب الأشراف قدم رواية طويلة وغنية بالتفاصيل، بإسناد جمعي (قالوا)، سأتناولها بتمامها لأنها تبدو لي الأفضل. فيقول أنه عندما استدعى عثمان عماله لاجتماع القمة :

«وكان عليه بن الهيثم السدوسي قد شخص مع سعيد بن العاص ليقرظه ويشي عليه لأنه سأل ذلك. وأحب عليه أيضاً أن يلقي عليه ويعلم حال عثمان وما يكون منه. فلما رأى أن عثمان قد عزم على رد عماله تعجل إلى الكوفة على ناقة له، فلما قدمها قال: يا أهل الكوفة هذا أميركم الذي يزعم أن السواد بستان له قد أقبل»

وهكذا يكون الرجل الكوفي، عليه، قد انقلب على أميره سعيد، وبدلاً من أن يمتدحه لدى الخليفة ويسر له أموره يعود مسرعاً إلى الكوفة حاملاً لها الأخبار السيئة ومعرضاً أهلها على الوالي.

تتابع الرواية «وافغتم أهل الكوفة غية معاوية عن الشام، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بهمص مع هاني بن خطاب الأرحبي يدعونهم إلى القدوم ويشجعونهم عليه ويعلمونهم أنه لا طاعة لعثمان مع إقامته على ما ينكر منه»

وهذا يدل على امرين: ان الأشتر ومجموعته الذين تم نفيهم إلى الشام

قد بقوا هناك حتى تلك اللحظة (سنة كاملة) ولم يعودوا الى الكوفة قبل ذلك
كما تذكر بعض الروايات. والثاني أن دوائر المعارضة في الكوفة واسعة جداً
ولا تقتصر على الأشتر ومجموعته.

تتابع الرواية فصار اليهم هاني بن خطاب مفداً للسير راجياً للفلاة، فلما
قرأوا كتاب أصحابهم أقبل الأشتر والقوم المسيرون حتى قدموا الكوفة،
فأعطاه القراء والوجهه جميعاً موافقتهم وعهودهم ألا يدعوا سعيد بن العاص
يدخل الكوفة واليا أبداً.

ثم يذكر البلاذري الأسماء «وكان الذين كتبوا مع هاني بن خطاب :

مالك بن كعب بن عبد الله الهمداني ثم الأرحبي

وزيد بن قيس بن ثمامة الأرحبي

وشريح بن أوفى العبسي

وعبد الله بن شجرة السلمي

وجمرة بن ستان الأسدي

وحرقرص بن زهير السعدي

وزياد بن خصفة التيمي

وعبد الله بن قفل البكري ثم التيمي

وزياد بن نصر الحارثي

وعمر بن شرحبيل أبو عيسرة الهمداني

وعلقمة بن قيس النخعي

في رجال أشباههم»

تتابع الرواية «وقام مالك بن الحارث الأشتر يوماً فقال: ان عثمان قد
غير ويقل. وحقق الناس على منع سعيد من دخول الكوفة. فقال له قبيصة بن
جابر بن وهب الأسدي، من ولد عميرة بن جندار: يا أشتر، دام شترك، وعفا

ترك، أطلت الغية وجئت بالخيلة / أتأمرنا بالفرقة والفتنة ونكث البيعة وخلع
الخليفة؟

فقال الأشتر: يا قبيصة بن جابر وما أنت وهذا؟ فوالله ما أسلم قومك إلا
كرهاً ولا هاجروا إلا فقراً. ثم وثب الناس على قبيصة فضر به وجرحوه فوق
حاجبه. وجعل الأشتر يقول: لا حرب برادي صوف، من لا يلذ عن حوضه يهدم.
وهذا النص يُحسب للبلاذري ولمصادره. فهو لم يخف وجود نوع
من المعارضة الداخلية في الكوفة للأشتر ومجموعته، كما هي حال قبيصة
هذا، على الرغم من الصورة الشائعة عن الكوفة كمقل للمعارضين للدولة
الأموية.

يتابع البلاذري ثم صلى بالناس الجمعة وقال لزياد بن النضر: صل
بالناس سائر صلواتهم والزم القصر.

وأمر كميل بن زياد فأخرج ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري من
القصر، وكان سعيد بن العاص خلفه على الكوفة حين شخص إلى عثمان.
وعسكر الأشتر بين الكوفة والحيرة وبعث عاتذ بن حملة في خمسمائة
إلى أسفل كسكر مسلحة بينه وبين البصرة.

وبعث جمرة بن جنان الأسدي في خمسمائة إلى عين التمر ليكون
مسلحة بينه وبين الشام.

وبعث هانئ بن أبي حية بن علقمة الهمداني ثم الوداعي إلى حلوان في
الف فارس ليحفظ الطريق في الجبل، فلقى الأكراد بتاحية الدينور وقد أفسدوا
فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة

وبعث الأشتر أيضاً يزيد بن حجية التيمي إلى المدائن وأرض جوحى
وولى عروة بن زيد الخيل الطائي ما دون المدائن

وتقدم إلى عماله ألا يجبروا درهما وأن يسكنوا الناس وأن يضبطوا
النواحي

وهذه الصورة التي يقدمها البلاذري لمالك الأشتر غير حقيقية. فلا يمكن تصديق ان الأشتر يستطيع تنظيم قوات على شكل جيوش وفِالق ويوزعها جغرافياً بما يجعل للكوفة حدود وتحصينات دفاعية «مُسالح» من كل الجهات بما فيها البصرة والشام! فالأشتر القادم من النفي والعزلة لا يمكن ان يصدر الأوامر الى «عماله» كما تشير الرواية! هناك مبالغة شديدة في هذه الصورة.

تتابع الرواية «ويبعث مالك بن كعب الأرحبي في خمسمائة فارس ومعه عبد الله بن كباته أحد بني عائد الله بن سعد العشيرة بن مالك بن ادد بن زيد الى العديب ليلقى سعيد بن العاص ويردّه.

فلقي مالك بن كعب الأرحبي سعيداً فرقه وقال: لا والله لا تشرب من ماء الفرات قطرة! فرجع الى المدينة.

فقال له عثمان: ما وراك؟ قال: الشرا

فقال عثمان: هذا كله عمل هؤلاء، يقصد علياً والزبير وطلحة»

ويلاحظ هنا سهولة استسلام سعيد بن العاص. فهو لم يحاول الإصرار على دخول الكوفة، بل اكتفى بالرجوع الى عثمان. وهذا مدعش، لأن سعيداً كان في منصبه منذ 4 سنوات على الأقل فلماذا لم يحاول أن يستغفر رجاله داخل الكوفة؟ وابن جهازه الأمني؟ التفسير الوحيد هو أن سعيداً قد فقد السيطرة كلياً وكان مدركاً لحقيقة وضعه المنهار في الكوفة.

ومن المستبعد أن يكون عثمان قد اتهم كبار الصحابة بالوقوف وراء مشاكل الكوفة.

يتابع البلاذري «وانتهب الأشتر دار الوليد بن عقبة وكان فيها مال سعيد ومتاعه حتى قلمت ابرابها»

وربما المقصود دار الامارة، لأن العلاقة بين الوليد وسعيد لم تكن حسنة ولا يمكن ان يكون مال سعيد في دار الوليد.

«ودخل الأشتر الكوفة فقال لأبي موسى: تؤن الصلاة بأهل الكوفة، وليتول حذيفة السواك والخراج»

الصحيح أن الأشتر «اقترح» على أبي موسى تولي مسؤولية الإمارة ولم
«يأمره».

تتابع «وكتب عثمان إلى الأشتر وأصحابه مع عبد الرحمن بن أبي بكر
والمسور بن مخرمة يدعوهم إلى الطاعة ويعلمهم أنهم أول من سنّ الفقرة
ويأمرهم بتقوى الله ومراجعة الحق والكتاب إليه بالذي يحبون.

فكتب إليه الأشتر: من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطى
الحائد من سنة نبيه، التابذ لحكم القرآن وراء ظهره. أما بعد: فقد قرأنا كتابك،
فأنت نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسير الصالحين نسمح لك
بطاعتنا. وزعمت أننا قد ظلمنا أنفسنا، وذلك ظنك الذي أرداك فأراك المجرور
عدلاً وبالظلم حقاً! وأما محبتنا فإن تنزع وتنب وتستغفر الله من تجنيت على
خيرنا وتسيرك صلحنا وإخراجك إيانا من ديارنا وتوليتك الأحداث علينا،
وان تولي مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعري وحذيفة فقد رضىناهما.
واحس عنا وليك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك ان شاء الله.
والسلام»

ولا بد طرح العبارات القاسية المنسوبة إلى الأشتر جانباً وخاصة «الحائد
عن سنة نبيه التابذ لحكم القرآن» ليس لأن الأشتر لا يؤمن بها ولكن لأن
مستوى مخاطبة الخليفة لم يكن قد انحدر إلى تلك الدرجة بعد. ولكن يجب
ملاحظة الشكوى المرة من تعيينات آل عثمان والتي عبر عنها الأشتر بقوله
«وليك وسعيدك»!

يتابع البلاذري «وخرج بكتائبهم يزيد بن قيس الأرحبي ومسروق بن
الأجدع الهمداني وعبد الله بن أبي سيرة الجعفي، واسم أبي سيرة يزيد،
وعلقمة بن قيس أبو شبل النخعي وخارجة بن الصلت البرجمي من بني
تميم في آخرين. فلما قرأ عثمان الكتاب قال: اللهم اني تائب! وكتب إلى
أبي موسى وحذيفة: انما لأهل الكوفة رضى، ولنا ثقة، فتوليا أمرهم وقوما
به بالحق، غفر الله لنا ولكما. فتولى أبو موسى وحذيفة الأمر، وسكن أبو
موسى الناس»

وقد أخرج خليفة بن خياط في تاريخه حادثة خلع سعيد ضمن أحداث عام 34 وباختصاره المعهود فذكر فيها أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص، وولوا أبا موسى الأشعري، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يرلي أبا موسى فولاه. وفيها يوم الجمعة، وكان عثمان رد سعيد بن العاص إلى الكوفة فخرج أهل الكوفة فتمنوه

وأما المسعودي في مروج الذهب فتبدو روايته لأحداث خلع سعيد بن العاص وقد حوت جملة من الأخبار المتنوعة ووضعها في سياق واحد. فهي تبتدئ بخبر سواد قريش المشهور :

فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة، فاستبد بالأموال، وقال في بعض الأيام أو كتب به عثمان: إنما هذا السواد قطين لقريش! فقال له الأشتر، وهو مالك بن الحارث النخعي: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك؟

ولكن الرواية هنا - بخلاف رواية الواقدي - لا تتحدث عن صاحب شرطة سعيد الذي تم الاعتداء عليه من قبل الأشتر ومجموعته الغاضبة، ولا تذكر مراسلات سعيد وشكاواه للخليفة مما أدى إلى قرار نفي هؤلاء إلى الشام، بل تتابع الحديث عن الأشتر:

ثم خرج إلى عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة فذكروا سوء سيرة سعيد (بن العاص)، وسألوا عزله عنهم

ثم تستقل الرواية لذكر قدوم عمال عثمان عليه ونقاشه معهم مما أسفر عن قراره بتثبيت سعيد بن العاص على عمله مع توصية بتكثيف الحملات العسكرية لأشغال أهل الكوفة، وأن كل ذلك تم والأشتر ومجموعته لا يزالون في المدينة ينتظرون قرار الخليفة. ثم تنفرد الرواية بالإشارة إلى أن طلحة والزبير قاما بتحريض الأشتر على التمرد وخلع سعيد بن العاص!

فقاما باقراضه مائة ألف درهم حتى يتمكن من شراء احتياجات ولوازم العدة السريعة الى الكوفة قبل أن يصلها سعيد بن العاص⁽¹⁾. ثم تقول :

فخرج الى الكوفة فسبق سعيداً وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد ثم قال: أما بعد: فإن عاملكم الذي أنكرتم تعديّه وسوء سيرته قد ردّ عليكم، وأمر تجهيزكم في البعوث، فبايعوني على أن لا يدخلها. فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة. وخرج⁽²⁾ ركباً متخفياً يريد المدينة أو مكة، فلقى سعيداً بواقصة فأخبره بالخبر فانصرف الى المدينة. وكتب الأشتر الى عثمان: انا والله ما منعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك (ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه، فاهبت الى عملك) من أحييت. فكتب اليهم: انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه⁽³⁾. فنظروا فاذا هو أبو موسى الأشعري. فولوه

وختاماً نقول انه لا شك أن نجاح المتعدين في السيطرة على الكوفة، وخلع واليها الأموي، يشير إلى مدى التدهور الذي وصلت إليه الأمور فيها. فلا يمكن تصوّر أن مجموعة محدودة النفوذ أو بدون قاعدة اجتماعية صلبة، تنجح في خلع والي واسع في منصبه منذ سنوات طويلة، ومذموم مباشرة من الخليفة. والنصوص تبرز الشخصية القيادية لمالك الأشتر والدور المهم الذي لعبه في تطورات الأحداث: فهو الذي يأخذ المبادرة في منع والي عثمان من العودة للكوفة وهو الذي يختار والياً بديلاً.

ودور مالك الأشتر سوف يستمر في التعاطف في قادم الأيام: فهو سيكون من قيادات الثوار التي حاصرت عثمان قبيل مقتله، وهو سيكون من أهم قيادات الخليفة علي بن أبي طالب السياسية والعسكرية والمقرين له.

(1) وهذا لا يمكن تصديقه. بل هو يدخل في إطار الروايات التي تحاول أن تحمل كبار الصحابة مسؤولية التحريض على قتل عثمان. وسيأتي الحديث لاحقاً عن الروايات المصممة لبيان تهافت موقف طلحة والزبير وعائشة في حرب الجمل من طريق القول أنهم كانوا وراء التحريض على الثورة على عثمان بينما هم الآن يطلبون بدمه.

(2) لم أعرّف علي من يعود ضمير الغائب هنا. فلا يمكن أن يكون المقصود بالراكب المتخفي هو الأشتر.

(3) توحي الرواية أن تولية أبي موسى خلفاً لسعيد كانت بمبادرة من عثمان. ولكن الأرجح أن عثمان قد استجاب لمطلب المتعدين من أهل الكوفة.

وسوف نتطرق بالتفصيل الى شخصية مالك الأشتر.

دراسة في الأسماء: الثائرون في الكوفة⁽¹⁾

سوف نستقصي اسماء الشخصيات التي وردت في المصادر وكان لها دور في القلاقل في الكوفة خلال ولاية سعيد بن العاص.

الذين قاموا بضرب صاحب شرطة سعيد بن العاص:

ذكر الواقدي (لدى الطبري) أسماء كل من:

«مالك بن كعب الأرحبي، والاسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، وفيهم مالك الأشتر في رجال»

وأما أبو مخنف فروايته لدى البلاذري تذكر الأسماء التالية :

«مالك بن الحارث الأشتر النخعي

وزيد وصعصة ابنا صوحان العبدان

وحر قوص بن زهير السعدي

وجندب بن زهير الأزدي

وشريح بن أوفى بن يزيد بن زاهر العبسي

وكعب بن عبدة النهدي - وكان يقال لعبدة بن سعد ذو الحكمة

وعدي بن حاتم الجواد بن عبد الله بن سعد بن الحشر الطائي، ويكنى
أبا طريف

وكدام بن حضرمي بن عامر، أحد بني مالك بن مالك بن مالك بن ثعلبة

بن دودان بن أسد بن خزيمة

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص361-365 وص371)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص152-153)، تاريخ المدينة لابن حبة (ج3 ص1141-1142)، كتاب الفتح لابن اعثم (ج2 ص386-390)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص185)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص33) و كتاب اللب في تحرير النساب لابن الأثير.

ومالك بن حبيب بن خراش، من بني ثعلبة بن يربوع
وقيس بن عطار، بن حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن
دارم

وزياد بن خصفة بن ثقف، من بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة
وزياد بن قيس الأرحبي
وغيرهم*

وأما روايته لدى ابن شبة فالأسماء فيها مختلفة. فهي تغفل ذكر سبعة
ممن ذكرهم الطبري (كعب بن عتبة، عدي بن حاتم، كدام بن حضرمي، مالك
بن حبيب، قيس بن عطار، زياد بن خصفة ويزيد بن قيس) بينما تضيف أسماء
آخرين: عمرو بن زرارة، وكميل بن زياد، ويزيد بن مكثف.

وأما ابن أعمش في إسناده الجمعي فيتحدث بإسهاب عن دور مالك
الأشتر «وأصحابه» في المشكلة التي حصلت بمحضر سعيد. ويرد ذكر عدي
بن حاتم الطائي كأحد الموجودين في ذلك الموقف.

ولا بأس في ذكر الأسماء التي أخرجها سيف بن عمر (لدى الطبري)،
وهم «الأشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير
بن ضالم»*

المنضيون إلى الشام:

في رواية أبي مخنف لدى البلاذري نقراً: «فسير سعيد الأشتر ومن كان
وثب مع الأشتر وهم:

زيد وصعصعة ابنا صوحان

وعائذ بن حملة الطهوي، من بني تميم

وكميل بن زياد النخعي

وجندب بن زهير الأزدي

والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، من بني حوف بن سيع بن
صعب، إخوة السبيع بن سيع بن صعب

وزيد بن المكفف النخعي

وثابت بن قيس بن المنقع بن الحارث النخعي

وأصغر بن قيس بن الحارث بن وقاص الحارثي، من بني الممقل.

وذكر الواقدي في روايته التي أخرجه الطبري أن المنفين كانوا تسعة
نفر... فيهم مالك الأشتر وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد النخعي
وصمصعة بن صوحان

وفي رواية ابن هشام، بإسناده الجمعي، يرد ذكر الأسماء التالية:

«ثم خرج الأشتر من الكوفة ومعه أصحابه وهم صمصعة بن صوحان
العبدي وأخوه وعائذ بن حملة الظهري، وجندب بن زهير الأزدي والحارث
بن عبد الله الأعور الهمداني، وأصغر بن قيس الحارثي وزيد بن المكفف،
وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد ومن أشبههم من إخوانهم»

وأما العلامة ابن كثير فقد قال عن المنفين «وكانوا عشرة، وقيل
تسعة وهو الأشبه، منهم كميل بن زياد، والأشتر النخعي - واسمه مالك بن
يزيد - وعلقمة بن قيس النخعيان، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير
العامري، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق
الخزاعي».

رسالة الاحتجاج الغاضبة إلى عثمان:

تذكر رواية يونس بن أبي اسحق الهمداني لدى ابن شبة «كتب ناسٌ من
وجوه أهل الكوفة ونسألكم، منهم: ممقل بن قيس الرياحي، ومالك بن حبيب،
وعبد الله بن الطفيل العامري، وزيد بن حفص التميمي، وزيد بن قيس
الارحبي، وحجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وسليمان بن
سرد، وزيد بن حصن الطائي، وكعب بن عبد الله النهدي»

ويذكر أبو مخنف كما ينقل البلاذري الأسماء التالية :

«معتقل بن قيس الرياحي

عبد الله بن الطفيل العامري

مالك بن حبيب التميمي

يزيد بن قيس الأرحبي

حُجر بن عدي الكندي

عمرو بن الحقيق الخزاعي

سليمان بن صرد الخزاعي

المسيب بن نجبة الفزاري

زيد بن حصن الطائي

كعب بن عبدة النهدي

زياد بن النضر بن بشر بن مالك بن الديان الحارثي

مسلمة بن عبد القاري (من القارة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة)»

ويذكر ابن أحنم بإسناده الجمعي أسماء كل من :

يزيد بن قيس الأرحبي

مالك بن حبيب اليربوعي

حُجر بن عدي الكندي

عمرو بن الحقيق الخزاعي

زياد بن حفيظة التميمي

وعبد الله بن الطفيل البكائي

زياد بن النضر الحارثي

كرام بن الحضرمي المالكي

معقل بن قيس الرياحي

زيد بن حصن النسبي

سليمان بن صرد الخزاعي

المسيب بن نجدة الفزاري

ورجال كبير من قرى أهل الكوفة وروسانهم

بالإضافة طبعاً إلى كتاب كمب بن عبيدة النهدي

أحداث خلع سعيد بن العاص:

ترد الأسماء التالية لدى ابن سعد في طبقاته «مالك الأشتر ويزيد بن مكلف وثابت بن قيس وكهيل بن زياد النخعي وزيد وصمصمة ابنا صرحان العبدان والحارث بن عبد الله الأعور وجندب بن زهير وأبو زينب الأزديان وأصغر بن قيس الحارثي» وأيضاً «يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كتانة العبد» بالإضافة إلى الشاعر عتبة بن الوغل.

والبلاذري، بإسناده الجمعي (قالوا)، يذكر أسماء وجهاء أهل الكوفة الذين كتبوا يمتدعون إخوانهم المعفين من الشام:

مالك بن كمب بن عبد الله الهمداني ثم الأرحبي

ويزيد بن قيس بن ثعامة الأرحبي

وشريح بن أوفى العبسي

وعبد الله بن شجرة السلمي

وجمرة بن سنان الأسدي

وحرقرص بن زهير السعدي

وزياد بن خصفة التيمي

وعبد الله بن قفل البكري ثم التيمي

وزياد بن نضر الحارثي

وعمر بن شرحبيل أبو ميسرة الهمداني

وعلقمة بن قيس النخعي

وأضاف أن هناك آخرين «في رجال أشباههم». وكان حامل الرسالة هاني بن خطاب الأرحبي.

ثم بدأ يتحدث عن النشاطات العسكرية لمالك الأشتر واستعداداته لرد الوالي. ويذكر في هذا السياق الأسماء التالية:

زياد بن النضر، كميل بن زياد، جمر بن جنان الأسدي، عاتذ بن حملة، هاني بن أبي حية بن علقمة الهمداني، يزيد بن حجية التيمي، عروة بن زيد الخيل الطائي، مالك بن كعب الأرحبي، وعبد الله بن كباته (أحد بني عاتذ الله بن سعد العشيرة)

كما يذكر أسماء مسروق بن الأجدع الهمداني وعبد الله بن أبي سبرة الجعفي، وخارجة بن الصلت البرجمي (من بني تميم) من ضمن مساعدي مالك الأشتر.

يمكن إحصاء أسماء 45 شخصاً ممن ورد لهم ذكر في أحداث التمرد في الكوفة بمراحله المختلفة ابتداء من قدوم سعيد بن العاص والياً وانتهاء بخلعهم عنها. وتكرر أسماء البعض بشكل لافت بينما يرد ذكر غيرهم عرضاً. ويتفق الإخباريون والمؤرخون على كامل الأسماء والألقاب لكثير من هؤلاء ويختلفون بشأن عدد منهم، وهذا أمر مفهوم ولا يضير.

ولا بد من دراسة الانتماء القبلي لهؤلاء الناشطين الذين تحدوا سلطة الخليفة وواليه، لأن ذلك قد يكون مدخلاً لفهم تطور الأحداث.

ومن هؤلاء الأشخاص الـ 45 الذين يرد ذكرهم:

يوجد 24 ينتمون إلى قبائل يمانية

و19 ينتمون من قبائل عدنانية

واثنان من خزاعة، وهي قبيلة يمانية من حيث الأصل ولكنها سكنت الحجاز.

يمكن الخروج بالاستنتاجات التالية:

1 - اتساع قاعدة المعارضة لسياسة الخليفة عثمان وحكمه. ومما يشير الدفعة قدرة الإخباريين والمؤرخين على ذكر 45 شخصاً، بأسمائهم ونسبهم، في سياق تلك الأحداث. وهذا عدد كبير. فغالباً ما يعالج المؤرخون أحداثاً كبيرة دون أن يوردوا مثل هذا العدد من الأسماء، بل لا تصلهم سوى أسماء القادة والزعماء والشخصيات المؤثرة. ولذا يمكن القول بقدر كبير من الثقة بأن المعارضة في الكوفة كانت واسعة ولها طابع شعبي.

2 - التنوع القبلي الواضح لمعارض السلطة يعني ببساطة عدم صحة الاعتقاد بأن اتجاهاً قبلياً بعينه كان مسؤولاً عن الأحداث. وهذا يدحض الفكرة الموجودة لدى بعض الباحثين بأن المتמרدين يتبنون أساساً إلى القبائل اليمانية بينما تؤيد القبائل العدنانية (المضربة) بمجملها سلطة قرش. وهذه الفكرة الخاطئة ربما تكون أتت من تطور الأحداث فيما بعد، خلال حكم معاوية وبني أمية الذي اعتمد على رجال القبائل العربية الشمالية. ولكن في هذه الفترة المبكرة، خلال حكم عثمان، لم يكن هذا الفرز قد حصل بدليل وجود 19 اسماً من أصل 45 ممن اتخروا في معارضة فعالة للحكم القرشي وهم يتبنون إلى قبائل عربية نزارية.

3 - وحتى ضمن ذلك التقسيم العريض (يمانية / عدنانية) يُلاحظ تنوع كبير أيضاً. فال 19 اسماً المشار إليهم منهم 5 من قبائل ربيعة (3 من عبد القيس واثنان من بكر بن وائل) و 14 من قبائل مضر (7 من تميم و 4 من قيس عيلان و 3 من خزيمة بن مدركة). وكذلك الحال مع الشخصيات اليمانية: فمن بين ال 24 اسماً يوجد 10 من قبائل مذحج، 8 من قبائل همدان، 3 من طيء، اثنان من الأزد وواحد من كندة.

4 - ويلاحظ أيضاً الغياب التام لأي اسم ينتمي لقبيلة قرش وحليفاتها الرئيسية ثقيف. وهذا يؤكد فكرة محاولة تمرّد القبائل العربية على هيمنة قرش.

5 - رغم التنوع الواضح والعدد الكبير لأبناء القبائل العربية المعارضين لحكم عثمان وواليه، إلا أنه لا بد من ملاحظة غياب الشخصيات ذات الوزن القبلي الأبرز. فلا نجد ذكراً لشيوخ القبائل الكبار. فزعماء القبائل من العيار الثقيل لم يكونوا منخرطين بشكل واضح في حركة المعارضة. فيمكن القول أن المعارضين لم يكونوا في مجملهم من قادة القبائل، وربما كان الكثيرون منهم من العناصر الثانوية في عشائهم. وحتى الاسماء ذات الشهرة منهم لم تكن على الأرجح تتمتع بثقل قبلي كبير وإنما اكتسبت شهرتها فيما بعد بحكم نشاطها في تلك الأحداث. وذلك حال مالك الأشتر وكميل بن زياد (وهما من عشيرة النخع - فرع من مذحج) وصعصة بن صوحان وأخيه زيد (وهما من قبيلة عبد القيس - فرع من ربيعة) وحجر بن عدي (من كندة). وربما يكون الوحيد الذي له ثقل قبلي هو سليمان بن صرد، ولكن برونزه كأحد زعماء خزاعة كان في الواقع بعد أكثر من ربع قرن من تلك الفترة، أي في الأحداث التي تلت مقتل الامام الحسين في ستينات القرن الهجري الأول.

6 - وأما كبار زعماء القبائل في الكوفة، وبالذات الأشعث بن قيس⁽¹⁾ الذي كان زعيم قبيلة كندة بلا منازع ويمتد تأثيره في ذات الوقت الى بقية القبائل اليمانية فالمؤكد أنه لم يكن معارضاً للسلطة. وكذلك حال جرير بن عبد الله البجلي. ولا غرابة في ذلك لأن عثمان كان يراعي أمثال هؤلاء ولا يتقلع عن منحهم مناصب وامتيازات تضمن له ولاهمهم. وعلى الرغم من تحفظي على مجمل روايات سيف بن عمر إلا أنني أجدني أقبل أساس فكرته التي احتوتها روايته⁽²⁾ التي يذكر فيها أن سعيد بن العاص كان قد بعث الزعماء القبليين في الكوفة حكماً لمنطقة تابعة لولاية الكوفة: الأشعث بن قيس على آذربيجان، وسعيد بن قيس على الري، والسائب بن الأقرع على أصبهان، وجرير بن عبد الله على قرقيسيا وغيرهم، ويختتم سيف روايته «وخلت الكوفة من الرؤساء إلا متزوعاً أو مفتوناً»⁽³⁾.

(1) سيلعب دوراً مهماً خلال عهد الامام علي، وسوف يأتي الحديث عنه بالتفصيل.

(2) تاريخ الطبري (ج3 ص371)

نسب القبائل العربية النزارية



مالك الاشر

فيما يلي ترجمته كاملة كما رواها اللهي في سير اعلام النبلاء :
«مالك العرب، مالك بن الحارث النخعي، أحد الأشراف والأبطال
المذكورين.

حدث عن عمر، وعن خالد بن الوليد. وفقت عنه يوم اليرموك. وكان
شهما مطاعا زمرا. ألب على عثمان وقاتله. وكان ذا فصاحة وبلاغة.
شهد صفين مع علي، وتميز يومئذ، وكاد أن يهزم معاوية، فحمل عليه
أصحاب علي لما رأوا مصاحف جند الشام على الأستة يدعون إلى كتاب الله.
وما أمكنه مخالفة علي، فكف.

قال عبد الله بن سلمة المرادي: نظر عمر إلى الأشر، فصعد فيه النظر
وصوبه ثم قال: إن للمسلمين من هذا يوما عصيا.

ولما رجع علي من موقعة صفين، جهز الأشر واليا على ديار مصر،
فمات في الطريق مسموماً. قيل: إن عبداً لعثمان عارضه، فسم له عسلاً.

وقد كان علي يتبرم به لأنه كان صعب المراس، فلما بلغه نعيه قال: إنا
لله مالك وما مالك؟ وهل موجود مثل ذلك؟ لو كان حديداً لكان قيداً، ولو
كان حجراً لكان صليداً، على مثله فلتيك البواكي.

وقال بعضهم: قال علي: للمنخرين والقم.

وسر يهلاكه عمرو بن العاص وقال: إن لله جنوداً من عسل.

وقيل: إن ابن الزبير بارز الأشر، وطالت المحاولة بينهما حتى إن ابن
الزبير قال: اقتلوني ومالكاً. واقتلوا مالكاً معي.

وقد ساهم الأشر في الفتوحات وكان له دور بارز في فتح دمشق

(1) مصادر هذا البحث: سير اعلام النبلاء للهي (ج 4 ص 34)، تاريخ دمشق لابن عسك
(ج 56 ص 380 وص 390 وص 378 و ص 389)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
(ج 6 ص 78 و ص 73 و ج 15 ص 101)، رجال النجاشي (ص 203)، أميان الشيعة للسيد
محسن الأمين (ج 9 ص 39).

والشام تحت إمرة خالد بن الوليد. وقد تحدث ابن عساكر في تاريخ دمشق عن قتال بطولي خاضه الاشترا مع فرسان الروم في اليرموك وخروجه متصراً من تلك المنازل الخطرة.

ولأمير المؤمنين علي بن أبي طالب شهادة عظيمة بحقه. فقد كتب لأهل مصر حين أرسله والياً عليهم:

روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة من طريق المدايني أن علياً كتب لأهل مصر لما أرسل الأشتر عليهم والياً فلما بعد.. فقد وجهت إليكم عبداً من عباد الله لا ينال في الخوف، ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر. أشد على الكافرين من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر، أخو مذحج. فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نافي الضربة ولا كليل الحد. فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فأنفروا، وإن أمركم أن تحجموا فاحجموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمر. وقد أكثركم به على نفسي لنصيحتي وشدة شكيته على عدو..⁽¹⁾

ورواها أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق الشعبي:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى الملائكة الذين غضبوا لله من بعدما عصي الله في الأرض وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر، فلا حق قال يترجع إليه ولا منكر يتأخر عنه. سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: فإني قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا نافي الضربة ولا كليل الحد ولا ينال في الخوف ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر. أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج. وإنه سيف من سيوف الله فإن استفركم فأنفروا إن أمركم بالإقامة فأقيموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمر. وقد أكثركم به على نفسي لنصيحتي لكم وشدة شكيته على عدوكم...⁽²⁾

(1) وروى ابن أبي الحديد هذه الرواية أيضاً عن الشعبي وبألفاظ قريبة من هذه، بل وفيها إضافة «وأبعد الناس من دنس أوعار»

(2) وقد أخرجت المصادر الشيعية هذا النص بنفس هذه العبارات تقريباً. ومنها رجال النجاشي الذي أورد مخالطة الإمام علي لأهل مصر عن طريق الشعبي عن صحبة ابن صوحان.

وكتب عنه ابن أبي الحديد في شرح النهج «فأما ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه في هذا الفصل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل، ولعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك، كان شديد البأس، جواداً رقيقاً حليماً فصيحاً شاعراً، وكان يجمع بين اللين والعنف، فيسطو في موضع السطوة، ويرفق في موضع الرفق»

وللأشتر مكانة رفيعة لدى الشيعة. وهكذا ورد وصفه في كتاب أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين:

«كان من زعماء العراق الأشداء، فارساً صنديلاً لا يشق له غبار، شديد البأس رئيس أركان الجيش لعساكر أبي الحسن (ع) في معاركه. وهو من لهاميم مذبح الأبطال المغاوير وسيد قروم النخع وشجعانها المساعير. ومن رواسي الجبل في الحلم ومن السحاب الثقل في الكرم والسخاء. وكان الأشتر بالكوفة أسود من الأحف بالبصرة. أما في السياسة فكان من الأكياس الحازمين، يجمع بين اللين والعنف فيسطو في موضع سطو ويرفق في موضع الرفق. وقد شهد له بذلك أمير المؤمنين (ع) فقال عنه: أنه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته، ولا بطؤه عما الأسراع إليه أحزم ولا أسراعه إلى ما البطء عنه أمثل. وهو خطيب منبر وقائد عسكر وشاعر ناثر. وقد استطاع أن يخمد بذلاقة لسانه من الفتن العمياء ما أحيى السيف أطفأوه في كثير من المواقف والمشاهد التي نصر فيها الحق وحارب الباطل».

كان أمير المؤمنين (ع) حين رجع عن صفين رد الأشتر إلى عمله بالجزيرة، فلما اضطربت مصر على محمد بن أبي بكر استدعى أمير المؤمنين (ع) الأشتر إليه وهو يومئذ بتبسيين وأرسل إليه هذا الكتاب: أما بعد فإني ممن استظهر به على إقامة الدين وأقمع به نخوة الأليم وأسد به الشفر المخوف. إلى أن يقول: فأقدم علي للنظر فيما ينبغي واستخلف على عملي أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام. فاقبل الأشتر إلى علي فلما دخل عليه حدثه حديث مصر وخبره خبر أهلها، وقال له: ليس لها غيرك فإخرج إليها رحمتك الله فإني لا أوصيك اكتفاء برأيك واستعن بالله على ما أمرك واخلف الشلة باليمن وارفق ما كان الرقيق أبلغ وأحزم على الشلة حين لا يغنى عنك الا شلة.....

ولما بلغ علياً موت الأشتر، قال: انا لله وانا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، اللهم اني احسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر، ثم قال: رحم الله مالكا فقد كان وفياً بعهده وقضى نجه ولقي ربه. مع اننا قد وطنا أنفسنا ان نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله، فإنها من أعظم المصائب. وحدث أشياخ النخع قالوا: دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موت الأشتر فوجدناه يتلف وتأسف عليه، ثم قال: لله در مالك وما مالك ؟ ! والله لو كان من جبل لكان فندا ولو كان من حجر لكان صلداً، اما والله ليهون موتك عالماً وليفرحن عالماً، على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل موجود كمالك ؟ ! قال حلقمة بن قيس النخعي: فما زال يتلف وتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا، وعرف ذلك في وجهه أياماً. ومن أقوال أمير المؤمنين فيه: كان لي كما كنت لرسول الله .

وسئل بعضهم عن الأشتر فقال: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام وهزم موته أهل العراق .»

ويحكم قريه من الامام علي، ولكونه من أهم الشخصيات التي اعتمد عليها علي في فترة حكمه وإدارته، فقد كان نصيبه كبيراً من الاتراءات والتهم التي كان وراءها بنو أمية ومن شايعهم. ويمكن ملاحظة عدد وافر من الروايات الملفقة المتعلقة به. ومن ذلك الرواية الواردة اعلاه لدى الذهبي والتي تقول ان عمر بن الخطاب نظر اليه وتنبأ بأن «للمسلمين من هذا يوماً عصياً»، فبعد أن أوردها ابن عساكر في تاريخ دمشق أردف بأن يحيى بن معين قد جزم بعدم صحة سندها.

ومن ذلك أيضاً ما يرويه ابن عساكر عن الشعبي من أن علياً كان غاضباً عليه الى حد أنه قال حين بلغه خبر وفاته «لليدين وللغم» فكيف يكون علي قالياً له ثم يرسله في تلك المهمة الشديدة الصعوبة والأهمية (انقاذ مصر من السقوط)؟

الفصل الثالث: حال البصرة⁽¹⁾

كانت البصرة قد شهدت في عهد عثمان نموا كبيرا، نتج أساسا عن تزايد حركة الفتوحات في إيران، والتي لعبت البصرة فيها دورا كبيرا، فاق دور جارتها الأهم: الكوفة.

وفي ظل ولاية أبي موسى الأشعري تمكن مقاتلة البصرة من فتح اقليم الاحواز، وفتح قم، وقاشان وأصبهان والمساهمة مع مقاتلة جبهة البحرين في فتح أجزاء من اقليم فارس. وأسفر ذلك عن غنائم كثيرة ساعدت على اجتذاب أعداد جديدة من المقاتلين العرب، وأدى ذلك إلى زيادة عدد سكان البصرة.

وفي ولاية عبد الله بن عامر ازدادت أهمية البصرة الإدارية، واتسعت مهامها العسكرية في المنطقة الواقعة شرق خليج فارس، مما أدى إلى زيادة هجرة قبائل عبد القيس والأزد إليها، وبالتالي تضخم عدد السكان فيها، وتمكن مقاتلوها من فتح اقليم فارس وكرمان وسجستان وخراسان. وازدادت موارد البصرة كثيرا. وأخذت المدينة تنمو بسرعة، فاستوطن فيها تجار وأصحاب مهن من العرب والأعاجم.

سياسة ابن عامر في البصرة

فكما هو متوقع من شاب قرشي متبرف، قريب القرابة من الخليفة، لم

(1) مصادر هذا البحث: اسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص191)، تاريخ الطبري (ج4 ص12) و (ج3 ص373)، كتاب المنطق في اخبار قریش لمحمد بن حبيب البغدادي (ص390)، أساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص172) و كتاب الفتوح لابن أحمم الكوفي (ج2 ص393).

يكن يرى بأساً في الاستمتاع بالثروات التي كانت تنهال من غنائم الفتوحات، ومن ذلك ما ذكره ابن الأثير في ترجمته في اسد الغابة «هو أول من لبس الخبز بالبصرة. لبس حبة دكتاه فقال الناس: لبس الأمير جلد دُب، فلبس حبة حمراء»

وربما كان يبالغ في نفقاته وعطاياه من بيت المال إلى حد التبذير. وربما لذلك وصفه ابن الأثير «وكان أحد الأجواد الممدوحين». ولا بد من التساؤل عن صفة الجود هذه لدى ابن عامر: فإن كان المرء يَجُود بِحَرِّ مَالِهِ، الذي تعب من أجل كسبه بالكدح الحلال، فذاك هو الجود. وأما إن كان يتصرف بالمال العام، ويستغل ولايته في التحكم بأموال الدولة، فذاك ليس جوداً ولا كرمًا. وقد أشار ابن عامر في معرض اقتراحه على الزبير وطلحة بالمسير إلى البصرة إلى أن من أسباب ذلك أن له بها «صنائع»، كما سيأتي في موضعه.

وقد روى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف أن يزيد بن قيس الازهي، وهو من قيادات جيش علي في صفين، ذكر بعضاً من مساوئ ابن عامر في معرض خطبة ألغها لحث العراقيين على القتال «... وعبد الله بن عامر، السفيه الضال، يُجيز أئمتهم في مجلسه بمثل دية أبيه وجاهه، يقول: هذا لي ولا إثم علي! كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه! وإنما هو مال الله عز وجل، أفاءه علينا وأسبغنا وأرماحتنا...»

وقد ذكر ابن حبيب البغدادي حادثة طريفة يظهر منها مدى الاستهتار بولاية أمر الناس الذي كان يظهره بعض أفراد عائلة عثمان أحياناً: «سأذن عامر بن كريز عثمان في زيارة ابنه عبد الله في البصرة، فأذن له. فشنخس إليه.

فلما صعد عبد الله المنبر وكان خطيباً، أخذ عامر يذكر نفسه وجعل يقول لمن ياله: أنثرون أميركم هذا؟ من هذا خرج، وأشار إلى متاعبه! فلم يده عبد الله بقيم، وأحسن جهازه وتترحه إلى المدينة خوفاً الفسحة»

ولاشك بأن الكثيرين من الرعية كانوا يراقبون ذلك النوع من التصرفات بتركيز شديد.

ورغم تلك المثالب التي خالطت سلوكه الشخصي، إلا أن ابن عامر لم يكن خاملاً ولا كسولاً. وقد سبق وذكرنا أنه تابع بكل همة وحماس تنفيذ السياسة الاستراتيجية للدولة، وهي الفتوحات والمزيد منها. قال ابن الأثير في ترجمته في اسد الغابة «افتتح خراسان كلها، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان، وهي أعمال غزنة. أرسل الجيوش ففتح هذه الفتح كلها. وفي ولايته قتل كسرى يزديجرد» كما يبدو أنه كانت له قرارات إدارية وتنظيمية مهمة في البصرة. يضيف ابن الأثير «وهو الذي اتخذ السوق بالبصرة. اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً»

وقد كانت بوادر التذمر والرفض لسياسة عثمان وواليه، عبد الله بن عامر، موجودة في البصرة، فقد تذاكر مجموعة من أهل البصرة أعمال عثمان، وقرروا إرسال أحدهم إليه ليكلمه في مأخذ الناس عليه. فلما وصل المدينة دار بينه وبين الخليفة حوار قاس!

روى الطبري في تاريخه عن جعفر بن عبد الله المحمدي :

«اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع. فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه. فأرسلوا إليه عامر بن عبد الله التميمي ثم العنبري، وهو الذي يدعى عامر بن عبد قيس.

فأتاه فدخل عليه فقال له: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت أمورا عظيماً. فأتى الله عز وجل وتب إليه.

قال عثمان: انظر إلى هذا! فإن الناس يزعمون أنه قارئ، ثم يجيء فيكلمني في المحقرات. فوالله ما يدري أين الله!

قال عامر: أنا لا أدري أين الله!

قال: نعم! والله ما تدري أين الله.

قال عامر: بلى والله إني لأدري أن الله لك بالمرصاد»⁽¹⁾

(1) ويلاحظ هنا تشابه العبارات وسياق الحديث مع النص الذي أوردناه من كتاب الفتح لابن أحم الكوفي (ج2 ص393)، والذي يتحدث عن كتب بن عبيدة التهدي من أهل الكوفة والذي تيجراً وأرسل لثمان كتاباً استعرض فيه مخالفاته ودعاه إلى الكف عنها.

والظاهر ان عثمان قام بنفي عامر هذا الى الشام. ولكن أسباب الخلاف بين عامر هذا وبين الخليفة عثمان والتي تحدثت عن مطالبة الخليفة بتقوى الله ومعارضته لسياساته يبدو انها لم ترق لسيف بن عمر! فذكر سيف ان عامراً (كما مر سابقاً) تم نفيه من البصرة الى الشام لأنه كان يرفض أكل اللحم والزواج وحضور صلاة الجمعة!

وقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة باختصار، في معرض ترجمته لعبد الله بن عامر «وهو الذي سب عامر بن عبد القيس العبدى من البصرة الى الشام»

وأما رواية البلاذري في أنساب الأشراف فتقول ان قدوم عامر هذا كان بسبب وشاية تعرض لها وأن عثمان قد عفا عنه لما رآه من صلاحه. فقال نقلاً عن أبي مخنف «كان عامر بن عبد قيس التميمي يتكر على عثمان امره وسيرته. فكتب حمران بن أبان مولى عثمان، الى عثمان بغيره. فكتب عثمان الى عبد الله بن عامر بن كريز في حمله فحمله.

فلما قدم عليه فرآه، وقد أعظم الناس إشفاقه وإزعاجه عن بلده لعبادته وزهده، ألطفه وأكرمه وورده الى البصرة»

وهناك إشارات تدل على أن سياسة عثمان وولائه في التركيز على الفتوحات الجديدة والمتواصلة، خاصة في إيران، أدت إلى نوع من الإثناك لمقاتلي القبائل العربية. فعلى الرغم من أن الفتوحات كانت تؤدي إلى غنائم ضخمة جداً، وهو ما كان يحفز أبناء قبائل العرب على الانخراط في «الجهاد» الذي غدا مصدر الدخل الرئيسي للدولة الإسلامية كلها منذ أيام عمر، إلا أن ذلك كان له ثمنه المتمثل في ضرورة المحافظة على تواجد عسكري عربي في المناطق المفتوحة، أو «الثغور». وكان ذلك يعني وجود حاميات مقاتلة عربية في أعماق إيران. ومن المحتمل أن يكون المقاتلون العرب واجهوا صعوبات في التأقلم مع طبيعة المناطق الإيرانية المختلفة عن جزيرة العرب تماماً. وربما كان المقاتلون غير مرتاحين لوجودهم ضمن بيئة محلية معادية لهم. وكان على والي البصرة أن ينظم مسألة الحاميات العربية داخل بلاد فارس، أعدادها ومواقعها، وعطوط الامداد والاتصال، وأيضاً التبديل الدوري

للأفراد في تلك الثغور. وبالأجمال، كان المقاتلون الموكلون بمهمة السيطرة على مناطق داخل إيران، يستبدلون مرة واحدة كل 4 سنوات. وهذه فترة طويلة جداً بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يتوقون للعودة إلى أهلهم وقبائلهم في البصرة. وهذه ستكون إحدى مصادر الشكوى التي سيعبر عنها بالقول «تجمر البعوث». ويبدو أن عبد الله بن عامر كان يتتبع سياسة متعمدة في المبالغة في النشاط العسكري وإطالة مدة إقامة العسكر في المناطق المفتوحة.

ولكن من المؤكد أن معارضة الخليفة عثمان في البصرة كانت أقل حدة بكثير من تلك الموجودة في شقيقتها الكوفة. وسوف يظهر ذلك بجلاء في قادم الأيام حيث ستقسم البصرة بين مؤيد للإمام علي ومؤيد لخصومه المطالبين بدم عثمان قبيل معركة الجمل، بخلاف الكوفة التي منحت علياً تأييداً تاماً.

الفصل الرابع: عثمان يشعر بالخطر

اجتماع القمة بين عثمان وعَمَّالِه⁽¹⁾

لما كثرت الشكايات والاضطرابات في عدة ولايات، وتحت العديد من العناوين، صار لا بد أن يتحرك الخليفة قبل قوات الأوان. كان عليه أن يتخذ القرارات ويحدد السياسات لمواجهة الموقف المتأزم. ولذلك قرر عثمان عقد اجتماع على أعلى مستوى مع قياداته وأركان حكمه. والاجتماع كان مهماً جداً لأنه كان الفرصة الأخيرة للخليفة لمنع الانهيار الشامل. كان متوقفاً من عثمان في ذلك الاجتماع أن يقوم بمحاسبة ولاته على تقصيرهم وأخطائهم. كان الوقت وقت تفسير خاصة وأن هؤلاء كانوا في مناصبهم منذ سنوات عديدة وقد تسببوا في تدهور الأمور وأسأوا إلى سمعة الخليفة ومكانته. ولكن عثمان أظهر فشلاً جديداً لقد أسفر الاجتماع المتظر عن إعادة الثقة بنفس هؤلاء الولاة لم يحاسب مقصراً ولم يعزل أحداً ولم يبدل شيئاً. قرر الخليفة الاستمرار على نفس النهج، ويكمل بساطة!

ذكر ابن شبة النميري في تاريخ المدينة «حدثنا هارون بن عمر قال، حدثنا أيوب بن سويد قال، حدثنا مطرف بن أبي بكر الهذلي، عن أبيه، عن الزمري قال، كان أمراء الأجناد يقدمون على عثمان في كل عام، فقدم عليه ابن أبي سرح من مصر، ومعاوية من الشام، وعبد الله بن عامر من البصرة، وسعيد بن العاص من الكوفة.

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1096)، تاريخ الطبري (ج3 ص373-374 و ص379-381)، الكامل لابن الأثير (ص389 ص391)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص143) وكتاب الفتح لابن أحم (ج2 ص388-389)

فقال لهم عثمان: يا بني أمة! أنتم بطانتي دون ظاهري. وقد أكثر الناس شكايي حتى تناولني بها البعيد، وأذاني بها القريب. فأشيروا عليّ.

فأشار عبد الله بن عامر -وكان امرءً سخياً- فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس إنما يرضيهم ما أسخطهم. وفي هذه الأموال، فأعطهم منها، تستل بذلك سخائم صدورهم وضمائر قلوبهم وضمائرها.

ثم تكلم ابن أبي سرح فقال: يا أمير المؤمنين، إن لك عليهم حقاً ولهم عليك حقاً. فأعطهم حقهم عليك وخذهم بحقك عليهم. واتبع سنة الذين قبلك يجتمعوا عليك بالرضى.

ثم تكلم سعيد بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد أمروا وجموا حتى كبرت كبراهم، فابعثهم جيوشاً وجنّهم في المغازي، حتى تكون دبرة دابة أحدهم أهم إليه من التفكير في أمر الأمة.

ثم تكلم معاوية فقال: يا أمير المؤمنين: إنك قد بلغت من صلتنا ما يبلغه كريم قوم من صلة قوم. حملتنا على رقاب الناس وجعلتنا أوتاد الأرض. فليكنك كل رجل منا مصرّة. وسأكتبك الشام. فلن تؤتى من الشام أبداً.

فأخذ عثمان يقول معاوية ورد عماله إلى أمصارهم

إلا أن معاوية كان يستشعر الخطر الداهم على حياة الخليفة وكان يدرك أنه ليس بالإمكان الاستمرار في تجاهل ما كان يحصل على أرض الواقع من تطورات خطيرة. أدرك معاوية أن الزمان قد تجاوز الخليفة المعجوز.

يتابع ابن شبة الرواية ويحدث عن اقتراحات عرضها معاوية على الخليفة فقال له معاوية رضي الله عنه: اخرج معي إلى الشام فهم شيعتك وأنصارك.

فقال: ما كنت لا فأارق مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده ومنازل أزواجه.

قال: فإذ أبيت فإذن لي أجهز إليك جيشاً من الشام تطأ بهم من رابك.

قال: لا أكون أول من أذل المهاجرين. قال: فلا تخرج ولا تأذن لي أوجه إليك جيشاً ؟ أنت مقتول. ثم خرج إلى المسجد وفيه نقر من المهاجرين فقال: أوصيكم بشيخي هذا خيراً، والله لئن أحدثتم فيه حدثاً لا أعطيكم إلا السيف. فقال بعضهم: ألا تسمعون لما يقول هذا ؟ فرد عليهم آخرون: لا تلوموه أن يتكلم في ابن عمه

وفي رواية أخرى لدى ابن شبة، عن الليث بن سعد، كانت اقتراحات معاوية على الصيغة التالية :

فقام فدخل على عثمان رضي الله عنه، فقال: معاوية ؟

قال: نعم

قال: ما جاء بك ؟

قال: الذي بلغني من أمرك وأمر أصحابك، ثم أخبره بما كلم به علياً وأصحابه، وما أجاه به علي^(١)، ثم قال له: إني قد جئت معي بظهور فاركب الآن فأقدم على أهل الشام، فإنك أحب الناس إليهم حتى ترى رأيك .

فقال: ما أريد أن أفر.

قال: فأذن للناس في القتال.

قال: لا أريد أفتح سنة السور

قال: فبقيت أخرى، إن رأيت أن تردني إلى عملي فافعل.

قال: نعم، ولاك من هو خير مني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاخرج إلى عمك .

فركب ثم قال لمن حضره: يا أهل المدينة دونكم جزوركم - يريد عثمان - وستعلمون كيف العاقبة *

وهذه الاقتراحات يمكن الشك فيها، بل واستبعادها. فمعاوية ولا شك

(١) وسباني الحديث عن كلام معاوية لعلي وكبار الصحابة

يدرك مدى ارتباط الخليفة العجوز بمدينة رسول الله (ص) واستحالة انتقاله منها. واما طلبه الاذن في القتال أو قوله «دونكم جزوركم» فمما لا يمكن قبوله. إلا أن ذلك لا ينفي إمكانية أن يكون معاوية اقترح على عثمان ارسال قوة حراسة لحمايته ولرد أي اعتداء عليه. فمعاوية رجل دولة محنك ولا يقبل عقله فكرة ان يكون قائد الدولة كساتر الناس بلا حرس.

وقد أخرج الطبري في تاريخه روايتين متشابهتين عن جعفر المحمدي بشأن اجتماع القمة، ضمن أحداث سنة 34:

فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وإلى سعيد بن العاص وإلى عمرو بن العاص وإلى الوليد السهمي وإلى عبد الله بن عامر، فجعلهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه وما بلغه عنهم .

فلما اجتمعوا عنده قال لهم: إن لكل امرء وزرعه ونصحائه، وإنكم ووزرائي ونصحائي وأهل ثقتي. وقد صنع الناس ما قدر رأيتم وطلبوا إلي أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلي ما يحبون. فلجهدوا رأيكم وأشيروا عليّ. فقال له عبد الله بن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجتبرهم في المغازي حتى يفلأوا لك، فلا يكون همّة أحدهم إلا نفسه وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه.

ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له: ما رأيك؟

قال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد رأينا فأحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف، واحمل برأيي نجيب.

قال: وما هو؟

قال: إن لكل قوم قادة متى تهلك يضرقتوا ولا يجتمع لهم أمر.

فقال عثمان: إن هذا الرأي لولا ما فيه .

ثم أقبل على معاوية فقال: ما رأيك؟

قال: أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترة عمالك على الكفاية لما قبلهم. وأنا ضامن لك قبلي.

ثم أقبل على عبد الله بن سعد فقال: ما رأيك؟

قال: أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال
تعطف عليك قلوبهم.

ثم أقبل على عمرو بن العاص فقال له: ما رأيك؟

قال: أرى أنك ركبت الناس بما يكرهون. فاعتزم أن تعتدل فإن أبييت
فاعتزم أن تعتزل. فإن أبييت فاعتزم عزماً وامضي قدماً

فقال عثمان: مالك قمل فروك؟ أهذا الجد منك؟

فأسكت عنه دهرأ حتى إذا تفرق القوم قال عمرو: لا والله يا أمير
المؤمنين، لأنت أعز علي من ذلك. ولكن قد علمت أن سيلغ الناس قول
كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولي فيقتوا بي، فأقود اليك خيراً أو أدفع عنك
شرأ⁽¹⁾

وفي الرواية الثانية عن جعفر المحمدي ذكر نتيجة مباحثات عثمان مع
قيادات العليا، وهي: قرائته بمزيد من التشدد تجاه رعيته:

«قرء عثمان عماله على أعمالهم. وأمرهم بالتضييق على من قيلهم.
وأمرهم بتجمير الناس في البعوث. وعزّم على تحريم أعطياتهم ليطيقوه
ويحتاجوا إليه»

وفيما يلي رواية ابن أحم الكوفي في كتاب الفتوح ضمن سياق إسناده
الجمعي نقلاً عن شيوخ الأخباريين:

«قال أبو محمد أحمد بن أحم الكوفي حدثني أبو الحسين علي بن محمد
القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن مجاهد عن الشعبي وأبي محصن عن
أبي وال، وعلي بن مجاهد عن أبي إسحاق، قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال:
حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي الأسلمي قال: وحدثني
إسحاق بن يوسف الفزاري قال: حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب

(1) ولد روى ابن خلّون في تاريخه نفس هذه الرواية تقريباً، مع اختصار قليل وودون ذكر
كلام عمرو بن العاص، وذلك من ضمن أحداث العام 34.

قال: حدثني لوط به يحيى بن سعيد الأزدي عن الحارث بن الحصين بن عبد الرحمن بن عبيدة والنضر بن صالح بن حسين بن زهير قال: وحدثني عمران بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن يزيد عن صالح بن إبراهيم وزيد بن عبد الرحمن الواقفي وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سرا وعلانية .

وقد جمعت ما سمعتُ من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثا واحدا على نسق واحد»

«ذكر قدم عمال عثمان عليه لما كثرت شكايه الناس منهم .

قال: فأرسل عثمان إلى جميع عماله فأشخصهم إليه من جميع البلاد، ثم أقبل عليهم فقال: يا هؤلاء ! إنه قد كثرت شكايات الناس منكم، فأما القريب فقد بادعني وأما البعيد فما نالوا جهدا، فماذا عندكم من الرأي؟

قال: فتكلم عبد الله بن عامر بن كريز وقال: يا أمير المؤمنين ! إنه ليس يرضي الناس عنك إلا ما أسخطهم عليك، فإن الناس إنما تقموا عليك لأجل هذا المال، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك ولا يشكوك أحد بعد ذلك. قال: ثم تكلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال: يا أمير المؤمنين ! إن لك على الناس حقا في كتاب الله ولهم عليك مثل ذلك، فادفع إليهم حقوقهم واستوف منهم حقتك، فإنه قد ولي أمر هذه الأمة من قبلك رجلين خيرين فاضلين أبا بكر وعمر فسارا بسيرة، فسر بسيرتهما واستسن بسترتهما واعمل بعملهما، يرضى الناس عنك ولا يشكوك أحد.

قال: ثم تكلم سعيد بن العاص فقال: لا والله يا أمير المؤمنين ! ما دعا الناس أن تقموا عليك إلا الحمام والفراغ من الحروب، وذلك أن العرب اليوم جلست في المحافل وتحدثت بالأحاديث، فاشغل العرب بالفترو وقتل بهم العدو حتى لا يرجع أحدهم، إذا رجع إلى منزله قد أهنت نفسه لا يفرغ لعيب الأمراء.

قال: ثم تكلم معاوية فقال: يا أمير المؤمنين ! إنك قد جمعتنا وذكرنا أنه قد كثرت الشكايات منا وأنت قد ملكتنا رقاب الناس وجعلتنا أوتادا في

الأرض، فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى تكفيك ما قبله ولا يكون
ههنا شكاية أحد ولا ينقم أحد عليك .

قال: فعلم عثمان أن الرأي ما قال معاوية، فعزم على أن يرد عماله إلى
بلادهم وأعمالهم، ثم أوصاهم وعهد إليهم وحذرهم الشكايات، فرجع
معاوية إلى الشام، وعبد الله بن عامر إلى البصرة، وسعيد بن العاص إلى
الكوفة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر، فلم يزدادوا على الناس إلا
غلظة وجنفا وجورا في الأحكام وعدولا عن السنة .

ومن المؤكد أن البطانة الأموية للخليفة، مروان بن الحكم بالذات، كان
لها الدور الأبرز في إقناع عثمان بأن الاستجابة لمطالبات عامة الرعية إنما هو
ضعف لا يليق بالخليفة بل إنه سيؤدي إلى المزيد من المطالب، وأن الأنسب
هو مزيد من الشدة والحزم والمزيد من التفويض والصلاحيات لولاته ذاتهم،
بعد تجديد الثقة بهم.

وقد ورد في الكامل لابن الأثير خبر اجتماع عثمان بولاته مرتين: واحدة
ضمن أحداث عام 34 والثانية في عام 35. ولكن من المستبعد أن يكون حصل
اجتماع قمة في عام 35 لأنه كان العام الذي حوصر فيه الخليفة وقتل وهو
وحيد.

سيف بن عمر ينفي وجود أسباب حقيقية للشكوى من عثمان وولاته
كما أخرج الطبري في تاريخه رواية سيف بن عمر بشأن اجتماع القمة،
وهو المتخصص في الدفاع عن عثمان، وقد جعل الاجتماع ضمن أحداث
سنة 35.

واستبق سيف روايته بخبر عن إرسال عثمان مجموعة من الصحابة إلى
الأصهار (الكوفة والبصرة ومصر والشام) لكي يتحققوا من أوضاعها وما
يصله من شكايات ضد ولايتها. فرجعوا كلهم بأخبار تمتدح ولادة الأصهار «ما
أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم إن أمراءهم يقسطون
بينهم ويقومون عليهم» باستثناء عمار بن ياسر.

وأنتج سيفٌ خبر عودة الصحابة بأحسن الأخبار عن أوضاع الأمصار
برواية تفيض مدحاً للخليفة الذي كتب لأهل الأمصار قائلاً لهم «أما بعد، فإني
أخذُ العمال بموافاتي في كل موسم. وقد سلطتُ الأمة منذ وليتُ على الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع على شيء ولا على أحد من عوالي إلا
أعطيته. وليس لي ولعوالي حق قبل الرعية إلا شروكٌ لهم. وقد رفع إلى أهل
المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرون يفسدون. فإني من ضرب سراً وشتم سراً
من اتهم شيئاً من ذلك فليوافي الموسم فليأخذ بحقه حيث كان، مني أو من
عوالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين.

فلما قرئ في الأمصار أبكى الناس ودعوا العثمان وقالوا إن الأمة لتستخض
بشر»

وبعد هذه المقدمة يروي سيف خبر اجتماع القصة بصياغة مدروسة
بكل عناية للدفاع عن الخليفة وكل ولائه: فعثمان يسألهم «ويحكم! ما هذه
الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، ولا
يعصب هذا إلا بي» فيجيبوه «ألم تبت؟ ألم نرجع اليك الخبر عن القوم؟ ألم
يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء؟ لا والله ما صدقوا ولا بؤروا ولا نعلم لهذا
الأمر أصلاً، وما كنت لتأخذ به أحداً فيحكم على شيء. وما هي إلا إذاعة لا
يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها» ثم أكد سيف، على لسان سعيد بن العاص أن
الأمر لا يعدو كونه مؤامرة دبّرت في الظلام فعند أمر مصنوع، يصنع في السر،
فيلقي به غير ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم ويستمر سيف
إلى أن ينهي روايته بخطة جميلة لعثمان «... وقد علم الله أنني لم أُل الناس
خيراً ولا نفسي، والله إن رحي الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم
يحركها». فكفّفوا الناس، وحبوا لهم حقوقهم، واغضروا لهم، وإذا تموطيت
حقوق الله فلا تدعوا فيها»

وهكذا يريد سيف أن نصّدق أن الأمر كله كذب في كذب: فلا ظلم في
الأمصار بل ولاية عادلون راعون. والمشكلة كلها إشاعات غيبة يطلقها بعض
راعيي الفتن. ولما تأكد الخليفة من ذلك ثبتّ ولائه ذاتهم في مناصبهم، لأنهم
وبكل بساطة: مُفترى عليهم.

معاوية يُحذر كبار الصحابة⁽¹⁾

وتوجد الكثير من الروايات التي تتحدث عن قيام معاوية بالحديث مباشرة إلى أهل الشورى وكبار الصحابة محذرا إياهم بشكل صريح من مغبة التخلي عن الخليفة المعجوز. وليس هناك ما يمنع من قبول مجمل تلك الروايات لأنها تتسجم مع خط معاوية وأسلوبه. ويمكن اعتبار تاريخ المدينة لابن شبة النعماني من أكثر المصادر استرخاضا لتحذيرات معاوية. والظاهر أن تحذيرات معاوية تلك حصلت بعيد اجتماع القمة بين عثمان وعماله في موسم الحج سنة 34 للهجرة.

وفي أولى الروايات لابن شبة قال

«حدثنا محمد بن سعيد الدمشقي قال، حدثنا عبد الكريم ابن يزيد، عن موسى بن محمد بن طلحة، عن أبيه قال: إني لمع أبي في المنزل حين أتاه رسول عثمان يدعوه، فقام يلبس ثوبه، ثم أتاه رسول ثان، ثم أتاه رسول ثالث، فانطلق وانطلقت معه فإذا عثمان جالس وعنده المهاجرون وعيون الأنصار وفي قعدة قدمها مع معاوية» ثم يذكر كلاما لعثمان يدافع فيه عن سياساته إلى أن يصل إلى كلام معاوية.

«فقال معاوية رضي الله عنه: إنكم معشر المهاجرين قد علمتم أنه ليس منكم إلا قد كان في عشيرته من هو أشرف منه، بعث الله رسوله فأمرعتم إلى الله، وأبطأوا عنه، فسلمتم عشائركم حتى إنه ليقال بنو فلان، رهط فلان، وإن هذا الأمر ثابت لكم ما استقمتم، فإني قد أراكم وما تصنعون، وإني والله لئن لم تتركوا شيخنا هذا يموت على فراشه ليدخلن فيكم من ليس منكم».

فقال علي رضي الله عنه: وما أنت وهذا يا ابن اللعناء؟

فقال معاوية رضي الله عنه: مهلا أبا حسن، فوالله ما هي بأخس تسالكم،

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة النعماني (ج 3 - ص 1091 - 1098)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 382)، الأمانة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 46-48)، تاريخ دمشق لابن حسكان (ج 39 ص 308).

ولقد أسلمت وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته وصافحته، وما رأيته صافح امرأة قط غيرها

قال: فنهض علي رضي الله عنه مغضبا، فقال له عثمان رضي الله عنه: اجلس. قال: لا أجلس. قال: عزمت عليك. فأبى، فأخذ عثمان رضي الله بطرف رداءه، فتركه من يده وخرج^(١).

وهذا نص مشير للغاية: فمعاوية يقول إذا انصرفتم إليها الصحابة فسوف تخسرون كل شيء! لقد وصلتم إلى مكاتكم الرفيعة بفضل سبقكم إلى رسول الله (ص) وعليكم أن تحافظوا على العهد، وإلا سيدخل فيكم من ليس منكم، ويقصد نفسه طبعاً.

و ثاني روايات ابن شبة تقول «حدثنا أحمد بن معاوية قال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: أرسل عثمان إلى طلحة رضي الله عنهما يدعو، فخرجت معه حتى دخل على عثمان رضي الله عنه -قال وعنده علي وسعد والزبير ومعاوية-

فحمد الله معاوية وأثنى عليه وقال: أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرة الأرض، وولاء أمر هذه الأمة، لا يطمع في ذلك أحد غيركم، اخترتم صاحبكم من غير غلبة ولا طمع، وقد كبرت سنه وولى عمره، ولو انتظرت به الهرم - وكان قريبا - مع أنني أرجو أن يكون أكرم على الله من أن يبلغ به ذلك، ولقد فشت قالة خفتها عليكم، فما حثيتم فيه من شيء فلهه يدي به لكم، ولا تطمعوا الناس في أمركم، فوالله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم منها أبدا إلا إديارا.

فقال علي رضي الله عنه: مالك ولذاك لا أم لك .

فقال: دغ أمة فهي ليست بشر أمهاتكم، قد أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجبنني فيما أقول لك.

فقال عثمان رضي الله عنه: صدق ابن أخي....^(٢)

(١) وجدير بالذكر أن هذه الرواية، بالمعروف تقريبا، أوردها الطبري في تاريخه (ج ٣ ص 382)

وهنا يظهر معاوية كمن «يضمن» الخليفة عثمان أمام كبار متقلبيه من الصحابة «فهذه يدي به لكم»! وهذا الكلام من معاوية يعكس مدى إحساسه بقوته هو وإحراكه بأنه قد غدا العمود الفقري لنظام حكم عثمان.

وفي رواية ثالثة قال أن معاوية قد أقبل من الشام خصيصا لتحذير الصحابة «حدثنا هارون بن عمر المخزومي قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني الليث بن سعد :

أن معاوية رضي الله عنه لما سمع الذي كان من معاتبة - أو كلمة تشبهها - أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان أقبل من الشام بغير إذن، فدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عليا وطلحة والزبير رضي الله عنهم في ناحية المسجد يتحاورون، فسلم عليهم ثم قال: أباذن منكم؟

قالوا: نعم يا معاوية.

فقد قعد فقالوا: ما جاء بك؟

قال: الذي دخل بينكم، فإن الناس قد رأوا أن هذا الأمر ميراث لكم أيها النفر، ليس لأحد فيه حق معكم، حتى إنهم ليقولون فلان بعد فلان، وفلان بعد فلان كأنه ميراث، وإن تصلح ذات بينكم لا يطمع أحد في منازعتكم، وإن تختلفوا يدخل عليكم خيركم. قالوا: ومن ذاك؟

قال: أنا أولهم! فوقع به علي فضعف من أمره....»

ورواية رابعة تقول أن معاوية قد وجه خطابه وتحذيره إلى عموم أهل المدينة ومكة في موسم الحج «حدثنا علي بن محمد، عن عيسى بن يزيد، عن صالح ابن كيسان قال: حج عثمان ومعاوية - رضي الله عنهما - معه، فأمره عثمان رضي الله عنه،

فتكلم فقال: يا أيها الناس، إنكم قد اجتمعتم في أعظم حرمة لله، والله لا أقول في مقامي هذا إلا حقا هية لله وحرمة، وخيفة من الله

وذكر السند كما يلي «حدثني عبد الله بن أحمد بن شبيب قال حدثني أبي قال حدثني عبد الله عن إسحاق بن يحيى عن موسى بن طلحة قال ...»

وعقوبته، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين قد أنعم الله عليهم في أنفسهم، وأنعم على المسلمين بهم، فهم ولاة هذا الأمر ما بقي منهم إنسان، وهذا البلدان - المدينة ومكة - خير البلدان، فالتابعون ينظرون إلى السابقين، والبلدان ينظرون إلى هذين البلدين، وإني قد رأيتمكم بطرتم نعمكم، ونشتم في الطعن على أمركم، وإني والله إن صفقت إحدى يدي على الأخرى لم يقم السابقون للتابعين، ولا البلدان على البلدان وما هم في الناس إلا كالشجرة البيضاء في الثور الأسود، فلا ينزعن أمركم من أيديكم، ولا يخرجن من بين أظهركم، فإياكم إياكم، فرب أمر يستأني فيه وإن كره خيفة لما في عاقبته»

وفي رواية أخرى عن الهيثم بن عدي أن معاوية خاطب أهل المدينة فقال معاوية: يا أهل المدينة إن قولكم اليوم سنة على من سواكم، وحكم على من خالفكم، وقد خلى الناس بينكم وبين أمركم في هذا الرجل، فإن تركتموه حتى يمضي قام الأمر فأقمتم به، وكان لكم وإليكم، وإن أمضيتموه وأقمتم أنتمكم الناس على حكمكم وحكموا عليكم، وإن الفتنة تثبت على ثلاث: على التخنون ثم السكون ثم الخلع وهي العظمى، وفيها يصير الصغير كبيراً والشريف ضيعاً، ويقول فيها من لم يكن يسمع منه فيسمع له، ولا يقال معه»

ويلاحظ في عموم الروايات مدى انزعاج الإمام علي وفضبه من كلام معاوية، ورفضه الشديد الدخول في مناقشات معه تتعلق بمستقبل الخلافة وشؤونها. والروايات تجمع أن الإمام عليا كان يواجه معاوية بكلام حاد جارح.

وهناك رواية لدى ابن شبة تفيد بأن معاوية لجأ إلى استنزاف الإمام علي «حدثنا محمد بن حاتم قال، حدثنا نعيم بن محمد قال، حدثنا الفضل بن موسى، عن الأعشى، عن حبيب بن أبي ثابت قال :

قال معاوية لعلي رضي الله عنهما: لو تنحيت ؟ فإن هذا الرجل إن أصيب اتهموك!

فقال علي رضي الله عنه: يا قاص كذا وكذا، مالك وما هناك؟.

فقال معاوية رضي الله عنه: لا تشتم أُمِّي فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِدُونِ أُمِّهَاتِكُمْ

وتوجد رواية أخرى تذكر مواجهة بين الإمام علي ومعاوية أمام القيادات الأموية كلها «حدثنا أحمد بن معاوية قال، حدثنا الهيثم بن عدي، عن ابن عياش قال، قال عبد الله بن عباس: قدم سعيد بن العاص من الكوفة حاجاً فمرض بمكة، فدخل عليه (علي رضي الله عنه) يعودُه وعنده معاوية، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن خالد بن أسيد، فأوسعوا له عند رأسه، فسأله، فلما فرغ قال له معاوية: أيا حسن، إني قائل لك قولاً فإن كرهته فاصبر على ما تكره منه فإن من ورائه ما تحب، إنه والله ما صاحبنا غيرك، ولو سكثت عنا ما نطق من قال معك، وما ينصب أمرنا إلا بك، وإن الذين معك اليوم لعليك غداً، ولئن لا يشاك لتكونن أحب إليهم منك، وباطلنا أحب إليهم من حقك، إنك والله ما أنت بقوي على ما تريد، ولا نحن بضعفاء عما نطالب.

فقال علي: يا معاوية أفتراني أقعد أقول وتقول !! ثم خرج.

قال ابن عباس، فلقيته فعرفت الغضب في وجهه، فدخلت على سعيد بن العاص فسألته، ثم قلت لهم: كأنكم أنفرتم شيخكم ! فقال معاوية: أردنا تسكينه ففزع. فقلت: ولم؟ فوالله إنه لو قور غيور يسبق بغير مضغ، فإياكم يا بني أمية. لا تعملوا به فيمثل بكم.

كما اهتم ابن كتيبة في الامامة والسياسة بخطاب معاوية التحذيري .

فروى اولاً «قديم معاوية بن أبي سفيان على إثر ذلك من الشام، فأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر.

فقال لهم: يا معشر الصحابة أوعىكم بشيخي هذا خيراً. فوالله لئن قتل بين أظهركم لاملأنها عليكم خيلاً وزجالاتاً.

ثم أقبل على عمار بن ياسر فقال: يا عمار ! إن بالشام مئة ألف فارس، كل يأخذ المعطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون علياً ولا قرابته،

ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا
يهايون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعداً ولا دعوته!

فلما كان يا عمار أن تقعد خدأ في فتنة تتجلى، فيقال هذا قاتل عثمان وهذا
قاتل علي^(١)!

وقد أورد ابن قتيبة الرواية على نحو آخر. وفيه أن عثمان قد دعا كبار
الصحابة بعدما عاتبوه وطلب منهم أن يسمعوا إلى معاوية فإن ابن صمي
معاوية هذا قد كان غالباً عنكم وعما نلتهم مني، وما عاتبتكم عليه وعاتبتهم مني.
وقد سألتني أن يكلمكم وأن يكلمه من أراد.

فقال سعد بن أبي وقاص: وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول، إلا ما قلت
أو قيل لك؟

فقال علي: فلكم تكلم يا معاوية.

فذكر معاوية كلاماً طويلاً عن الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان إلى أن
وصل إلى بيت القصيد وهو التهديد وتذكير الصحابة بأن الزمان قد تغير مهلاً
مهلاً معشر المهاجرين! فإن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم، ومن
إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمعكم، ثم استن
عليكم بشتكم ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي...

فقال علي بن أبي طالب: كأنك تريد نفسك يا ابن اللخاء! لست كذلك!

ثم استمر معاوية فذكر كلاماً حول مكة والمدينة وكيف أن الأمصار
تشخص بصرها إليهما إلى أن قال «وليسين أمركم وأنتقلن الشك من بين
أظهركم. وما أنتم في الناس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض. فإني
رأيكم نشتم في الطعن على خليفتكم ويطرتم معيشتكم وسقوهم أحلامكم»

واضح من موقف وكلام علي بن أبي طالب، وكذلك سعد بن أبي
وقاص، أن كبار الصحابة حتى تلك اللحظة لم يكونوا يعتبرون أن من حق

(١) وربما ورد اسم عبد الرحمن بن عوف بين كبار الصحابة على سبيل الخطأ من الراوي،
لأنه كان متوفياً في ذلك الوقت.

معاوية حتى أن يثير مواضيع الخلافة والحكم للنقاش. ولم يعتبروه مؤهلاً أصلاً للكلام بهذه الأمور بوجود عثمان ووجودهم.

وقد أخرج الطبري في تاريخه خطبة معاوية هذه بروايتين: الأولى ثم ذكرها

والثانية هي رواية سيف بن عمر وفيها أن معاوية قبيل عودته إلى الشام خاطب نفراً من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي فقال «إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبون إلى رجال، فلم يكن منكم أحد إلا وفي نصيبه من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤامره

حتى يبعث الله جل وعز نبيه (ص) وأكرم به من أتبعه، فكانوا يرأسون من جاء من بعده، وأمرهم شورى بينهم، يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد. فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم، والناس تبع لهم، وإن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك، وركه الله إلى من كان يرأسهم، وإلا فليحذروا الغير، فإن الله على البذل قادر وله المشيئة في ملكه وأمره.

إنني قد خلقت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك.

ثم ودعهم ومضى.

فقال علي: ما كنت أرى أن في هذا خيراً. فقال الزبير: لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه الفلاة^(١)

وتكمن أهمية خطاب معاوية التحذيري في كونه يوضح بجلالة أن معاوية كان يتوقع تلك النهاية المأساوية لعثمان ويستعد لها. وهو يفسر فلسفة معاوية: إن أصبح الأمر أمر غلبة فأتانا لها

(١) وهذه الرواية أخرجاها ابن حساكر في تاريخ دمشق عن سيف بن عمر بسنده وقد قال الطبري وابن حساكر في ذكر السند هو شاركتهم من هذا المكان أبو حازم وأبو عثمان عن رجاله بن حبان وغيره

فلم يكن بإمكان معاوية، الذكي واللمّاح، والذي أصبح رجلَ النظام القوي في عهد عثمان، ألا يلاحظ خطورة التطورات التي كانت تجري في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان. كان معاوية يستشعر جذية الاضطرابات التي أخذت تعصف بعملة أقاليم من دولة الخلافة ومدى التهديد الذي تمثله مشاعر الاستياء والغضب الشعبي من سياسة الخليفة والتي تفتتح عرض البلاد وطولها. وفوق ذلك، كان معاوية يشعر أن عثمان قد خلق حاجزاً معيناً بينه وبين طبقة كبار الصحابة بسبب اعتماده الكلي على عائلته هو بالذات، وأن الخليفة بالتالي لم يعد يتمتع بالتأييد المناسب من هؤلاء. وربما قدّر معاوية أن الصحابة من جماعة الشورى يتوقعون أن يأتيهم الدور في خلافة المعجوز عثمان، إن وافاه الأجل أو حصل له مكروه. فقرر معاوية أن يضع النقاط على الحروف ويطلق إشارة تحذير لمن يهمه الأمر.

إن معاوية، الواقعي والعارف بتحوّلات مراكز القوى، أراد أن يذكر الصحابة من ذوي الشرعية الإسلامية، أن الزمان تغير، وأن عليهم أن يعوا ذلك ويراعوا المستجدات على الأرض. وفي خطاب معاوية ذلك تصريح بأنه سيحترم الشرعية فقط إن هي استمرت على هواه، وأنه لن يسمح بالمسّ بامتيازات بني أمية التي تأسّست في عهد عثمان على يد مجموعة أصبحت «كالشامة السوداء في الثور الأبيض»!

الجزء الرابع:

المجوم على عثمان وقتله

الفصل الاول: الهجوم على الخليفة

كان الأمر في البداية أشبه بمسيرة منظمة، احتجاجية، ومسلحة. في موسم الحج من عام 35، كان من ضمن الوفود التي أتت المدينة المنورة لأداء المناسك مجموعات من الذين جازوا وقد قرروا أن يستغلوا الموسم بهدف الاحتجاج المباشر على ما يرونه سياسات منحرفة للخليفة.

من هم الثوار⁽¹⁾؟

كان هؤلاء المحتجون من عدة أمصار: البصرة، الكوفة ومصر. وكانوا أساساً من الذين طُفح بهم الكيل ولم يقدروا على الاستمرار في تحمّل ما اعتبروه ظلماً صارخاً وفساداً مفضوحاً يمارسه الجهاز الحاكم. وكان البارزون منهم قد سبق وتعرّضوا إلى عقوبات بشكل أو بآخر على يد ولاية عثمان.

ويلاحظ أن هؤلاء الثوار كانوا يتمون إلى طيف واسع من أبناء القبائل العربية. ومن الصعب ملاحظة تكتل كبير ل قبيلة بعينها في صفوفهم، بل على العكس فهم كانوا ينحدرون من مناطق وقبائل متباينة ومتباعدة. فقد كان بينهم اليمانيون والمعدنانيون، البدو والحضر، بل ضموا حتى عناصر من قريش وغزاة.

(1) مصادر البحث: الاستيعاب لابن عبد البر (ص 130+451+503+647)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 6 ص 25 و ج 3 ص 463+71)، أسد الغلبة لابن الأثير (ج 3 ص 309 و ج 4 ص 100)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 386-405)، انساب الاشراف للبلاذري (ج 6 ص 174)، تاريخ خليفة بن خياط (ص 124)، كتاب التقات لابن حبان (ج 2 ص 256+260)، الاصابة لابن حجر (ج 1 ص 622)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 53-57)، نهج البلاطة بشرح محمد عبده (ج 1 ص 89 و ج 3 ص 350) و تاريخ البغدادي (ج 2 ص 175).

وكان بعضهم ممن يمكن القول انه ينتمي الى الطبقة العريضة لصحابة النبي (ص)

مثل جهجاه الغفاري الذي قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب «يقال: انه شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة. وكان قد شهد مع رسول الله (ص) غزوة المريسيع، وكان يومئذ أجيراً لعمر بن الخطاب، ووقع بينه وبين سنان بن وبرة المجنبي في تلك الغزاة شر فتادي جهجاه الغفاري: يا للمهاجرين! ونادى سنان: يا للأنصار! وكان حليفاً لبني عوف بن الخزرج، فكان ذلك سبب قول عبد الله بن أبي بن سلول في تلك الغزوة (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعر منها الأذل).... مات بعد عثمان رضي الله عنه بسيرة»⁽¹⁾

وأضاف يقول عنه «وروي أن جهجاه هذا هو الذي تناول العصا من يد عثمان وهو يخطب. فكسرها يومئذ. فأخذه الأكلة في ركبته، وكانت عصا رسول الله (ص)»

وكذلك عمرو بن الخثعمي. فقد قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب «هاجر الى النبي (ص) بعد الحديبية، وقيل: بل أسلم عام حجة الوداع. والأول أصح.

صحّب النبي (ص) وحفظ عنه أحاديث، وسكن الشام، ثم انتقل الى الكوفة فسكنها.

.... وكان ممن سار الى عثمان. وهو أحد الأربعة الذين دخلوا عليه الدار فيما ذكروا....»⁽²⁾

وقال عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى «صحّب النبي (ص) ونزل الكوفة. وشهد مع علي رضي الله عنه مشاهدته. وكان فيمن سار الى عثمان وأعان على قتله...»

- (1) وذكر ابن حجر المسقلاقي في الإصابة نفس هذه المعلومات حول جهجاه بن سعيد الغفاري، وذكر قيامه بالاعتداء على عثمان وانتزاع عصاه من يده وهو على المنبر وكسرها، ولكن دون أن يقول انها «عصا رسول الله»
- (2) وأكد ابن الأثير في اسد الغابة نفس هذه المعلومات وأضاف عنه «صحّب النبي (ص) وحفظ عنه أحاديث»

وكذلك عبد الرحمن بن عديس البلوي. قال عنه ابن الأثير في أسد الغابة له صحة. وشهد بيعة الرضوان وبيع فيها.

وكان أمير الجيش القادمين من مصر لحصر عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قتلوه...⁽¹⁾

وأيضا محمد بن أبي بكر الصديق. فقد قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب أنه ولد عام حجة الوداع وأنه نشأ في حجر علي بن أبي طالب بعد أن تزوج أمه أسماء بنت عميس «وكان علي بن أبي طالب يثني على محمد بن أبي بكر، ويفضله، لأنه كانت له عبادة واجتهاد. وكان ممن حضر قتل عثمان»⁽²⁾

الثوار المصريون: عند البحث عن أسمائهم نجد أن الطبري في تاريخه يخرج ثلاث روايات:

فمن ابن اسحق «وكان أهل مصر الذين ساروا إلى عثمان 600 رجل على أربعة ألوية، لها رؤوس أربعة، مع كل رجل منهم لواء. وكان جماع أمرهم جميعاً إلى عمرو بن عبد الله بن ورقاء الخزاعي - وكان من أصحاب النبي (ص) - وإلى عبد الرحمن بن عديس التجيبي»⁽³⁾

وذكر الواقدي عن المصريين «وكان رؤساقهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسوفان بن حمران المرادي، وعمرو بن الححم الخزاعي - وقد كان هذا الاسم غلب حتى كان يقال جيش ابن الححم - وابن النباع»

وأما سيف بن عمر فقال «نخرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء، المقلل يقول ستمائة، والمكثر يقول ألف. على الرفاق: عبد الرحمن

- (1) وكذلك ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب
- (2) وقد كان من المقرين من الإمام علي بن أبي طالب، وسيأتي الحديث عن دوره خلال فترة حكمه. وهناك شهادات قيمة جداً بحقه من الإمام علي، ومنها ما قاله لما بلغه خبر مقتله (كما في نهج البلاغة، بشرح محمد عبده) فقال: «... فإن مصر قد انتصت ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد. فبئس الله نحسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كاذباً وسيئاً لاطعاً وركناً ظلماً...» وقال في مناسبة أخرى عنه (نهج البلاغة، بشرح محمد عبده): «... ولقد كان إني حبيباً وكان لي ريباً»
- (3) يخطئ ابن اسحق حين ينسب عبد الرحمن بن عديس بقوله «التجيبي» لأن هناك إجماعاً بين كل من سواه على أنه «البلوي».

بن عديس البلوي وكنانة بن بشر الليثي، وسودان بن حمران السكوني وتخيرة بن فلان السكوني. وعلى القوم جميعا النفاق بين حرب المكي، ولم يجتروا ان يعلموا الناس بخروجهم الى الحرب وإنما أخرجوا كالحجاج، ومعهم ابن السوداء»

وأما رواية أبي مخنف لدى البلاذري فتقول «وجاء أهل مصر وهم 400، ويقال 500، ويقال 700، ويقال 600. عليهم أربعة أمراء: أبو عمرو بن بديل بن ورقاء بن عبد العزى الخزاعي على ربيع، وعبد الرحمن بن عديس البلوي على ربيع، وكنانة بن بشر التميمي على ربيع، وعروة بن شميم بن البياح الكناني ثم الليثي على ربيع»

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن جابر بن عبد الله ان القادمين من مصر :

«كان رؤسائهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وابن البياح، وعمرو بن الحمق الخزاعي (لقد كان الاسم غلب حتى يقال: جيش عمرو بن الحمق)»

وفي رواية أخرى له عن الواقدي عن أبي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي قال «كان المصريون الذين حصروا عثمان 600، رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي»

وقال اليعقوبي في تاريخه عن الثوار المصريين «وكان من يأخذون عنه محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حليفة، وكنانة بن بشر، وابن عديس البلوي» وأما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقال «فخرج من أهل مصر 700 رجل» ثم يتحدث بالتفصيل عن نشاطهم في المدينة بقيادة محمد بن أبي بكر وجدالهم مع الخليفة وساطة الصحابة ثم رجوعهم الى مصر، حتى اكتشفوا رسول عثمان الى عامله بمصر وعودتهم للمدينة مرة أخرى، ثم اضاف «وأقبل ابن أبي حليفة من مصر في 400 رجل»

وقال خليفة بن خياط في تاريخه «قدم أهل مصر عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «فخرج من أهل مصر 700 رجل فيهم أربعة من الرؤساء: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وعمر بن الحمق الخزاعي، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي، وسودان بن حمران المرادي»

ويشأن ثوار الكوفة :

قال الواقدي (الطبري) «وقدم الاشر في أهل الكوفة»

قال سيف بن عمر (الطبري) «وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق، وعلى الرفاق: زيد بن صوحان العبدي، والاشر النخعي، وزيد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم - أحد بني عامر بن صعصعة - وعددهم كعدد أهل مصر. وعليهم جميعاً عمرو بن الأصم»

وأما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقال «ثم أقبل الاشر النخعي من الكوفة في ألف رجل»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «وخرج من الكوفة عدي بن حاتم الطائي والاشر مالك بن الحارث النخعي في 200 رجل»⁽¹⁾

وقال خليفة بن خياط في تاريخه عن الثوار «وأهل الكوفة فيهم الاشر مالك بن الحارث النخعي»

وفي رواية لابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن أبي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي قال «والذين قدموا من الكوفة 200، رأسهم مالك الاشر النخعي»

(1) وسياق روايته يشير الى تقدم هؤلاء بعد ان كان الثوار المصريون قد عانوا للمحنة بسبب كتاب عثمان لمامله. فكان هؤلاء جالوا لمواقرتهم. والرواية تذكر اسم عدي بن حاتم الطائي، وهذا خطأ من ابن حبان لأن عدياً لم يشارك في الهجوم على عثمان ولا في حصاره وقتله.

ويشأن الثوار البصريين :

قال الواقدي (الطبري) «وقدم حكيم بن جبلة من البصرة في ركب»

قال سيف بن عمر (الطبري) «وخرج أهل البصرة في أربع رفاق، وعلى الرفاق: حكيم بن جبلة العبدى، وذريح بن عباد العبدى، ويشر بن شريح الحطيم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرر بن عبد بن عمرو الحنفي. وعددهم كعدد أهل مصر. وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي»

وقال أبو مخنف (البلاذري) «وخرج حكيم بن جبلة العبدى في 100 ولحق به بعد ذلك 50 فكان في 150»

وفي رواية لابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن أبي جعفر الفارسي مولى ابن عباس المخزومي قال «والذين قدموا من البصرة 100 رجل رأسهم حكيم بن جبلة العبدى»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «وخرج من البصرة حكيم بن جبلة العبدى في 100 رجل، حتى قدموا المدينة يريدون خلع عثمان»

وقال خليفة بن خياط في تاريخه عن الثوار «وأهل البصرة عليهم حكيم بن جبلة العبدى»

ومن أجمالي الروايات يمكن القول إن العناصر القيادية الفاعلة في صفوف الثوار كانت محمد بن أبي بكر، والأشتر النخعي، وعمرو بن الحِكم الغزالي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي وحكيم بن جبلة العبدى. فهؤلاء كانوا يتصدرون النقاشات والجدالات ويعرضون المطالب ويبرمون التفاهات بالنيابة عن عموم الثوار.

ولا يصح وصف الثوار بأنهم مجموعات من الأويش والأوغاد والعبيد الأبقين، كما سيرد وصفهم على لسان السيدة عائشة والزيير بن العوام أو في روايات سيف بن عمر.

هل كانت هناك مؤامرة يهودية؟

تذهب روايات سيف بن عمر في تاريخ الطبري إلى أن التمرد الذي

حصل في الأمصار ضد الخليفة عثمان وأدى في نهاية المطاف الى مقتله كان نتيجة لمؤامرة يهودية خبيثة حبك خيوطها شخص اسمه عبد الله بن سبأ. وابن السوداء هذا - كما يشار له أحياناً - كان يهودياً من اليمن فأظهر الإسلام نفاقاً في عهد عثمان من أجل الكيد للإسلام وأهله. وتقول روايات سيف أن ابن سبأ هذا قد تنقل ما بين المدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وبث الإشاعات والأباطيل حول الخليفة وولاته وأنه نجح في تكوين أتباع كثر له في كل مكان بمن فيهم صحابة كبار كعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري، وبالتالي أثار الفلاقل وأشعل الفتنة في ديار الإسلام بعد أن كان الناس في خير ووثام. والنظرية الكاسنة وراء قصة ابن سبأ هي أنه ليست هناك أسباب موضوعية للتمرد والثورة بل أن كل ما حصل لا يعدو كونه تأمر شيطاني على الخليفة الراشد عثمان.

وأنا أرى أن هذا الكلام يبلغ من السخافة حداً يجعله غير جدير بالبحث الجدي. وقد استعرضنا في الفصول السابقة العوامل الموضوعية التي سببت الاضطراب في مصر والعراق بتفاصيلها. كما يمكن الرجوع الى فصل مشكلة ابي ذر الغفاري من هذا الكتاب للاطلاع على نموذج من روايات سيف عن ابن سبأ وتفنيدنا لها. كما قمنا بتفنيد مجموعة أخرى من روايات سيف بن عمر تتعلق بالوليد بن عقبة وابن ابي السرح وعمار بن ياسر وابن مسعود وسعيد بن العاص وغيرهم من الشخصيات وما يتعلق بها من أحداث.

ولن استرسل هنا في الحديث عن روايات المؤامرات التي حاكها ابن سبأ في الأمصار لأنها ببساطة مضحكة للوقت وإهانة للعقل. فلم تكن هناك مؤامرة يهودية ولا ابن سبأ، وكل ذلك وهم وخرافة.

ولكن هذا لا يعني إمكانية حصول نوع من التنسيق العملي بين صفوف المتمردين القادمين من الأمصار الثلاثة. فذلك طبيعي لأن الجميع لهم مطالب متشابهة وهم قد جاؤوا ولديهم قضية واحدة وهي الإصلاح والتغيير. بل إنني أسمح لنفسي بقبول رواية لأبي مخنف تشير الى حصول نوع من التنسيق المسبق بين نشطاء من المعارضين قبل سنة من الهجوم على الخليفة.

روى البلاذري في أنساب الأشراف حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف في إسناده قالوا :

التقى أهل الأمصار الثلاثة، الكوفة والبصرة ومصر، في المسجد الحرام قبل مقتل عثمان بعام. كان رئيس أهل الكوفة كعب بن عتبة النهدي، ورئيس أهل البصرة المثنى بن مخزبة العبدي، ورئيس أهل مصر كنانة بن بشر بن عتاب بن عوف السكوني ثم التجمعي.

فتذكروا سيرة عثمان وتبديله وتركه الوفاة بما أعطى من نفسه وعاهد الله عليه. وقالوا: لا يسعنا الرضى بهذا! فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى مصره فيكون رسولاً من أهل مكة من أهل الخلاف على عثمان إلى من كان على مثل رأيهم من أهل بلده. وأن يوافوا عثمان في العام المقبل في داره فيستغيروه، فإن احتبب وإلا رأوا رأيهم فيه. ففعلوا ذلك.

وهذه رواية مثيرة للاهتمام وأنا أقبلها رغم تحفظي على الأسماء: فقد مر بنا أن كعب بن عتبة كان شاباً صغير السن حين كتب رسالته إلى عثمان فلا يصح وصفه بـ «رئيس أهل الكوفة» إلا إذا كان المقصود مندوباً عن نشاط أهل الكوفة. وكذلك مندوب البصرة «المثنى بن مخزبة» لم أجد له ذكراً واضحاً في تطورات الأحداث.

وفي هذا السياق هناك رواية مثيرة أخرى لدى البلاذري (أنساب الأشراف)، عن الواقدي هذه المرة. تقول «لما كانت سنة 34 كتب بعض أصحاب رسول الله (ص) إلى بعض، يتشاكون سيرة عثمان وتغييره وتبديله، وما الناس فيه من عماله، ويكثرون عليه، ويسأل بعضهم بعضاً أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد»

ولم توضح هذه الرواية من هم هؤلاء الصحابة الذين يتبادلون الرسائل للشكوى من عثمان. ويبدو السياق وكان نوعاً من الاستجداء يصدر من داخل المدينة إلى الأمصار من أجل التحرك ضد الخليفة. وأنا أستبعد أن يكون كبار الصحابة القرشيين (طلحة، الزبير، سعد) أو الامام علي أو زوجات النبي لهم علاقة بتلك الكتب. فربما تكون شخصيات ثانوية من الصحابة، من الأنصار بالذات، بادروا بالكتابة والتحريض ضد عثمان.

وعلى كل حال، تشير الرواية إلى نوع من الحراك والتلملح كان يحدث حتى في عاصمة الخلافة.

مطالب الثائرين⁽¹⁾

ويبدأ الثوار العمل بحذر وعلى مراحل. ومن المرجح أن هدفهم في البداية لم يكن قتل عثمان ولا حتى خلعه، بل تقديم مطالبهم وعرض مطاعنهم والطلب منه بحزم أن يغير سياسته والحصول على ضمانات بذلك. وعلى الرغم من أن وفد المحتجين لم يكن سلمياً، إلا أنه يمكن القول أنه لم تكن هناك نية مسبقة باستخدام القوة ضد الخليفة. فلو أنهم كانوا قد جألوا لقتل الخليفة لفعلوا ذلك من اليوم الأول لوصولهم لأنه لم يكن هناك عائق مادي مؤثر يحول دون ذلك. فليكن الأمر اضتيالاً أو جريمة قتل لفرد.

وهناك في المصادر نصوص كثيرة تذكر مطالب المتمردين من عثمان. ولكنها متداخلة جداً ومبعثرة. والظاهر أيضاً أن الثائرين أنفسهم كانت مطالبهم كثيرة ومتوعة، وأن المفاوضات مع عثمان كانت شاقة للغاية بسبب كثرة النقاط المثارة.

وفي الاجمال لم يكن عثمان يصبر كثيراً على صوابية مواقفه ولم يكابر كثيراً، بل كان يقر بأخطائه ويطلب المغفرة من الله عليها! والنص التالي من الامامة والسياسة مثال على ذلك:

«فقام إليه رجل من المهاجرين فقال له: يا عثمان، أرايت ما حميت من الحمى: أكله أفنّ لكم أم على الله تغتزون (يونس 59)؟
فقال عثمان: إنه قد حمى الحمى قبلي عمر لإبل الصدقة. وإنما زادت فزدت.

فقام عمرو بن العاص فقال: يا عثمان: إنك ركبت بالناس نهائير من الأمر فتب إلى الله يتوبوا.

(1) مصادر البحث: الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 52)، نهج البلاغة، شرح محمد عبده (ج 2 ص 212)، تاريخ خليفة بن عطاء (ص 124-125)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج 3 ص 1136-1137)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 191 - 192 - 193) وتاريخ الطبري (ج 3 ص 393، 391، 396، 403، 404 و 408) وأنساب الاشراف للبلاذري (ج 6 ص 180).

فرغ عثمان يديه وقال: توبوا من كل ذنب. اللهم إني أول تائب إليك.
ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا عثمان! ما بال هؤلاء النفر من أهل
المدينة يأخذون العطايا ولا يوزون في سبيل الله؟! وإنما هذا المال لمن غزا
فيه وقاتل عليه، إلا من كان من هذه الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة
والسلام.

فقال عثمان: فاستغفر الله وأتوب إليه. ثم قال: يا أهل المدينة! من كان
له منكم ضرعٌ فليلحق بضرعه، ومن كان له زرعٌ فليلحق بزرعه، فلنا والله لا
نعطي مال الله إلا لمن غزا في سبيله، إلا من كان من هذه الشيوخ من الصحابة.
قال: فما بال هذا القاعد الشارب لا تقيم عليه الحد (يعني الوليد بن
عقبة)؟

فقال عثمان لعلي: دونك ابن عمك فأقم عليه الحد....⁽¹⁾
ولدى خليفة بن خياط في تاريخه ورد النص عن أبي سعيد مولى أبي
أسيد الأنصاري:
«سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فقالوا: ادعُ
بالمصحف. فدعا به.

فقالوا: افتح السابعة. وكانوا يسمون سورة يونس السابعة.
فقرأ حتى أتى هذه الآية (قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) فقالوا
له: قف! أرايت ما حميت من الحمى؟ الله أذن لك أم على الله تفتري؟ قال:
امضيه. نزلت في كذا وكذا. أما الحمى فإن عمر حماء قبلي لإبل الصدقة فلما
وليئت زادت لإبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد من إبل الصدقة. امضه.
قال فاجعلوا يأخذونه بالآية فيقول: امضه. نزلت في كذا فما يريدون؟

(1) وما قاله الرجل من المهاجرين والآخر من الأنصار، هو انعكاس لما يقوله ويطالب به
الثور، وإن جاء على لسانهما حسب هذه الرواية. وهنا يبدو صاحب الامانة والسياسة
وقد جمع بين روايات من أزمان مختلفة في سياق واحد. فإقامة الحد على الوليد بن
عقبة حصلت قبل عدة سنوات من المجادلات التي وافقت الهجوم على عثمان.

فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه سناً، وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم.

ثم رجعوا وراضين...⁽¹⁾

وفي بعض الأحيان كان الخليفة يتجسس في الدفاع عن نفسه وتفسير بعض قراراته مثلما حصل حين أثار بعضهم قضية حرق المصاحف.

والنص التالي من تاريخ المدينة لأبن شبة مثال على ذلك :

«.. من عروة بن الزبير قال: قدم المصريون فلقوا عثمان رضي الله عنه

فقال: ما الذي تنقمون ؟

قالوا: تمزيق المصاحف.

قال: إلى الناس لما اختلفوا في القراءة خشي عمر رضي الله عنه الفتنة فقال: من أعرب الناس ؟ فقالوا: سعيد بن العاص. قال: فمن أخطهم ؟ قالوا: زيد بن ثابت. فأمر بمصحف فكتب بإعراب سعيد وخط زيد، فجمع الناس ثم قرأه عليهم بالموسم فلما كان حديثا كتب إلي حذيفة: إن الرجل يلقي الرجل فيقول: قرأني أفضل من قرأتك حتى يكاد أحدهما يكفر صاحبه، فلما رأيت ذلك أمرت الناس بقراءة المصحف الذي كتبه عمر رضي الله عنه، وهو هذا المصحف، وأمرتهم بترك ما سواه، وما صنع الله بكم خير مما أردتم لأنفسكم.

وما تنقمون ؟

قالوا: حميت الحمى. وذكروا أهل البوادي وما يلحقون من نعم الصدقة.

فقال: إن وجدتم فيه بعيراً لآل أبي العاص فهو لكم.

وما تنقمون أيضاً ؟

قالوا: تعطيل الحدود.

(1) ويلاحظ أن هذه الرواية متوافقة مع عثمان، وتشير إلى قدرته على تنفيذ كل التهم بنجاح حتى «رجعوا راضين» كما تتجاهل ذكر الشروط الستة التي كتبها الثاقبون على عثمان.

قال: وأي حد عطلت ١٩ ما وجب حد على أحد إلا أقمته عليه، وأنا
استغفر الله من كل ذنب وأتوب إليه ..»

ويمكن تلخيص المطالب التي عرضها الثوار على النحو التالي^(١):

- مواضيع تتعلق بالسياسات المحلية المتبعة في الأقاليم
- وقف ممارسات الولاية القمعية وظلمهم
- وقف إجراءات التضييق والطرده بحق أفاضلهم
- عزل ولائتهم، وخاصة ابن أبي السرح في مصر، واستبدالهم بأشخاص
يفضلونهم

- مواضيع تتعلق بالسياسات العامة على مستوى الدولة
- وقف ابتزاز ونهب بيت المال
- ضرورة تطبيق العدالة في العطاء، وإنصاف الفئات المحرومة
- وقف تعيين أقرباء عثمان وأبناء عائلته على الأعمال
- رفض الاعتداء على صحابة ذوي فضل وسابقة ومعاقبتهم^(٢)

وهنا لا بد من التعليل والقول إن المطالب التي عرضها المتمردون تعبيرٌ
حقيقي عن روحية الإسلام الصافية. وينفّس النظر عن صفاء نواياهم أو مدى
صدقهم، فإن طروحاتهم كانت إسلامية تماماً. ولا يمكن لأحد أن يجادل في
حق الرعاية في وجود ولاية صالحين لإدارة الدولة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى
ضرورة المحافظة على المال العام. والذي يشكو منه هؤلاء المتمردون من
مظالم كان حقيقياً وملحوساً. وفي كل المفاوضات التي جرت مع الخليفة،

(١) يمكن مراجعة فصل «التنرد في مصر» وممارسات ابن أبي السرح» للوقوف على
مجموعة من النصوص التي أوردناها من تاريخ الطبري وابن شبة وابن تقيّة وابن حبان
المتعلقة بالتهم الموجهة إلى عثمان ومطالب المعارضين على سياسته.

(٢) روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي أن الثوار قالوا لعثمان وهو محاصر «إنك
ضربت رجلاً من أصحاب النبي (ص) وغيرهم حين يظفونك ويأمرونك بمراجعة
الحق عند من يستكبرون من أعمالك، لأنك من نفسك من غرته وانت له ظالم. فقال:
الامام يظفر ويصيب فلا أقيد من نفسي...».

كان عثمان إحتذاراً في خطابه معهم ولم يكن يجادل في صوابية مطالبهم من حيث المبدأ.

فباختصار كان المتمردون يطالبون بالإصلاح، وتعديل المسيرة، والعودة إلى زمن الزهد والعدل. وكانوا باحتجاجهم القوي ذلك يعلنون أنهم لن يقبلوا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه.

ماذا كتب ابن كثير؟

قال في البداية والنهاية :

«...فانطلق علي بن أبي طالب إليهم وهم بالمجفة، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره، فردهم وأنهبهم وشتمهم. فرجموا على أنفسهم بالعلامة، وقالوا: هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليه به ؟!

ويقال إنه ناظرهم في عثمان، وسألهم ماذا يقومون عليه، فذكروا أشياء منها أنه حمى الحمى، وأنه خرق المصاحف، وأنه أتم الصلاة وأنه ولى الأحداث الولايات وترك الصحابة الأكابر وأعطى بني أمية أكثر من الناس.

فأجاب علي عن ذلك: أما الحمى فإنيما حماه لابل الصدقة لتسمن، ولم يحمر لابل ولا لغنيه وقد حماه عمر من قبله. وأما المصاحف فإنيما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرصة الأخيرة. وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتتها. وأما توليته الأحداث فلم يرؤ إلا رجلا سويا عدلا، وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولى أسامة بن زيد بن حارثة. وطعن الناس في إمارته فقال إنه لخليق بالامارة. وأما إظهاره قومه بني أمية، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثر قريشا على الناس، ووالله لو أن مفتاح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها!

ويقال إنهم اعتبروا عليه في عمار ومحمد بن أبي بكر، فذكر عثمان عنده في ذلك، وأنه أقام فيهما ما كان يجب عليهما. واعتبرا عليه في إيوائه الحكم بن

أبي العاصم، وقد تفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد تفاء إلى الطائف ثم رده، ثم تفاء إليها، قال فقد تفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رده، وروى أن عثمان خطب الناس بهذا كله بمحضر من الصحابة، وجعل يستشهد بهم فيشهدون له فيما فيه شهادة له. ويروي أنهم بعثوا طائفة فشهدوا خطبة عثمان هذه، فلما تمهدت الاغذار وانزاحت غلهم ولم يبقَ لهم شبهة، أشار جماعة من الصحابة على عثمان بتأديبهم فصفع عنهم، رضي الله عنه. وردهم إلى قومهم فرجعوا خائبين من حيث أتوا، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا أملوا وراموا»

وهذا نص عجيب غريب يورده ابن كثير دون ذكر مصدره (ويقال). ومؤلف هذا النص يصّر على إن علياً بن أبي طالب بالذات هو من يقوم بالدفاع عن كل سياسات الخليفة عثمان، ويغند المآخذ عليه واحداً تلو الآخر، بما في ذلك دفاعه عن تعيينات عثمان لأقربائه الشبان من بني أمية، ولم يرض مؤلف هذا النص إلا بالقول على لسان علي بالذات إن الولاة الأمويين الذين عينهم عثمان كانوا رجالاً أسوياء عادلين! وأن عثمان كان مقتدياً برسول الله (ص) في سياسته هذه لأنه «كان يؤثر قريشاً على سائر الناس»، وبالتالي فلا لوم عثمان لأنه يؤثر بني أمية على سائر الناس!

ولا داعي في الاسهاب في تنفيذ هذا النص، فهو متهافت وهزيل بما يحول دون جدارته بنقاش جدي. فسيرة علي بن أبي طالب ومواقفه المجمع عليها، ووقائع التاريخ، تؤكد أنه يستحيل أن تصدر عنه تلك المدائح في حق عثمان ورجاله من طلقاء قريش وبني أمية.

ولا يمكنني إحسان الظن بابن كثير هنا. فهو العلامة العارف، وهو المتخصص بالتاريخ وهو الاستاذ الذي لا يمكن أن يكون جاهلاً بملاحة علي بن أمية. ولذلك أقول إن ما كتبه ابن كثير هنا دليل يثبت تمصبه الملححي الصارخ، والذي أخرجه من توازنه ودفعه إلى هذا المستوى الهابط من الروايات. فكرهه للشبيعة وحرصه على تنفيذ حججهم جملة يقول لهم: إن علياً كان يحب بني أمية رغم أنفكم! ورغم أنف الحقيقة وسائر التاريخ.

عثمان يستجيب لوساطة علي: اتفاق مكتوب

وقد دامت المرحلة الأولى من التمرد لمدة شهر. وهذه المرحلة «السلمية» كانت فترة طلب حسابات، وعرض مطالبات، وشرح تظلمات، ومناظرات ونقاشات ومفاوضات ووساطات، انتهت في الآخر إلى موافقة عثمان على طلبات الوفود وتوصل الطرفان إلى اتفاق مكتوب.

لم يُظهر كبار الصحابة انحيازاً واضحاً إلى أحد الفريقين⁽¹⁾، بل لعبوا دور الوسيط بين الخليفة والمحتجين وكانوا كفلاء للاتفاق، وأبرزهم عليّ.

وقد كان عثمان يعلم أن علياً بن أبي طالب هو الشخص الأكثر قبولاً لدى أوساط المحتجين، وأنه الذي يمكن أن يمارس نفوذه لديهم فيردهم عن إلحاق الأذى بالخليفة. ولذلك كان عثمان يلجأ إليه، وبالإلحاح، لكي يخرج إليهم ويتفاهم معهم.

روى الطبري:

«فلما رأى عثمان ما رأى، جاء علياً، فدخل عليه بيته فقال: يا ابن عم! إنه ليس لي مترك، وإن قرابتي قريبة، ولي حق عظيم عليك. وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وهم مصبحي. وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك. فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عني فإني لا أحب أن يدخلوا عليّ، فإن ذلك جرأة منهم عليّ، وليسمع بذلك غيرهم.

فقال: عليّ: علام أودهم؟

قال: علي أن أصير إلى ما أشرت به عليّ ورايت لي. ولست أخرج من

يديك»

ويمكن قبول هذا النص الذي يعطي فيه عثمان تفويضاً مفتوحاً لعلي بالتفاهم مع الثوار بلا شروط من طرفه على أساس رغبته في التخلص من الأزمة الخطيرة التي تواجهه والتي باتت تهدده مباشرة.

(1) سوف يأتي الحديث بالتفصيل عن مواقف الصحابة أثناء الأزمة

وبعد هذا الطلب المباشر من الخليفة، استعمل عليّ يّقله كله، وبذل جهته مع المتعديين من أجل التوصل إلى تفاهم يُنهى المشكلة. ونجح عليّ في مسعاه.

والكثير من المصادر تذكر التوصل إلى اتفاق ولكن دون ذكر تفصيلي لشروطه، أو تذكرها مجملة أو مختصرة. ولكن النص التالي لدى ابن شبة هو أفضل ما يوضح أساس التفاهم الذي توصل إليه علي بن أبي طالب لحل الأزمة مع الثوار:

«فأصلح عليّ بينهم، وكتبوا كتاباً اشترطوا فيه خمسة:

أن المنفي يُقلب

وأن المحروم يُعطى

وأن النفس يوفر

وأن يُعبد في القسم

وأن يُستعمل أولو القوة والأمانة»⁽¹⁾

وتحدث روايات أخرى عن «العمل بكتاب الله وستة نبيه» و«وأن يؤمن الخائف» و«رفع المظالم» و«وأن لا تجتر البعوث» وكذلك «الآ» بأخذ أهل المدينة عطاة، فلَما هذا المال لمن قاتل عليه، ولهؤلاء الشيوخ من

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري. وكذلك وردت هذه الشروط الخمسة في تاريخ خليفة بن خياط ولكن مع إضافة في نهايتها «وأن يرد ابن عامر على البصرة وأبو موسى الأشعري على الكوفة»

وهذا السطر الأخير في رواية خليفة بن خياط لا بد وأنه أضيف إليها قسراً، فلا يمكن قبوله. فبعد الله بن عامر كان لا يزال والياً على البصرة ولم ينزع، فلا معنى للمطالبة بإرجاعه. وأما أبو موسى الأشعري فقد كان أهل الكوفة تد عينه بالفعل عليهم بعد خلعهم لسعيد بن العاص وأقره عثمان. كما أن سياق رواية خليفة يتحدث عن الثوار المصريين بالتحديد وبالتالي فمن المستبعد أن تكون المطالبة بأبي موسى على الكوفة من أولوياتهم.

والمهم في روايتي ابن شبة وخليفة أنهما يتفقان على تحديد خمسة شروط واضحة ومحددة للاتفاق.

أصحاب رسول الله (ص)^(١) ولا تناقض في هذه الروايات. بل يجب النظر إليها بالاجمال على أنها تتكامل لتوضح نوعية مطالب الثوار وموافقة الخليفة على تنفيذها.

واعترف عثمان بأخطائه وتعهد بالإقلاع عن سياسته السابقة بعد تلك السجالات الطويلة. بل وتضيف الروايات أنه قام وأعلن توبته علانية وعلى المنبر بعد أن طلب منه علي بن أبي طالب أن يُشهد الناس ويُشهد الله على ما في قلبه من التزوع والاثابة. روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي:

«... فقام فحمد الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس!

فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجعله وما جئت شيئاً إلا وأنا أهرقه.

ولكني متني نفسي وكلّبتني، وضلّ عني رشدي.

ولقد سمعتُ رسول الله (ص) يقول: من زلّ فليتب، ومن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة. إن من تهاوى في الجور كان أبعد من الطريق.

فأنا أول من اتعظ. أستغفر الله مما فعلتُ. وأتوب إليه.

فمثلني نزع وتاب.....

فرّق الناس له يومئذ ويكى من بكى منهم»

ويدوره أخذ عثمان على المحتجين شرطاً: «لَا يَشْقُوا عَصاً وَلَا يَفَارِقُوا جَمَاعَةً، مَا قَامَ لَهُمْ بِشْرُطِهِمْ»^(٢).

والصحابية كانوا الشهود والكفلاء للإتفاق.

فإذن وافق المحتجون على الاستمرار بالاعتراف بسلطة الخليفة وقبلوا وعد التفسير. ورجع المحتجون إلى أمصارهم. وبدأت الأزمة وكأنها انتهت.

ولا بد لنا، قبل متابعة تسلسل الأحداث، من تأمل النص الطويل التالي الذي أخرجه الطبري في تاريخه عن ابن اسحق. فهو يوضح مدى الاضطراب

(١) تاريخ الطبري، (ج 3 ص 391) من رواية يعقوب بن ابراهيم

(٢) المصدر السابق

الذي كان سائداً في المدينة أثناء فترة المفاوضات والوساطات. والرواية يظهر منها «عدة عودات» للثوار المصريين الى الخليفة بعد «عدة اتفاقيات» تم إبرامها بتوسط من علي الذي كان عثمان يطالبه مرة بعد أخرى بالمساعدة في ردة الثوار. تبدأ الرواية بالقول إن أهل مصر:

«كتبوا اليه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. قاله الله ثم الله الله! فإنك على دنيا فاستم معها اليها آخرة ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوخ لك الدنيا. واعلم أنا والله لله نغضب وفي الله نرضى. وإننا لن نضع سيفنا: عن عواقبنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مجلحة ملجحة. فهذه مقاتنا لك وقضيتنا اليك والله عذيرنا منك والسلام.

وكتب أهل المدينة الى عثمان يدعونه الى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله.

فلما خاف القتل شاور نصحائه وأهل بيته فقال لهم: قد صنع القوم ما قد رأيتم فما المخرج؟ فأشاروا عليه أن يرسل الى علي بن ابي طالب فيطلب اليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه أمداد.

فقال: إن القوم لن يقبلوا التمليل وهي محملي عهداً. وقد كان مني في قديمهم الأولى ما كان، فمتى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به.

فقال مروان بن الحكم: يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكائرتهم على القرب. فأعطهم ما سألك وطاولهم ما طاولوك فإنما هم بقوا عليك فلا عهد لهم.

فأرسل الى علي فدعاه. فلما جاءه قال: يا ابا حسن انه قد كان من الناس ما قد رأيته، وكان مني ما قد علمت. ولست آمنهم على قتلي، فأرددهم عنى فإن لهم الله عز وجل أن أعطهم من كل ما يكرهون وأن أعطهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي

فقال له علي: الناس الى عدلك اخرج منهم الى قتلك. واتي لارى قوماً لا يرضون إلا بالرضى. وقد كنت أعطيتهم في قديمهم الأولى عهداً من الله لترجعن من جميع ما تقدموا. فرددتهم عنك. ثم لم تقبل لهم بشيء من ذلك. فلا تغرنى هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحق.

قال: نعم! فأعطهم. فوالله لأفيعن لهم!

فخرج علي الى الناس فقال: ايها الناس! انكم انما طلبتم الحق فقد أعطيتهموه. إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره، وراجع عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه وودكوا عليه

قال الناس: قد قبلنا فاستوثق منه لنا، فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل

فقال لهم: علي ذلك لكم

ثم دخل عليه فأخبره الخبر فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة فإني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد.

قال له علي: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب أجله وصول أمرك

قال: نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام.

قال علي: نعم. فخرج الى الناس فأخبرهم بذلك. وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن: يرد كل مظلمة ويمزل كل عامل كرهوه.

ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والانصار. فكثف المسلمون عنه ورجعوا الى أن بقي لهم بما أعطاهم من نفسه»

الفصل الثاني: انهيار الاتفاق وحصار عثمان⁽¹⁾

تراجع عثمان

لم يصمد الاتفاق طويلاً ولم يأخذ طريقه الى حيز التنفيذ. وتجمع الروايات أن مروان بن الحكم كان سبب ذلك وأنه استغل موقعه من الخليفة ليفسد كل التفاهات التي توصل لها علي والصحابه مع الثوار وعثمان.

فمروان، بعد أن بدا له أن الخطر المباشر قد زال برجوع الثوار، بدأ في تنفيذ سياسة انتقامية كان يراها ضرورية من أجل الحفاظ على استقرار الحكم الأموي. فهو لا يرضى بأن يمرّ هذا الأمر مرور الكرام. فهؤلاء تمردوا على الخليفة ولا بد أن يعاقبوا، إن لم يكن في المدينة على يد عثمان، ففي غيرها من الأمصار وعلى يد غيره من الحكام. فينظر مروان، إن ترك هؤلاء بلا عقاب، فسوف تزيد جرأتهم وسوف يرفعون من سقف مطالباتهم في قادم الأيام، وسوف يجروا غيرهم.

كما أن مروان كان يعرف أن نجاح وساطة الصحابة، وعليّ بالذات، بين

(1) مصادر البحث: نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2 ص212)، تاريخ الطبري (ج3 ص395 + ج397 ص399 + ص403-404 + ص408)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1160 + ص1155)، الأمانة والسياسة (ج1 ص56)، القاتل لابن حبان (ج2 ص259)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص188-189)، الإصابة لابن حجر (ج4 ص379)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص180)، تاريخ الخلفاء (ج2 ص175)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص65)، تاريخ خليفة بن غياث (ص124)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص382) والبداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص2-7 وص193).

الخليفة والمتمردين، سيكون شوماً عليه. وقد ذكرنا كيف كان عليّ يلح على عثمان ويضغط عليه باستمرار لكي يتخلص من أقربائه من بني أمية الذين اتخذهم بطانة فاستغلوا سلطانه وسيطروا على مفاصل الحكم. ومروان، مستشاره المقرب والمؤتمن كان على رأس هؤلاء. وقد قال عليّ لعثمان مرة: «... فلا تكونن لمروان سيقه يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقصي العمر...»⁽¹⁾

ومروان كان يدرك أن أي تفاهم بين الخليفة والثائرين سيكون حتماً على حسابهِ هو بالذات، وأضرابه من بني أمية. ولا يمكن لمروان أن يسمح بذلك. فالخليفة، بنظره، مُلكٌ لبني أمية، وهو ليس لديه استعداد لأن «يفقده»!

وبدأ مروان العمل⁽²⁾.

فكانت الخطوة الأولى بنظره هي نزع الشرعية عن الثوار ومطالبهم. وذلك يتم عن طريق الإعلان أن كل ما أثاروه من قضايا هو باطل وغير صحيح! وبالتالي إنكار أن الخليفة قدم تنازلات أو أقر بأخطائه.

ونجح مروان في إقناع عثمان بأن يقوم على الملا فيعلن ذلك. يروي الطبري في تاريخه من طريق الواقدي: «... حتى إذا كان الغد جاءه مروان فقال له: تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً. فإن غطيتك تسير في البلاد قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم، فيأتيك من لا تستطيع دفعه»

فأبى عثمان أن يخرج. فلم يزل به مروان حتى خرج فجلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمراً، فلمّا تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم.⁽³⁾

(1) نهج البلاغة، شرح محمد عبيد، (ج 2 ص 212)

(2) روايات الواقدي لدى الطبري هي الأكثر تفصيلاً فيما يتعلق بترجمات عثمان ودور مروان في ذلك.

وفي رواية أخرى للواقدي لدى الطبري:

«...قال مروان: بأي أنت وأمي! والله لو ددْتُ أن مقاتلك هذه كانت وأنت ممتنع منيَّ فكنْتُ أول من رضى بها وأعان عليها. ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطيين وخلف السيل الزبي وحين أعطى الخطة الدليلة اللليل، والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها وإنك إن شئت تقررت بالتوبة ولم تقرب بالخطيئة. وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس».

فقال عثمان: فاحرج إليهم فكلهم فاني أستحي أن أكلهم.

قال فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضا فقال: ما شأنكم؟ قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهيب! شامت الوجوه! كل إنسان أخذ بإذن صاحبه ألا من أريد. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكتنا من أيدينا! اخرجوا عنا. أما والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم. ارجعوا إلى منازلكم فإننا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا»⁽¹⁾

ومن الطبيعي أن تؤدي خطبة مروان هذه إلى إستارة غضب علي الشديد. وكيف لا وهو يرى جهده يضيع سدى. تتابع الرواية «فرجع الناس وخرج بعضهم حتى أتى عليا فأخبره الخبر».

فجاء علي عليه السلام مغضبا حتى دخل على عثمان فقال: أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بחרقك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به! والله ما مروان بذى رأى في دينه ولا نفسه. وأيم الله آتني لأراه سيورذك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لعماتيتك. أذهلت شرفك وغلبت على أمرك»⁽²⁾

(1) ذكرها أيضاً ابن كثير في البداية والنهاية
(2) وأما رواية أبي مخنف لدى البلاذري (أنساب الأشراف) فتذكر أنه بعد خطبة عثمان الرقيقة التي اعتذر فيها واستغفر «... فشر الناس بخطيئة واجتمعوا إلى بابيه متهجين بما كان منه. فخرج إليهم مروان ليرهم وقال: شامت وجوهكم! ما اجتمعكم؟ أمير المؤمنين مشغول بحكمه، فإن احتاج إلى أحد منكم فسيدهوه فاقضروا. وباع عليا الخبر فأتى عثمان وهو مغضب فقال: أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بالساد دينك

وروى الطبري في تاريخه عن الواقدي أنا علياً قد غضب كثيراً على عثمان بسبب تراجماته المتكررة عن الاتفاقات التي يبرمها هو مع الثوار، ونكوصه عن تعهدهاته بسبب تأثير مروان بن الحكم، حتى قال علي «إني إن فعلتُ في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإني إن تكلمتُ فجاء ما يريد يلعبُ به مروان، فصار سيقاً له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله (ص)» وقرر علي أن يوقف تدخلاته ووساطته وقال لما جاءه رسول عثمان يدعوه «فقال علي بصوت مرتفع عال مغضب: قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد». ولكن لما تعرض عثمان إلى الاعتداء وهو على المنبر وسقط مغشياً عليه ذهب علي يزوره ودخل علي بن أبي طالب على عثمان رضي الله عنهما وهو مغشي عليه، وينوامة حوله.

فقال: مالك يا أمير المؤمنين؟

فأقبلت بنو أمية بمنطق واحد فقالوا: يا علي أهلكنا وصنمتَ هذا الصنيع بأمر المؤمنين. أما والله لئن بلغت الذي تريد لتمرن عليك الدنيا. فقام علي مغضباً⁽¹⁾

الكتاب المزور ويده حصار عثمان

ولم يكتب مروان بن الحكم بالضغط على عثمان للتراجع عن اتفاقاته مع المتمردين، مما أضّر جداً بمصداقية الخليفة أمام الناس، بل انتقل إلى ما هو أهم وأخطر. أصدر مروان أوامره، مستغلاً ضعف عثمان وقتته به، إلى ابن أبي السرح في مصر بقتل هؤلاء الثوار حالما يصلون أرض مصر. أصدر الأمر باسم عثمان ووطع الكتاب بخاتم الخليفة وأرسله على وجه السرعة مع غلام إلى مصر ليسيّر الوفد المصري العائد. وكانت النتيجة أن غُبط الغلام والكتاب. فكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير.

ونحن هنا من عقلك؟ وإني أراه سيورك ثم لا يصبرك، وما أنا بمائد بعد مقامي هذا لعماتيك

(1) سوف يأتي الحديث بالتفصيل عن موقف علي من مقتل عثمان

وتكاد تجمع المصاحم على مسؤولية مروان عن ذلك الكتاب المزور.

وفيما يلي نص طويل من تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري نقلًا عن الزهري عن سعيد بن المسيب، وفيه أنه لما قدم أهل مصر يشكون واليهم، وبعد تدخل كبار الصحابة طالبيين من عثمان انصافهم

«... فقال لهم: اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه. فأشار الناس عليهم بمحمد بن أبي بكر فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبي بكر.

فكتب عهده وولاه وخرج معه عنة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وبين ابن أبي سرح.

فخرج محمد ومن كان معه، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخط خطاً كأنه رجل يطلب أو يطلب.

فقال له أصحاب محمد: ما قصتك وما شأنك؟ كأنك هارب أو طالب. فقال: أنا غلام أمير المؤمنين. ووجهني إلى عامل مصر.

قال له رجل: هذا عامل مصر معنا.

قال: ليس هذا أريد.

واخبروا بأمره محمد بن أبي بكر، فبعث في طلبه رجلاً فأخذه فجاءوا به إليه.

فقال له: يا غلام من أنت؟

فأقبل مرة يقول غلام أمير المؤمنين ومرة يقول غلام مروان. حتى عرفه رجل أنه لعثمان.

فقال له محمد: إلى من أريدت؟

قال: إلى عامل مصر.

قال: بماذا؟

قال: برسالة.

قال: أملك كتاب؟

قال: لا.

فتشوه فلم يجدوا معه كتاباً. وكانت معه أداة قد يست فيها شيء يتقلقل. فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الأداة، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح.

فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه: إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحمل لقتلهم، وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأي في ذلك. واحبس من يجيء إلي يتظلم منك ليأتيك رأي في ذلك إن شاء الله تعالى.

قال: فلما قرأوا الكتاب فرعوا ورجعوا إلى المدينة. وختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه ودفع الكتاب إلى رجل منهم فقدم المدينة.

فجمعوا طلحة والزبير وعلياً وسعداً ومن كان من أصحاب رسول الله ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم واخبروهم بقصة الغلام وأقرأوهم الكتاب. فلم يتر أحد من أهل المدينة إلا حتى على عثمان. وزاد ذلك من كان غضب لابن مسعود وأبي ذر وعمار حقاً وغيفاً.

وقام أصحاب محمد فلققوا بمنازلهم.

وحاصر الناس عثمان وأجلب عليه محمد بن أبي بكر بنمي وغيره وأهانوا على ذلك طلحة بن عبيد الله. وكانت عائشة رضي الله عنها تقبحه كثيراً.

فلما رأى ذلك علي، بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب النبي كلهم يدري. ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والبحير والغلام.

فقال له علي: هذا الغلام غلامك؟

قال: نعم.

قال: فالبير بعيرك؟

قال: نعم.

قال: وأنت كتبت هذا الكتاب؟

قال: لا وحلف بالله: ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر.

فأما الخط فعرفوا أنه خط مروان. وشكوا في أمر عثمان رضي الله عنه، وسألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى - وكان مروان عنده في الدار - فخرج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من عنده غضاباً وشكوا في أمره. وعلموا أنه لا يحلف بباطل.

إلا أن قوماً قالوا: لا يبرأ عثمان من قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان حتى نختبه، ونعرف حال الكتاب. فكيف يؤمر بقتل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بغير حق؟ فإن يكن عثمان كتبه عزله وإن يكن مروان كتبه على لسان عثمان، نظرنا ما يكون منا في أمر مروان.

ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه القتل. وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء⁽¹⁾

وأما في تاريخ اليعقوبي فتبدو الرواية مبسرة وفيها بعض اختلاف. فهو يتدأ بالقول «وقدم عليه أهل البلدان فتكلموا. وبلغ عثمان أن أهل مصر قدموا عليهم السلاح. فوجه إليهم عمرو بن العاص وكلمهم» وبعد أن ذكر عمرو كلاماً مدح فيه النبي (ص) وخليفته قال للمصريين «ثم ولي عثمان، فقلتم، وقال، تلومونه ويعذر من نفسه، أفليس ذلك كذلك؟ قالوا: بلى. قال: فاصبروا له، فإن الصغير يكبر والهزيل يسمن، ولعل تأخير أمر خير من تقديمه. ثم نزل.

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري. ونفس هذا النص بالحرف تقريباً جاء في الإمامة والسياسة بأسناده الجمعي (ذكروا). وكذلك روى ابن حبان في كتاب «الظقات». وأيضاً روى السجستاني في تاريخ الخلفاء نفس رواية الزمري هذه عن سميد بن المسيب بالحرف تقريباً نقلاً عن ابن عساكر. وروى ابن حجر المسقلاقي في الإصابة نفس القصة باختصار.

فدخل أهل عثمان عليه فقالوا له: هل عابك أحد بمثل ما عابك به عمرو؟
فلما دخل عليه عمرو قال: يا ابن النابغة! والله ما زدت أن حرّضت
الناس عليّ!

قال: والله لقد قلّْتُ فيك أحسن ما علمتُ. ولقد ركبت من الناس،
وركبوها منك، فاعتزل إن لم تعتدل!

فقال: يا ابن النابغة! قُتِلْ درعك⁽¹⁾ مذ عزلتك عن مصر!

ثم أضاف «وسار الركب» الذين قدموا من مصر، فلما صاروا في بعض
الطريق إذا برأكب على جمل، فأذكروه ففتشوه، فوجدوا معه صحيفة من عثمان
إلى خليفته عبد الله بن سعد: إذا قدم عليك النضر فاقطع أيديهم وأرجلهم.

فقدموا واتفقوا على الخروج. وكان من يأخذون عنه محمد بن أبي
بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وكتانة بن بشر، وابن عديس البلوي، فرجعوا
إلى المدينة.

وأما رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد كانت عن جابر بن عبد
الله «أن المصريين لما أقبلوا من مصر يريدون عثمان ونزلوا بذي خشب، دعا
عثمان محمد بن مسلمة فقال: اذهب إليهم فأردهم عني وأعطهم الرضى
وأخبرهم أنني فاعل بالأمور التي طلبوا، ونازع عن كذا بالأمور التي تكلموا
فيها.

فركب محمد بن مسلمة إليهم إلى ذي خشب. قال جابر: وأرسل معه
عثمان خمسين راكبا من الأنصار أنا فيهم.

وكان رؤسائهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن
حمران المرادي، وابن البياض، وعمرو بن الحمق الخزاعي (لقد كان الاسم
غلب حتى يقال: جيش عمرو بن الحمق).

(1) ورغم أنه لا يمكن استبعاد احتمالية أن يكون عمرو بن العاص قد خرج ليكلم
المصريين، نظراً لخبرته في الشؤون المصرية، إلا أنه يبدو ظاهراً حرص الجوفوي
الكبير على إبراز المبارات الحادة والقاسية المتبادلة بين عثمان وعمرو.

فأتاهم محمد بن مسلمة فقال: إن أمير المؤمنين يقول كذا ويقول كذا،
وأخبرهم بقوله فلم يزل بهم حتى رجعوا.

فلما كانوا بالبويب وأوا جملا عليه ميسم الصدقة فأخذوه فلذا غلام
لثمان فأخذوا متاعه ففتشوه فوجدوا فيه قسبة من رصاص فيها كتاب في
جوف الادارة في الماء، إلى عبد الله بن سعد: أن افعل بفلان كذا وبفلان كذا،
من القوم الذين شرعوا في عثمان

فرجع القوم ثانية حتى نزلوا بأيدي خشب. فأرسل عثمان إلى محمد بن
مسلمة فقال: اخرج فاردهم عني. فقال: لا أفعل.

فقدموا فحصروا عثمان

ويلاحظ أن هذه الرواية في مجملها تتفق مع تلك المفصلة لابن شبة،
ولكنها تختلف بعدم ذكر علي بن أبي طالب ولا غيره من الصحابة الذين
تفاوضوا مع الثوار باستثناء محمد بن مسلمة، كما أنها لا تذكر مروان بن
الحكم ولا اتهامه بتزوير الكتاب. وهي أيضا تخلو من ذكر محمد بن أبي بكر
ودوره في قيادة المتتمردين المصريين.

وقد روى خليفة بن خياط في تاريخه عن أبي سعيد مولى أبي اسيد
الانصاري أنه بعد أن رجع الوفد المصري:

«فينا هم بالطريق إذا راكب يتعرض لهم وفارقهم، ثم يرجع اليهم ثم
يفارقهم.

فقالوا: مالك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر. ففتشوه
فلذا هم بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه إلى عامل مصر أن يصلبهم أو
يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم.

فأقبلوا حتى قدموا المدينة فأتوا علياً فقالوا: ألم تر إلى عدو الله كتب فينا
بكذا وكذا؟ وإن الله قد أحل دمه، فقم معنا إليه.

قال: والله لا أقوم معكم

قالوا: فلم كتبَ اليَنا ؟

قال: والله ما كتبَ اليكم كتاباً.

فنظر بعضهم الى بعض، وخرج علي من المدينة.

فانطلقوا الى عثمان فقالوا: كتبَ فينا بكلاً وكلاً .

قال: انهما اثنان: أن تقيما رجلين من المسلمين أو يمين بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبَ ولا أملتُ ولا علمتُ. وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم على الخاتم .

قالوا: قد احل الله دمك، ونقض العهد والميثاق وحصره في القصر رضي الله عنه

وهذه الرواية في مجملها تتفق مع تلك المفصلة لابن شبة، ولكنها تذكر علي بن أبي طالب وليس محمد بن مسلمة كمفاوض، كما انها لا تذكر مروان بن الحُكم ولا اتهمه بتزوير الكتاب. وهي أيضا تخلو من ذكر محمد بن أبي بكر ودوره في قيادة المتمردين المصريين. كما ان فيها إشارة الى كتاب هامض يحرض على عثمان وحصل الى الثوار من علي، ونفي علي لذلك.

ولا تختلف رواية ابن اسحق التي أخرجها الطبري في تاريخه في اطرافها العام عما سبق من روايات:

«...فأرسلوا الى عثمان: ألم تفارقت على أنك زعمت أنك تأتب من أحداثك وراجع عما كرهنا منك وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه؟

قال: بلى. انا على ذلك .

قال: فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك وكتبَ به الى عاملك؟

قال: ما فعلتُ ولا لي علم بما تقولون

قالوا: بريدك على جملك وكتاب كاتبك عليه خاتمك

قال: أما الجمل فمسرورق، وقد يشبه الخط الخط واما الخاتم فانتش

عليه

قالوا: فلنا لا نجعل عليك وإن كنا قد اتهمناك. اهزل عنا عمالك الفساق، واستعمل علينا من لا يتهم على دعاتنا وأموالنا وأرصد علينا مظالمنا.

قال عثمان: ما أُراني إذن في شيء إن كنتُ استعمل من هو بكم وأهزل من كرهتم. إذن الأمر أمركم!

قالوا: والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر لنفسك أو دع.

فأبى عليهم وقال: لم أكن لأخلق سريالاً سريانيه الله .

فحصروه أربعين ليلة، وطلحة يصلي بالناس»

وفي رواية الواقدي لدى الطبري أنه لما أجابهم عثمان بأنه لا يدري من الذي كتب الكتاب باسمه، لم يقتنعوا بذلك فقالوا له:

«فيجزأ عليك، فيبعث غلامك، وجعل من صدقات المسلمين، وينقش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام، وأنت لا تعلم»^{١٩}

قال نعم .

قالوا: فليس مثلك يلي. اخلق نفسك من هذا الأمر كما خلعتك الله منه

قال لا أنزع قميصاً ألبسني الله عز وجل»

وهكذا فإنه بعد أن يش الناس تماماً من وعود الخليفة لم يعد هناك سوى واحد من احتماليين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وتجنب القتل: إما أن يعزل الخليفة نفسه، أو يسلّم مروان بن الحكم. هذان كانا المطلبين الأخيرين للثوار ولم يكن ممكناً التنازل فيهما. كان واضحاً أن أهل المدينة - والأنصار خصوصاً - قرروا التخلي عن الخليفة. لقد تملك الناس شعورٌ من اليأس من إمكانية إصلاح سياسة عثمان. كان هناك شعورٌ جمعيٌّ بأن الخليفة لا يعدو كونه العوية بأيدي بني أمية الذين يسيرون كل شيء في الدولة، وأن نجاح محاولات التغيير يعتمد على مدى استعداد الخليفة للاستفتاء عن بطالته الفاسدة. ولم يكن عثمان ليوافق على التخلي عن

أقربائه الأمويين لعدة أسباب: فهو أولا يحبهم من ناحية فطرية، وحتى حين كان بمكة مع الرسول (ص) وبعدها في المدينة، لم تتدهور علاقته مع قومه وبقي الودّ موجوداً حتى في ذروة فترات الصراع النبوي مع قريش بقيادة بني أمية. وكذلك فإن عثمان سَيَّسَ الْمُنَاجَاةَ لِمَاثَلَهُ قد أغضب عليه كبار الصحابة الذين كانوا يرون أنه قد مَالَ عن سياسة أبي بكر وعمر والتي كانت قائمة على أسس قرشية عامة، وانحرف بها لتصبح سياسة عائلية أموية محضة. وبما أن عموم الأنصار وبني هاشم هم في المعسكر المعارض لسياسة الخليفة، فإن عثمان في حقيقة الأمر لم يكن يملك عملياً خيار الاستفتاء عن بطائه الأموية. فبدون عائته، على ماذا يتكئ عثمان في حكمه؟

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة ثلاث روايات فيها اتهام صريح من عثمان لعلي بأنه وراء ذلك الكتاب المختوم باسمه! وهذا إن صحّ يعكس مدى الانحدار في مستوى علاقتهما وطفان الشك وسوء الظن بينهما: فقال له علي رضي الله عنه: أتتهم أحداً من أهل بيتك؟ قال: نعم. قال: من تهم؟ قال: أنت أول من اتهم!

فغضب علي رضي الله عنه فقام وقال: والله لا أعينك ولا أعين عليك حتى ألتقي أنا وأنت عند رب العالمين»

وفي الرواية الثانية أن عثمان قال لعلي وأظن كاتبك غدر، أو أظنك به يا علي!

قال علي: فلم تظنتني؟

قال: لأنك مطاع في القوم فلم تردعهم عني»

ويبدو أن هذا الموقف كان نهاية مجاولات علي للتوسط بين عثمان والمهاجرين. فبعد هذا الاتهام الصريح له بالتآمر عليه، كيف يمكن لعلي أن يستمر في مساعيه؟

وروى ابن شبة أيضاً عن الشعبي أن أهل مصر لما عادوا وحضروا عثمان

وهو على المنبر، وجه اتهاماً صريحاً لآخر لعلي فقال عثمان رضي الله عنه: يا علي! قد نصبت القدر على آثاف⁽¹⁾

ورغم أن الباحث يميل إلى عدم ترجيح أن يكون عثمان قد وجه مثل ذلك الاتهام المباشر لعلي بانه كان وراء ذلك الكتاب المزور، إلا أنه لا يمكن استبعاد ذلك تماماً، خصوصاً بالنظر إلى خلفية العلاقة الطويلة من الشقاق بين الرجلين، واختلاً بعين الاعتبار الوضع الحرج والظرف الصعب الذي كان عثمان يمر به مما قد يفقده اعصابه وتوازنه.

وهكذا بدا الحصار الأخير للخليفة عثمان في بيته. ولا يعرف على وجه الدقة كم دام ذلك، ولكنه كان طويلاً جداً حسب كل الروايات. وبالإضافة إلى قول ابن اسحق انه كان 40 ليلة، ذكر ابن الأثير في اسد الغابة فقال الواقدي: حصروه 49 يوماً، وقال الزبير: حصروه شهرين وعشرين يوماً⁽²⁾

تأييد ابن كثير لمروان وعثمان

أعلن ابن كثير في البداية والنهاية معارضته لقيام مروان بن الحكم بتزوير ذلك الكتاب على لسان الخليفة وإرساله إلى عامل مصر دون علمه أو إذنه، ولامه على ذلك. ولكنه في ذات الوقت دافع عنه وأوجد تبريراً لتصرفه: الاجتهاد والتأويل فقال:

«ان المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلى أمير مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم وصلب بعضهم وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان متأولاً قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم جزاء في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم) -المائدة 33-

وعنده ان هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

(1) والآلاف جمع أثنية، وهي حجر من ثلاثة توضع عليها القدر. يريد أن علياً دبر كل ذلك،

من جملة المعسفين في الأرض - ولا شك أنهم كذلك - لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه ويزور على خطه وخاتمه ويبعث غلامه على بعيره، بعدما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين.....^(١)

ثم دافع ابن كثير عن عثمان فقال ان المهاجمين لما قالوا له «ان كنت قد كتبته فقد خنت»، وإن لم تكن قد كتبه بل كتب على لسانك وأنت لا تعلم فقد عجزت. ومثلك لا يصلح للخلافة: إما لخياطة وإما لعجزك لم يكن لهم الحق في ذلك وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير: فإنه لو فرض انه كتب الكتاب، وهو لم يكتبه في نفس الأمر، لا يضره ذلك، لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة في إزالة شوكه هؤلاء البغاة الخارجين على الامام. وأما إذا لم يكن قد علم به فأى عجز ينسب اليه اذا لم يكن قد اطلع عليه وزور على لسانه؟ وليس هو بمعصوم بل الخطأ والغفلة جائزان عليه رضي الله عنه. وإنما هؤلاء الجهلة البغاة متمتتون غوة، ظلمة مفترون^(٢)

حديث نبوي بائر رجعي: لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله^(٣)

ومن المفيد هنا ملاحظة كيفية تطور قول لواحد من الصحابة، صدر عنه في موقف معين، وفي أثناء ظرف محدد، الى حديث منسوب الى الرسول (ص). فالذي يجري هنا هو لجوء أطراف منخرطة في الصراع الى «استدعاء» رسول الله (ص)، قسراً، لدعم مواقفها في الفتنة.

فأمام مطالبات الثوار له بأن يخلع نفسه من الحكم، لأنه غير صالح لأن يكون خليفة ولأنهم عجزوا عن التوصل إلى حل مقبول معه، أعلن عثمان موقفه النهائي، وهو أن الخلافة منحة إلهية له، ولن يتنازل عنها أبداً وأطلق قوله المشهور «لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل»^(٤)

(١) مصادر هذا البحث: تاريخ خليفة بن غياث (ص 126)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 3 ص 66)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج 4 ص 1286)، سنن ابن ماجه (ج 1 ص 42)، سنن الترمذي (ج 5 ص 292)، صحيح ابن حبان (ج 15 ص 346)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 6 ص 182 + 194)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 407)
(2) تاريخ الطبري (ج 3 ص 407)

فلنر كيف طَوَّر كلامه؟

فقد روى خليفة بن خياط في تاريخه^١ عن أم يوسف بنت ماهك عن أمها قالت «دخلتُ على عثمان وهو محصور، وفي حجره المصحف، وهم يقولون: اعتزلنا / وهو يقول: لا أُخلع سريالاً سريته الله»

وهناك رواية أخرى لدى خليفة تفيد بأن صاحب فكرة القميص الالهي هو عبد الله بن عمر. فمن نافع قال «دخل ابن عمر على عثمان وعنده المغيرة بن الأخنس فقال: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون اخلعها ولا تقتل نفسك!

فقال ابن عمر: اذا خلعتها أمخلدُ أنت في الدنيا؟
قال: لا.

قال: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟
قال: لا.

قال: فهل يملكون لك جنة أو ناراً؟
قال: لا.

قال: فلا أرى لك أن تخلع قميصاً قمصكه الله فتكون سنة: كلما كره قومٌ خليفتهم أو إمامهم قتلوه^(١)»

وهاتان الروايتان عن أم يوسف بنت ماهك ونافع أخرجهما ابن سعد في الطبقات الكبرى مع اختلاف يسير: ففي الأولى قول عثمان «لا أتزع سريالاً سريته الله، ولكن أتزع عما تكرهون»، وفي الثانية قول ابن عمر «لا أرى أن تسن هذه السنة في الإسلام: كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه. لا تخلع قميصاً قمصكه الله»

وكذلك لدى البلاقي (أنساب الأشراف).

فمن أبي مخنف أن المصريين لما حاصروه قالوا له «... ما مثلك يلي أمور المسلمين، فاختلع من الخلافة!

فقال: ما كنت لأتزع قميصاً قمصته الله - أو قال سريته الله»

وعن نافع عن ابن عمر «قال عثمان وهو محصور: ما تقول فيما أشار به عليّ المغيرة بن الأخنس؟

(١) وربما يكون الأصح أن الكلمة الأخيرة هي «خلعوه» وليس «قتلوه»

قلت: وما هو؟

قال: إن هؤلاء القوم يرون خلعتك، فإن فعلت وإلا قتلوك! فدع امرهم اليهم.

قلت: أرايت أن لم تخلع هل يزيدون على قتلك؟

قال: لا

قلت: فلا أرى أن تسن هذه السنة في الإسلام، فكلما سخط قوم أميرهم خلعوه. لا تخلع قميصاً قمصكه الله!

وردى ابن شبة في تاريخ المدينة «حدثنا أحمد بن معاوية قال: حدثنا اسماعيل بن مجالد، عن الشعبي أن عثمان رضي الله عنه لما حصر أياماً طلبوا إليه أن يخلع نفسه فأبى وقال: لا أخلع سريالاً سريانيه الله، ولا أخلع قميصاً كسانيه الله.

فقالوا: إن الله سربك أمة محمد جميعاً، تسلط على أموالهم وتستهمل اخوتك وأقربتك. عليك التوبة من هذا القول لأن هذا ليس بميراث عن أبيك، ولا عهد من رسول الله (ص)...

وهذه العبارة الصادرة عن عثمان، بصيغتها المختلفة سواء (لا اتزع قميصاً) أو (لا أخلع سريالاً)، مشهورة ومتواترة في جميع كتب التاريخ. وهي تنسجم مع وقائع الأحداث ومع فلسفة الخليفة ونظرتة للخلافة كمنحة له من الله. وليس هناك ما يدعو إلى الشك في صدورها عنه.

ورغم أن الروايات لا تشير إلى أن عثمان نفسه قد نسب هذه العبارة إلى رسول الله (ص)، ولا ادعى أنها وصية نبوية قديمة: إلا أن النعمان بن بشير، وهو رجل معاوية المخلص، قد أصر على أن عبارة عثمان إنما هي عهد قديم له من النبي (ص) ذاته، وليست من لدن الخليفة!

ورد في سنن ابن ماجه عن النعمان بن بشير عن عائشة قالت «قال رسول الله (ص): يا عثمان، إن ولأك الله هذا الأمر يوماً، فأراك المتنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله، فلا تخلعه. يقول ذلك ثلاث مرات.

قال النعمان: فقلت لعائشة: ما منعك أن تعلمي الناس بهذا؟ قالت:

أنسيته!

وورد في سنن الترمذي عن النعمان بن بشير عن عائشة ان رسول الله (ص) قال يا عثمان: إنه لعل الله يقمصك قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم؟

وجاء في صحيح ابن حبان عن النعمان بن بشير قال «إنه أرسله معاوية بن أبي سفيان بكتاب إلى عائشة، فدفعه إليها. فقالت: ألا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله؟

قلت: بلى

قالت: أتني عنده ذات يوم أنا وحفصة فقال رسول الله (ص): لو كان عندنا رجل يحدثنا.

فقلت: يا رسول الله أبعث إلى أبي بكر يحيى فيحدثنا؟ قالت: فسكت.

فقالت حفصة: يا رسول الله أبعث إلى عمر فيحيى فيحدثنا؟ قالت: فسكت (ص)

فدعا رجلاً فأمر إليه بشيخ دوننا.

فذهب فجاء عثمان فأقبل عليه بوجهه. فسمعتة (ص) يقول: يا عثمان إن الله لعله يقمصك قميصاً فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه. ثلاثاً.

قلت: يا أم المؤمنين فأين كنتِ عن هذا الحديث؟

قالت: يا بني أنسيته. كأنني لم أسمعه قط.

فهكذا حسب «حديث» النعمان هذا، فإنه كان يقوم بدور المرسال بين خصمي الإمام علي، معاوية وعائشة، وأنه أثناء قيامه بمهمته تلك قامت أم المؤمنين عائشة «بتذكرك» حديث نبوي كانت قد «نسيته»!

ولا تخفى على اللبيب مقاصد النعمان من ترويج هذا «الحديث»: فالدفاع عن عثمان، وتبرير مواقفه أثناء الفتنة، سيؤدي بالتأكيد إلى نيل رضا سيده معاوية، ونيل الحظوة عنده. وهو ما كان، فعينه معاوية واليا على الكوفة مكافأة له على ذلك «الحديث» النبوي المفصل على مقاس عثمان، وعلى أدواره الأخرى.

الفصل الثالث: مواقف من الهجوم على عثمان

اقتلوا نمثلاً⁽¹⁾

تميل الكثير من المصادر الى توجيه اللوم الى ام المؤمنين عائشة وتحميلها مسؤولية التحريض على قتل الخليفة عثمان والتأليب عليه. وهنا بعض الأمثلة على ذلك:

روى اليعقوبي في تاريخه «وكان بين عثمان وعائشة منافرة، وذلك انه نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب، وصيرها أسوة غيرها من نساء رسول الله. ونادت: يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يبل، وقد أبلى عثمان سته» وأضاف انه أثناء حصار عثمان في داره «وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة» ثم قال «وصار مروان الى عائشة فقال: يا أم المؤمنين! لو قميت فأصلحتي بين هذا الرجل وبين الناس؟

قالت: قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحج.

قال: فيدفع اليك بكل درهم أتفقته درهمين.

قالت: لعلك ترى اني في شك من صاحبك؟ أما والله لو ددت أنه مقطع في غرارة من غرائري، وأنني أطيق حملة، فأطرحه في البحر!

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد «وأرادت عائشة الحج

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج57 ص258)، كتاب الفتح لابن أحمم الكوفي (ج2 ص421-422)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص77)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأريلي (ج1 ص239)، الأيضاح للفضل بن شاذان (ص257-263).

وعثمان محصور. فأتاهما مروان ويزيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص فقالوا: يا أم المؤمنين لو أقميت إقنان أمير المؤمنين كما ترين محصور، ومقامك مما يدفع الله به عنه.

فقالت: قد خليت ظهري وهرئت غرائري ولست أقدر على المقام فأعادوا عليها الكلام وأعادت عليهم مثلما قالت لهم. فقام مروان وهو يقول:

حرق قيس علي البلاد حتى إذا استعرت أجلدا

فقالت عائشة: أيها المتمثل علي بالأشعار، وددت والله أنك وصاحبك هذا الذي يعينك أمره في رجل كل واحد منكما رحي، وأنكما في البحر! وخرجت إلى مكة.

وورد في كتاب الفتوح لابن أحنم الكوفي:

«خروج عائشة إلى الحج لما حوَّصر عثمان وأشرف على القتل ومقالها فيه:

قال: وعزمت عائشة على الحج، وكان بينها وبين عثمان قبل ذلك كلام، وذلك أنه آخر عنها بعض أرزاقها إلى وقت من الأوقات فغضبت، ثم قالت: يا عثمان! أكلت أمانتك وضيت رعيك وسلطت عليهم الأشرار من أهل بيتك، لا سقاك الله الماء من فوقك وحرمتك البركة من تحتك! أما والله لولا الصلوات الخمس لمشى إليك قوم ذو ثياب وبصائر يلبحرك كما يلبح الجمل.

فقال لها عثمان: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين).

قال: وكانت عائشة تحرض علي قتل عثمان جهدها وطاقتها وتقول: أيها الناس! هذا يميم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل وبليت سته، اقتلوا نعتلا، قتل الله نعتلا!

قال: فلما نظرت عائشة إلى ما قد نزل بعثمان من إحصار القوم له قريت راحلتها وعزمت على الحج، فقال لها مروان بن الحكم: يا أم المؤمنين ! لو أنك أقمت لكان أعظم لاجرك، فإن هذا الرجل قد حوَّصر فعسى الله تبارك وتعالى أن يدفع بك عن ذمه!

فقالت: الآن تقول هذا وقد أوجبت الحج على نفسي، لا والله لا أقمت .
وجعل مروان يتمثل بهذا البيت: ضرم قيس على البلاد دما * إذا اضطربت يوم به أحجما .

فقالت عائشة: قد فهمت ما قلت يا مروان !

فقال مروان: قد تبينت ما في نفسك .

فقالت: هو ذلك .

ثم إنها خرجت تريد مكة، فلقبها ابن عباس فقالت له: يا بن عباس، إنك قد أوتيت عقلا وبيانا فلياك أن ترد الناس عن قتل هذا الطاعني عثمان! فإني أعلم أنه سيثام قومه كما شام أبو سفيان قومه يوم بدر .

ثم إنها مضت إلى مكة وتركت عثمان على ما هو فيه من ذلك الحصار والشدة!

ومثل هذه الروايات لا بد من تجاهلها واعتبارها خارجة عن السياق المرجح للأحداث: فالسبب الذي تستند إليه في غضب عائشة هو تقاعس عثمان عن أداء حقوقها المالية وقيامه بالانتقاص من عطائنا الذي كان في زمان عمر . وهذا مستبعد تماما لأن عثمان كان يتصف بالسخاء في المنح والعطاء، وخصوصا لكبار الصحابة ولقرش عموما . وما هو مشهورٌ ومسلمٌ به أن عمر كان «ممسكا بحلاليهم قرش» بينما جاء عثمان ليربِّحها من أسلوب عمر الشديد ويفتح لها آفاق الإثراء . فلا يصح أن عثمان يتقص من عطائه لعمر، بل العكس هو الصحيح . وعدا عن شخصية عثمان المتسامحة فيما يتعلق بالأموال فإن فوائد الفتوحات العظمى التي حصلت في زمن عمر قد ظهرت وتجلت في عهد عثمان الذي تدفقت فيه الأموال والفتنات الهائلة مما أدى

بالضرورة الى تضاعف العطاءات لعموم الناس، ولقریش وكبار الصحابة خصوصا.

كما أن خروج عائشة من المدينة الى مكة في ذلك الوقت المضطرب لا يعني بالضرورة أنها كانت غاضبة من الخليفة، بل العكس هو الأرجح. فهي كانت مستاءة من الهجوم الذي تعرضت له المدينة من قبل من تصفهم بـ «الأعراب ونزاع القبائل» والذي رأت فيه تطاولا على مقام الخليفة وجرأة على سلطة قریش. وهذا ظاهر تماما في سيرتها ومواقفها وكلامها في مكة والبصرة. فخروجها كان بسبب عجزها عن التأثير على مجريات الأحداث ولو كانت تدعو الى قتل «نعل» لقيت بين الثوار المسيطرين في المدينة.

كما أن اللغة المستخدمة على لسان عائشة: وصفه بنعل، وتمنيها أنه يطرح في قعر البحر ودعوتها الى قتل الطاغية ... وما شابه ذلك مستبعدة تماما، ولم تكن مما يجري في أوساط كبار الصحابة وأمهاء المؤمنين.

والمصادر الشيعية فيها نفس هذه الروايات، ولكن مع المزيد من التعابير القاسية التي تقترب من الشتائم:

ومن ذلك ما ذكره الشيخ المفيد في كتاب الجمل أن عائشة كانت على خلاف شديد مع عثمان، وكانت تستخدم معه أقسى العبارات ومنها أنها قالت له مرة «هذا قميص رسول الله لم يتغير وقد غيرت سته يا نعل» ومرة أخرى «يا غدر يا فجر! أخضرت أمانتك وضيعت رعيتك، ولولا الصلاة الخمس لمسى اليك الرجال حتى يذبحك ذبح الشاة» وأضاف أن عائشة لما أيقنت أن عثمان مقتول لا محالة رفضت طلبا من مروان بالدفع عنه وخرجت تريد الحج فلقيها ابن عباس وهو عائد للمدينة فقالت له «يا ابن عباس، إنك قد أوتيت عقلاً وبيانا، ولياك أن ترد الناس عن قتل الطاغية!»

وروى ابن أبي الفتح الأريلي في كشف الغمة «ان عائشة حرخت الناس على قتل عثمان بالمدينة وقالت: اقتلوا نعلًا قتل (الله) نعلًا! فلقد أبلى سنة رسول الله وهذه ثيابه لم تبلى»

وروى الفضل بن شاذان في الايضاح انه حصل خلاف شديد بين عائشة وحفصة وبين عثمان بسبب قراره تخفيض العطاء لأزواج النبي (ص) عما كان

عليه الحال أيام عمر. ولما أصرّ عثمان على قراره طالبته بميراثهما من رسول الله (ص) وأنه عند ذلك «... وكان عثمان متكئاً فجلس، وكان علي بن أبي طالب (ع) جالسا عنده، فقال: ستعلم فاطمة (ع) أنني ابن عم لها اليوم؟ ثم قال: أستمعك اللتين شهدتما عند أبي بكر ولفقتكما معكما أحرابياً يتطهر بيوله مالك بن الحويرث بين الحلتان فشهدتما أن النبي (ص) قال: إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة. فإن كنتما شهدتما بحق فقد أجزرت شهادتكما على أنفسكما، وإن كنتما شهدتما باطل فاعلى من شهد بالباطل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فقالت له: يا نعتل! والله لقد شهِدك رسول الله (ص) بنعتل اليهودي. فقال لهما: ضرب الله مثلاً (للذين كفروا) امرأة نوح وامرأة لوط. فمخرجتا من عنده.»

وأضاف أنه لما نغم الناس على عثمان، وكان يخطف على المنبر فرفعت عائشة قميصاً لرسول الله (ص) على قصبة أو جريدة من جرائد النخل فقالت: يا عثمان قميص رسول الله (ص) لم يبل وقد غيرت سته»

ورواية الفضل بن شاذان هذه لا يمكن قبولها على الإطلاق. فهل يمكن تخيل عثمان وهو يتهم أبا بكر وعائشة وحفصة بإحضار شاهد زور «أحرابي يتطهر بيوله» من أجل منع توريث فاطمة؟ ومتى كان عثمان من المدافعين عن حق فاطمة في وراثة أبيها؟ ومسائل من قبيل تشبيه رسول الله (ص) لعثمان «بنعتل اليهودي» وتشبيه عثمان لعائشة وحفصة بأمراتي نوح ولوط هي من قبيل الشتائم ليس إلا.

ورغم ذلك لا يمكن اتهام المصادر الشيعة بأنها وراء تلفيق هذه الروايات، بل هي موجودة بكثرة في غيرها. ولكن المصادر الشيعة أكثر استغاضة في ذكرها وتوسعاً في تفاصيلها وأشد تركيزاً على الغريب منها.

طلحة هو زعيم المتمردين: يمنع عثمان الماء ويشرف على إطلاق النبال⁽¹⁾

ولم تكف المصادر بتحميل عائشة مسؤولية التحريض على «نعتل»، بل

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة (ج 4 ص 1202-1199)، تاريخ الطبري (ج 2 ص 175)، الأمانة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 57)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 41)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص 76)

انتقلت الى طلحة بن عبيد الله لتجعله يبدو في صورة القائد الميداني لجموع
الثوار المحاصرين لعمان! ومن ذلك :

روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن الكلبي أن عثمان وهو محصور
أرسل الى علي بن ابي طالب يشكو اليه طلحة لأنه قد تظني بالمعشر، واقتل
بالسلاح أجمل من القتل بالمعشر! وأن علياً بناءً على تلك المناشدة تدخل
فلجئ الى طلحة وطالبه بإدخال الماء الى عثمان فرفض وأجابه **«لا والله !
ولا نعمة حين لا تتركه يأكل ويشرب !»** وغير ذلك من روايات تقول ان عثمان
بعث لعلي يقول له ان طلحة التيمي يريد أن يبرز بيني عبد مناف ملكهم ويقول
له **«إن كنت مأكولاً فكُن خبيراً أكلٍ»** ولا تدخل بينها وبين ابن فلانة - يريد طلحة -
وذكر اليعقوبي في تاريخه **«وحصر ابن عديس البلوي عثمان في داره،
فناشدهم الله. ثم نشد مفاتيح الخزائن، فأتوا بها الى طلحة بن عبيد الله،
وعثمان محصور في داره»**

وروى ابن قتيبة في الامامة والسياسة **«ثم أقبل الأشتر النخعي من الكوفة
في ألف رجل، وأقبل ابن ابي حذيفة من مصر في أربع مئة رجل. فأقام أهل
الكوفة وأهل مصر يباب عثمان ليلاً ونهاراً، وطلحة يعرض الفريقين جميعاً
على عثمان. ثم إن طلحة قال لهم: ان عثمان لا يبالي ما حصرتموه ؟ وهو
يدخل اليه الطعام والشراب فامتنوه الماء أن يدخل عليه»** وأضاف ان عثمان
خاطب طلحة فرفض فك حصاره وقال له **«لأنك غيرت وبدلت»** وعندها
استنجد بعلي بعدما سبَّح الماء فاستجاب وأرسل له ثلاث قرب مملوءة بالماء
فلما وصلته احتج طلحة على علي **«وكان بينهما في ذلك كلام شديد»**.

وذكر الطبري في تاريخه في رواية عن الواقدي أنه عندما كان عثمان
محاصراً في داره **«تر طلحة بن عبيد الله فوقف فقال: أين ابن عديس؟
فقيل: ها هو ذا»**.

قال فجاهد ابن عديس، فناهجه بشيء ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه:
لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل ولا يخرج منه».

قال: فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله. ثم قال عثمان:
اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنه حمل علي هؤلاء وألبهم. والله اني أرجو
أن يكون منها صغراً، وأن ينفك دمه. انه انتفك مني ما لا يحل له....

وطبماً المصادر الشيعية لا تقل تأكيداً على اتهام طلحة مما أوردناه.
فالشيخ المفيد في كتاب الجمل يضيف الزبير الى طلحة فيمن يتحملون
مسؤولية قتل الخليفة. فيقول:

ولما أبى عثمان أن يخلع نفسه تولى طلحة والزبير حصاره والناس
معهما على ذلك فحصروه حصراً شديداً ومنعوه الماء.

وأنفذ إلى علي يقول: إن طلحة والزبير قد قتلتني من العطش، والموت
بالسلاح أحسن!

فخرج معتمداً على يد المسور بن مخرمة الزهري حتى دخل على طلحة
بن عبيد الله وهو جالس في داره يسوي نبلاً وعليه قميص هندي فلما رآه
رحب به ووسع له على الوسادة. فقال له علي عليه السلام: إن عثمان قد أرسل
إلي إنكم قد هلكتموه عطشا وإن ذلك ليس بالحسن والقتل بالسلاح أحسن
وكنيت أليت علي نفسي أن لا أورد عنه أحداً بعد أهل مصر وأنا أحب أن تدخلوا
عليه الماء حتى تروا رأيكم فيه.

فقال طلحة: لا والله لا نمنعه عينا ولا نتركه يأكل ولا يشرب!

فقال علي (ع): ما كنت أظن أن أكلم أحداً من قريش فيردني. دُع ما كنت
فيه يا طلحة.

فقال طلحة: ما كنت أنت يا علي في ذلك من شيء.

فقام علي (ع) مغضباً وقال: ستعلم يا بن الحضرمية أكون في ذلك من
شيء أم لا. ثم انصرف.

وروي أبو حنيفة بن إسحاق بن بشير القرشي أيضاً قال حدثني / يزيد بن
أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: والله اني لأنظر إلى طلحة وعثمان
محصورين وهو على فرس أحدهم ويده الرمح يجول حول الدار وكأنه أنظر إلى
بياض ما وراء الدرع.

وروى أبو إسحاق قال: لما اشتد الحصار بعثمان عمه بنو أمية على إخراجهم ليلاً إلى مكة وعرف الناس فجعلوا عليه حرساً وكان على الحرس طلحة بن عبيد الله وهو أول من رمى بسهم في دار عثمان .

قال: وأطلع عثمان وقد اشتد به الحصار وتعلماً من العطش فتأذى أيها الناس اسقونا شربة من الماء وأطعمونا مما رزقكم الله! فناداه الزبير بن العوام: يا نعتل لا والله لا تلقه !

وروى أبو حنيفة القرشي عن الأصمش عن حبيب بن ثابت عن ثعلبة بن يزيد الحماني قال أتيت الزبير وهو عند أحجار الزيت فقلت له: يا أبا عبد الله قد حيل بين أهل الدار وبين الماء. فنظر نحوهم وقال: وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب!

وقد أوضح الشيخ المفيد فلسفته في رواية هذه الأخبار حين قال :

«فهذه الأحاديث في جملة كثيرة في هذا المعنى وهي كاشفة عما ذكرناه من أذغال القوم من التظاهر بطلب دم عثمان وهم تولوا سفكه ولم يظهر أحد منهم إلا الدم عليه، ولما بايع الناس علياً أظهروا التمس على ما فرط منهم وقرعوا بما صنعوا وأثاروا الفتنة التي رجع عليهم ما كانوا آملوه فيها منه وهو الظاهر منهم والباطن كان مخالفاً للظاهر منهم فيما ادعوه بعثمان»

وهذه الروايات، من أي مصدر جاءت، ينبغي ردّها وعدم الالتفات لها. فطلحة بن عبيد الله لم يكن زعيم الثوار المتمردين على عثمان، ولم يكن مسيطرًا على تحركاتهم، ولم يكن أمراً ولا ناهياً. فهؤلاء لم يأتوا من الأمصار من أجل قتل عثمان وتأثير طلحة. بل وأكثر من ذلك: إن طلحة بنظير أولئك الثائرين صوّ لعثمان ولا يختلف عنه كثيراً. فهو قرشي مثله، ومن طبقة كبار الصحابة الذين استأدوا من حكمه وسياسة فائري ثراءً فاحشاً، فهو وجه آخر لقرش فلم يضعون أنفسهم بتصرفه؟ وهل يستحق طلحة بنظر الثائرين تحمّل مشاق ومخاطر الثورة على الخليفة؟ وهل يمثل طلحة أصلاً أي أمل بسياسة مختلفة، وهو الذي ينتمي إلى نفس النظام القرشي الذي أنتج عثمان؟

ثم ما الذي سيجنيه طلحة نفسه من الانضمام الى صفوف هؤلاء المعتزدين القادمين من الأمصار؟ أي أمل يرجوه طلحة من هؤلاء المتتمين الى شتى قبائل العرب، الحائقين على قريش وحكمها؟ ولماذا يساهم طلحة في هدم نظام الحكم الذي أسسه عمر بن الخطاب، والذي هو شخصياً من كبار أعمدته ومرجعيته؟

ولست أنكر ان خلافاً أو اختلافاً قد ينشأ بين الرجلين، عثمان وطلحة. فهذا امرٌ مألوفٌ وطبيعي. وربما يكون طلحة مستاءً، أو حتى غاضباً، بسبب بعض قرارات عثمان. ولكن الاختلاف في الرأي بشأن مواقف معينة شيء، والمشاركة في قتل الخليفة وزعزعة نظام الحكم شيء آخر تماماً.

ولذلك أقول ان هذه الاخبار عن قيام طلحة بنوع الماء عن عثمان، أو برمي النبال تجاه بيته لا أساس لها من الصحة. وهدف مؤلفيها هو القدح بطلحة عن طريق القول ان انخراطه بحرب الجمل ضد الامام علي لم يكن له أي مسوّغ وأنه كان كاذباً في سعيه بالطلب بدم عثمان. وربما أراد مؤلفو هذه الاخبار الدفاع عن الامام علي في وجه التهم التي وجهت اليه بالتواطؤ بسبب انضمام قاتلي عثمان الى صفوفه، فكانت هذه وسيلتهم. فكانهم أرادوا أن يقولوا لخصومهم: ليس عليّ المسؤول عن مقتل عثمان، بل هم رجلكم طلحة! ودليلاً هذه الاخبار.

الصحيح بشأن موقف كبار الصحابة الغاضبين على عثمان والخاذلين له⁽¹⁾

من المفيد التأمل في الروايات التالية :

ورد في تاريخ المدينة لابن شبة عن عائشة انها قالت «كان القوم يختلفون إليّ في حيب عثمان رضي الله عنه، ولا أراه إلا أنها معاتبة. فأما دمه فأعزّذ بالله من دمه! والله لو ددّدت، اني عشتُ برصاء في الدنيا سائماً وأني لم أذكر عثمان بكلمة قط»

(1) مصادر البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 87)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج 4 ص 1226)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 3 ص 71)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 410)، وترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري (ص 227).

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن أبي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي، بعد أن ذكر المتمردين القادمين من مصر والكوفة والبصرة ومن انضم إليهم من الناس «وكان أصحاب النبي (ص) الذين خللوه كرهوا الفتنة وظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله. فتلثموا على ما صنعوا في أمره. ولمعري لو قاموا، أو قام بعضهم فحشا في وجوههم التراب لأنصرفوا خاسرين»

روى الطبري في تاريخه عن الواقدي عن أبي حبيبة قال: نظرت إلى سعد بن أبي وقاص يوم قتل عثمان دخل عليه ثم خرج من عنده وهو يسترجع مما يرى على الباب.

فقال له مروان: الآن تدم أنت أشعرته

فأسمع سعدا يقول: أستغفر الله. لم أكن أظن الناس يجثرون هذه الجراءة ولا يطلبون دمه. وقد دخلت عليه الآن فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك فترع عن كل ما كرهته وأعطى التوبة وقال: لا أتمادى في الهلكة. إن من تدامى في الجور كان أبعد من الطريق فأنا أتوب وأنزع.....»

هذه النصوص الثلاثة هي خير ما يوضح حقيقة موقف كبار الصحابة من محنة عثمان. فهؤلاء كان لهم مأخذ على عثمان وسياساته، وكانوا يعارضون بعض قراراته ويطالبونه بالعودة عنها، ويريدون منه سلوكاً كمبر بن الخطاب. وكانوا يحكم منزلتهم الرفيعة في الدولة يتمتعون بجرأة وثقة بالنفس تدفعهم إلى مواجهة الخليفة بالتقدي، والتقد الشديد أحياناً، مباشرة. وبحكم مكانتهم وشهرتهم كان الكثيرون من الرعية يلجؤون إليهم لتوصيل صوتهم إلى الخليفة.

ولكن ذلك كله كان يجري في إطار نظام الحكم الذي أرسى دعائمه عمر بن الخطاب. فالمهاجرون القرشيون من كبار الصحابة هم قادة الدولة وهم الطبقة الحاكمة وهم الذين يتداولون الخلافة فيما بينهم.

ذاك هو الإطار الذي يحكم علاقتهم. وهم حين يختلفون يدركون أن العامة يتطلعون إليهم كقدوة وموجهين، وبالتالي يحلون خلافاتهم فيما

بينهم دون أن يسمحوا لغيرهم أن يندسوا فيما بينهم. أو هكذا ينبغي أن تكون الأمور. ولذلك كانت مفاجاتهم كبيرة حين وجدوا أن خلافاتهم قد خرجت عن نطاقهم وتوسعت لتصل إلى العامة، وبالتالي أضحت من الصعب السيطرة عليها. ومن هنا نفهم معنى كلام عائشة «لا أراه إلا أنها معاتبة» وقولها في مناسبة أخرى «والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحل دمه»⁽¹⁾ وقول سعد «لم أكن أظن الناس يجتروون هذه الجرأة» وطلحة «إن عثمان بن عفان كان من أهل السابقة والفضيلة من المهاجرين الأولين. وأحدث أحدنا نقصانها عليه فبايناه ونافرائه، ثم احبب حين استعتهاه»⁽²⁾، وغير ذلك من كلام يفهم منه أن كبار الصحابة لم يكونوا يتوقعون أن معارضتهم لعثمان ستساهم في تدهور الأمور بذلك الصورة الكارثية. فلم يكن يخطر ببال كبار الصحابة أن طعنهم في بعض سياسات وقرارات عثمان سيستخدمه آخرون كذريعة لقتل الخليفة. وقد سبق وأشرنا كيف أن معاوية بن أبي سفيان، بحسب رجل الدولة الخبير والماهر، استشعر خطورة ذبوع الخلافات بين كبار الصحابة فوجه تحذيره لهم بضرورة الائتلاف حول عثمان والتوقف عن الطعن فيه.

موقف علي بن أبي طالب من مقتل عثمان⁽³⁾

التباين وشبهات

يتميز موقف الامام علي من مقتل عثمان بالتعقيد الشديد، إلى حد أنار اللبس لدى الكثيرين من الماضين والحاضرين:

فَنَسَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى الرِّضَا بِمَا صَنَعَهُ الثَّائِرُونَ بِعُثْمَانَ ،

وَاتَّهَمَهُ آخَرُونَ بِالتَّوَاتُؤِ وَالتَّأَلُّبِ عَلَيْهِ ،

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

(2) ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري (ص 227)

(3) مصادر البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 58)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 417+447+410 و ج 4 ص 4)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج 4 ص 285+263-265)، كتاب الثقات لابن حبان (ج 2 ص 1260+1262+1267)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص 106)، مروج الذهب للمسعودي (ج 2 ص 272)، تاريخ الخلفاء للمسويدي (ص 191)، وقعة صفين لتصر بن مزاحم (ص 103)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده، (ج 1 ص 62)، كتاب سليم بن قيس الهلالي (ج 2 ص 666)

وقال آخرون انه كان مقصراً فيما كان يجب لعثمان عليه،
 وأُتد آخرون انه كان كارهاً لكل ما جرى لعثمان من حصار وقتل، وأنه
 كان له مواليا وبأعماله راضيا ولكن العجز عن نصرته أقعده عنها .
 والسبب في هذا اللبس والاضطراب في فهم حقيقة موقف علي ناجم في
 الاساس عن أفعاله المختلفة مع عثمان:
 فتارة ينكر عليه ما أنكره المسلمون، أشد الانكار
 وتارة يدفع عنه وينهي عن قتله⁽¹⁾ القاصدين إلى ذلك من أهل الأمصار،
 وتارة ينكر على من منعه الماء ويغفل لذلك ويغضب أشد الغضب⁽²⁾ ،
 وتارة يجلس في بيته وهو يرى الناس يهرعون إلى قتله ويطلبون دمه
 فلا يكون منه تدخل ولا نهْي عن ذلك، رغم أنه في ظاهر الحال مُطاعٌ مُعظمٌ
 مسموعٌ الأمر مُتبعُ الرأي
 كما أنه تولى الصلاة بالناس يوم النحر وعثمان محصورٌ ولم يستأذنه في
 ذلك⁽³⁾

- (1) روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة (ج 1 ص 58):
 «بلغ علي أن عثمان يريد قتله فقال: أنا أرفنا مروءة، فأما قتل عثمان فلا. ثم قال للحسن
 والحسين: انهما يسفياكما حتى تقوموا علي باب عثمان ولا تدعيا احدا يصل اليه» وروى
 في موضع آخر أن علياً لما أرسل ابنه إلى عثمان المحاصر... دخل عليه الحسن بن
 علي فقال: مُرني بما شئت، فإني طوع بذلك... فقال له عثمان: ارجع يا ابن أخي.
 اجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمره»
 (2) ذكر الطبري في تاريخه من طريق سيف جند علي في الفلس فقال: يا أيها الناس إن
 الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين! لا تقتطعوا عن هذا الرجل المادة
 فإن الروم وفارس لنأسر قطعكم وتسلمي وما تعرض لكم هذا الرجل فيم تستحلون
 حصره وقتله؟ قالوا: لا والله ولا نعمة حين لا نتركه يأكل ولا يشرب! فرس بعامة في
 العلم بأنني قد نهضت فيما أنهضتني فرجع»
 (3) روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي وروايتين، تقول أولاهما جنداء المؤذن إلى
 عثمان فأفنه بالصلاة. فقال: لا أنزل أصلي، انصب إلى من يصلي. فجاءه المؤذن إلى
 علي، فأمر سهل بن حنيف ففصل اليوم الذي حصر فيه عثمان الحصر الأخير، وهو ليلة
 ربيع الأول ذي الحجة، ففصل بهم حتى إذا كان يوم العيد صلى علي العيد ثم صلى
 بهم حتى قتل رضي الله عنه» وتقول الثانية جنداء المؤذن سعد القرظ إلى علي بن أبي
 طالب في ذلك اليوم فقال: تن يصلي بالناس؟ فقال علي: ناهي خالد بن زيد، فنادى
 خالد بن زيد ففصل بالناس بغزاه لأول يوم عرف أن أبا أيوب خالد بن زيد فكان يصلي
 بهم أباهما ثم صلى علي بعد ذلك بالناس»

هذا مع هجره لعثمان أحيانا ومنازعة له حينا وصلحه أحيانا ومسالمة له حينا وتغليظ القول عليه أحيانا وسعيه في الصلح بينه وبين الناس زمانا وترك ذلك إلى الكف عنه زماناً آخر

ومما فاقم اللبس لدى الكثيرين ما روي عن الامام علي من أقوال عديدة بعد قتل عثمان مما تختلف ظواهرها وتشبه معانيها .

فكفوله مرة: «اللهم اني أبرأ إليك من دمه ان أكون قتلته أو مالات على قتله»⁽¹⁾.

وقوله حينا: «الله قتل عثمان وأنا معه»⁽²⁾، وكذلك «لا ان الله قتله وأنا معه»⁽³⁾

وقوله وقتاً آخر: «ما أمرت ولا نهيت ولا سرتي ولا ساءني قتل عثمان»⁽⁴⁾

وقوله حيناً آخر: «لقد نهيت عنه ولقد كنت له كارها ولكن غلبت»⁽⁵⁾

وقوله: «اللهم اكجب اليوم قتلة عثمان لعناخهم»⁽⁶⁾، وكذلك «اللهم جلل قتلة عثمان اليوم عزياً»⁽⁷⁾

وقوله عندما طالبه وفد الشام بقتلة عثمان: من قتل عثمان فليقم، فقام أربعة آلاف من الناس المتحيزين إليه، فقال: هؤلاء قتلة عثمان!

وقوله في مناسبة أخرى: اللهم اقتل قتلة عثمان في برّ الأرض وبحرها، وكذلك «اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل - ثلاثاً»⁽⁸⁾

(1) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق كثير بن هشام

(2) روى ذلك ابن حبان في كتاب الثقات

(3) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة (ج4 ص1221) من طريق مجالد بن سعيد وفي (ص1259) من طريق عبد الله بن فضالة

(4) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق أبي خلدة الحنفي

(5) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق ابن عباس

(6) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق محمد بن الحنفية

(7) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق اسماعيل بن أبي خالد

(8) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق سالم بن أبي الجعد

وقوله «لا أقول أنه قتل مظلوما ولا أقول أنه قتل ظالما»⁽¹⁾

والشبهة التي أثارها خصوم الامام علي حين قتلوه بدم عثمان ليست من

فراغ:

فهو أخذ نجائب عثمان وأدراعه⁽²⁾ بعد مقتله⁽³⁾.

كما لم يرو أن علياً قد بادر إلى محاولة الصلاة على عثمان أو تكفيتها أو

دفنه⁽⁴⁾.

وهو طبعاً تصدى للمخالفة وتقبل البيعة من بعده.

(1) روى ذلك الطبري في تاريخه (ج 4 ص 4)

(2) وقد اعترف الشيخ المفيد في كتاب الجمل بملك، ولكنه قدم دليلاً وجيهاً وحاراً من الامام علي حين قال: هو ذلك أنه لو لم يقبض ذلك علي (ع) لأسرع إلى قبضه ونهبه وتملكه من ليس له ذلك بحق من الرعية واحتاط بقبضه وإحرازه لأربابه. وقد كان هو الامام باتفاق الجمهور بعد عثمان وللأمام أن يحتاط لأموال المسلمين وتركات من قضى بينهم ليصل إلى مستحقه دون غيرهم. وليس إذا التمس الوليد بن عقبة ما لا يستحق فمضت منه كان ذلك لظلم الماتع له بما التمس ولا تغلبه عليه ولا قول الوليد أيضاً مسموح ولا شهادته مقبولة مع نزول القرآن بغيبته...

ويبدأ فلور كانت الأدراع والتجائب التي قبضها أمير المؤمنين (ع) بعد قتل عثمان ملكاً له، لكان أولاده وأزواجه أحق بها من الوليد وكان ارتباط علي (ع) ليرسلها إلى ورثته أولى من تسليمها للوليد وأمثاله من بني أمية الذين ليس لهم من تركته عثمان نصيب على حاله، فكيف وقد ذكر الناس في هذه الأدراع والتجائب أنها من الفروع التي يستحق المسلمون فلعل عليها عثمان واصطفاه لنفسه، فلما بايع الناس علياً انتزعها (ع) من موضعها ليجعلها في مستحقها فما في ذلك من تهمة بقتل عثمان لولا العمى والخذلان.

(3) وفي ذلك شعر مشهور للوليد بن عقبة بن أبي معيط يخاطب بني هاشم ويتهمهم عند قتل عثمان:

«بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم • ولا تنهبوا لا تحمل منافع
بني هاشم كيف الهراقة بيتنا • وعند علي درعه ونجائبه
بني هاشم كيف التودد بيتنا • وتبر ابن أروى فيكم وجراجه
بني هاشم إنا وما كان منكم • كصدع الصفا ما يرمكن النحر شاحبه
غفرتكم به كيما تكونوا مكانه • كما غفرت يوماً بكسرى مرارته
فلان لم تكونوا قاتليه فإنه • سواء علينا مسلموه وسائيه»

وقد ورد هذا الشعر، باختلافات يسيرة، في عدة مصادر منها مروج الذهب للمسعودي.

(4) سوف يأتي الحديث عن دفن عثمان بالتفصيل.

كما أن السيرة العملية لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب توضح أنه لم يبعد نفسه بما فيه الكفاية عن أوساط الثائرين القادمين من الأمصار والذين كان قاتلوا عثمان من بينهم. لقد بدأ عليّ قريباً جداً منهم، فلم يبعد عنهم، وكانوا من الدائرة المحيطة به.

وينبغي التنويه إلى أنه عند التدقيق في سيرة الإمام عليّ، يمكن التأكيد على أنه لم يصدر عنه، طوال فترة حكمه، ما يشير إلى أي جدية في اتخاذ أي خطوات عقابية تجاه مجمل الثائرين على عثمان. فلم يقم بأي إجراءات عملية لمحاسبتهم.⁽¹⁾

كما يلاحظ أن علياً قام، من علم وإرادة، بتعيين عدد من الأشخاص المتهمين بقتل عثمان في مناصب مهمة في حكومته، واعتمد عليهم في إدارته. وطبعاً كان الثائرون يرون في سياسة الخليفة عليّ تلك إقراراً من لهم على تصرفاتهم.

كما كان لدى عليّ رأي إيجابي بحق بعض الشخصيات القيادية التي تزعمت الثورة على عثمان⁽²⁾

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أنه كان هناك ارتباط عاطفي وثيق لمجمل الثائرين على عثمان بشخص عليّ بن أبي طالب.⁽³⁾

- (1) فمثلاً روى السيوطي في تاريخ الخلفاء أنه بعد بيعته «جاء عليّ إلى امرأة عثمان فقال لها: من قتل عثمان؟ قالت: لا أدري! دخل رجلان لا أعرقهما، ومعهما محمد بن أبي بكر. وانصرفت علياً والناس بما صنع محمد. فدعا عليّ محمداً، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان؟ فقال محمد: لم تكلم. قد والله دخلت عليه وأنا أريد قطعه فلكرني أبي، فقصت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى. والله ما قتله ولا أسكته. فقالت امرأته: صدق! ولكنه أدخلهما»
- فحسب هذه الرواية اكتمل عليّ بتجواب محمد، ولم يبق سؤاله عن شركائه في الاقتحام، ولم يبق عليّ بتحقيق جدي حول الأمر.
- (2) وقد سبق وذكرنا الكتاب الذي أرسله عليّ إلى أهل مصر عندما ولي عليهم الأمر وكيف وصفه فيه بأروع الأوصاف التي لا يمكن أن تصدر إلا عن رأي بالغ الإيجابية بحقه. والاشتر كما هو معروف من أبرز قادة الثائرين على عثمان.
- (3) فمثلاً روى نصر بن مزاحم في وقعة صفين نصاً يثير فيه عمرو بن الحمق الخزاعي،

وقد ظهر من عليّ، أثناء توليه الخلافة، ما يشير إلى تهيئته من موضوع قتل عثمان بجملته. فالأمر هامشيّ بنظره وليس له الأولوية، ولا بأس بتأجيل النظر فيه إلى ما بعد أن تستب أمورُه في الحكم.⁽¹⁾

وهذه الأمور مجتمعة، وهي بالتعبير الأمني والقضائي الحديث «ظروف تجلب الشبهة»، مكّنت خصوم عليّ الكثير من القول إنه متورّطٌ بقتل عثمان عن طريق الإيعاز بذلك إلى أتباعه هؤلاء. وعلى أقلّ تقدير إنه زعيم القتلة والغرغاء الذين هاجموا عثمان.

فما حقيقة موقف عليّ؟

من مجمل القرائن والأدلة، المستتلة إلى عموم الروايات والأخبار والى وقائع الأحداث، يمكن الاستنتاج أنه :

• اتخذ عليّ موقفاً سلبياً من عثمان. والسلبية هنا لا تعني اللامبالاة تجاه شؤون الحكم والخلافة التي تهم كل المسلمين، ولكن تعني أنه نأى بنفسه عن الخليفة وجرحه على تأكيد عديم ارتباطه بسياساته وقراراته. فعليّ لم ينصر عثمان، أي أنه لم ينافع عنه، لم يبرر أخطائه، لم يتصدّ لجموع المتمردين لثنيهم عن مطالبهم ولم يحاول اقناع المتمردين بأن الخليفة مظلومٌ أو أن ما وصلهم عنه باطل. ويعبر هذا الموقف

وهو من المتهمين بقتل عثمان، عن أسباب ولائه لعليّ بأسلوب عاطفيّ أخاذ. فقال له أثناء الاستعداد للسير إلى صفين «إني والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا أبغيتك على قرابتي وبنيّ، ولا إرادة مالٍ توثيقه، ولا التماس سلطانٍ يرفع ذكرى به. ولكن أحببتك لخصالٍ حميدة: أنك ابنُ حمٍ ورسولُ الله (ص) وأولُ من آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة لفاطمة بنت محمد (ص)، وأبو المديّة التي بقيت فينا من رسول الله (ص)، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد. فلما أني كلّفت نقل الجبال الرواسي، ونزّحت البحور الطواسي، حتى باتني على يرمي في أمر أكره به وليّك، وأوهن به عنقك، ما رأيت أني قد أدبت فيه كل الذي يحق عليّ من حقك»

(1) هناك بعض الإشارات إلى أن علياً كانت لديه النية في إجراء نوع من المحاكمة للأشخاص الضالعين مباشرة بقتل عثمان، ولكن حسب الأصول الشرعية تماماً، وأولها أن يتقدم ذوو عثمان بطلب له، بوصفه الخليفة المسؤول، بالقتصار من هؤلاء الذين قتلوا عثمان بدون قاضي ولا محكمة. وهذا ما لم يحصل. والمحكمة بنظر عليّ يجب أن تقوم على الأدلة والقرائن والشهود، وأن يتم تحديد كل منهم بذاته.

السليبي من عثمان عن إحباط شديد من جانب عليّ تجاه سياسات الخليفة على مدى سنين طويلة، وصجزه عن التأثير الإيجابي عليه.

• كان عليّ يؤيد مطالب المتمردين ويرأها محقة وعادلة⁽¹⁾.

• كان عليّ يرى أن أساس المشكلة يكمن في عثمان نفسه، لا في المتمردين. والحل هو بيد عثمان لا غيره.

• بذل عليّ جهده للوساطة بين المتمردين والخليفة. ولكنه لم يكن محايداً تماماً بل كان أقرب إلى المتمردين في سماء ذلك. فوساطة علي كانت تنصب على التوصل إلى اتفاق يلتزم فيه عثمان بالاستجابة للمطالب العادلة للمتمردين مقابل عودتهم إلى ديارهم. وقد نجح عليّ في التوصل إلى اتفاق لحل الأزمة ولكن جهوده في النهاية ضاعت سدى بسبب تراجعات عثمان وتصرفات البطانة الأموية المحيطة به. ولا شك أن الإخلال بالاتفاق الذي توسط به من طرف عثمان جعل علياً يرفع يديه تماماً ويعتزل الأمر. فهو قد عمل الذي عليه، وأراح ضميره ولا يمكنه فعل المزيد ما دام الخليفة مسلماً زمام أمره إلى مروان بن الحكم وامثاله⁽²⁾.

• كان عليّ يستند إلى الأسس الشرعية تماماً في موقفه. فهو يرى ضرورة المحاكمة قبل إصدار أي حكم. والمحاكمة لا بد أن تستند إلى القرائن والحجج والأدلة ولا بد أن يتاح فيها للمتهم الفرصة العادلة للدفاع عن نفسه⁽³⁾.

(1) وقد تطرقنا في فصل «ملاقات عليّ جبهاته» إلى غليظيات وتفاصيل ما عذب عليّ على الخليفة التي تراكت على مدى سنوات حكمه.

(2) روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي أن الإمام علياً أجاب سعد بن أبي وقاص حين طالبه بنصرة عثمان:

«ما أنا إلا سارق والله ما زلت أذنب عنه حتى إنني لاستحيى ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر وسعيد بن النخاس هم صنعوا به ما ترى فإذا نصحتهم وأمرته أن يتحسبوا استغفني حتى جاء ما ترى»

(3) روى ابن حبان في كتاب الثقات أن الإمام علياً لما سمع بخبر مقتل عثمان توجه إلى بيته فوجده مقتولاً

• وبناء على ذلك عارض عليّ الاتجاه المتطرف في صفوف المعتزدين والذي بدأ يجتث إلى التخلص من الخليفة بأي وسيلة حتى لو كانت القتل⁽¹⁾. فكما سبق لعلي أن عارض ما فعله عبيد الله بن عمر من قتل لعين أشبه بتأمرهم على اغتيال والده دون دليل، هو الآن يعارض أن يقوم البعض بقتل عثمان دون حكم شرعي.

• رفض عليّ التصرفات القاسية التي مارسها المعتزدون في المرحلة الأخيرة من هجومهم على عثمان، وبالأخص مسألة حرمانه من الماء. وقد أصّر عليّ على إيصال الماء إلى عثمان، ولو كان في ذلك مخاطرة عليه أو على ابنائه.

وقد لخص عليّ، فيما بعد وهو خليفة، موقفه من عثمان بقوله⁽²⁾: «لو أمرت به لكنّ قاتلاً، أو نهيت عنه لكنّ ناصراً. غير أن من نصرته لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصرته من هو خير مني.»⁽³⁾ وأنا جامع لكم أمره: استأثر فأساء الأثرة، وتجزعتم فأسأتم التجزع، والله حكّم واقع في المستأثر والجازع»

«... ثم خرج وهو غضبان يسترجع.

فلقيه طلحة بن عبيد الله فقال: ما لك يا أبا الحسين؟

فقال علي: يقتل أمير المؤمنين رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من غير أن تقوم عليه يدة ولا حجة؟

فقال له طلحة لو دفعه مروان إليهم لم يقتلوه.

فقال علي لو خرج مروان إليكم لقتلتموه قبل أن يثبت عليه حكومة...»

(1) روى ابن حبان في كتاب الثقات أنه لما تسود المعتزدون الدار وقاتلوا عثمان ثم خرجوا خرجت زوجته وأنشركت الناصري فكان أول من دخل عليه الحسن والحسين فرعين وهما لا يطمأن بالكفانة، وكانا مشغولين على الباب ينصرانه ويمتحن الناس عنه. فلما دخلوا وجدوا عثمان مذبوحاً. وكبروا وأحلفوا أنه لما بلغ الخبير علياً فقصة ولا تم إتيه قتلاً لهما «كيف قتل أمير المؤمنين وانتما على الباب؟ قالوا: لم نعلم...»

(2) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده

(3) وقد شرح الشيخ محمد عبده هذه الجملة كما يلي: «أي أن الذين نصروه ليسوا بأفضل من الذين خذلوه، لهذا لا يستطيع نصرته أن يقول إني خير من الذي خذله ولا يستطيع خذله أن يقول إن الناصر خير مني. يريد أن القلوب متفقة على أن ناصرهم لم يكونوا في شيء من الخير الذي يفضلون به على خائليه»

وهذا النص يوضح اعتقاد جلّي أن عثمان قد أودى به سوء عمله وفساد سياسته، وذلك ظاهرٌ من قوله: استأثر فأساء الأثرة، ولذلك لم يستحق النصرة بنظره. وقوله «جزعتم فأسأتم الجزع» يشير إلى انتقاد علي لحالة الهيجان التي صار عليها جموع الثائرين والتي أدت إلى قتل عثمان بتلك الطريقة القاسية. وختاماً من المفيد إيراد نص من كتاب سليم بن قيس الهلالي وفيه أن الإمام علياً قال:

«إن عثمان لا يعدب أن يكون أحد رجلين:

إما أن يكون دعا الناس إلى نصرته فلم ينصروه

وإما أن يكون القوم دعوه إلى أن ينصروه فنهاهم عن نصرته.

فلم يكن يحلّ له أن ينهى المسلمين عن أن ينصروا إماماً هادياً مهتدياً لم يحدث حدثاً ولم يؤرّث حدثاً. ويش ما صنع حين نهاهم! ويش ما صنعوا حين أطاعوه!

وإما أن يكون جوروه وسوء سريرته قضى أنهم لم يروه أهلاً لنصرته لجوروه وحكمه بخلاف الكتاب والسنة»

موقف المدينة المنورة: الأنصار⁽¹⁾

لم تكن أعداد الثوار القادمين من الأمصار بالغة الضخامة. ومن المرجح أنه لو كانت لعثمان قاعدة معقولة من التأييد في داخل المدينة لكان بالإمكان صدّ الثوار وردّهم عن الخليفة. ولكن الذي حصل أن المدينة تركت عثمان يواجه مصيره وهو شبه وحيد.

(1) مصادر البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص400-414 + ص438-440 + ص452 + ص307)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج45 ص477 + ج50 ص180)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص143)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص123 + ص169 + ص230 + ص590)، اسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص382 و ج2 ص178)، التاريخ الصغير للبخاري (ج1 ص101)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص435)، مروج الذهب ومعادن الجواهر للمسعودي (ج2 ص262 + ص272)، تاريخ خليفة بن عطاء (ص128-129)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص197)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص68 + ص70)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص174-175)، كتاب العلال لأحمد بن حنبل (ج2 ص5)، وتاريخ المدينة المنورة لابن شبة النخعي (ج3 ص1005).

فالمدينة المنورة، بالإجمال، بقيت تراقب الخليفة وما يتعرض له من تهديد خطير، دون أن تبدي حراكاً، ودون أي جهد يُذكر للدفاع عنه أو حمايته. وحتى عندما قام الثوار بإزالة عثمان عن المنبر، وشتوه، وطردوه من مسجد رسول الله (ص) وحصره في بيته لأكثر من أربعين يوماً، لم تقم المدينة بأي شيء عملياً للتخفيف من محنته.

ويمكن القول أن عموم الانتصار من أهل المدينة قد نظروا إلى الخليفة نظرة هي مزيج من التشفي (بالحاكم الظالم) والشفقة (على الرجل المعجوز) واللامبالاة (أودى به سوء عمله).

كما يمكن القول أيضاً إن استياء أهل المدينة من الخليفة يرجع في جزء كبير منه إلى السياسة القرشية العامة، والأموية الخاصة، التي كان يتبناها عثمان، والتي أخذت ترجمتها العملية في تهميش عموم الأنصار وإبعادهم عن مراكز التأثير والقرار. وكان ما يروونه من فساد مالي وإداري، وانحراف عن مبادئ العدالة، والتمييز في تطبيق الحدود الشرعية⁽¹⁾، مما يفاقم من المشاعر السلبية لأهل مدينة الرسول تجاه عثمان. وقد كانت بطانة الخليفة من الأسباب الرئيسة لفضب أهل المدينة، حتى صار إقصاء الفاسدين الذين وضعهم عثمان في أعلى المناصب مطلباً عاماً للناس، وللأنصار منهم بالتحديد، وهم الذين شعروا بالتمييز ضدهم في مدينتهم هم بالذات. ويضاف إلى ذلك كله أيضاً رواج ما جرى يوم السقيفة من جدالات عاصفة خاضها زعيم الأنصار، سعد بن عباد، مع رؤساء مهاجري قريش، أسفرت في النهاية عن انفرادهم بالحكم. ويلاحظ أن الفرع الخزرجي من الأنصار، وهم قوم سعد بن عباد، كانوا أكثر تشدداً بمواقفهم تجاه الخليفة. وربما كانوا لا يزالون متأثرين بما جرى لزعميهم القديم من نفي قاسي إلى الشام ووفاة غامضة هناك.

(1) وقد مر بنا كيف إن عبد الرحمن بن عوف البلوي (تاريخ الطبري ج 3 ص 307)، وهو أحد المتهمين الرئيسيين بقتل عثمان، قال في معرض شرحه لأسباب الثورة على عثمان: «..... ثم ذكروا أسياء مما أحدث في المدينة وما خلف به صاحبه، مما يدل على اشتغال انحرافات عثمان ومخالفاته حتى لسياسات أبي بكر وعمر.

شخصيات الانتصار الذين انضموا الى صفوف الثوار

وتذكر المصادر أسماء شخصيات من الانتصار ممن لم يكتفوا بالمراقبة والمتابعة السلبية لتطورات الهجوم على عثمان، بل انتقلوا الى المساهمة الفعلية في نشاطات الثوار ومساعدتهم والتحريض على الخليفة.

وفي تاريخ الطبري ترد أسماء ثلاثة منهم :

فمن ابن اسحق انه بعد وساطة علي بن ابي طالب بين الخليفة والثوار فلما مضت الايام الثلاثة وهو على حاله لم يغير شيئاً مما كرموه ولم يزل عاملاً، ثار به الناس وخرج عمرو بن حزم⁽¹⁾ الانتصاري حتى أتى المصريين وهم بندي خشب فأخبرهم الخبر وسار معهم حتى قدموا المدينة.

وعن جعفر المحمدي فلم يزل الناس يقتلون حتى فتح عمرو بن حزم الانتصاري باب داره، وهو الى جنب دار عثمان بن عفان، ثم نادى الناس عليهم من داره فقاتلوه في جوف الدار.

وعن الواقدي كان أول من اجترأ على عثمان بالتطرق السبي جيلة بن عمرو⁽²⁾ الساعدي، مر به عثمان وهو في نادي قومه، وفي يد جيلة بن عمرو جامعة. فلما مر عثمان سلم قرّة القوم. فقال جيلة: ليم تردون على رجل فعل كذا وكذا؟ ثم أقبل على عثمان فقال: والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك لو لتركن بطانتك هذه!

فقال عثمان: أي بطانة؟ فوالله اني لا أخير الناس.

(1) ويشأن غريبة هذه الشخصية الانتصارية، يمكن الرجوع الى ما ذكره ابن حساكر في تاريخ دمشق ان عمرو بن حزم الانتصاري، وهو من بني مالك بن جشم بن الخزرج، كان من صفار الصحابة وانه شهد مع النبي (ص) الخندق وأُخلف يستعمل رسول الله (ص) عمرو بن حزم على نجران وبني الحارث وهو يومئذ ابن 17 سنة. فخرج مع ولدهم بفقههم يعلمهم السنة ومعالج الاسلام ويأخذ منهم صلواتهم. وكتب لهم كتاباً عهد اليه فيه وأمره بآمره كتاباً مشهوراً عند أهل العلم.

ولم يثر ابن حساكر في ترجمته الى موضوع حصار عثمان ومقتله.

(2) قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب كان جيلة بن عمرو قاضياً من قضاة الصحابة. وشهد جيلة بن عمرو صفين مع علي رضي الله عنه. وسكن مصر.

فقال: مروان تخيرته، ومعاوية تخيرته، وعبد الله بن عامر بن كزير تخيرته، وعبد الله بن سعد تخيرته. منهم من نزل القرآن بليته، وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه.

قال: فأنصرف عثمان. فما زال الناس مجترئين عليه إلى هذا اليوم⁽¹⁾ وعن جعفر المحمدي أنه أثناء الهجوم على عثمان حمل رفاعه بن رافع⁽²⁾ الانصاري، ثم الزرقعي، على مروان بن الحكم فصرعه، فقتل عنه وهو يرى أنه قد قتله.

وكذلك يجب الإشارة إلى الحجاج بن عمرو⁽³⁾ الانصاري، فهو قد شارك الثوار في الهجوم الفعلي على الخليفة واقتحام بيته. فقد ذكر ابن الأثير وابن عبد البر في ترجمته وهو الذي ضرب مروان يوم البدر حتى سقط، وحمله أبو حفصة مولاه وهو لا يعقل⁽⁴⁾.

وأما البلاذري في أنساب الأشراف فقد ذكر أربعة أسماء من أهل المدينة انضموا إلى صفوف المهاجمين. فقال نقلاً عن أبي مخنف أن الثوار لما أتوا دار عثمان فوثب معهم رجال من أهل المدينة منهم: طارق بن ياسر العنسي، ورفاعه بن رافع الأنصاري - وكان يدرياً - والحجاج بن غزية - وكانت له صفة - وعامر بن بكير أحد بني كنانة، فحاصروا عثمان الحصار الأول.

- (1) وورد ذلك أيضاً بنحوه في البداية والنهاية لابن كثير.
- (2) قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب شهد بدراً وأحد وسائر المشاهد مع رسول الله (ص). وشهد معه بدراً أخوه علاء ومالك ابنا رافع، شهدوا ثلاثتهم بدراً، واختلف في شهود أبيهم رافع بن مالك بدراً. وشهد رفاعه بن رافع مع علي الجمل وصفين ورفاعة بن رافع بن مالك كان أبوه من النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة. وجاء في ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير أنه شهد بدراً وأحدا والخندق وبيعة الرضوان والمشاهد كلها مع الرسول (ص).
- (3) ذكر ابن الأثير في أسد الغابة أن اسمه الحجاج بن عمرو بن غزية الأنصاري الخزرجي من بني مازن بن النجار.
- (4) وأضاف قتلة البغاري: له صفة. روى عنه حكمة مولى ابن عباس وكتبه ابن عباس وغيرهما... وشهد مع علي صفين. وهو الذي كان يقول عند القتال: يا معشر الأنصار! أتريدون أن تقول لربنا إذا لقيناه إنا أطيننا ساداتنا وكبرائنا فأبغضونا السيلاء وروى ابن عبد البر في الاستيعاب مثل هذه المعلومات، دون الجزء الأخير الذي يتحدث فيه من كلامه للأنصار. وقال ابن عبد البر أنه روى حديثين عن النبي (ص).
- (4) ولكني لم أجده ذكره في أحاديث مقتل عثمان لدى الطبري ولا في الكامل لابن الأثير.

كما ورد ذكر لاسمين آخرين من الانتصار ممن قاموا بمنع دفن الخليفة عثمان في مقبرة البقيع، وهما أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي وأبو حبة المازني، وقالوا **«لا والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبداً»**. روى ذلك الطبري من طريق الواقدي.

وذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى رواية نقلها عن مجاهد يبدو فيها وكأنه يبرر المذبحة التي تعرض لها أهل المدينة عام 62 للهجرة على أساس أنها انتقام عادل لموقفهم تجاه عثمان قبل 27 سنة «وبعث يزيد إلى أهل المدينة عشرين ألفاً، فأباحوا المدينة ثلاثاً يصنعون ما شاءوا لعدائهم»

وأهمية هذا النص أنه يشير إلى شيوع خبر تخلي المدينة المنورة عن عثمان ورسوخ تلك القناعة لدى الحكام من بني أمية، بل ولدى المؤرخين اجمالاً. فذلك صار من المسلمات.

التيار العثماني في صفوف الانتصار:

ولكن عثمان لم يعدم من يتعاطف معه في المدينة. وقد كان هناك تيار صغير في صفوف الانتصار ممن يمكن وصفهم بـ«العثمانية».

وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه أسماء أشهر هؤلاء:

«... ولما كثر هذا الطعن في الأمصار وتواتر بالمدينة وكثر الكلام في عثمان والطعن عليه وكان له منهم شيعة يذهبون عنه مثل زيد بن ثابت⁽¹⁾ وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك⁽²⁾ وحسان بن ثابت فلم ينفوا عنه...»

(1) كان زيد بن ثابت على علاقة ممتازة مع عثمان إلى درجة أن عثمان قد عهد له بمهمة في غاية الخطورة وهي نسخ المصحف. وقد سبق وناقشنا كيف كان اختيار عثمان لزيد، على صغر سنه ومزقه في الإسلام، قد أثار غضب القاريء الشهير عبد الله بن مسعود الذي قال في مشعر المسلمين: **«أعزل عن نسخ كتاب المصاحف فبولها رجل والله لقد أسلست وإنه لفي سلب رجل كافر»** كما ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري.

(2) وكعب بن مالك هذا كان من الثلاثة الذين تخلفوا عن الرسول (ص) يوم تبوك، فنزلت فيهم الآية القرآنية. ذكر ذلك ابن حساك في تاريخ دمشق.

وربما أخذ ابن خلدون معلوماته من البلاغري الذي قال في رواية عن الواقدي (أنساب الأشراف ج 6 ص 175) فلم يكن أحد من أصحاب رسول الله (ص) يدفع عن عثمان ولا ينكر ما يقال فيه إلا زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك بن أبي كعب من بني سلمة من النصار، وحسان بن ثابت الأنصاري⁽¹⁾

وقد ذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير عن ابن شهاب قال بلغني أن كعب بن مالك قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين، يعني في أمر عثمان⁽²⁾

وهؤلاء الذين تعاطفوا مع عثمان كانوا في الواقع من القلة من أهل المدينة الذين استفادوا من عثمان وحكمه.

زيد بن ثابت مثلاً كان من المستفيدين البارزين من حكم عثمان. فقد ذكر الطبري أن عثمان بن عفان كان قد ولّى زيد بن ثابت الديوان وبيت المال، كما ذكر أحمد بن حنبل عن قتادة (إن زيد بن ثابت ترك ذهباً وقضة كبير بالفرووس⁽³⁾)

وقد حاول زيد جهده لاقتناع قومه من الانصار بتأييد عثمان في محنته، دون جدوى. روى الذهبي في سير اعلام النبلاء عن الواقدي لما حصر عثمان، أثناء زيد بن ثابت، فدخل عليه الدار. فقال له عثمان: أنت خارج الدار اتبع لي منك ما هنا، فذب عني!

فخرج، فكان يذب الناس، ويقول لهم فيه، حتى رجع أناس من الأنصار. وجعل يقول: يا للأنصار! كونوا أنصاراً لله مرتين، انصروه والله إن دمه لحرام⁽⁴⁾

(1) كتاب الملل لأحمد بن حنبل وتاريخ الطبري. كما تحدث المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجواهر عن ثرائه فقال فوجد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفرووس، غير ما خلف من الأموال والمصاحب بقيمة مائة ألف دينار.

(2) وقد ذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن زيد بن ثابت قال لعثمان وهو محصور هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين، وكذلك ذكر ابن سعد في طبقاته (ج 3 ص 70) في رواية لابن سيرين.

والانتماء العثماني لحسان بن ثابت امر لا يرقى اليه الشك. وقد شاعت وانتشرت قصائده التي يرثي فيها عثمان. وقد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن حسانا روى عدة قصائد فيها رثاء حازَ لعثمان وتحريض على الثأر له .

ومن ذلك قصيدة حسان المشهورة التي يقول فيها :

من سره الموت صرفاً لا مزاج له فليات مادية في دار عثمان
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسيحاً وقرآنا
الى أن يقول محرراً أهل الشام على الثأر لعثمان:
نسمعن وشيكاً في دياركم الله أكبر يا ثارات عثمان
وذكر قصائد أخرى لحسان منها :

قتلتم ولتي الله في جوف داره وجتتم بأمر جاني غير مهتلي
فلا غفرت أيمان قوم تعاونوا على قتل عثمان الرشيد المسد
وكذلك الانتماء العثماني لكعب بن مالك أمر مسلم به. وقد ذكر ابن عبد البر أنه رثاه بشعر كثير ومنه قصيدة يقول فيها :

إني رأيت قتيل الدار مضطهداً عثمان يهدى الى الأحداث في كفر
يا قاتل الله قوماً كان أمرهم قتل الإمام الزكي الطيب الردين
ما قاتلوه على نسب أئمة به إلا الذي نطقوا زوراً ولم يكن
وفي تاريخ الطبري أن عبد الله بن الحسن قد فسر الموقف العثماني لثلاثة من هؤلاء يقول :

أما حسان فكان شاعراً لا يبالي ما يصنع.

وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال فلما حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين. فقال أبو أيوب (الأنصاري): ما تنصره إلا أنه أكثر لك من العبدان!

فأما كعب بن مالك، فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له⁽¹⁾

وأنا أضيف إلى كلام عبد الله بن الحسن بشأن حسان بن ثابت: إنه رغم شهرة حسان في الذب عن رسول الله (ص) بشعره تجاه قصائد الهجاء التي كانت تنهال على رسول الله (ص) من شعراء قريش، مما كان يدخل السرور إلى نفسه (ص)، إلا أن ذلك لا يغيّر من حقيقة كون حسان شاعراً محترفاً ممن أجادوا البيان واستخدام الأوزان والكلمات لا غير. فلم يكن حسان ممن اشتهر بالورع والتقوى، ولا بالجهاد والبطولة، ولا بحسن السيرة والسلوك. بل على العكس: فقد كان معروفاً بجبته الشديد الذي كان يجعله يقيم مع النساء والأطفال حين يخرج الرجال ليجهادوا مع رسول الله (ص) في أيامه، وكان ممن تورط في حادثة الألفك حين قذفوا زوجة النبي (ص) عائشة فأقيم عليه الحد. وكان الرسول (ص) يعلم ذلك ولكنه يكتفي منه بما يجيده ويتقنه: الشعر، لحاجته إليه. وشخص من هذا النوع يمكن بكل سهولة للحاكم أن يستميله ويسترضيه بأيسر الأثمان. ويبدو أن عثمان كان يصله ويقربه، فذاك ليس غريباً على خليفة كعثمان ممن قاضت عطاءاته على الكثيرين.

ولذلك ليس غريباً على حسان أن يوجه ذلك الاتهام الصريح لعلي بن أبي طالب بقتل عثمان حين قال في قصيدته المشهورة⁽²⁾:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليّ وابن عفا⁽³⁾

وقد تلقف معاوية هذا البيت واستخدمه كثيراً في حربه الدعائية ضد الإمام علي.

ولم يكن للعثمانية هؤلاء دور فعال في الدفاع الفعلي عن عثمان. فهم حاولوا إقناع الثوار بالكف عن الخليفة، وإقناع أهل المدينة بعدم التعاطف معهم. ولم يتجاوزوا ذلك إلى خطوات عملية لحماية عثمان.

(1) مروج الذهب ومعادن الجواهر للمسعودي

(2) وقد استنكر العلامة ابن عبد البر هذا الاتهام للإمام علي. ولذلك عندما تطرق إلى قصيدة حسان المشهورة قال وهو يومئذ إلى هذا البيت فمزاد فيه أهل الشام ليقاتلهم أكر للكرها وجهها - الاستيعاب (ص 550).

وسوف نتطرق أكثر الى المزيد من الشخصيات ذات الميول العثمانية في الجزء الثاني من الكتاب عند الحديث عن بيعة علي بن ابي طالب والمتخلفين عنها.



لماذا لم يقاوم الخليفة؟ موقف عثمان من الذين حاولوا الدفاع عنه⁽¹⁾

أجمعت روايات المؤرخين (منهم: البلاذري وخليفة بن خياط وابن سعد وابن شبة وابن قتيبة وابن عبد البر) على أن الخليفة قد رفض مقاومة المهاجمين وأصرّ على الذين عرضوا عليه النصرة ألا يشهروا سلاحهم للدفاع عنه. وتم التعبير عن ذلك الموقف بعبارات مختلفة، منها: «هزمتُ على من رأى لنا عليه سمعاً وطاعة أن يلقي سلاحه»⁽²⁾ و«قال لجميع من في الدار: انتم في حلّ من بيعتي. لا أحب أن يقتل فيّ أحد.»⁽³⁾ و«إن أعظمكم عنّي غناء رجلٌ كفّ يده وسلاحه»⁽⁴⁾ وما يشبهها من كلمات قالها عثمان لمن أرادوا أن يتصدوا للذين يحاصرون الخليفة ويوشكون على الفتك به.

وهذا الموقف قد صدر بالفعل عن عثمان. ولا شك بأنه قد قرر عدم المقاومة وطلب ممن ناصروه ألاّ يهراق فيه محبّة دم⁽⁵⁾. ولكن لماذا؟ وكيف يمكن للخليفة أن يجعل من نفسه لقمة سائغة لجموع المهاجمين ؟

تحاول بعض الروايات أن توحى بأن السبب هو رافة الخليفة بأنباؤه وشغفته عليهم. وبعضها يرد الأمر الى إيمان عثمان بقضاء الله وقدره. وغيرها تتحدث عن معرفة عثمان بانتهاء أجله اعتماداً على كلام قاله له النبي (ص) بأنه يقتل مظلوماً.

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج 6 ص 191-195)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 58 وح 54)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 3 ص 70)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج 4 ص 1194-1206-1208-1211)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 549)، تاريخ خليفة بن خياط (ص 128-129)، وكتاب الثقات لابن حبان (ج 2 ص 263-265).

(2) أنساب الأشراف للبلاذري

(3) الامامة والسياسة لابن قتيبة

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد، وقريب منه لدى ابن شبة في تاريخ المدينة.

(5) الامامة والسياسة لابن قتيبة

لنتظر الى هذه الرواية عن ابن سيرين⁽¹⁾: «كان مع عثمان يومئذ في الدار سبعمائة لويدهم لضربهم ان شاء الله حتى يخرجوهم من أنظارها»

فهل هذا معقول؟ لماذا يروي ابن سيرين مثل ذلك الكلام الذي لا يمكن لعاقل أن يصدق؟ من الواضح ان هذه الرواية التي تتحدث عن 700 رجل كانوا مع عثمان نابعة من الاحساس بالحرج الذي انتاب ابن سيرين (وكثيرين آخرين) من مدى العزلة التي وجد بها عثمان نفسه بعد تخلي عموم الصحابة واهل المدينة عنه، فأراد ان يحفظ ماء الوجه «للخليفة الراشد» عن طريق القول انه لم يكن منبوذاً. وإلا فكيف يسمح هؤلاء الـ 700 مناصر للمتمردين بالدخول وقتل الخليفة حتى على فرض أنه أمرهم بالكف؟ ذلك أمر غير ممكن⁽²⁾

فما الحقيقة؟ وما السبب الذي جعل عثمان يتخذ ذلك الموقف السلبي؟
الجواب يتلخص في كلمة واحدة: اليأس. لقد فقد عثمان الأمل وأيقن أن مناصريه كانوا من القلة والضعف الى الحد الذي يجعل من العبث أن يطلب منهم القيام بدوره في وجه المهاجمين. ولنا على ذلك شواهد عديدة. ومنها ما رواه ابن قتيبة في الامامة والسياسة من أن عثمان كتب كتاباً موجهاً الى عموم المسلمين وأرسله مع نافع بن طريف الى مكة فقرأه على الناس في موسم الحج وفيه «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى من حضر الحج من المسلمين. أما بعد: فإني كتبت اليكم كتابي هذا وأنا محصور، أشرب من شر القصر، ولا أكل من الطعام ما يكفيني، خيفة ان تغفل ذخيرتي، فأموت جوعاً أنا ومن معي. لا أدهى إلى توبة أقبليها، ولا تسمع مني حجة أقولها. فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتاب إلا قدم عليّ، فأخذ الحق في، ومنعني من الظلم والباطل»

وهكذا فإن الخليفة يطلب النصرة والعون من عامة الناس، البعيدين،

(1) رواه عنه كل من ابن سعد في الطبقات الكبرى والبلانري في انساب الأشراف.
(2) وهل تتسع دار عثمان أصلاً لهذا العدد؟ وأما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقد روى «وكان معه في الدار مائة رجل يصرونه». ولكن حتى رقم الـ 100 هذا لا يمكن تصديقه.

ويدعوهم إليه. فكيف يستقيم أنه يأمر المحيطين به والراغبين في القيام دونه أن يكفوا؟ إلا أن يكون عثمان قدّر أنه لا يجديه نفعاً تأييد بضعة أشخاص وأنه يلزمه تأييد عدد كبير من الناس. فظاهر أن عثمان يتس من أهل المدينة لما رأى أن أشخاصاً معدودين فقط مستعدون للدفاع عنه.

والرواية التالية للمبلاذري⁽¹⁾ (أنساب الأشراف) توضح كذلك أن عثمان كان يأمر بالكف عنه بأساً من القدرة على صد المهاجمين، وأنه لو كان يرى أن له مناصرين حقيقيين لأمرهم بالقتال:

قال له الزبير بن العوام «إن في مسجد رسول الله (ص) جماعة يمتنعون من ظلمك ويأخذونك بالحق. فإخرج فخاصم القوم إلى أزواج النبي (ص). فخرج معه فوثب الناس عليه بالسلاح. فقال: يا زبير ما أرى أحداً يأخذ بحق ولا يمنع من ظلم.

ودخل، ومضى الزبير إلى منزله»

ولنا ملاحظة أخرى حول الأشخاص الذين ناصرُوا عثمان في محنته وأُمرُوا عن استعدادهم للقتال في سبيله. فمعظم هؤلاء - على قلتهم - لم يكونوا جديدين في إعلانهم عن الجاهزية للدفاع المسلح عن الخليفة. بل يبدو لي أنهم كانوا بصدد تسجيل موقف ليس إلا. وذلك يبيّن من طريقة كلامهم ومواقفهم الاستعراضية لإشهار السيف بوجه من يهددون عثمان. وإلا لماذا يصرّ هؤلاء على «الاستئذان» من عثمان؟ الموقف لا يحتمل، والرجل مهدّد في حياته بين لحظة وأخرى، ثم يأتي من «يسأله»: هل ندافع عنك أم لا؟ فلا يمكن أن يكون السائل جديداً، بل أنه في الحقيقة يأتي وهو يعرف بأن جواب عثمان الإكيد سيكون أمراً بالكف، لأن عثمان لا يمكن أن يلقي بمحبّيه إلى التهلكة. والنتيجة أن السائل يعطي نفسه عزراً بالقعود، ويُبرّح ضميره، عن طريق ذلك «الاستئذان» من عثمان. وفي ذات الوقت يقول أنه عمل ما عليه وكان مستعداً للتضحية لولا أن الخليفة منعه من ذلك!

(1) روى مثلاً أيضاً ابن شبة في تاريخ المدينة.

ومن هؤلاء أبو هريرة.

قال ابن عبد البر في الاستيعاب:

«وروى سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: إني لمحصور مع عثمان رضي الله عنه في الدار. قال: فرمى رجلاً منا فقلت: يا أمير المؤمنين، الآن طاب الضراب / ائتلتوا منا رجلاً».

قال: عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك، فلانما تراءى نفسي، وسأقي المؤمنين بنفسي.

قال أبو هريرة: فرميت سيفي لا أحدي أين هو حتى الساعة»⁽¹⁾

ومن هؤلاء أيضاً عبد الله بن الزبير.

فقد ذكر ابن سعد في طبقاته رواية ابن أبي ملكية عن ابن الزبير «قلت لعثمان: إن معك في الدار عصاة مستصرة ينصر الله بأقل منهم فأذن لي فلاقاتل»

وفي رواية أخرى - عن عروة بن الزبير - أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان «قاتلهم! فوالله لقد أحل الله لك قتالهم» وأنه «قد كان عثمان أتر عبد الله بن الزبير على الدار وقال عثمان: من كانت لي عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير»⁽²⁾

وأما عبد الله بن عمر، فرغم أن هناك روايات تشير إلى استعداده للقتال⁽³⁾ إلا أن ذلك مستبعد لأنه لم يكن من نوعية الرجال المقاتلين أولاً، ولأن تلك الروايات وردت من طريق نافع مولا الذي ربما أراد رفع شأن سيده. والأصح

(1) كلام أبي هريرة هنا وقوله «الآن طاب أم ضراب» وسيفه الذي ألقاه فلم يجده بعدها رماه بصبح متبينة خليفة بن عياط في تاريخه وابن سعد في طبقاته وابن قتيبة في الإمامة والسياسة وابن شبة في تاريخ المدينة.

(2) وتظهر في الرواية محاولة عروة بن الزبير تنظيم شأن أخيه عبد الله أثناء حصار عثمان. وجزء من كلام ابن الزبير هنا محاولة عروة بن الزبير تنظيم شأن أخيه عبد الله أثناء حصار عثمان.

(3) ذكر خليفة بن عياط في تاريخه عن نافع «أن ابن عمر كان يرمي مثقلاً سيفه حتى هزم عليه عثمان أن يخرج مخافة أن يقتل» وذكر أيضاً عن نافع أن ابن عمر «لبس الدرع يوم الدار مرتين»

أن ابن عمر اكتفى بإسداء النصح للخليفة بأن يتمسك بمنصبه ويرفض الاعتزال، كما مر معنا. كما روى ابن قتيبة⁽¹⁾ أن ابن عمر سأل عثمان «يا أمير المؤمنين: مع من تأمرني أن أكون إن غلب هؤلاء القوم عليك؟ قال: عليك بلزوم الجماعة...» وذلك السؤال ليس ببعيد على ابن عمر.

وقد تلقى عثمان اقتراحات بتهريره خلسة إلى خارج المدينة، فرفضها. فقد روى ابن قتيبة⁽²⁾ أن المغيرة بن شعبة دخل على عثمان فاقترح عليه أن يتم تهريه عن طريق باب يُحرق له إلى مكة أو إلى الشام.

وروى ابن شبة⁽³⁾ أن اسامة بن زيد بعث مولاه ربيعة إلى عثمان ليقترح عليه أن يتقبوا له الدار ليخرج «حتى تلتحق مأمك. حتى يقاتل من أطاعك من عصاك» ولكن عثمان رفض. وفي رواية أخرى «ودخل اسامة على عثمان فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندي ظهوراً ظهيراً ورجالاً جليلاً من قومي من هذا الحي من كلب. فاخرج معي حتى أقدم بك الشام على أنصارك. فيضرب المعقل المدبر» ولكن عثمان رفض أيضاً.

وأما حديث بعض المؤرخين عن «قتية من قريش» دافعوا عن عثمان وخرجوا من بيته وقد تلطخوا بالدماء فلا يعدو كونه مبالغات هدفها القول بأن كبار الصحابة لم يتخلوا عن عثمان وأنهم إن لم يقوموا هم بأنفسهم بالدفاع عنه فقد أرسلوا أبناءهم. روى ابن حبان في كتاب الثقات «قال عليّ للحسن والحسين: إذهبا بسيكما حتى تقفأ على باب عثمان ولا تدعأ أحداً يصل إليه. وبعث الزبير ابنه، وبعث طلحة ابنه، وبعث عدة من أصحاب رسول الله (ص) أبناءهم بمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان.

ورمى الناس بالسهم حتى خضب الحسن بالدماء، وتخضب محمد بن طلحة، وشجع تميم مولى علي⁽⁴⁾»

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة.

(2) الإمامة والسياسة وأيضاً ابن شبة في تاريخ المدينة.

(3) تاريخ المدينة.

(4) وروى مثل ذلك ابن قتيبة في الإمامة والسياسة وهنا يوجد تناقض لدى ابن قتيبة فهو نفسه روى في موضع آخر من كتابه أن طلحة كان يحرض الثوار على عثمان، فكيف يرسل ابنه للدفاع عنه معرضاً حياته للخطر؟

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب عن كثافة مولى صفية بنت حيي بن أخطب قال «شهدت مقتل عثمان. فأخرج من الدار أمامي أربعة من شبان قرش ملطخين بالدم محمولين، كانوا يدروون عن عثمان رضي الله عنه: الحسن بن علي⁽¹⁾، وعبد الله بن الزبير، و محمد بن حاطب و مروان بن الحكم⁽²⁾»

وتذكر بعض المصادر أسماء شخصيات أخرى، غير مشهورة، ممن عرضوا النصر على عثمان. فمثلاً ذكر خليفة بن غياط في تاريخه اسمي «سليط بن سليط» و«عبد الله بن عامر بن ربيعة»⁽³⁾ من ضمن هؤلاء.

دفاع ابن سلام عن عثمان: نبوءات من التوراة والقرآن⁽⁴⁾

والمستبح لأخبار المدافعين عن عثمان خلال تلك الأيام العصية يستطيع ان يميز موقف الصحابي عبد الله بن سلام عن غيره. فخلافاً للآخرين كان ابن سلام يتحدث بلهجة العارف اللبيب بما يستصير اليه الأمور، ويذكر أخباراً ونبوءات فيها تفاصيل مثيرة عن الله والملائكة ويوم القيامة لا يعرفها غيره.

(1) تبالغ بعض المصادر في إظهار مدى الدعم الذي تلقاه عثمان من الحسن بن علي باللمات. ومن ذلك رواية ابن شبة في تاريخ المدينة التي يبدو فيها الحسن محرراً عثماناً على القتال: قال له الحسن بن علي فما أسيّر المؤمنين حلام تمنع الناس من قتالهم؟ فقال: أقسمت عليك يا ابن أخي لما كففت يدك ولمحت بأهلك. فلا حاجة لي في مراقة العلماء

(2) وأما ابن شبة في تاريخ المدينة فيذكر أسماء رجال بني أمية من ضمن «قبائل قرش» الذين دخلوا معه داره وهو محصور: «الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن زمة، وولي سعيد بن أبي البخري، ومروان والحارث وعبد الرحمن بنو الحكم، وعبد الله بن حاد بن أسيد، وعتبة بن أبي سفيان». ولنا حديث سيأتي بشأن مروان وبني بني أمية أثناء تلك الأحداث.

(3) وأيضاً روى ابن سعد في طبقاته: قال عبد الله بن عامر بن ربيعة (قال عثمان يوم الدار: إن أعظمكم مني غناء رجل كَفَّ يَدَهُ وسلاته)

(4) مصادر هذا البحث: الأمانة والسياسة لابن قتيبة (ج 1 ص 58)، تاريخ الطبري (ج 3 ص 421 و 264)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص 194)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 3 ص 81)، كتاب الفتح لابن أحنم الكوفي (ج 2 ص 420)، تاريخ المدينة لابن شبة النخعي (ج 4 ص 1175-1185)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 4 ص 335)، فتح الباري لابن حجر المصقلاني (ج 13 ص 42).

وفيما يلي استعراض لبعضها:

ففي متابعة لروايات ابن تقيّة (الامامة والسياسة) حول المدافعين عن عثمان يقول: ان عبد الله بن سلام، الذي كان مع عثمان في الدار، أطلّ على المتطرفين فوعظهم ونصحهم وألقى عليهم خطبة طويلة قال فيها ان الله سيفضّب واثني عشر الفا من الملائكة سيترقون من حول المدينة إن قتل عثمان، وانه يجد في التوراة التي انزلت على موسى ان عثمان هو «الخليفة المظلوم الشهيد» فأجابه الناس «يا يهودي: أشجع بطنك وكسا ظهرك»

ويلاحظ كيف يحدد ابن سلام بدقة عدد الملائكة الذين سيترقون من حول المدينة وكيف يؤكد على أن التوراة الحقيقية التي انزلت على موسى تتحدث عن عثمان المظلوم.

روى الطبري في تاريخه من طريق سيف:

«فأقبل عبد الله بن سلام حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله وقال: يا قوم لا تسلموا سيف الله عليكم فوالله إن سلتموه لا تغتموه. ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرّة فإن قتلتموه لا يقيم إلا بالسيف. ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله والله لئن قتلتموه لتركها»

فقالوا يا ابن اليهودية! وما أنت وهذا؟ فرجع عنهم»

ورواية الطبري هذه أهون قليلا من رواية الامامة والسياسة. فهي لا تحدد عدد الملائكة الذين سيتركون المدينة إن قتل عثمان، رغم تأكيدها على الغضب الالهي.

وروى السيوطي في تاريخ الخلفاء عن عبد الرزاق في مصنفه «كان عبد الله بن سلام يدخل على محاصري عثمان فيقول: لا تقتلوه، فوالله لا يقتله رجل منكم إلا لقي الله أجذم لا يدر له، وإن سيف الله لم يزل مغموداً، وإنكم والله إن قتلتموه ليسلته الله ثم لا يغمده عنكم أبداً. وما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفاً، ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً قبل أن يجتمعوا»

وهنا يؤكد ابن سلام معرفته بعقاب قاتل عثمان يوم القيامة وكيف ستكون هيته! كما يحدد أعداد الضحايا الذين سيسقطون من الأمة إن قتل الخليفة.

وقد روى ابن سعد بأسانيد الكبرى أقوال ابن سلام:
«قال أخبرنا أبو معاوية الضرير قال أخبرنا الأصمش عن أبي صالح قال
سمعت عبد الله بن سلام يوم قتل عثمان يقول: والله لا تهرقون محجماً من
دم إلا ازددتم به من الله بعداً

قال أخبرنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن ليث عن طاوس قال:
سئل عبد الله بن سلام حين قتل عثمان كيف يجدون صفه عثمان في كتبهم ؟
قال: نجده أميراً يوم القيامة على القاتل والمخاذل.

قال أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن ليث عن طاوس قال قال
عبد الله بن سلام: يحكم عثمان يوم القيامة في القاتل والمخاذل»
فعثمان، كما تذكر التوراة التي لدى ابن سلام، سيكون يوم القيامة حاكماً
فيمن قتلوه وغذلوه.

وروى ابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح أن عبد الله بن سلام خاطب
الناشرين فقال لهم:

«.... فأنتدكم الله أن لا تطردوا جيئاتكم من الملائكة وأن لا تسلوا
سيف الله المغمود، فإن الله عز وجل سيفاً لم يسله قط على قوم حتى يسلوه
على أنفسهم، فإذا سلوه لم يغمده عنهم إلى يوم القيامة .

فأيابكم وقتل هذا الشيخ / فإنه خليفة، والله ! ما قتل نبي قط إلا قتل
به سبعون ألفاً من أمته عقوبة لهم، ولا قتل خليفة من بعده إلا قتل به خمسة
وثلاثون ألفاً، فانتقوا الله وريكم في هذا الشيخ .

قال: فنادوه من كل جانب: كلبت يا يهودي !

فقال عبد الله بن سلام: بل كلبتكم أنتم، لست بيهودي ولكني تركت
اليهودية وتبرأت منها واخترت الله ورسوله....»

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة أخبار ابن سلام أثناء حصار عثمان،
وكيف أنه بذل مجهوداً في التأكيد للمهاجمين بضرورة الكف عن عثمان وعدم
قتله - رغم أنه متأكد أنهم سيقتلونه - لأنه على يقين أنه بكل الأحوال لن يعيش
أكثر من أربعين يوماً وقال لهم إن من يقتل عثمان سيلقى الله يوم القيامة ويده
مشلولة مقطوعة، أو سيلقاه وهو أجذم! وأن عثمان سيحكم يوم القيامة في

القاتل والخاذل. وأعلن ابن سلام أنه «في كتاب الله المنزل: انه ليس من قوم يقتلون خليفتهم إلا قتل الله به خمسة وثلاثين ألفاً، ولا قوم يقتلون نبيهم إلا قتل الله به سبعين ألفاً. والذي نفسي بيده: لا ترجع الخلافة الى أرض الحجاز أبداً. ولا يجاوز خاتم النبوة فيها إلا حاجباً أو محترماً». وتقول الروايات ان عثمان نفسه قد أرسل لابن سلام يسأله عما يرى فأجاب «إنك لفي كتاب الله الخليفة المقتول المظلوم»

ومن الواضح أن ابن سلام يقصد التوراة بقوله «كتاب الله المنزل» لأن القرآن موجود ومعروف وليس به كلام عن القوم الذين يقتلون خليفتهم فيقتل منهم 35 ألفاً، ولا عن ان عثمان هو الخليفة المظلوم!

والملاحظ في هذه الروايات ان المهاجمين لم يزدعهم كلام ابن سلام إلا غضباً وهياجاً، فاتهموه بأنه يهودي وقد أشبع عثمان بطعته، وحصبوه. وظاهر من رد فعل الثائرين أنهم لم يكونوا يعترفون بجدية اسلام عبد الله بن سلام، بل يردونه دوماً الى مرجعيته اليهودية الاصلية.

وانا لا استبعد صحة الروايات عن موقف ابن سلام وما قاله. فهو، وغيره من اليهود الذين أسلموا، كانوا كثيراً ما يميزون أنفسهم عن العرب المسلمين بإظهار معرفتهم بالتوراة وما بها، فيحدثون من أخبارها ورواياتها ويتكلمون عن موسى ودينه. وكان البعض يستمع لهم باعتبارهم اهل العلم والكتاب الاول. ولكن لسوء حظ ابن سلام لم يلق كلامه قبولا لدى المتحدين «حصبوه وشجروه».

وجدير بالذكر انه كانت لابن سلام تنبؤات من التوراة بخصوص الخليفة عمر بن الخطاب أيضاً! ومن ذلك

ما رواه ابن عساکر بسنده في تاريخ دمشق أن ابن سلام قال مخاطباً الخليفة عمر بن الخطاب «أخبرني أبي عن آبائه عن موسى بن عمران عن جبريل عليه السلام أنه قال يكون في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) رجل يقال له عمر بن الخطاب أحسن الناس ديناً وأحسنهم يقيناً ما دام بينهم الدين عالي والدين فاش واستمسك بالعروة الوثقى من الدين فجهنم مقفلة فإذا مات عمر يرق الدين ويقل اليقين وتقل أعمار الصالحين واكثر الناس على فرق من الأهواء وتفتح أقفال جهنم فيدخل في جهنم من الآدميين كثير»

وبالإضافة الى ابن سلام فإن كعب الاحبار قد تميز برواياته الاسرائيلية الكثيرة التي اختلطت بكلام النبي (ص) عن طريق صديقه أبي هريرة.

وكان هؤلاء اليهود الذين أسلموا ناجحين في التقرب الى الحاكمين. فكانوا يروون لهم نبوءات وأخبار من تورااة اليهود. وكعب الاحبار كان مقرباً من الخليفة عمر بن الخطاب ويروي له انه يجد صفته في التورااة

ومن ذلك ما رواه ابن حجر في فتح الباري «ان عمر دخل على ام كلثوم بنت علي فوجد لها تبكي فقال: ما يبكيك؟

قالت: هذا اليهودي -كعب الاحبار- يقول انك باب من أبواب جهنم. فقال عمر: ما شاء الله! ثم خرج فأرسل الى كعب فجاءه.

فقال: يا أمير المؤمنين. والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة.

فقال: ما هذا؟ مرة في الجنة ومرة في النار؟

فقال: إنا لتجندك في كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها، فإذا ريت اقتحموا»

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبري في تاريخه في سياق حديثه عن اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب :

«جاءه كعب الاحبار فقال له: يا أمير المؤمنين اعهداً فإنك ميت في ثلاثة أيام. قال: وما يدريك؟

قال: أجده في كتاب الله عز وجل التورااة!

قال عمر: أله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التورااة؟

قال: اللهم لا، ولكنني أجده صفتك وحليتك، وانه قد فنى أجلك!

قال وعمر لا يحس وجعاً والمأ

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين، ذهب يوم ويقي يومان.

قال ثم جاءه من غد الغد فقال: ذهب يومان ويقي يوم وليلة، وهي لك الى صبيحتها

قال فلما كان الصبح خرج عمر الى الصلاة....»

ومن بعد عمر، كان كعب الأحبار من بطانة عثمان الذي كان يقره ويستشير به حتى في القضايا الشرعية. وقد سبق وذكرنا قصة الصدام الذي جرى بين أبي ذر الغفاري وكعب الأحبار بحضرة عثمان بشأن تركه عبد الرحمن بن عوف.

هل كان معاوية متواطئاً؟⁽¹⁾

وهنا من المفيد التطرق الى موضوع موقف معاوية أثناء حصار عثمان. فالكثير من المصادر التاريخية تشير إلى أن معاوية قد تباطأ في نجدة عثمان، وتلمح أو تصرح إلى أنه بشكل أو بآخر تواطأ من أجل أن يقتل عثمان وتحمله مسؤولية ترك الخليفة يواجه مصيره دون مدد.

فمثلاً روى البيهقي في تاريخه ان عثمان كتب الى معاوية يسأله تعجيل القدوم عليه. فتوجه اليه في اثني عشر ألفاً، ثم قال: كونوا بمكانكم في أوائل الشام، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحة أمره. فأتى عثمان فساله عن المدة. فقال: قد قمت لأعرف رأيك وأعود اليهم فأجيبك بهم.

قال: لا والله. ولكنك أردت أن أقتل فتقول: أنا ولي الثأر ارجع فاجتني بالناس.

فرجع فلم يعد اليه حتى قتل»

ولكن هل يعقل أن معاوية، حسب هذه الرواية، يترك قواته على حدود الشام ثم يذهب منفرداً الى الخليفة المحصور فيجتمع اليه ثم يعود لاستقدامهم؟ ولا يوجد أي خبر عن هذا الاجتماع المزعوم بين عثمان ومعاوية في تلك الفترة العصية في أي مصدر تاريخي. وهل يمكن أصلاً تخيل أن معاوية يدخل المدينة وهو بلا قوات ثم يخرج منها سالماً، وهي التي كانت تعج بالثائرين على عثمان والذين كان معاوية من أبرز مطالبهم؟

وورد في تاريخ المدينة لابن شبة عن جويرية فأرسل عثمان رضي الله

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ البيهقي (ج2 ص175)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1289)، تاريخ الطبري (ج3 ص402)، الإلمة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص94 وص57)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص160) وأسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص357).

عنه الى معاوية رضي الله عنه يستمعه. فبعث معاوية رضي الله عنه يزيد بن أسد -جد خالد القسري- وقال له: إذا أتيت ذا خشب فأقم بها (ولا تتجاوزها ولا تغل الشاهد يرى ما) لا يرى الغائب. قال: أنا الشاهد وأنت الغائب.

فأقام بذئ خشب حتى قتل عثمان رضي الله عنه.

فقلتُ لجويرة: لِمَ صنع هذا؟

قال: صنعه حمداً ليقُتل عثمان رضي الله عنه فيدعو الى نفسه.

ولم توضح هذه الرواية لماذا يتجشم معاوية عناء ارسال جيش من الشام ليقف على تخوم المدينة (بذي خشب) ثم لا يدخلها لحماية الخليفة!؟ فلو كان يريد التقاسم عن نصرة عثمان لكان أجدر به ألا يرسل قوات أصلاً.

ووردت رواية أخرى يتهم فيها السور بن مخرمة معاوية بأنه تخاذل عن نصرة عثمان «وكتب يستمكك بالجنود، فحبستهم عنه، حتى قتل وهم بالزرقاء (مدينة بالشام)»

وروى الطبري في تاريخه من طريق ابن السائب الكلبي:

«فلما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد اتبع عليه من الناس كتب الى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول. فلما جاء معاوية الكتاب تريص به وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد علم اجتماعهم.

فلما أبطل أمره على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كرز وإلى أهل الشام يستغفرهم ويعظم حقهم عليهم ويلكر الخلفاء وما أمر الله عز وجل به من طاعتهم ومناصحتهم ووعدهم أن ينجلهم جند أو بطانة دون الناس وذكرهم بلاءه عندهم وصنيعه إليهم، فإن كان عندكم غياث فالمعجل المعجل فإن القوم معاجلي فلما قرئ كتابه عليهم قام يزيد بن أسد بن كرز البجلي ثم القسري فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر عثمان فمعظم حقه وحضهم على نصرته وأمرهم بالمسير إليه فتابعه ناس كثير وساروا معه حتى إذا كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان رضي الله عنه فرجعوا»

وحسب هذه الرواية فإن عثمان بلغ به اليأس من استجابة معاوية الى حد الكتابة مباشرة الى قيادات من اهل الشام وأن هؤلاء قد استجابوا له دون إذن معاوية! ولكن من المسلم به تاريخياً أن سيطرة معاوية على الشام كانت محكمة فكيف تسير قوات وجيوش من عنده رغمًا عنه؟ كما أن الرواية تقول ان معاوية كره مخالفة اجماع اصحاب النبي (ص)، مما يعني أن الصحابة كانوا مجتمعين على حصار عثمان وخلعه وقتله! ثم متى كان معاوية يقيم وزناً للصحابة وهو الذي كان وجه الهمم تحذيراً بل تهديداً صارخاً في آخر زيارة له الى المدينة!؟

فتلك الروايات كلها غير صحيحة. أو بالأحرى هي محرفة بهدف توجيه تهمة التواطؤ لقتل عثمان الى معاوية. والسبب الذي يجعل البعض يصدّق تلك التهمة بحق معاوية هو أنه قد استفاد بالفعل من مقتل عثمان الذي اتخذه وسيلة للوصول الى أهدافه بالاستيلاء على الخلافة. ولكن استخدام معاوية واستغلاله اللاحق لحادثة مقتل عثمان لا يعني أنه كان مساهماً فيه، فليس هناك أي أساس تاريخي لتلك التهمة. وانما المسألة أن سلوك معاوية وسياسته الانتهازية تجعله خليقاً، لدى الكثيرين، بتلك التهمة!

فالذي حدث تاريخياً أن عثمان قد أرسل بالفعل يستجده بمعاوية في الشام كي يهب لانتقاذه. وتبدو رواية الإمامة والسياسة لابن قتيبة الأقرب الى الصحة:

«وكتب الى أهل الشام عامة، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة: أما بعد، فإنني في قوم طال فيهم مقامي واستعملوا القدر فتي. وقد خيروني بين أن يعملوني على شارب من الإبل إلى دخل (جزيرة في اليمن)، وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كساني، وبين أن أقبلهم ممن قتلْتُ. ومن كان على سلطان يخطئ ويصيب.

فيا غوثاه يا غوثاه! ولا أمير عليكم دوني. فالعَجَل العَجَل يا معاوية! وأدرك ثم أدرك، وما أدراك تدرك»

والأرجح أن مبادرة معاوية بإرسال نجدة عسكرية لإنقاذ الخليفة كانت في الواقع القشة التي قصمت ظهر البعير والتي عجلت في قيام الثوار بقتل عثمان. أي بمباراة أخرى ان استجابة معاوية لنداء عثمان قد

سَرَحَتْ في مقتله، وليس تقاصه الذي أدى لذلك. نتابع في رواية الإمامة والسياسة لابن قتيبة أن الخبر قد جاء إلى الثوار أثناء حصار عثمان «إن معاوية قد بعث من الشام يزيد بن أسيد، تَمَدُّاً لعُثمان، في أربعة آلاف من خيل الشام. فاصنعوا ما أنتم صانعون وإلّا فانصرفوا» وكذلك روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة «...فلما سمع القوم إقبال أهل الشام، قاموا فألهبوا النار بباب عثمان...»

فالثوار أصبحوا تحت ضغط زمني شديد لكي يتهوا من الأمر الذي هم بشأنه. فلم يَعد أمامهم متسع مفتوح من الوقت لكي يتصرفوا. فجنود معاوية قادمون في الطريق، وعليهم اتخاذ قرار: يجب على عثمان أن يستسلم، وبأي طريقة كانت، وقبل بعزل نفسه عن منصبه وبسرعة، وإلّا كان عليهم مواجهة الجنود القادمين من الشام. ولو وصل جنود معاوية فهم حتماً قادرون على حماية عثمان وعندها يكون قد أسقط بيد الثوار وخاب كل جهلهم. فمعنى ذلك أنه ليس فقط سيستمر عثمان في منصبه وسياسة رغمًا عن أنف الجميع، ولكن أيضاً سوف تتعزز مكانة معاوية وترتفع إلى عنان السماء في دولة عثمان! كيف لا وهو عندما سيكون الحامي للخليفة والضامن لاستمرار حكمه! وبذلك سيكون سعي الثوار قد ارتد معكوساً عليهم، وهذا ما لا يستطيعون تحمله!

وقد ذكر العلامة ابن عبد البر في الاستيعاب⁽¹⁾ «إن معاوية قد وجه حبيب بن مسلمة بجيش إلى نصر عثمان بن عفان، فلما بلغ وادي القرى بلغه مقتل عثمان، فرجع»

ولم يشر إلى تخاذل ولا تأخير من قبل معاوية. ورغم اللبس الذي يتعلق بشخص القائد العسكري الذي أرسله معاوية مدداً لعُثمان - يزيد بن أسد القسري في الإمامة والسياسة أو حبيب بن مسلمة الفهري لدى ابن عبد البر - إلّا أن ذلك ليس سبباً وجيهاً للشك في خبر استجابة معاوية وقيامه بإرسال قوات، ولكنها لم تصل في الوقت المناسب فعادت إدراجها من حدود الشام عندما بلغها نبأ مقتل الخليفة.

(1) وإيضاً ذكر ابن الأثير في أسد الغابة نفس هذا الخبر مع تحديد عدد القوات التي أرسلها معاوية مع حبيب بن مسلمة الفهري، وهو أربعة آلاف.

الفصل الرابع: النهاية المأساوية للخليفة

عملية القتل⁽¹⁾

استمر حصار عثمان في داره 40 أو 45 أو 49 يوماً حسب الروايات، وسبقها الفترة التي لم يكن فيها عثمان محصوراً. وهذه فترة طويلة مُنهكة جداً بكل تأكيد: منهكة للثوار أنفسهم، ولعثمان، وللصحابة الموجودين في المدينة ولكل سكانها أيضاً.

وقد صورت المصادر كيف كان عثمان يحاول إقناع المهاجمين بالكف عنه. وكثير منها يرسم صورة محزنة للخليفة وهي تتحدث عن لجوئه - بلا جدوى - إلى تعداد مناقب الإسلام في جهد منه للتأثير عليهم. ومن ذلك ما رواه الترمذي في سننه عن أبي عبد الرحمن السلمي قال لما حصر عثمان أشرف عليهم فوق داره ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن حراء حين انتفض قال رسول الله (ص): اثبت حراء فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد؟ قالوا: نعم!

قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله (ص) قال في جيش العسرة: من يفتق نفقة متعبة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم!

(1) مصادر هذا البحث: كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص264)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص73-74)، تاريخ خليفة بن خياط (ص130)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1232+ ص1288)، تاريخ الطبري (ج3 ص411-425)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص63)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص548)، سنن الترمذي (ج5 ص288)، تاريخ الطبري (ج2 ص176)، تاريخ الخلفاء للسويطي (ص190-191)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص178).

ثم قال: اذكركم بالله هل تعلمون ان رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بشمن فاجتمعتا فجعلتها للفني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم! وأشياء عدها⁽¹⁾

ولكن كانت الجموع الثائرة قد وصلت إلى نقطة اللاعودة في صراعها مع عثمان. وكان القتل هو النتيجة الطبيعية للموقف كله. وتوجد روايات كثيرة حول تفاصيل عملية القتل، ومن الذين باثروا بتنفيذها فعلا.

روى ابن حبان في كتاب الثقات²... ثم أخذ محمد بن أبي بكر بيد جماعة، وتسور الحائط من غير أن يعلم به أحد، من دار رجل من الأنصار، حتى دخلوا على عثمان وهو قاعدٌ والمصحف في حجره ومعه امراته والناس فوق السطح لا يعلم أحد بدخولهم.

فقال عثمان لمحمد بن أبي بكر: والله لو رأيك أبوك لساءه مكانك مني. فرجع محمد.

وتقدم اليه سولان بن رومان المرادي، ومعه مشقص، فوجأه حتى قتله وهو صائم.

ثم خرجوا هارين من حيث دخلوا

.... وكان تمام حصاره خمسة وأربعين يوماً

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى :

«ان محمد بن أبي بكر تسور على عثمان من دار عمرو بن حزم، ومعه كنانة بن بشر بن عتاب و سولان بن حمران و عمرو بن الحمق. فوجدوا عثمان عند امراته نائمة وهو يقرأ في المصحف سورة البقرة.

فتقدمهم محمد بن أبي بكر فأخذ بلحية عثمان فقال: قد أخزأك الله يا نمثلا

(1) ولا مانع من قبول مثل هذه الروايات، مع التحفظ على بعض مضامينها، وبخاصة إجابة المهاجمين بنعم على كل ما يقوله الخليفة عن نفسه.

فقال عثمان: لستُ بنعثل، ولكن عبد الله وأمير المؤمنين.

فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية ولا فلان

فقال عثمان: يا ابن أخي! دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه!

فقال محمد: ما أريد بك أشد من قبضي على لحيتك.

فقال عثمان: أستصر الله عليك وأستعين به.

ثم طعن جبينه بمشقص في يده، ورفع كنانة بن بشر بن عتاب مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه، ثم علاه بالسيف حتى قتله»

وفي رواية ابن أبي عون «ضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدم رأيه بعمود حديد فخر لجنبه. وضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خر لجنبه فقتلوه». أما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات وقال: أما ثلاث منهن فلزني طعنهن لله وأما ست فلزني طعنن أياهن لما كان في صدري عليه»

وأضاف مزيداً من التفاصيل المؤثرة :

«وأخبرنا محمد بن عمر قال حدثني الزبير بن عبد الله عن جدته قالت: لما ضربه بالمشاقص قال عثمان: بسم الله توكلتُ على الله. وإذا الدم يسير على اللحية يقطر، والمصحفُ بين يديه. فأنكأ على شقه الأيسر وهو يقول سبحان الله العظيم، وهو في ذلك يقرأ المصحف، والدم يسيل على المصحف حتى وقف الدم عند قوله تعالى: (فسيكفيهم الله وهو السميع العليم). وأطبق المصحف وضربوه جميعاً ضربة واحدة. فضربوه والله -يا بني هو- يحيي الليل في ركة ويصل الرحم ويطعم الملهوف ويحمل الكل فرجعة الله»

ورد في الامامة والسياسة لابن قتيبة :

«... فدخل عليه محمد بن أبي بكر فصرعه، وقعد على صدره، وأخذ

بلحيته، وقال: يا نعلث ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن عامر وابن أبي سرح .

فقال له عثمان: لو رأي أبيك رضي الله عنه لكانني، ولساءه مكانك مني .
فترأخت يده عنه، وقام عنه وخرج

فدعا عثمان بوضوء فتوضأ، وأخذ مصحفاً، فوضعه في حجره، ليحرم به . ودخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص في يده، فوجأ به منكبه مما يلي الترقوة، فأدماه ونضح الدم على ذلك المصحف .

وجاء آخر فضربه برجله، وجاء آخر فوجأ بقائم سيفه، فغشي عليه، ومحمد بن أبي بكر لم يدخل مع هؤلاء . فتصايح نساءه، ورش الماء على وجهه فأفاق .

فدخل محمد بن أبي بكر وقد أفاق فقال له: أي نعلث، غيرت وبدلت وفعلت .

ثم دخل رجل من أهل مصر، فأخذ بلحيته، فتف منها خصلة، وسل سيفه، وقال: أفرجوا لي، فعلاه بالسيف، فتلقاء عثمان بيده، قطعها، فقال عثمان: أما والله إنها أول يد خطت المفصل، وكتب القرآن !

ثم دخل رجل أزرق قصير مجذو، ومعه جرز من حديد، فمشى إليه فقال: على أي ملة أنت يا نعلث ؟

فقال: لست بنعلث، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين .

قال: كذبت . وضربه بالجرز على صدغه الأيسر ففسله الدم، وخر على وجهه، وحالت نائلة بنت الفرافصة زوجته بينه وبينه، وكانت جسيمة، وألقت بنت ثيبة نفسها عليه، ودخل عليه رجل من أهل مصر، ومعه سيف مصلت، فقال والله لأقطعن أنفه، فعالج امرأته عنه، فكشف عنها درعها . فلما لم يصل إليه أدخل السيف بين قرطها ومنكبها، فضررت على السيف، فقطع أناملها، فقالت: يا رياح، غلام لعثمان أسود ومعه سيف، أحزن عني هذا، فضربه الأسود

فقتله. ثم دخل آخر معه سيف فقال: أفرجوا لي، فوضع ذباب السيف في بطن عثمان، فأمسكت نائلة زوجته السيف، فحز أصابعها، ومضى السيف في بطن عثمان فقتله، فخرجت امرأته وهي تصيح، وخرج القوم هارين من حيث دخلوا»

وروى خليفة بن خياط في تاريخه عن وثاب «و جاء محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً فأخذ بلحيته فقال بها حتى سمعت وقع أظراسه.
وقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك!»

فقال: أرسل لي لحييتي يا ابن أخي.
قال: فأنا رأيته استعدى رجلاً من القوم بعينه، يعني أشار إليه، فقام إليه بمشقص فوجأ به رأسه.

قلت: ثم مه؟ قال: ثم تعاوروا عليه والله حتى قتلوه رحمه الله»
وروى عن الحسن «أن ابن أبي بكر أخذ بلحيته فقال عثمان: لقد أخذت مني ما خلد أو قعدت مني مقعداً ما كان أبوك ليقلده! فخرج وتركه.»
وروى عن ابن عمر «ضربه ابن أبي بكر بمشاقص في أوداجه، وبعجه سولان بن حمران بحرية»

وروى عن قتادة «الذي ولي قتل عثمان رومان، رجل من بني أسد بن خزيمه. أخذ ابن أبي بكر بلحيته وذهب رومان بمشاقص كانت معه»
وروى عن كنانة مولى صفية أن الذي قتل عثمان «رجل من أهل مصر يقال له خالد بن الحارث»

ولم تخل روايات خليفة من هجاء للقاتلين. فهي تتحدث عنهم وكأنهم وحوش من غير بني البشر! فبعضها تذكر «جاء رويجل كأنه ذئب» وبعضها تقول «دخل عليه رجل من بني سدوس يقال له الموت الأسود فخنقه قبل أن يضرب بالسيف»

وأيضاً لم ينسَ خليفة ورواته إضافة التفاصيل الدرامية للمحادث ! فذكر أن أول قطرة من دم عثمان سالت فوقعت على المقطع من المصحف الذي فيه «فسيكفيكم الله» ! وأيضاً أن رجلاً ضرب عثمان بالسيف والمصحف معه فقطعت يده فقال له عثمان إن تلك اليد التي قطعها أول يد خطت المصحف ! وروى ابن شبة في تاريخ المدينة عن صالح بن كيسان «دخل عليه محمد بن أبي بكر بشريان كان معه فضره في حشائه حتى وقعت في أوداجه فمتر.

وضرب كنانة بن بشر جبهته بممود.

وضربه سولان بن حمران بالسيف.

وقعد عمرو بن الحمق على صدره فطعنه تسع طعنات وقال: علمتُ انه مات في الثالثة فطعته ستاً لما كان في قلبي عليه»

وروى عن يزيد بن أبي حبيب أن الذي تولى قتل عثمان هو هذان بن رومان بن هذان الأصمحي. كما روى عن نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان شمرأ أنهم فيه كنانة بن بشر التجبي بقتله.

وبالإضافة الى هذه الروايات المختصرة أخرج أيضاً روايات فيها تفاصيل مأساوية عن لحظات عثمان الأخيرة. ومن ذلك رواية تقول ان المتبردين اقتحموا دار عثمان واعتدوا عليه بالضرب حتى أغمي عليه بعد أن سال دمه، فأفاقته نساؤه بعد أن مسح وجهه بالماء «دخل محمد بن أبي بكر بعد ذلك وهو يرى أنه قد قتل. فلما رآه قاعداً قال: ألا أراكم قياماً حول نعش!! وأخذ بلحيته فجذره من البيت الى باب الدار وهو يقول: بئسَ كتاب الله وشيرته يا نعش.

فقال عثمان رضي الله عنه: لستُ بنعش ولكني أمير المؤمنين. وما كان أبوك ليأخذ بلحيتي.

فقال محمد: لا يقبل منا يوم القيامة أن تقول (ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأهملونا السيل).

ودخل رجل من كتبة تجوي من أهل مصر مخترطاً بالسيف فقال: اخرجوا اخرجوا. فأخرج الناس فطعن في بطنه.

فجاءته امراته بنت الفرافصة الكلبية تمسك السيف. فقطع أصابعها

كما أخرج روايات تقول بعضها ان الذي قتله كان عمرو بن بديل
الغزاعي، وأخرى تقول ان القاتل كان رجلاً من اهل مصر اسمه جبلة، وأخيرة
تقول ان القاتل كان نيار بن عياض الاسلمي.

كما أخرج الروايات التي تقول ان دم عثمان سال على المصحف،
وبالتحديد قلر على آية (فسيكتفيكم الله).

وأخف الروايات وطأة فيما يتعلق بمحمد بن ابي بكر هي تلك التي
وردت عن كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب والتي يجيب فيها من سأل
إن كان محمد يؤخذ بدم عثمان فأجاب «معاذ الله . دخل عليه فقال له عثمان
رضي الله عنه: لست بصاحبي. وكلمه بكلام فخرج ولم يند بشيء من دمه.

فقلتُ لكنانة: من قتله؟ قال: رجل من اهل مصر يقال له جبلة بن الأيهم!

وعلق ابن شبة: فهذان الحديثان يبرئان محمد بن ابي بكر من أن يكون
نوى قتل عثمان رضي الله عنه. وسائر الأحاديث جاءت بخلافهما

ولست أدري كيف أدخل جبلة بن الأيهم، وهو الذي له شؤون مع عمر
بن الخطاب، في هذا الأمر!

وقد أخرج الطبري في تاريخه عدداً كبيراً من الروايات من مصادره
حول عملية قتل عثمان، تتفق في اجمالها مع ما ورد أعلاه لدى المصادر
الأخرى. وأشير من بينها الى رواية له عن الواقدي يذكر فيها صراحة أن
الثوار قد استعجلوا عملية القتل عندما سمعوا أنباء عن قدوم قوات من الشام
والعراق ومصر لانقاذ الخليفة. كما أشير الى رواية عن جعفر المحمدي يذكر
فيها أن السبب الذي استفز الثوار ودفعهم للهجوم كان قيام المتحصنين مع
عثمان بقتل رجل محترم منهم، وصف بأنه صحابي ويدعى نيار بن عياض
الاسلمي، عندما رموه بسهم بينما كان يقف مخاطباً عثمان. ورفض عثمان
تسليم القاتل (وهو ربما أبو حفصة اليماني مولى مروان أو كثير بن الصلت
الكندي).

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب:

عن الزبير «كان أول من دخل الدار عليه محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحيته فقال له: دهها يا ابن أخي! والله لقد كان أبوك يكرمها. فاستحيا وخرج.

ثم دخل رومان بن سرحان - رجل أزرق قصير محدود، عداة في مراد، وهو من ذي أصبح - معه خنجر، فاستقبله به وقال: على أي دين أنت يا نعل؟ فقال: لست بنعل، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين.

قال: كلبت! وضربه على صدغه الأيسر، فقتله. فخر رضي الله عنه، وأدخلته امرأته نائلة بينها وبين ثيابها، وكانت امرأة جسيمة. ودخل رجل من أهل مصر معه السيف مصلاً فقال: والله لأقطعن أنفه، فعالج المرأة، فكشفت عن ذراعيها، وقبضت على السيف، فقطع إبهامها فقالت لغلام لثمان - يقال له رباح - ومعه سيف عثمان: أعني على هذا وأخرجه عني. فضربه الغلام بالسيف فقتله»

وأضاف ابن عبد البر «واختلف فيمن باشر قتله بنفسه:

فقيل: محمد بن أبي بكر ضربه بمشقه.

وقيل: بل حبسه محمد بن أبي بكر وأسمعه غيره، وكان الذي قتله سودان بن حمران.

وقيل: بل ولي قتله رومان اليمامي.

وقيل: بل رومان رجل من بني أسد بن غزيمة.

وقيل: بل إن محمد بن أبي بكر أخذ بلحيته، فهزها وقال: ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن أبي سرح، وما أغنى عنك ابن عامر. فقال له: يا ابن أخي أرسل لحيتي، فوالله أنك لتجد لحية كانت تعز على أبيك، وما كان أبوك يرضى مجلسك هذا مني! فيقال: إنه حينئذ تركه وخرج عنه. ويقال: إنه حينئذ أشار إلى من كان معه، فطعته أحدهم وقتلوه. والله أعلم»

كما ذكر رواية كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب التي يقرأ فيها محمد بن أبي بكر من دمه ويقول «قتله رجل من أهل مصر يقال له: حيلة بن الأيهم ثم طاف بالمدينة ثلاثاً يقول: أنا قاتل نعل!»

ولم يغفل ابن عبد البر الحديث عن الدم السائل فوق المصحف، فقال: «وأكثرهم يروي أن أن قطرة، أو قطرات من دمه سقطت على المصحف، على قوله جل وعلا (فسيففكم الله وهو السميع العليم)»

وقد انفرد اليعقوبي في تاريخه بذكر محمد بن أبي حليفة من ضمن القتلة. فروي باختصاره المعهود:

«وكان الذين تولوا قتله: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حليفة، وأبن حزم.

وقيل: كنانة بن بشر التجبي، وعمر بن الحقيق الخزاعي، وعبد الرحمن بن عيسى البلوي، وسودان بن حمران»

وروي السيوطي في تاريخ الخلفاء أن محمد بن أبي بكر هو الذي بادر بتسور دار عثمان ومعه «رجلان» أو صاهما بقتله، ويروي إمسك محمد بلحية عثمان ثم انسحبه بعد أن ذكره عثمان بأبيه، فقام «الرجلان» بقتله. كما أخرج رواية لابن عساكر عن كنانة مولى صفية فيها هجاء للقاتل «قتل عثمان رجل من أهل مصر، أزرق أشقر، يقال له: حمار»

ومن إجمالي الروايات أعلاه يمكن تلخيص ما جرى على النحو التالي:

• هناك شبه إجماع على مسؤولية الثوار القادمين من مصر عن تنفيذ عملية القتل.

• وصلت المدينة أخباراً بأن الفوث قادم لعثمان من ولاته في الأمصار. فشر الثوار بالحاجة إلى التصرف بسرعة قبل وصول المدد. فزادوا من شدة حصارهم لعثمان وضغطهم عليه ليعتزل الخلافة أو يواجهه القتل. وفي تلك الأثناء قتل أحد رجالات الثائرين بسهم أطلقه أحد المتحصنين مع عثمان، ولما رفض الخليفة تسليم المسؤول عن ذلك استغل الثوار ذلك للمباشرة بقتل عثمان.

• تلقى المهاجمون مساعدة «لوجستية» من شخصيات انصارية من اهل المدينة، وبالتحديد من عمرو بن حزم الذي كان جاراً لعثمان ففتح ابواب داره وأدخل الثوار ليهاجموا عثمان منها. كما انضم رفاعه بن رافع بن مالك الأنصاري⁽¹⁾ الى جموع الثوار في هجومهم على عثمان ومن معه، وشارك في اشعال النيران بباب دار عثمان.

• هناك تضارب حول أسماء الأشخاص الذين اقتحموا دار عثمان وقتلوه. ولكن تُجميع الروايات على دخول محمد بن أبي بكر عليه وإسماكه بلحيته وقوله له أنه لم يُغز عن معاوية ولا ابن أبي السرح ولا مروان ولا ابن عامر، وأن عثمان ذكره بأبيه وقال له أنه لو رآه في هذا الموقف لساءه ذلك جداً، فاستحى محمد وخرج ليترك المجال لغيره لينفذ المهمة. وبالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، تذكر الروايات أسماء: كنانة بن بشر التميمي، وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وابن هذان الأصبحي وعبد الرحمن بن عديس البلوي، والغافقي بن حرب وغيرهم، كمسؤولين مباشرين عن قتل الخليفة.

وفي ظل تلك القوضى العارمة، وحتى القتل المستعرة، يصعب تحديد الذين قاموا بتسديد الطعنات إلى جسد عثمان المعجوز، ولكن الأرجح أن يكونوا من بين هؤلاء الأشخاص المعروفين بحماسهم وتشدهم تجاه عثمان.

وليس مهماً في الحقيقة أن تتم الإشارة إلى اسم معين كمسؤول عن قتل عثمان، لأن ظروف تلك الحادثة تجعل المسؤولية جماعية إلى أقصى حد. فما تمّ ليس حادث اغتيال فردي وإنما نتيجة هياج عام وغلbian تراكم حتى انفجر. ومن المستبعد أن يكون هناك من بين الثوار من لم ينفذ صبره بعد ذلك الحصار الطويل والمفاوضات المضنية، بلا طائل.

وتذكر الروايات بعض التفاصيل الدرامية في ذلك الموقف العصيب. وبعضها يشير إلى دفاع زوجة الخليفة، نائلة بنت الفرافصة، عنه دون جدوى،

(1) سبق الحديث عنه من ضمن الشخصيات الانصارية التي انضمت الى صفوف الثوار.

مما أدى إلى قطع أصابع يدها. وبعضها الآخر يشير إلى أن الخليفة كان يقرأ القرآن حين قتل «سألت الدُّم على المصحف»! وأخرى تقول إن قطرة دم سقطت على المصحف تماماً فوق آية «فسيكفيهم الله»! وكان قتل عثمان في 18 من ذي الحجة سنة 35.

هل دافع مروان عن الخليفة؟⁽¹⁾

من المدحش جداً أن مروان بن الحكم قد نجا من القتل رغم وجوده إلى جانب عثمان في تلك الظروف العصيبة.

وعلى الرغم من أن بعض الروايات تشير إلى أن مروان كان يدافع عن الخليفة وأنه لذلك تعرّض للضرب والاعتداء حتى أغشي عليه، إلا أن ذلك مستبعد تماماً. فليس هناك أي تفسير مقنع يمنع الثوار من قتل مروان. فرأس مروان كان من المطالب الرئيسية للثوار، والذي بسببه ربما فقد عثمان حياته. فكيف يمتنع الثوار عن قتل مروان إذن؟ لقد قاموا بقتل رأس الدولة، وشيخ بني أمية، ولم يالوا بكونه خليفة للمسلمين، فما الذي يمكن أن ينالهم من جراء إضافة مروان إلى جانب عثمان كضحية لهذه الثورة؟

وقد روى الطبري في تاريخه أخباراً عدة بشأن مروان. فمن طريق الواقدي روى أن شاهد العيان أبا حفصة اليماني، وهو مولى لمروان، قال إن عثمان «... قال لمروان: اجلس فلا تخرج».

فنعاه مروان فقال: والله لا تقتل ولا يخلص اليك وأنا أسمع الصوت! ثم خرج إلى الناس.

فقلت ما لمولاي مترك فخرجت معه أذب عنه ونحن قليل. فاستمع مروان بشئ

قد علمت ذات القرون الميل * والكف والأنامل الطفول

(1) مصادر البحث: تاريخ الطبري (ج 3 - ص 412 - 414)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 57 ص 241 + ص 259)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج 6 ص 199) و كتاب الثقات لابن حبان (ج 2 ص 265).

ثم صاح من يبارز؟ وقد رفع أسفل دوعه فجعله في منطقته
قال فيشب إليه ابن النباع فضربه ضربة على رقبته من خلفه فأثبته حتى
سقط فما ينبض منه عرق. فأدخلته بيت فاطمة ابنة أوس جلة إبراهيم بن العدي
قال فكان عبد الملك وينو أمية يعرفون ذلك لآل العدي»

وروى عن طريق جعفر المحمدي عن حسين بن عيسى عن أبيه «...
وحمل رفاعه بن رافع الأنصاري ثم الزرقعي على مروان ابن الحكم فضربه
نصره فترل عنه وهو يرى أنه قد قتله»

وروى الطبري أيضا عن طريق ابن اسحق عن أبي بكر بن الحارث بن
هشام :

«...فخرج مروان بن الحكم فقال من يبارز؟

فقال عبد الرحمن بن عديس لفلان بن عروة: قم إلى هذا الرجل. فقام
إليه غلام شاب طوال فأخذ وغيث الدرع ففرزه في منطقته فأعور له عن ساقه
فأهوى له مروان وضربه ابن عروة على عنقه فكأنني أنظر إليه حين استدار.

وقام إليه عبيد بن رفاعه الزرقعي ليذيق عليه. قال فوثبت عليه فاطمة ابنة
أوس جلة إبراهيم بن عدي قال وكانت أرضعت مروان وأرضعت له فقالت: إن
كنت إنما تريد قتل الرجل فقد قتل، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح !
قال فكف عنه. فما زالوا يشكرونها لها فاستعملوا ابنها إبراهيم بعد»

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد أن ابن البياح الليثي كان
«يبارز مروان بن الحكم.

فكأنني أنظر إلى قبائه قد أدخل طرفيه في منطقته وتحت اللبَاء الدرع.
فضرب مروان على قفاه ضربة قطع عظامي رقبته. ووقع لوجهه فأرادوا
أن يذفخوا عليه، فقيل: أتضعون اللحم؟ أترك» وروى أيضاً عن إبراهيم بن
عبيد بن رفاعه قال قال أبي بعد الدار، وهو يذكر مروان بن الحكم: حياء الله !
والله لقد ضربت رقبته فما أحسبه إلا قد مات. ولكن المرأة أحفظتني قالت:
ما تصنع بلحمه تبضعه؟ فأخلفتني الحفاظ فتركت»

وهكذا فالروايات مضطربة. فبعضها يذكر ان الذي هاجم مروان كان ابن النباع (او ابن البياع)، وبعضها تذكر رفاعه بن رافع (أو عبيد بن رفاعه). وقد ذكرنا سابقاً أن ابن الأثير وابن عبد البر قد ذكرا أن الحجاج بن عمرو الانصاري هو الذي ضرب مروان يوم الدار فأسقطه وهو لا يعقل.

ولكن معظمها تشير الى أن مروان قد حُوِّل الى بيت امرأة وهو شبه ميت فقامت بإبعاد المهاجمين عنه.

ولكن هذه الروايات غير مقنعة، وربما يكون فيها اختلاق لمصلحة مروان. فلو كان مروان جاداً في الدفاع عن الخليفة كما تصوره الروايات لما كان ممكناً أن يبقى على قيد الحياة، ولكان مصيره مثل غيره ممن أخلصوا لعثمان وذادوا عنه: فقد روى ابن حبان في كتاب الثقات هو قتل يوم قتل عثمان من قمرى عبد الله بن وهب بن زمعة الأسدي وعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام والمغيرة بن الأحنس بن شريق الثقفي. وقتل معهم غلام لعثمان أسود. أربعة أنفس⁽¹⁾

ومما يضعف من نظرية قيام مروان بالاستيصال في الدفاع عن الخليفة أن قصة المرأة التي أنقذت مروان بن الحكم من الموت، بعد أن أصيب وكاد يهلك، تكورت في سياق أحداث حرب الجمل، ويشكل يكاد يكون متعابفاً تقريباً فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد هو قاتل مروان أيضاً حتى ارتت. فحُوِّل الى بيت امرأة من عترة. فداووه وقاموا عليه.

فما زال آل مروان يشكرون ذلك لهم؟

فهل هذا معقول ؟ وهل كان مروان متخصصاً في الثور على نساء يسعته بعد إصاباته الخطرة؟

فالأرجح إذن أن مروان بن الحكم قد قر من المدينة المنورة بطريقة ما، لما شعر باقتراب أجل عثمان ولمس تصميم الثوار على قتله. وليس تصرف كهذا بغير على شخصي كمروان.

(1) وهذه الرواية توضح مدى المزلة التي عانى منها عثمان أثناء محته، كما توضح مدى الخذلان الذي تعرض له. فحين لا يقتل مع الخليفة سوى أربعة أنفس فذلك يعني الكثير.

وأما غير مروان من بني أمية الموجودين في المدينة، فقد كانوا مختبئين عند زوجة الرسول (ص) الأموية في مخزن للمحبوب أثناء تلك الاحداث العاصفة! روى البلاذري في أنساب الاشراف من طريق المدائني فلجأ بنو أمية يوم قتل عثمان الى ام حبيبة، فجعلت آل العاص وآل حرب وآل أبي العاص وآل أسيد في كتندوج⁽¹⁾ وجعلت سائرهم في مكان آخر.

ونظر معاوية يوماً الى عمرو بن سعيد يخال في مشيته فقال: بأبي وأمي أم حبيبة ما كان أعلمها بهذا الحثي حين جعلتك في كتندوج⁽²⁾

دفن عثمان⁽³⁾

لم تقتصر مأساة الخليفة العجوز على حصاره وإهائه في أواخر أيامه، ولا على الطريقة القاسية التي قتل بها، بل امتدت الى ما بعد وفاته: تجهيزه ودفنه.

روى الطبري في تاريخه من طريق جعفر المحمدي:

«بذ عثمان رضي الله عنه ثلاثة أيام لا يدفن.

ثم إن حكيم بن حزام القرشي ثم أحد بني أسد بن عبد العزى وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف كلما عليا في دفنه وطلبوا إليه أن يأذن لأهله في ذلك ففعل وأذن لهم علي.

فلما سمع بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة وخرج به ناس يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يقال له حش كوكب كانت لليهود تدفن فيه موتاهم.

فلما خرج على الناس رجموا سريره وهموا بطرحه فبلغ ذلك عليا

(1) الكتندوج هو مخزن تجمع فيه الفلال

(2) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص78)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص65)، تاريخ الطبري (ج3 ص438-440)، تاريخ يعقوبي (ج2 ص176)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص459)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1240)، اسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص382+383).

فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفن عنه ففعلوا فانطلق حتى دفن رضي الله عنه في حش كوكب.

فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان على الناس أمر بهدم ذلك الحائط حتى أغشى به إلى البقيع فأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين⁽¹⁾

وروى من طريق الواقدي ثبت عثمان بعد ما قتل ليلتين لا يستطيعون دفنه. ثم حملته أربعة حكيم بن حزام وجبير بن مطعم ونيار بن مكرم وأبو جهم بن حذيفة، فلما وضع ليصلى عليه جاء نفر من الأنصار يمنعونهم الصلاة عليه فيهم أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي وأبو حية المازني في عدة ومنعهم أن يدفن بالبقيع.

فقال أبو جهم ادفنوه فقد صلى الله عليه وملائكته.

فقالوا: لا والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبدا!

فدفنوه في حش كوكب.

فلما ملكت بنو أمية أدخلوا ذلك الحش في البقيع فهو اليوم مقبرة بني أمية

وبالإضافة إلى الروايتين أعلاه، سرد الطبري مجموعة أخرى من الروايات المتعلقة بدفن عثمان. فمن الواقدي أن البعض اقترح أن يدفن عثمان بمقبرة اليهود بدير سلع، ولكن حكيم بن حزام رفض بشدة وثار وأصر أن يدفن ببقيع الفرقد. وفي رواية أخرى للواقدي أن زوجته نائلة طلبت من حويطب بن عبد العزى وجبير بن مطعم وأبي جهم بن حذيفة وحكيم بن حزام ونيار الأسلمي أن يتولوا دفنه، فحملوه إلى البقيع بين المغرب والمشاء ودفنوه عند نخلات عليها حائط بعد أن صلى عليه جبير بن مطعم، واتهم كانوا خائفين أن ينشأ

(1) لا شك أن معاوية كان يشعر بمدى المهانة التي تعرض لها شيعته وأشيء بني أمية عثمان والمتعلقة بكونه مدفوناً بين اليهود فسمى إلى تصحيح الوضع عن طريق دمج المكاتب فلا يبقى عثمان بعيداً عن قبور المسلمين.

وفي رواية ثالثة للواقدي أن البعض أراد حز رأس عثمان لولا أن منعتهم زوجاته. وأنهم أرادوا أن يصلوا عليه في موضع الجنائز فأبى الانصار.

وعن سيف بن عمر أن مروان بن الحكم قد صلى عليه ودفن في البقيع «مما يلي حش كوكب» مع مجموعة من عبيده، وأنه لم يغسل وكفن في ثيابه. وعن جعفر المحمدي أنه لم يشهد جنازته سوى مروان وثلاثة من مواليه وابنته.

وروى اليعقوبي في تاريخه «وأقام ثلاثاً لم يدفن». وحضر دفنه حكيم بن حزام، وجبير بن مطعم، وحوطب بن عبد العزى وعمر بن عثمان ابنه. ودفن بالمدينة ليلاً في موضع يعرف بحش كوكب. وصلى عليه هؤلاء الاربعة.

وقيل: لم يصل عليه.

وقيل: أحد الاربعة قد صلى عليه، فدفن بغير صلاة.»

وجاء في الامامة والسياسة:

«... فلذا هو في نفر فيهم جبير بن مطعم، وأبو الجهم بن حذيفة، والمصور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، فاحتملوه على باب وإن رأسه ليقول: طق طق، فوضعه في موضع الجنائز.

فقام إليهم رجال من الأنصار، فقالوا لهم: لا والله لا تصلون عليه !

فقال أبو الجهم: ألا تدعوننا نصلي عليه، فقد صلى الله تعالى عليه وملائكته فاحتملوه ثم انطلقوا مسرعين كأنهم أسمع وقع رأسه على اللوح، حتى وضعوه في أدنى البقيع.

فأتاهم جيلة بن عمر الساعدي من الأنصار، فقال: لا والله لا تدفنه في بقيع رسول الله، ولا تترككم تصلون عليه !

فقال أبو الجهم: انطلقوا بنا، إن لم نصل عليه فقد صلى الله عليه، فخرجوا ومعهم عائشة بنت عثمان، معها مصباح في حق، حتى إذا أتوا به حش كوكب حفروا له حفرة، ثم قاموا يصلون عليه، وأمامهم جبير بن مطعم، ثم

دلوه في حفرته، فلما رأته ابنته صاحت، فقال ابن الزبير: والله لئن لم تسكتي لأضربن الذي فيه عينك، فدفنوه، ولم يلحموه بلبن، وحشوا عليه التراب حشواً وروى ابن عبد البر في الاستيعاب :

عن مالك لما قتل عثمان رضي الله عنه ألقي على المذيلة ثلاثة أيام. فلما كان من الليل أتاه اثنا عشر رجلاً فيهم حويطب بن عبد العزى، وحكيم بن حزام، وعبد الله بن الزبير، وجدي، فاحتلموه. فلما صاروا به إلى المقبرة ليدفنوه، ناداهم قوم من بني مازن: والله لئن دفتموه هاهنا لنخبرن الناس غداً فاحتلموه. وكان على باب، وإن رأسه على الباب ليقول لطلق حتى صاروا به إلى حش كوكب، فاحضروا له. وكانت عائشة بنت عثمان رضي الله عنهما معها مصباح في جرة، فلما أخرجوه ليدفنوه صاحت، فقال لها ابن الزبير: والله لئن لم تسكتي لأضربن الذي فيه عينك. قال: فسكت. فدفن.

وأضاف ابن عبد البر موضحاً بشأن حش كوكب فقال «كوكب: رجل من الانصار. والحش: البستان. وكان عثمان رضي الله عنه قد اشتراه، وزاده في البقيع، فكان أول من دفن فيه. وحُبل على لوح سرّاً»

وذكر ابن عبد البر روايات أخرى بشأن دفن عثمان :

«وقد قيل: إنه صلى عليه عمرو بن عثمان، ابنه.

وقيل: بل صلى عليه حكيم بن حزام.

وقيل: المصور بن مخرمة .

وقيل: كانوا خمسة، أو ستة وهم: جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم وزوجته: نائلة وأم البنين بنت عينة. ونزل في القبر نيار وأبو جهم وجبير. وكان حكيم وزوجته أم البنين ونائلة يملونه. فلما دفنوه غيروا قبره رضي الله تعالى عنه»

وروى عن الزبير «وبقي عثمان رضي الله عنه يومه ذاك مطروحاً إلى الليل، فحملة رجال على باب ليدفنوه، فعرض لهم ناسٌ ليمنعوه من دفنه، فوجدوا قبراً قد كان حفر لغيره فدفنوه فيه. وصلى عليه جبير بن مطعم»

وروي ابن شبة في تاريخ المدينة عن الزهري هجاءت أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها فوقفت بباب المسجد فقالت: لتختلن بيني وبين دفن هذا الرجل أو لأكشفن ستر رسول الله (ص). فخلوها.

فلما أمسوا جاء جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وعبد الله والمنذر ابنا الزبير، وأبو الجهم بن حذيفة وعبد الله بن حسل رضي الله عنهم فحملوه فأنشروا به إلى البقيع. فمنهم من دفنه ابن بجرة - ويقال ابن نحره الساعدي - فانطلقوا به إلى حش كوكب فصلى عليه جبير بن مطعم رضي الله عنه ثم دفنوه وانصرفوا.

كما أخرج روايات أخرى تقول إن الذي منع من دفنه كان جبلة بن عمرو الساعدي مما دفعهم إلى دفنه في حش كوكب وإن الذي صلى عليه كان المسور بن مخرمة الزهري وأنهم هالوا عليه التراب ولم يضعوا على لحده لبناً وإن التي كانت معهم عائشة ابنته. وأخرى تقول إن الذي صلى عليه كان جبير بن مطعم في ثمانية رهط منهم حكيم بن حزام والحسن بن علي وأبو الجهم بن حذيفة وعبد الله بن عمر وأمهات نائلة بنت الفرافصة وأم البنين بنت عينة بن بدر. ورواية تذكر اسم نيار بن مكرم الأسلمي ضمن من دفنوه.

وروي ابن سعد في الطبقات الكبرى عدة روايات حول دفن عثمان تفيد أن أربعة رجال قاموا بدفن عثمان والصلاة عليه وهم جبير بن مطعم (وهو الذي صلى عليه)، وحكيم بن حزام وأبو حذيفة بن الجهم العدوي ونيار بن مكرم الأسلمي، وقد دفنوه ليلاً في حش كوكب، بعد أن خرجت معهم زوجتا عثمان: نائلة بنت الفرافصة وأم البنين بنت عينة.

وذكر أيضاً رواية إن جبير بن مطعم صلى عليه في ستة عشر رجلاً، ولكنه قال إن الروايات السابقة هي الأثبت.

وذكر رواية أن من ضمن الأربعة كان جد مالك بن أبي عامر.

ويلاحظ اختلاف في أسماء الأشخاص الأربعة بين روايات ابن سعد وغيره، كما لم يذكر أم حبيبة، ولم يتطرق إلى بقاء جثة ثلاثة أيام بلا دفن.

وجمع ابن الأثير في اسد الغابة مختلف الروايات فقال قولما قتل دفن ليلاً، وصلى عليه جبير بن مطعم، وقيل حكيم بن حزام، وقيل المسور بن مخرمة، وقيل لم يصل عليه أحد، منوا من ذلك.

ودفن في حش كوكب بالبيع. وكان عثمان اشتراه وزاده في البيع وحضره عبد الله بن الزبير وامراته ام البنين بنت عينة بن حصن الفزارية وزائلة بنت الفرافصة الكلبيّة. فلما دلوه في القبر صاحبت ابنته عائشة فقال لها ابن الزبير: اسكتي وإلاّ تقتلك. فلما دفنوه قال لها: صيحي الآن ما بدا لك أن تصيحي؟

وهذه الروايات كما هو ظاهر فيها اضطراب كبير في تحديد تفاصيل دفن الخليفة. وهذا الاضطراب مفهوم، بل طبيعي في مثل تلك الظروف المأساوية، حيث الفوضى العارمة تسود في المدينة (فمثلاً يرد في الروايات اسم نيار بن عياض الاسلمي ضمن قتلة عثمان، بينما يرد اسم نيار بن مكرم الاسلمي ضمن من دفنوه؟ فهل هناك خلط؟ أم انهما قريبان أحدهما يغض عثمان والآخر يحبه؟)

ويمكن تلخيص الروايات والجمع بينها على النحو التالي:

- بقيت جثة الخليفة ليومين أو ثلاثة بدون دفن، وبلا احترام. ولا يمكن استبعاد الروايات التي تقول بأن بعض الثائرين قد اعتدوا على الجثة أو على الأقل حاولوا ذلك.
- تدخلت زوجتا الخليفة، نائلة بنت الفرافصة وام البنين بنت عينة بن حصن، أو أم المؤمنين أم حبيبة بنت ابي سفيان، وضغطن من أجل دفنه، عن طريق استنهاض همم رجال من أشراف قريش واستشارة حميتهم.
- تصدى مجموعة من أبناء بطون قبيلة قريش لمهمة الصلاة على عثمان ودفنه. وكانت مهمة صعبة وخطرة نظراً الى انعدام الأمن في المدينة وسيطرة العناصر الحاكمة على الخليفة ميدانياً. وهؤلاء الذين تولوا أمر عثمان كانوا حكيم بن حزام (من بني أسد بن العزى)، وجبير بن مطعم (من بني نوفل بن عبد مناف) وأبو جهم بن حذيفة (من بني عدي) والمسور بن مخرمة (من بني زهرة)، وربما كان معهم عبد الله بن الزبير بن العوام، وحويطب بن عبد العزى. وأنا أستبعد الرواية التي تقول بأن مروان بن الحكم قد شارك في الصلاة عليه أو دفنه. فقام هؤلاء بحمله ليلاً من أجل تجنب مواجهة جماهير الثائرين، وصلى

عليه احدثهم. وهنا يلاحظ غياب كبار الصحابة: فلم يشارك علي ولا الزبير ولا طلحة ولا سعد بن ابي وقاص ولا عبد الله بن عمر.

• لم يتمكن هؤلاء من دفن عثمان في مقبرة المسلمين المعروفة في البقيع. فقد عارضهم وتصدى لهم شخصيات من أهل المدينة، من الانتصار، ممن كانوا حاقدين على الخليفة. ويمكن الاشارة الى شخصيات من بني ساعدة بالتحديد مثل جبلة بن عمرو وأبي بجرة، مما قد يدفع الى الاعتقاد أن أقرباء سعد بن عباد هؤلاء كانوا لا يزالون متأثرين بما جرى لزعيمهم على أيدي قيادات قريش قبل حوالي ربع قرن. وطبعاً كانوا مدعومين من أوساط الثالوثين.

• اضطر المتولون أمر عثمان الى البحث عن مكان آخر لدفنه، فكان الحل هو حش كوكب الذي هو منطقة غير بعيدة عن البقيع كان اليهود يستعملونها لدفن موتاهم. واحتياطاً قاموا بإخفاء معالم القبر، بعد أن دفنوه بسرعة. وفيما بعد لما سيطر بنو أمية على الخلافة انتبه معاوية الى رمزية المكان (اليهودي) المدفون به عثمان، فأمر بإزالة الفواصل بينه وبين مقبرة البقيع ويدفن المسلمين حوله، الى أن اتصل بها.

وذكر ابن الاثير في اسد الغابة عن نافع ان عثمان قتل يوم الجمعة 18 أو 17 من ذي الحجة سنة 35. وعن ابي عثمان النهدي: قتل في وسط ايام التشريق. وعن الواقدي: قتل يوم الجمعة 8 ذي الحجة يوم التروية من سنة 35. وقيل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة.

وقال ايضاً «وكان عمره 82 سنة، وقيل: 86 سنة قاله قتادة، وقيل كان عمره 90 سنة»

وقال اليعقوبي في تاريخه «وقتل لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة 35، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، وقيل ست وثمانين سنة»

مصادر الكتاب

• عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، توفي 630 للهجرة:

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تصحيح مصطفى وهبي. المطبعة الوهبية 1280.

- الكامل في التاريخ

- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت.

• أبو الحسن علي بن عيسى ابن أبي الفتح الأربلي، توفي 693 للهجرة، كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية 1405 هـ - 1985

١٢

• أحمد ابن أحمم الكوفي، توفي 314 للهجرة، كتاب الفتح، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى، سنة 1411 هـ - 1991 م، مطبعة دار الأضواء، الناشر:

دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع

• محسن الأمين، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

• أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، توفي 256 للهجرة:

- الجامع الصحيح، طبعة دار الجيل، بيروت - لبنان

- التاريخ الصغير، تحقيق محمود إبراهيم زايد، الطبعة الأولى 1406، دار المعرفة - بيروت.

• محمد بن حبيب البغلدي، توفي 245 للهجرة، المنعق في أخبار قریش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، 1964، مطبعة دائرة مجلس المعارف العثمانية - حيدر آباد - الهند

- أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، توفي 279 للهجرة :
- أنساب الأشراف، حققه وعلّق عليه محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت ط1، 1394 - 1974.
- أنساب الأشراف، تحقيق / سهيل زكار، ورياض زركلي. دار الفكر، 1417.
- فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة.
- أبو عيسى الترمذي، توفي 279 للهجرة، سنن الترمذي (وهو الجامع الصحيح)، حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1983.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، توفي 255 للهجرة، البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، الطبعة الأولى 1998، دار الكتب العلمية - بيروت.
- هشام جعيط، معاصر، الفتنة، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الرابعة 2000
- أبو عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري، توفي 405 للهجرة، المستدرک علی الصحيحین، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة - بيروت. 1406
- محمد بن حبان أبو حاتم البستي التميمي السجستاني، توفي سنة 354 للهجرة - صحيح ابن حبان، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1993
- كتاب الثقات، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية 1393 - حيدر آباد / الهند. الناشر مؤسسة الكتب الثقافية
- أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر العسقلاني الشافعي، توفي 852 للهجرة.
- الإصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى 1995
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار المعرفة - بيروت.
- عز الدين أبو حامد بن حبة الله ابن أبي الحديد، توفي 656 للهجرة، شرح نهج البلاغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى 1959

- محمد بن الحسن الحر العاملي، توفي 1104 للهجرة، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق محمد رضا الجلالى، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث بقم المشرفة، مطبعة مهر - قم، الطبعة الثانية 1414.
- أحمد بن محمد بن حنبل، توفي عام 241 للهجرة :
- كتاب العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وتخريج د. وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الأولى. دار الخاني للنشر والتوزيع - الرياض.
- مسند أحمد، طبعة دار صادر - بيروت
- أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، توفي 463 للهجرة، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1 1417 - 1997.
- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، توفي 808 للهجرة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المشهور بتاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، ط 4، 1971.
- خليفة بن خياط المصقري، توفي 240 للهجرة، تاريخ خليفة، رواية بقي بن خالد، حققه وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان 1993
- علي بن عمر الدارقطني، توفي 385 للهجرة، علل الدارقطني، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، منشورات دار طيبة - الرياض، ط 1 1405.
- عبد الله بن بهرام الدارمي، توفي 255 للهجرة، سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال - دمشق.
- سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بابي داود، توفي 275 للهجرة، سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى 1990، دار الفكر - بيروت.
- أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، توفي 282 للهجرة. الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط 1 1960، دار إحياء الكتب العربية.
- أبو عبد الله شمس الدين اللحمي، توفي 748 للهجرة :
- تاريخ الاسلام، تحقيق د. عمر عبد السلام قنمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1407 - 1987.

- سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1413 - 1993
- السيد سابق، فقه السنة، ط 1، 2003، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- محمد بن سعد، توفي 230 للهجرة، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت
- كتاب سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي، توفي 76 للهجرة، بتحقيق الشيخ محمد باقر الانصاري (الناشر غير مذكور).
- جلال الدين السيوطي، توفي 911 للهجرة، تاريخ الخلفاء، تحقيق سعد كريم الفقي، الطبعة الأولى 2003. دار اليقين - مصر.
- الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري، الإيضاح، توفي 260 للهجرة، بتحقيق جلال الدين الحسيني الأرموي (الناشر غير مذكور).
- أبو زيد عمر بن شبة التميمي البصري، توفي 262 للهجرة، تاريخ المدينة المنورة، حققه فهد محمد شلتوت، الطبعة الثانية 1410 هـ، مطبعة قدس - قم.
- سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، توفي 360 للهجرة، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، ط 2، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، توفي 310 للهجرة، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
- أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، توفي 460 للهجرة، رجال الطوسي، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الأولى، رمضان 1415.
- أبو عمر بن عبد البر القرطبي النعري، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، صححه وخرّج أحاديثه عادل مرشد. دار الاعلام - الاردن. الطبعة الاولى 2002.
- احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتب الجامعي الحديث - الاسكندرية. الطبعة الاولى 1998
- محمد عبده، شرح نهج البلاغة، اعتنى به وراجعه علي أحمد حمود، المكتبة المصرية - بيروت، 2002.
- أبو القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، توفي 571 للهجرة، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، توفي 276 للهجرة، الامامة

- والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الاستاذ علي شيري. الناشر: انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى - إيران، 1413
- محمد يوسف الكاتندلوي، حياة الصحابة، دار المعرفة - بيروت.
- عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن كثير، توفي 774 للهجرة:
- تفسير القرآن العظيم، تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت - لبنان 1992
- البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، الطبعة الأولى 1408 للهجرة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- علي الكوراني العاملي، معاصر، جواهر التاريخ. الناشر: دار الهدى الطبعة الأولى 2004.
- محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة، سنن ابن ماجة، حقق نصوصه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر
- علاء الدين علي المظني بن حسام الدين الهندي، توفي 975 للهجرة، كنز العمال، تحقيق بكري حياتي وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسمودي، توفي 345، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية - لبنان، 2007.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة المكتبة العصرية - صيدا \ لبنان - 2003
- محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد، كتاب الجمل، مكتبة الداوري، قم - إيران.
- تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي، توفي 845 للهجرة، النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، تحقيق السيد علي عاشور.
- د. عدنان محمد ملحم، معاصر، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، دار الطليعة - بيروت. الطبعة الأولى 1998.
- أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الاسدي الكوفي، أسماء مصنفي الشيعة المشتهر برجال النجاشي، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة 1416.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، توفي 303 للهجرة، سنن النسائي،

بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. طبعة 1348/1930، دار الفكر - بيروت.

• نصر بن مزاحم المتفري، المتوفي سنة 212 للهجرة، وقعة صفين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط 2، 1382، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.

• أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ضبط وتحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطة. طبعة المكتبة العصرية. صيدا - لبنان، 2003

• أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النسابوري، توفي 468 للهجرة، أسباب النزول، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة 1968. الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة.

• محمد بن عمر بن واقد، المعروف بالواقدي، توفي 207 للهجرة، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسدن جونز. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. الطبعة الثالثة 1989

• أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، توفي 292 للهجرة، تاريخ اليعقوبي، دار صادر - بيروت.

نبذة عن المؤلف

ولد حسام عبدالكريم، واسمه الكامل حسام محمود حسن شحادة عبد الكريم، في مدينة إربد في الأردن عام 1968، لأسرة فلسطينية نازحة.

وفي عام 1986 حصل على شهادة الثانوية العامة من الزرقاء - الأردن، وكان من ضمن الطلاب العشرة المتفوقين على مستوى المملكة الأردنية الهاشمية.



وفي عام 1991 حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الكيميائية، من الجامعة الأردنية - عمان. وكان صاحب الترتيب الأول.

وفي عام 1992 حصل على شهادة الماجستير في الهندسة الكيميائية المتقدمة، من جامعة لندن، بمرتبة الشرف ومنذ ذلك الوقت عمل كمهندس في القطاع الخاص في الأردن والسعودية والإمارات العربية المتحدة.

وقد صدر له من قبل:

«قريش وعلي» نشر عام 2006

«اخبار الفتنة الكبرى: عهد عثمان» نشر عام 2012



معوود معاوية

خلفيات الفتنة الكبرى - عهد عثمان



هذا الكتاب هو الجزء الأول من عمل ضخم يبحث في أحداث قضيتة كبرى في تاريخ صدر الإسلام، ويتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) وسنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). إنه بحث وتنقيب في أتمات الكتب والمصادر الأصلية للتاريخ الإسلامي، ومقارنة بين الأخبار والروايات في المصادر المختلفة، وتحليلها وملاحظة الاختلاف أو الاتفاق فيما بينها، وكل ذلك من أجل محاولة الوصول إلى الحقيقة التاريخية؛ ولهذا الغرض لا يتردد المؤلف في دحض مقولات وآراء ذاعت وشاعت عن طريق إخباريين ورواة غلبت عليهم عاطفتهم أو نزعاتهم المذهبية؛ كما لا يتردد في الدخول إلى مناطق حساسة من تاريخ صدر الإسلام تتعلق بالعلاقات بين كبار الصحابة ومواقفهم في مراحل مختلفة من مجريات الفتنة التي أدت إلى مقتل خليفة المسلمين على أيدي أفراد من رعيته من المسلمين.

المؤلف

يلي هذا الجزء، جزء ثان يتناول موضوع حرب الجمل بين علي وعائشة، وجزء ثالث يتناول معركة صفين التي آلت إلى نهاية عهد علي

